THE PATH TO KRISHNA

الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة
فرع الرحلة المعاصرة 2022 - 2023

الطريق إلى كريشنا

رحلات في كشمير والهند

سناء كامل أحمد شعلان

الطريق إلى كريشنا

رحلات في كشمير والهند

الطّريق إلى كريشنا... رحلات في كشمير والهند/ رحلات
سناء كامل أحمد شعلان / مؤلّفة من الأردنّ
الطبعة الأولى، 2023

حقوق الطبع محفوظة ©

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص.ب: 44480،
الإمارات العربيّة المتّحدة
هاتف: 6447474 2 00971
فاكس: 6449797 2 00971
E-mail: alrihla@gmail.com

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة – شارع ميشال أبي شهلا – متفرع من
جسر سليم سلام – مفرق الجامعة اللبنانية الدولية
LIU – بناية النجوم – مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 – 707891 1 00961
بـيـروت – لبـنـان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
تصميم الغلاف: **ناصر بخيت** / السودان
خطوط الغلاف: **محمد نجيب بربور** / سورية
الصفّ الضـوئـيّ: **المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر**/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديمو برس** / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.
جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

رقم الناشر الدولي: ISBN: 978-614-486-418-0

الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة
فرع الرحلة المعاصرة 2022 - 2023

الطريق إلى كريشنا

رحلاتٌ في كشميرَ والهند

سناء كامل أحمد شعلان

يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجرّاح

«فنّ الرّحلات ذكوريّ بالدّرجة الأولى من حيث التّأريخ له؛ لأنّ الرّجل كان صاحب الحظوة في خوض غمار تجارب السّفر بحكم ذكورته المسيطرة التي فتحت الآفاق له، وتركت المرأة محبوسة على رعاية البيوت والأطفال والحقول، لكن المرأة قرّرتْ أخيراً أن تكتب».

نصّ الرّحلة: ص 26

«يزعم بعض الدّارسين أمثال المؤرّخة الهنديّة الشّهيرة «روميلا ثابر» أنّ هناك أكثر من 300 مليون إله وإلهة في الهند؛ فالهنود الهندوس يعبدون كلّ شيء أكان مفيداً أم ضارّاً، مهمّاً أو تافهاً؛ فهناك إله لكلّ شيء عندهم، حتى اعتقدتُ أنّ الزّفرة والنّظرة والغفوة والصّبوة لها إله عندهم».

نصّ الرّحلة: ص 255

«السّفر في الجغرافيا هو في حقيقة الحال سفر في التّاريخ والثّقافة والإنسان والتّجربة والخبرات، كما هو اكتشاف للذات؛ ففي كلّ مرّة أسافر فيها أكتشف نفسي مرّة تلو أخرى».

نصّ الرّحلة: ص 22

«هذه الكتابة التّوثيقيّة لرحلاتي وأمّي في كشمير والهند هي بقلمي من حيث الكتابة والرّسم اللّغويّ والتّوثيق السّرديّ، لكنّها في حقيقة الحال هي نتيجة المعايشة الثّنائيّة لي ولأمّي في هذه الرّحلات، وهي تجسيد لانطباعاتي وانطباعتها، ورصد لمشاهداتي ومشاهداتها، ونقل أمين لما حدث معي ومعها في هذه الرّحلات».

نصّ الرّحلة: ص 27

استهلال

تهـدف جـائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة إلى تشـجـيع أعـمـال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات واليوميات، وهو ميـدان خطيـر ومـهـمل، وقـد تأسـست الجـائزة إيماناً من «المركـز العـربي للأدب الجـغـرافي -ارتيـاد الآفـاق» و«دارة السـويدي الثـقـافيـة» بضـرورة الإسـهام في إرساء تقاليـد حرّة في منح الجوائز، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري، بما يؤدي بالضـرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربيـة والإسلاميـة الموجود في كنف المكتبـات العربيـة والعالمية، وإخراجه إلى النور، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان، والسفر فيه، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر، من خـلال أدب الرحلة بصـفـتـه من بين أبرز حـقـول الكتابة في التراث العربي، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات. مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشـهدها العالم، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن «الآخر» في مختلف الجـغـرافـيـات التي ارتادها رحـالتـهـم وجـغـرافـيـوهم ودوّنوا انطبـاعـاتهم وتصوراتهم الخاصة بهم عن الحضارة الإنسانية والاختـلاف الحضاري حيثما حلّوا.

في دورتها هذه كما في دوراتها السابقة تواصل الجائزة التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة، من جهة، وتشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم المعاصرة في السفر، وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة.

***

مكتبة عربية متنامية لأدب الرحلة، حركة دؤوبة، موسيقى لا تهدأ، وصخب لا ينتهي، وسطور الرحالة مدونات هي لوحات فنية مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات، حدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف يرتادها عاشق مغامر كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة. وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها، بل يستغرق في ملامحها، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها وكأنه يتأمل نفسه في مراياها. تلك هي الرحلة، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان.

***

بدأنا برحلة، وقلنا إننا سنختم معاً مائة رحلة، أما وقد تجاوز عدد الكتب الثلاثمائة، فأي معجزة هذه وقد تحول مشروع «ارتياد الآفاق»، بولوج عقده الثالث، إلى خزانة منظورة لأدب الرحلة في الثقافة العربية.

إنني لأحيي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة، فرسانا امتطوا صهوات الجياد واقتحموا غمار الموج، سالكين دروب الدهشة والخطر؛ وأتطلع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرحالة المعاصرين، الذين واكبوا مشروع «ارتياد الآفاق» وتألقوا في مسالكه. أطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكتب، وهي تنقلنا بين المدن والبلدان والقارات، هؤلاء هم غواصو لآلئ الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل. إنهم ثروة الأمة من الناظرين في كل جهات الأرض، وسفراؤها إلى العالم، العائدون بالرؤى والمعارف والخبرات، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر بصفته أنا أخرى وشريكا على هذا الكوكب.

في أسواق المدن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطات القطار نمر بألوان من كتيبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السفر. هذا شيء آخر غير أدب الرحلة؛ واليوم، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها، بل أفردت لها رفوفا خاصة بها.

الرحلة، كما آلت إليه، سفر في الأرض وسفر في المخيلة، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود.

***

تَهْدفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوص مجهولةٍ لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهمٍ وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

***

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسم صور دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة

ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المُنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلِّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

***

أخيراً، لا بدّ من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة أفردت، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ

مـقـرونةً بالمُتـعـةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعـمـور في أربع جـهـات الأرض وفي قـارّاته الخمس، وتجمع إلى نشـدان معـرفـة الآخَـر وعـالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

***

خـتـامـا، أحـيي رحـالـة مـن طراز آخـر، أولئك المثـقـفين المبـدعين القائمين على مشروع ارتياد الآفاق والعاملين فيه والمتحلقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية بقدرات المغامرين من العلماء ودأب المستكشفين، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها كما يرجع الغواصون باللآلئ، وسهروا على فك رموزها وتحقيقها وإخراجها إلى النور ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة ما تزال عناوينها تتوالى وسلاسلها تتعدد، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تبرهن من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب أنها ثقافة إنسانية فتحت نوافذها على ثقافات العالم وتجارب شعوبه، ودون رحالتها مشاهداتهم وثائق أدبية وتاريخية ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السفر.

فهنيئا للقارئ العربي الجاد بهذه المكتبة الجديدة، وللأجيال التي ستقرؤنا بعد مائة عام.

محمد أحمد السويدي

الطّريق إلى كريشنا

(رحلات في الهند وكشمير 2016-2017م)

الفِهْرِستْ

الفِهْرِستْ 15
إهداء 21
شكر وامتنان 23
المقدّمة 25

الرّحلة الأولى: أمّ بطبوطة تصلّي في جبال الهيمالايا 33
(رحلة في كشمير وجبال الهيمالايا)
بطبوطة وأمّها نعيمة المشايخ 37
كشمير الجنّة المحترقة 43
جبال الهيمالايا 45
سحر كشمير 51
حدائق المغول ونساء كشمير 56
ماعز الكشمير 60
الحجّ الهندوسيّ في جامو 62
إنّه نبيّ 65
لقائي بمسلمي كشمير 67
كشمير الجريحة 71
كشمير عندما تغنّي رغم أنف الحزن 74
طعام دون بهارات 75
بهار العشّاق 77
الشّاعر الحزين 79

الرّحلة الثّانية: أمّ بطبوطة تعاتب أبا بطبوطة 83
(رحلة في آغرا)
أمّ بطبوطة تعاتب أبا بطبوطة 87
الضّريح الذي يكاد يموت 98
القرود والموز 99
«تاج محلّ» من حديقة «ضوء القمر» 100
الحمراء الفاتنة 101
مقهى الوجوه المحترقة والقلوب الذّائبة 102
المدينة العطشى 106
عليجراه: الرّحلة التي لم تكن 107
الأمير الهنديّ الذي انتظرني عند بوابة «تاج محلّ» 109
بطيخة تعويضاً عن الأمير 112
ثورة المراحيض 114
المرحاض: قصّة حبّ 118
عبيد المراحيض 119

الرّحلة الثّالثة: أسعد وداوود ابنا أمّ بطبوطة 121
(رحلة في نيودلهي)
أحلام الأريكة 125
مجيب الرّحمن ملك الإجابات 129
شاي «الكرك» وأشعار «كبير» 141
الهنديّ المسلم النّبيل 144
أمير «الشّيرواني» 154

أريد أن أصبح أميرة هنديّة	155
الرّأس الهنديّ المدلّل	162
الرأس الرّاقص	166
الهند كلّها في الأسّواق	169
فاكهة «يد بوذا»	171
فاكهة الإخلاص	175
أسواق الأحزان	182
صاحب القلب الشّجاع سيظفر بالعروس	188
أين الفيل؟	193
الحيوانات المسالمة	198
كروش وكروش	202
داء الرّكب لا علاج له	205
ألف طبق وطبق	208
الأحمر بالأحمر والبادئ أجمل	214
أبو بطبوطة ينتحر في الهند	221
زوجة دون سرير	227
أسعد وداوود ابنا أمّ بطبوطة	234
فرسان العربيّة في الهند	236
صوت القلب	241
متحف البشر والمعمار والحياة	246
صوت الرّوح في المسجد الأحمر	248
بوّابة السّحر	251
المنارة الحارسة	253

إله الذّهب 255
إله الكذب 262
الوليّ المبارك 267
الطّريقة البطبوطيّة 270
غابة من الألسن وأدغال من اللّغات واللّهجات 273
وداع أسعد وداوود في الغابة 278

الرّحلة الرّابعة: أمّ بطبوطة تفتح مدينة «كلكتا» 283
(رحلة في كلكتا)
مدينة السّعادة 287
عيد بعد عيد 291
أمّ بطبوطة تفتح مدينة «كلكتا» 293
«الشّيروانيّ» من جديد 296
هل تظنّ أنّني هنديّ؟ 300
هل تريدون التقط صورة معي ومع أمّي؟ 303
عُبيد الرّحمن البخاريّ ابناً لأمّ بطبوطة في مدينة السّعادة 306
استحمام التّعاسة في مدينة السّعادة 313
إله للبيع والذّبح 317
أحرم قلبي وحجّت نبضاتي 321
رائحة شواء لحم 324
الرّكض وراء السّعادة 327
نصير النّاموس 330
الإنسان الحصان 331

«الماهاراجا» الذي نبذني 336
طوق من زهور «غيندا» 340
الدّخول في مغامرة التّناسخ 343
رحلات في مدينة السّعادة 346
«اليوغا» حتى «النّيرفانا» 351
عيد الأنوار «ديوالي» وظلمة الرّوح 356
«ماندالا» دون «النّيرفانا» 358
الرّجل الخاشع للغّة العربيّة 360
الطّيران بالأشكال جميعها 364
الهبوط في أرض الذّكرى 366

إهداء

إلى أمّي أمّ بطبوطة الرّاحلة الطّاهرة (نعيمة المشايخ) التي أذابتْ ثلج الهيمالايا بحرارة صلاتها وتضرّعاتها، وصدحت الفضاءات بصوتها، وهي تردّد: الله أكبر.

شكر وامتنان

شكر وامتنان وقافلة أطواق ياسمين وأسراب زهور ونيازك وشموس لمساهمتهم الكبيرة والمخلصة في تدوين هذه الرّحلة:

الأديب النّاقد: عباس داخل حسن

أ. د مجيب الرّحمن

أ. د محمد ثناء الله النّدويّ

أ. د محمد إشارت علي ملاّ

د. عرفاني رحيم

د. أورنك زيب الأعظميّ

الباحث أ. أسعد جمال

الباحث أ. عُبيد الرّحمن البخاريّ

الباحث أ. توصيف أحمد بت

الباحث أ. داوود فيصل

مقدّمة

لا أحبّ الكتابة عن رحلاتي، لكنّني أفضّل أن أعيشها، وأن أنغمس فيها حدّ التّلاشي في تفاصيلها دون أن أنشغل بتسجيل وقائعها، أو توثيق أحداثها في كتب خاصّة بذلك؛ وهذا كان السّر الأكبر وراء استمتاعي بالرّحلات، وبذلي النّفيس والأنفس لأجل القيام بها مسكونة بفكرة معايشة البشر وحيواتهم، واقتناص أعمار أخرى فوق عمري الهبائيّ مقابل أعمار البشريّة وعمر هذا الكوكب الضّائع المجهول في كون لا أحد يعرف حقيقة حدوده ومجاهله.

لقد تعلّمتُ في السّفر أن أرهف مشاعري وحواسي لكلّ ما يدور حولي، كما تعلّمتُ أنّ السّفر في الجغرافيا هو في حقيقة الحال سفر في التّاريخ والثّقافة والإنسان والتّجربة والخبرات، كما هو اكتشاف للذّات؛ ففي كلّ مرّة أسافر فيها، أكتشف نفسي مرّة تلو أخرى، كما تعلّمتُ أنّ اكتشاف الذّات والإنسان هي مهّمة شاقّة ومخيفة وغير مأمونة المآلات، تماماً كما هي تجربة لذيذة لا تدانيها أيّ لذّة خلا تفتّق الرّوح والجسد عن ولادة إنسان آخر.

لكن هذه الخبرات جميعها لم تغرني على امتداد سنين طويلة بتوثيق رحلاتي وأسفاري وخبراتي في وثيقة سرديّة مكتوبة، إلى أن نجح صديقي اللّدود الأديب والنّاقد العراقيّ عبّاس داخل حسن في أن يقنعني بذلك، ولا أعرف كيف استطاع ذلك؟ وأنا من كنتُ أصرّ على رفض الكتابة في هذا الأدب، وأختزل تجربتي كاملة فيه في صور

فوتوغرافيّة التقطها في رحلاتي، وأجيب كلّ مَنْ يقترح عليّ تدوين رحلاتي على امتداد عقدين من الزّمان أو ينيف، بأنّني لا أحبّ أدب الرّحلات، كما أمقت أدب السّيرة الذّاتيّة.

لكن تعويذة سحريّة ما من صديقي عبّاس داخل حسن قد جعلتني أمسك قلمي، وأبدأ في الكتابة، عندها فقط بدأتُ أعود إلى تجربتي كاملة، و طفقتُ أخرج ما في جعبتي من عجائب السّفر، وغرائب الرّحلات، ومُلح التّطواف في أرض اللّه الواسعة الصّغيرة في آن، وراق لي أن أشارك القارئ بتجربة الصّداع المزمن العذب الذي اسمه التّرحال والرّحلات.

لعلّ فنّ الرّحلات هو فنّ ذكوريّ بالدّرجة الأولى من حيث التّأريخ له؛ إذ كتب الرّجال الرّحالة في هذا الفنّ أكثر ممّا كتبت المرأة فيه؛ لأنّ الرّجل كان صاحب الحظوة والكأس المعلّى في خوض غمار تجارب السّفر بحكم ذكورته المسيطرة التي فتحت الآفاق له، وتركت المرأة محبوسة على رعاية البيوت والأطفال والحقول، لكن المرأة قرّرتْ أخيراً أن تكتب في هذا الحقل عندما شدّت رحالها أنّى شاءت السّفر، وكانتْ لها رحلاتها الخاصّة، ومشاهداتها المتفرّدة، بعيداً عن سجون الأنوثة، ووصايات الذّكورة.

هل للمرأة عينان مختلفتان عن الرّجل في الرّؤية والاكتشاف؟ الإجابة التي أؤمن بها، هي أنّها تملك عينين مختلفتين؛ لذلك تكتب بشكل يختلف عمّا قد يكتب الرّجل به في الشّأن ذاته؛ لأنّها ترى بطريقتها الخاصّة، وتحاكم العالم انطلاقاً من حقيقة وجودها وتكوينها، وتكتشف كلّ شيء بحكم دهشتها، مفارقة الواقع المتكشّف لاعتيادي تفاصيل حياتها.

تجربتي الأنثى في تدوين رحلاتي إلى كشمير والهند هي في حقيقة الحال تجربة أنثويّة مزدوجة؛ إذ عاينتُ هذه التّجربة عبر أكثر من رحلة في العامين 2016- 2017 مع والدتي المرحومة الأديبة نعيمة المشايخ التي رافقتني في هذه الرّحلة، لنخلق سوّياً تجربتنا الاستثنائيّة في هذا الصّدد؛ فهي رحلة المرأة مع المرأة، والأمّ مع الابنة، والابنة مع الأمّ، والكاتبة مع الكاتبة، والمبدعة مع المبدعة في اكتشاف عوالم أخرى، ومجاهيل إنسانيّة مغرقة في أدغال الوجود البشريّ المعقّد الملغز.

لذلك هذه الكتابة التّوثيقيّة لرحلاتي وأمّي في كشمير والهند هي بقلمي من حيث الكتابة والرّسم اللّغويّ والتّوثيق السّرديّ، لكنّها في حقيقة الحال هي نتيجة المعايشة الثّنائيّة لي ولأمّي في هذه الرّحلات، وهي تجسيد لانطباعاتي وانطباعتها، ورصد لمشاهداتي ومشاهداتها، ونقل أمين لما حدث معي ومعها في هذه الرّحلات.

لا أبالغ في القول إنّ ما كتبته بقلمي في هذه الرّحلة، ما هو إلاّ صدى صوت أمّي، وهي تحدّث الأقارب والأهل والأصدقاء والجيران عن رحلاتها بصوتها الحنون المنفعل المتحمّس الذي يريد أن ينقل للمستمع لها كلّ ما رأى، وسمع، وأحسّ.

فعيون أربعة ترى الكثير إنْ كانتْ ملك بالتّساوي لأمّ وابنتها، وأيّ أمّ؟ وأيّ ابنة؟ إنّها أمّ رؤوم تطوف الدّنيا مع ابنتها بقدميها الموجوعتين كي لا تفارق ابنتها، وإنّها ابنة تحبّ أن ترى العالم بعيني أمّها، وعندما ترى دهشة الاكتشاف فيهما تشعر بأنّها أعظم فاتحة في الكون.

هذه الرّحلة هي سياحة في تجربة بنوّتي لأمّي، بقدر ما هي تجربة رفقة الأمّ لابنتها الرّحالة، وترّحلها لأجلها، لا لأجل الاكتشاف والمغامرة والمعرفة حسب، كما هي سياحة إنسانيّة في أرواح بشر

قابلتهم، وأفاضوا عليّ في هذه الرّحلة بأوقاتهم ومعارفهم وعلومهم ومحبّتهم، وأدخلوني إلى عوالمهم مكرّمة معزّزة، وشاطروني الدّرب، وعطّروه لي بصحبتهم الزّكيّة المخلصة، فالشّكر الكبير للأرواح الجميلة التي رافقتني في هذه الرّحلات بكلّ محبّة وعطاء: أ. د مجيب الرّحمن، وأ. د محمد ثناء الله النّدويّ، وأ. د محمد إشارت علي ملاّ، ود. محمد أشرف علي، ود. عرفاني رحيم، والباحث أ. أسعد جمال، والباحث أ. عُبيد الرّحمن البخاريّ، والباحث أ. داوود فيصل.

أمّ بطبوطة وابنتها بطبوطة رحّالتان من طراز خاصّ؛ ولهما تجارب مختلفة في التّطواف في أرض الله؛ إذ الأمّ وابنتها تعاينان الحياة معاً، وتعيشان التّجربة ذاتها، وتقتسمان المشاعر المتولّدة عينها؛ فتتحوّل أمّ بطبوطة إلى حكّاءة شعبيّة تروي مشافهة ما رأتْ لمن حولها، وتروغ ابنتها بطبوطة إلى القلم والورق لتسجّل مشاهداتهما وتجاربهما في سِفْر الكلمة؛ لتكون وثائق مشاهدات حقيقيّة منغمسة في تجارب إنسانيّة خاصّة في عالم أصبح متاحاً كاملاً صوتاً وصورةً بمجرّد الضّغط على أيّ محرّك بحث في العالم الإلكترونيّ الافتراضيّ في الشّبكة العنكبوتيّة التي ما تركتْ للرّحالة من دهشة، سوى دهشة التّلقّي والمعاينة والتّفاعل وتكوين الانطباع ومعايشة اللّحظة، في حين استولتْ هي على رصد الحقائق صورة تلو صورة، بتسجيل مرئيّ كامل عزّ نظير في الماضي في زمن الرّحالة القدامى.

عندما شرعتُ في تدوين رحلتي هذه في كشمير والهند عرفتُ سبب هروبي الدّائم من الكتابة في أدب الرّحلات؛ لعلّي لم أرغب يوماً في أن أفتح باب نفسي على العلن، وأن آخذ القرّاء إلى حياتي الشّخصيّة، وإلى مكابداتي الذّاتيّة، وأن أشاركهم كثير دموعي ووجعي

وخيبات أملي وقليل فرحي وبهجتي؛ ضنّاً بهم على الحزن، وهم مَنْ يعتقدون أنّ الرّحلات هي فرح موصول، وسعادة كاملة، وتجربة محمّلة بالهدايا والمفاجآت السّارة، وكلّ ما لذّ وطاب، في حين أنّ الحقيقة عكس ذلك في معظم الأوقات.

لكنّني اكتشفتُ فيما بعد أن المشاركة في التّجربة هي تجربة جديدة أخرى، ورحلة ممتعة جديدة لا أريد أن أحرم نفسي منها، كما لا أريد أن أحرم غيري منها.

لقد كنتُ هناك، والآن أنا هنا. أين يكون هناك؟ وأين يكون هنا؟ لا أحد يعرف؛ فالعالم ثابت، والرّؤى مختلفة، وهنا تكمن اللذّة.

سناء كامل أحمد شعلان (بنت نعيمة)

في كشمير والهند حيث العينان تتّسعان، والرّوح ترحب، والدّهشة تتعمّق

أمّ بطبوطة وبطبوطة

الرّحلة الأولى

أمّ بطبوطة تصلّي في جبال الهيمالايا

(رحلة في كشمير وجبال الهيمالايا)

«إذا مــــا متُ في يومٍ جـــــمــــيل
ســــأبغي منكَ إغــــلاقَ عـــــيني؛
لذا أمـــسكي يدي بشكّل مـــتين»
الشّاعر الكشميريّ: نور محيي الدّين

بطبوطة وأمّها نعيمة المشايخ:

عندما وصلتْ أمّ بطبوطة (أمّي نعيمة المشايخ) إلى قمّة جبل «غلمرغ» في جبال الهيمالايا آمنتُ بأنّها جبال مقدسّة مباركة، ليس عند الهندوس والبوذيين حسب، بل وعندي أيضاً؛ لأنّ قدمي أميّ أمّ بطبوطة قد وطأتها بعد طول تردّد منها ومنّي للقيام بهذه الزّيارة السّحريّة الجميلة في أرض الله الجميلة المعلّقة فوق الجبال حيث أرض الفردوس المفقود.

عندما نظرتْ أمّي في ذلك الفضاء الثّلجيّ البارد الذي يتمدّد على أعالي الجبال في كشمير الهنديّة، وطارتْ نظراتها نحو أسفل الشّواهق التي تسلّقنا في رحلة الصّعود إلى إحدى قمم جبال الهيمالايا، بلعتْ ريقها بصعوبة والبرودة تلفح قسماتها، وصدحتْ بـ «الله أكبر» مجلجلة الصّوت دهشة منها ممّا رأت حولها من عجائب الثّلج والبرودة والجمال والارتفاع الباذخ، ثم بدأتْ تصلّي صلاة الظّهر حاضرة على الثّلج بخشوع حارّ شعرتُ أنّه يذيب صقيع الثّلج حيث يسجد جسدها الحنون الطّيب المترع بحرارة الإيمان والأمومة.

عندما كانت أمّي تصلّي فوق الثّلج، كنتُ أراقب جسدها الطّيب المنهك بأمومة عريضة عمرها أربعين عاماً لاثني عشرة ابناً وابنة تفانتْ في تربيتهم ورعايتهم والعطف عليهم، وتذكّرتُ تلك الشّتاءات القديمة عندما كانتْ تدسّ أيدينا الباردة الصّغيرة في صدرها كي تدفئنا بجسدها بعد أن نعود إلى البيت متجمدي الأكفّ من اللّعب في

الثّلج، ثم تضمّنا اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة إلى جسدها بقدر ما يتسع حضنها لضمّة جماعيّة؛ كي تفيض على أجسادنا الباردة بدفء أمومتها الغامرة.

هذا الثّلج البارد المترامي في كلّ مكان حتى الأفق يحتاج ألف عام من حنان أمّي كي تذيبه كلّه. لكن ما حاجتي لأن تذيبه أمّي؟ ونحن من جئنا من البعيد، وتجشّمنا الصّعاب والمشاق والتّعب كي نراه، ونطأ بياضه الصّارخ، ونهتف بانتصار وغرور: نحن هنا. بذلك أكون وأمّي أوّل امرأتين من أسرتنا تصلان إلى هذا المكان الأسطوريّ القداسة والقدم، على الرّغم من عدم رضا أمّي على ترحالي المستمرّ الذي أصابني مسّ ولعه من سنين، وما تركني من لحظتها أهنأ باستقرار، أو أرضى بركون لمكان واحد، وطوّف بي في بلاد الأرض، وعرّفني بالعباد، وعلّقني مرّة تلو الأخرى بين السّماء والأرض.

أخذتُ نفساً عميقاً، ثم صرختُ بعمق صوتي: أنا هنا. فردّدت الجبال والوديان صوتي السّعيد المتحدّي، ثم عمّ الصّمت الملغز من جديد، وظللتُ أنتظر أن تنهي أمّي الورعة صلاتها التي لا تفوّتها أبداً مهما كانت الأسباب لأجل أن نكمل رحلتنا في قمّة الجبل الممتّدة في مساحة كبيرة.

أسميتُ أمّي (نعيمة المشايخ) في رحلتي هذه بأمّ بطبوطة مداعبة لها؛ وهي مَنْ كانتْ تطلق عليّ لقب ابنة بطبوطة التي تسافر دون توقّف، وتخلف وعدها لأمّها بعدم السّفر مرّة تلو الأخر لتعلّق روحها بالتّرحال والسّفر والتّطواف والتّجوال في بلاد اللّه من منطلق المقولة الشّهيرة «مَنْ أحبّه الله أراه بدائع كونه وجمال مخلوقاته»، والله العظيم في علاه يحبّني وأمّي دون شكّ؛ لأنّه مَنّ علينا بالتّرحال في أرضه،

ويسّر لنا ذلك على ما فيه من طبائع المشقّة، وصعوبة المغامرة، وخطورة المجازفة، وأفاض عليّ بفرح رفقة أمّي لي في الكثير من رحلاتي، هذا أمر قلّما يتيسّر لرحّالة أو طالب علم مثلي، لا يفتأ يبحث عن ضالته الحكمة في كلّ مكان، وأنّى وجدها أخذها دون تردّد.

لطالما قلتُ لأمّي ضاحكة محتجّة: أنا ابنة بطبوطة لا بطّوطة، فاسم الرّحالة الشّهير هو ابن بطّوطة، ومن الطّبيعيّ أن تكون ابنته تحمل اسم ابنة بطّوطة لا بطبوطة، فتضحك أمّي، وتغمزني قائلة: حقّاً أنتِ بطبوطة، بطبوطتي أنا، بطتي الصّغيرة الجميلة التي تحبّ أن تبتعد عن أمّها البطّة الكبيرة، وتجوب في الأرض بحثاً عمّا لا أعرف ما يكون، وتتركني حزينة قلقة في انتظار عودتها.

لكنّني في رحلات هذه إلى كشمير والهند، صممتُ على أن ترافقني أمّي فيها، فنزلتْ عند إلحاحي هذا رغبة منها في أن تكون إلى جانبي في ترحالي، وهي مَنْ يسكنها الجزع كلّما تركتُ ديارها وبيتها وأسرتها، وسافرتُ نحو البعيد عنها.

لقد شجّعتها على هذه الرّفقة على الرّغم من آلام القدمين والظّهر التي تبرّحها منذ سنوات رغبة منّي في أن أتبرّك برفقتها لي، وأسميتها أمّ بطبوطة استفزازاً لكوامن أسرار أمومتها ورغبتها في الاكتشاف، وشجّعتها على رفقتها لي في التّرحال بوصفها أوّل أمّ ترافق رحّالة في ترحالها؛ لتنقش بذلك اسم نساء عائلتها في تاريخ الرّحالة والمستكشفين وأهل التّجوال، وهي مَنْ تحبّ العلياء وسنام كلّ بركة وخير ومجد، إلاّ أنّ أمّي كانت تهزّ رأسها ساخرة ممّا أقول، وغير مبالية بأهميّته، ومؤكّدة أنّه لا يعنيها من رؤية ديار الله وخلقه سوى أن تكون معي لتدعمني، وتحميني، وهي مَنْ تعتقد أنّها تستطيع أن تحميني من

شرور البشر ومفاجآت الطّريق إن كانتْ في رفقتي، فابتسم لاعتقادات أميّ المتفائلة أكثر ممّا يجب، وأصمتُ، وأهمس في أعماقي: الله خير حافظ.

إلاّ أنّني كنتُ أعلم أنّ ترحالي ببعديه العلميّ والأدبيّ بالدّرجة الأولى هو ما يروق لأمّي؛ وهي مَنْ ترى فيه عبادة موصولة في سبيل تحصيل العلم والمعرفة مهما نأت المسافات؛ لذلك يؤجر مَنْ يقوم به، وقد يزيد هذا الأجر إن كان في ميزان أعمال امرأة مثلي تبحث عن الدّهشة حتى في العلم والعلماء، وترى عظمة اللّه في خلقه وكونه، وهي مفتونة بتتبّع مناحي هذه العظمة.

ظننتُ أنّ أمّي سوف تشرع تسأل بفضول عن هذا المكان في قمّة الجبل، إلاّ أنّها نظرت إليّ بغضب وسخط وخوف، وقالتْ بانفعال وجل: الله يلعن أبوكِ. لماذا جئتِ بنا إلى هذا المكان البعيد البارد المخيف. كيف سننزل منه؟ ومَنْ سوف سيدفننا إنْ متنا فيه؟

انفجرتُ بالضّحك، وأنا أسمع سباب أمّي لي، وضحكتْ معي مرافقتي الكشميريّة الجميلة د. عرفاني رحيم التي تجيد اللّغة العربيّة، وتجيد الضّحك من أعماق روحها الشّفافة، فيرتفع صوتها بقهقهة نقيّة تجوب أعماق الوادي، وضحك معنا السّائق الكشميريّ الشّاب اللّطيف الطّيب محمد شاهد دون أن يفهم كلمة ممّا يجري على ألستنا من كلمات باللّغة العربية، وهو مَنْ لا يجيد سوى لغته الأمّ الأورديّة، وبعض فتات الإنجليزيّة، لكنّه يجيد المرح والفرح وحسن المرافقة وجمال الصّحبة.

لم يهدأ روع أمّي إلاّ عندما أخبرتها أنّ أكثر من 90 بالمئة من سكّان كشمير هم من المسلمين، وأنّنا لن نعدم فيهم من يدفننا

بالطّريقة الإسلاميّة، بعد أن يُصلّوا علينا صلاة الجنازة.

لم أخبر أمّي أنّ هذه القمّة -التي تقف عليها في الهيمالايا قلقة على أمر دفننا وفق أحكام الشّريعة الإسلاميّة إن متنا فوقها- تطلّ على قمم أخرى من جبال «التّبت»، حيث تُقدّم جثث الأموات عارية ومقطّعة لنسور الجبال الكاسرة المتوحّشة كي تأكلها بناء على رغبة الموتى وأهليهم؛ إذ إنّ هذا الطّقس الجنائزيّ اسمه «الدّفن السّماويّ»، وهو دفن مقدّس عند البوذيين في «التّبت» الصّينيّة؛ فهم يؤمنون بأنّ تقديم أجساد الموتى للنّسور لتأكلها سيجعل الجسد مفيداً لغيره من الكائنات، ويقرّبه من السّماء حيث ذهبتْ روحه، وهو في جوف النّسور التي أكلته، وبهذه الطّريقة تحلّق أرواح الموتى إلى السّماء نحو الإله عبر وجودها في أجواف النّسور التي التهمتْ أجسادها المقدّمة لها!

يقوم الحانوتيّ البوذيّ بتقطيع جسد الميّت بطريقة وحشيّة، ثم يرميه للنّسور الكواسر، ويتقاضى عن ذلك أجراً كبيراً يكفيه لعدّة أشهر، وتظلّ عظام الميّت وجمجمته مرميّة بإهمال على قمم الجبال.

هذا النّوع من الدّفن السّماويّ مكلف مادّياً؛ لذلك لا يستطيع القيام به سوى الأغنياء، أو من يدّخرون نقودهم بإصرار لأجل أن يدفنوا بهذا الشّكل الذي يمكن اختصاره في أن يعرّوا من ملابسهم، وتُكشف عوراتهم، وتُقطّع أجسادهم كيفما اتّفق، وتُقدّم للنّسور والحيوانات الضّواري.

لقد واجه هذا الدّفن موجات من الاعتراض عليه في الصّين؛ ممّا أدّى إلى تحريمه وتجريمه، ثم عادت الحكومة الصّينيّة، وعدلتْ عن رأيها بضغوط من الجماعات البوذيّة التي رأتْ أنّ حريّة العبادة تحتّم على الدّولة الصّينيّة أن تقبل بمثل هذا النّوع من الدّفن.

سعدتُ لأنّ أمّي لا تعرف عن وجود هذا النّوع من الدّفن الوحشيّ بالقرب منها، وأكّدتُ لها أنّها ستحظى بدفن إسلاميّ إنْ ماتتْ على هذا الجبل أو في دروب مغادرته، أمّا أمر النّزول إلى مدينة «سريناغار» من حيث جئنا سيكون أسهل، وأقلّ خطراً من الصّعود الذي يزداد خطراً بقيادة السّائق محمد شاهد الذي يقود السّيارة التي تقلّ أربعتنا بتهوّر عجيب، هازئاً من وعورة الجبال، وانزلاقات الدّروب المثلّجة، وضيق المنعطفات، وكثافة الأشجار الملتفّة كيفما اتّفق، وصوت الأغاني الكشميريّة الحزينة يصدح من مسجّل سيارته، وأمّي تتشاهد بتسليم كامل للمصير كلما انحرفت السّيارة تجاه منزلق في منحرف ما، وأنا ود. عرفاني الجميلة نضحك من أمّ بطبوطة التي خلعتْ شجاعتها في سهل المدينة، ولبستْ رداء الخوف، وهي معلّقة في هذه الجبال النّائية المنحدرة التي لو شهدتْ حادثاً ما وجدنا منقذاً أو مغثياً فيها.

جبال الهيمالايا هي عوالم ثلجيّة وصخريّة تتقاسمها الحدود بين الهند وباكستان والصّين، وهي تفصل صحارى الهند الرّمليّة عن المناطق الجافّة الدّاخليّة، وبالقرب منها تظهر الصّحارى الجافّة والأراضي العشبية الممتدّة عبر الأراضي الصّينيّة ومنغوليا، وهي بيئة قاسية بكلّ ما في كلمة قاسية من معنى.

السّير فيها، وتسلّقها فيه ما فيه من المباهج والمخاطر والتّحدّيات والصّعوبات والمفاجآت، وأنا أقنعتُ نفسي بأنّني خبرته في رحلتي إليّه، وأنا مَنْ لم تقضِ فيه إلاّ يوماً واحداً من حياتها، وتسلّقت إحدى قممه بسيارة حديثة، ثم أكملت تسلّقه بوساطة قدمي في مكان غير خطر ومألوف، وتعجّ فيه الأكواخ الخشبيّة التي تتنوّع بين فنادق صغيرة أو مقاهٍ أو مطاعم أو أماكن لتقديم الخدمات، وتأجير أدوات التّزلّج

والتّسلّق والألبسة والأحذية المناسبة للثّلج، في حين أتدثّر أنا بمعطفي الشّتويّ الرّقيق الذي لا يستطيع أن يصدّ عني البرودة بشكل كافٍ، وأراقب المكان من تحت قبعة معطفي مثل صغير أرنب يتوارى من البرد.

كشمير الجنّة المحترقة:

لم تكن كشمير من ضمن الأماكن المعلنة لأمّي لرحلتنا إلى الهند، لكنّني ما كدّت أصل إلى الهند حتى صممّتُ على زيارتها، على الرّغم من قلق أمي وأصدقائي الهنود من القيام بهذه الرّحلة بسبب الأوضاع الأمنية القلقة في ذلك الإقليم منذ عام 1947 بسبب حروب النّزاعات عليها بين الهند وباكستان والصّين، وأحلام الاستقلال لأهلها الخليط من أعراق مختلفة.

هي ليست الوجهة الوحيدة القلقة في الهند؛ فهناك «ولاية أوريسا» التي فيها صراعات طائفيّة بين شتّى الأديان الموجودة فيها، ويشيع فيها النّهب والسّلب في ظلّ فقرها وكثرة البطالة فيها، كما أنّ الوضع الأمنيّ في ولاية «تشاتيش غراه» قلق كذلك بسبب وجود معسكرات للمناوئين فيها، والحال ذاته يتكرّر في ولاية «آسام» التي تشهد حالات تمرّد مستمرّة.

لكنّني صممتُ على القيام بهذه الرّحلة كي تقتنص عيناي الجمال الأرضيّ المولعة أنا برؤيته، والجري خلفه دون انقطاع، وقد اغتنمتُ فرصة بعض الهدوء الأمنيّ السّانح في المنطقة بعد موجة من التّفجيرات والعمليّات العسكريّة الدّامية فيه طوال الأسبوع المنصرم من زيارتي لها، وفتح أبواب المطار في العاصمة «سريناغار» لزيارتها بعد

إغلاقها لفترات متقطّعة بسبب الأحداث الدّامية فيها، فطرتُ وأمّي إلى مطار «بالام» للرّحلات المحليّة كي أحلّق نحو «كشمير»، وكان وجه صديقي أسعد جمال هو الوجه الأخير الذي ودّعنا في «نيودلهي»، ونحن نسير نحو قاعة المغادرين.

كشمير هي جنّة الأرض المحترقة بالحروب والمحاطة بالنّيران والصّراعات والجنود، وهي تقع في القسم الشّماليّ من شبه القارة الهنديّة، وهي جزء من ثلاثة مناطق أخرى تمّ تقسيمها بين القوى الثّلاثة المتصارعة: الهند وباكستان والصّين، ومنذ تقسيم الهند وقيام دولة باكستان عام 1947، سيطرت الهند على إقليم «كشمير وجامو»، وهي المنطقة الأكبر مساحة والأكثر سكّاناً، أمّا باكستان فقد سيطرتْ على الجزء الثّاني من الأقاليم الثّلاثة من حيث المساحة ليُعرف باسم ولاية «كشمير الحرّة»، أما الجزء الثّالث الأصغر مساحة، فيقع في الصّين، ويعرف باسم «أكساي تشين».

منذ هذا التّقسيم الموجع لهذه الجنّة الجميلة غرقتْ جنّة كشمير الممزّقة في حمّامات من الدّم والحزن وآلام الفرقة والتّقسيم وصراعات السّلطة والنّفوذ والمغانم بين الهند وباكستان والصّين وأحلام تحرّر الكشميريين من السّيطرة الأجنبيّة والانفصال عنها، وغدتْ تؤرّخ أزمانها بالموت والاغتيال والمعاناة والحروب المتتاليّة التي تهدّد بحرب نوويّة في المنطقة جراء التّنافس النّوويّ بين الهند وباكستان، الأمر الذي أدى إلى قتل أكثر من 100 ألف كشميريّ، واغتصاب أكثر من 10 آلاف امرأة عبر ثلاثة حروب مدمّرة، أدّت إلى خسائر عملاقة في الإنسان والمكان، وأجّجت الخصام إلى حدّ الوصول إلى التّسابق في التّسلّح النّوويّ، وجعلتْ طبول الحرب جاهزة في أيّ لحظة لقرعها

لحرب رابعة مدمّرة قد تكون حرباً نوويّة بين ثلاثة دول نوويّة متنازعة ومتلاصقة الحدود.

تبلغ مساحة إقليم «جامو كشمير» الذي تسيطر الهند عن 48 بالمئة منه نحو 2220236 كيلو متراً، ويبلغ عدد سكانه نحو 13 مليون نسمة، 90٪ منهم هم مسلمون، أمّا البقيّة فهم من الهندوس والسّيخ والبوذيين والجاينيين.

هذا الإقليم يتكوّن من ثلاث مناطق رئيسيّة، وهي كشمير وجامو ولاداخ، وهي مناطق متباينة من حيث العادات والتّقاليد والثّقافة والدّيانة؛ فالمسلمون يتركّزون في كشمير، والهندوس في جامو، والبوذيون في لاداخ.

يتحدّث سكان الإقليم الكثير من اللّغات، أشهرها: الهنديّة والأورديّة والصّينيّة والسّنسكريتيّة والتّبتيّة، وتعود الأصول العرقيّة لأهله إلى الأعراق التّركيّة والأفغانيّة والمغوليّة والآريّة.

جبال الهيمالايا:

بمجرّد أن هبطتْ قدماي وقدما أمّي في ولاية «جامو كشمير» لفحنا ذلك النّسيم البارد العذب الذي يختلف عن حرارة مدينة «نيودلهي» التي قدمنا منها للتّو، وخطف الجمال الطّبيعيّ أبصارنا، وحبس أنفاسنا.

لقد كان هبوطنا في مدينة «سريناغار»، وهي العاصمة الصّيفيّة للولاية، وأهلها الكشميريّون يلفظون اسمها «سرينغر»، وهي تقع في سهول جبال الهيمالايا على صفاف نهر «جيلوم»، وتسّمى «الوادي السّعيد»، أو «وادي الدّموع»، وقد سألتُ عن معنى اسم «سريناغار»،

فأجابني البعض بأنّها كلمة كشميريّة تتكوّن من مقطعين، وهما «سري» بمعنى محترم، و«نغر» بمعنى مكان، أيّ معناها المكان المحترم.

الدّرب من المطار إلى قلب المدينة ينام في حضن أماكن طبيعيّة خلاّبة، وجمال البحيرات والأشجار والجبال يحشد الفضاء بالدّهشة، والزّهور والطّيور تزخر في كلّ مكان، فتحار العينان ماذا عليهما أن تريا، وماذا عليهما أن تفوّتا.

اقترحتْ د. عرفاني أن تكون وجهتنا الأولى في كشمير نحو قمّة جبل «غلمرغ» في سلسلة جبال الهيمالايا قبل أن ينتصف النّهار، ويقترب منّا ظلام المساء بظلمته وبرده الشّديد، فراق لنا اقتراحها، وتحمّسنا للفكرة؛ لنطير نحو تلك القمّة التي اختارتها حيث أشهر المنتجعات الطّبيعيّة في تلك الجبال.

كان الدّرب إلى قمة جبل «غلمرغ» مخيفاً وموحشاً، والهواء البارد يجمّد أنفاسنا، ويشنّج أطرافنا، ويجفّف عروقنا، إلاّ أنّ جمال القمّة، أنسانا البرد والخوف ومتاعب الرّحلة الطّويلة.

استعرنا من متجر متخصّص في القّمة ملابس فرائيّة وأحذية سميكة مناسبة للمكان، وشرعنا ننزلق على الثّلوج، ونلعب به، ونخطو على الثّلج، فنخور في نحو متر أو أكثر منه، وحشود من السّائحين والكشميريين والهنود تمارس الرّياضات الثّلجيّة في المكان، وصوت الضّحك يعلو إلى عنان السّماء البارد الذي تجوبه عربات «تلفريك جولمارح جوندولا»، وتطلّ به على منحدرات صخريّة مثلجة يبتلعها سواد موغل في الانزلاق، وتلفّه أغوار شجريّة بعيدة المهوى، وهو أطول «تلفريك» في قارّة آسيا، وأعلى «تلفريك» في العالم، وترتفع عرباته حتى تقفز فوق الغيوم حيث قمّة جبل «أفاروات».

صمتْ أزليّ مقدّس يسيطر على المكان على الرّغم من أصوات الضّحك التي تعبق في المكان، إلاّ أنّ هيبة المكان تفرض صمتاً بارداً عجيباً يشقّه صوت نواقيس معبد «مهاراني» الهندوسيّ الذي يحتفل بعيد ما، ولونه الذّهبيّ يتأجّج في البياض الثّلجيّ النّقيّ، ويرافق صوت تلك النّواقيس صوت غناء هنديّ بديع ذكّرني بالأفلام الهنديّة القديمة، وبقصص الحبّ فوق الثّلج، والرّقص الهنديّ الشّهير الذي طبع السّينما البوليوديّة بطابع رومانسيّ خاصّ، وخدع العالم كلّه الذي أعتقد أنّ الشّعب الهنديّ يعيش في رقص وغناء وتمايل عشق ورفاهيّة وبحبوحة وهناء وسلام وعدل، وما درى ما يعيشه من قهر وضنك حياة وغيلاء فقر وجوع واضطهاد ونزاعات.

المعبد الهندوسيّ الذّهبيّ البرّاق المرصّع بالكريستال الملوّن يتربّع على قمّة الجبل، والثّلج يغطّي درجاته الصّخريّة العظيمة التي قدرّتُ أنّها تفوق الألف درجة، وصوت نواقيسه يشقّ جيوب السّماء، إلاّ أنّني أكاد أسمع صوت تسبيحات أمّي تعلو على صوته، وهي مَنْ خافتْ أن تلبس أحذية بلاستيكيّة ذات فراء داخليّ ثخين، وخشيتْ أن تنطلق معنا لتمرح في الثّلج، وآثرتْ أن تبقى تراقبني، وأنا ألهو في الثّلج، وأجمع المعلومات عنه، وآخذ الصّور له، وأستمع إلى حديث مرافقتي الكشميريّة الجميلة د. عرفاني عن وطنها وآمالها وشعبها وواقعها، وجلستْ في السّيارة تحادث السّائق محمد شاهد بحديث طويل مبتكر بطريقة ما، وهي مَنْ لا تجيد الإنجليزيّة، وهو مَنْ لا يجيد العربيّة!

عندما شعرتُ بحرارة النّشاط في أعماقي تتغلّب على برد قمم جبال الهيمالايا -التي أخبرتني مرافقتي أنّها في أدفأ درجاتها السّنويّة، وأنا من أزورها في الرّبيع، لا في الشّتاء القارص البرود- قرّرتُ أن ألبس

ملابس نساء الجبل الكشميريّات، وهي ملابس مزركشة ملوّنة جميلة، تحاكي جمال الزّهور والطّيور والأشجار في كشمير، ولا تنقل برودة الثّلج ونقاء لونه، وأدهشني أنّها ملابس نسائيّة رقيقة غير سميكة لتدرأ برودة المكان، وعلمتُ أنّ نساء المكان قد ألفن البرد والثّلوج والأمطار، إلى حدّ أنّهنّ يشعرن بالدّفء، وهنّ يلبسن الملابس الخفيفة المهفهفة المزركشة الملّونة، ويرتدين عليها بدائع القلائد الجميلة التي تعكس خصوصيّة الذّوق الكشميريّ الرّفيع.

تمنّيتُ حينها لو أنّني أحضرتُ معي إلى الجبل ثوبي الفلسطينيّ ذا الحرير الأزرق أو الأحمر، فقد أحضرتُ معي إلى الهند ثوبين فلسطينيين كي أختال بهما في كلّ مكان أذهب إليه، وأُباهي الفلسطينيّات من أسرتي وشعبي بأنّني أرتدي ثوبي الوطنيّ المقدّس في كلّ مكان أذهب إليه، وأقول للدّنيا كلّها: الفلسطيّنية الرّحالة الباحثة عن الدّهشة والنّور قد جاءتْ إليكم، ومعها أمّها نعيمة المشايخ أيقونة الوفاء الفلسطينيّ والأمومة العظيمة

كم كان ثوبي الفلسطينيّ حارّ التّفاصيل والألق والعروبة سوف يزهو بالمكان! ويزهو المكان به؛ ففيه أجيد أن أتنفّس أعمق، وبه أستطيع أن أصرخ عبر الجبال والوديان والفضاءات الفسيحة: أنا هنا. أمّا أمّي ففيه تبدو آلهة فلسطينيّة خُلقتْ للخلود والبقاء.

من هذا المكان أبدو في أقرب الأماكن إلى السّماء؛ لذلك خطر في بالي أن أرفع يدي إلى السّماء لأدعو الله بما تفيض به نفسي؛ لعلّها تكون لحظات استجابة.

تمنّيتُ من أعماقي أن يوافي دعائي لحظات مطر أو تساقط ثلوج، لكنّ ذلك لم يحدث، فنسيتُ ما كنتُ أريد الدّعاء به، وغدا دعائي

الوحيد في تلك اللّحظة هو أن يتساقط الثّلج على قمّة الجبل حيث أقف.

القمّة السّامقة التي نقف عليها من قمم جبال الهيمالايا ما هي إلا قّمة صغيرة من كنز طبيعيّ من القمم والجبال والشّواهق والأدوية والمنحدرات، وخلف البعيد على امتداد الحدود الهنديّة والباكستانيّة والصّينيّة هناك مجاهيل من الألغاز والأسرار والأساطير والخرافات والحكايا والتّاريخ والمغامرات المدفونة تحت الثّلج والصّخور، وهناك قصص لا تعرف نهاية عن هذا الجبال وهذه القمم التي تتحدّى البشريّة بقوتها وأزليتها.

تترامى على القمم قبائل وشعوب وأقوام تعيش حيواتها على اختلافها وفق فهومها وأفكارها وتجاربها، قاسمها المشترك ضنك الحياة وقساوة الطّبيعة والزّخم في الأساطير والأسرار، وفي كثير من مجاهل الجبال هناك المعابد وأماكن الانقطاع للعبادة ولخدمة الآلهة المقدّسة، وهناك جبال محرّمة على الزّائرين والحياة فيها، مثل جبل «جانجشار بونسوم»، وفي كلّ مكان هناك مرقد لروح من أرواح الأجداد الذين يحظون بتقدس أبنائهم وحفدتهم والمنتسبين إليهم.

الجبال هناك تحتضن أحداثاً كثيرة، بعضها حقيقيّ، والآخر منها مزوّر مُفترى، والكثير منها مختلف في شأنه، فهناك أنوار خفيّة، ومناطق مغناطيسيّة، وجبال تستعصي على تسلّقها بحجّة أنّها ملعونة بالأرواح التي تحرسها، وكنوز مدفونة، وكهنة يعيشون حياة الاعتزال والتّخفّي، وآثار لكائنات غريبة وحيوانات أسطوريّة ضخمة، وهناك مدائن ضائعة فيها، وشعوب مجهولة تسكنها، وحركات مزعومة في مواقع الجبال، والكثير من الرّوايات التي يتناقلها الزّائرون عن المكان

بروايات صحيحة أو موضوعة، وذلك كلّه لا ينقص من جمال الجبال وسحرها الأبيض الملغز.

أمّا رجل الثّلج الأسطوريّ، أو غول جبال الهيمالايا، فهو الخرافة الأكثر مداعبة لمخيلات السّياح والرّحالة والزّائرين والمستكشفين والسّكّان المحلّيين، وكثيراً هم الذين يزعمون أنّهم صادفوه في الجبال، أو رأوا آثار خطاه في الثّلج، أو سمعوا صوت زمجرة غضبه وانفعاله تهزّ المكان والفضاء، وعدد لا يُستهان به من الباحثين عن المغامرة والطّواقم العلميّة قامتْ برحلات علميّة متخصّصة بحثاً عنه، لكنّها باءتْ جميعاً بالخيبة، وعادتْ بخفي حُنين، وبقي رجل الثّلج الأسطوريّ الكشمريّ يسخر من السّاعين لإدراكه في موطنه البارد الذي يخفيه عن أنظار الغرباء والمتطفّلين.

إلاّ أنّني كنتُ أبحث عنه بجديّة طوال رحلتي في جبال الهيمالايا، وأمّلتُ نفسي بأنّه قد يرغب في خطف بطبوطة التي تلبس ملابس نساء الثّلج، وتتزيّن لشيء تجهله، وتخمّن أنّها في انتظار مغامرة ما، أو مفاجأة مزجاة على يديّ كائن مخيف، حتى ولو كان كائناً مزيج من القرد والإنسان، ويكسو الفرو جسده، ويعيش متأبّداً متوّحشاً في عوالم الثّلج، ويخطف النّساء المفتونات مثلي بالتّطواف والرّحيل والاكتشاف.

فيما بعد اكتشفتُ في رحلتي هذه أنّ رجل الثّلج الأسطوريّ أو غوله هو حقيقة في كشمير، وأنّه متوحّش كاسر يقضي على مَنْ يصدفه في دربه، وأنّه يسرق الأرواح والآمال، وأنّه لا يرحم، ويستحقّ القتل، إلاّ أنّ هذا الغول ليس كائناً هجيناً من الإنسان والحيوان، بل هو على شكل حروب ودمك مسفوك وقتل خراب ووجع وألم وحرمان يغشى الإقليم منذ عقود طويلة من الصّراع فيه وعليه.

سحر كشمير:

عندما زار الإمبراطور المغوليّ الشّهير «جاهانكير» كشمير لأوّل مرّة عبّر عن إعجابه بها قائلاً باللّغة الفارسيّة: «إنْ كان ثمّة جنّة على الأرض، فلا بدّ أن تكون هي هنا». هذا ما كنتُ أفكّر فيه، ونحن ندير ظهورنا لقمم جبال الهيمالايا التي تترقرق مياه بحيراتها، وتجذب أرواحنا إليها، ورائحتها المزيج من البرودة والانتعاش تغزو الأنوف، ومنظر تلك السّفن الصّغيرة والقوارب الخشبيّة التي تسكن البحيرات ونراها من أعلى القمم تشتّت الأبصار بين آلاف الصّور من صور السّائحين والعاملين والمتّخذين من هذه السّفن أماكن حياة أو عمل أو زيارة.

يعتاش الكثير من أهل المنطقة على العمل فيها؛ فالجولات الفرديّة والجماعيّة بها هي متعة رائجة في المكان، والكثير من السّفن الخشبيّة الرّاسية في البحيرات هي مقاهٍ راقية ومطاعم وفنادق نهريّة يطيب لمن يقصد المكان أن ينزل فيها، وأنَ يخلد إلى سحرها النّهريّ الآسر الذي يعانق جمال السّماء، ويحاكي زرقتها الصّافية الآسرة، ويعبق بروائحها العطريّة، ويصغي لتغاريد طيورها المتعدّدة التي تسكن أعالي أشجار الغابات التي تتشابك في تعانق أبديّ مذهل.

سحر الطّبيعة الكمشيريّة يتجلّى في وادي «أرو» ووادي «بيتاب»، وفي منطقة «باهالغام» التي تُعرف باسم «أرض المروج الخضراء»، أمّا بحيرة «دال»، فهي الجوهرة في تاج كشمير؛ فهي البحيرة الأكثر سحراً في قلب «سريناغار».

التّجوّل بقوارب «شيكاراس» التّقليديّة التي تعمل بالتّجديف اليدويّ وسيلة ترفيه شهيرة في المنطقة لأهلها وللسّياح الذين

يقصدونها إلاّ أنّ أمّي أمّ بطبوطة منعتني من التّجوال بها؛ لأنّها خشيت أنّ أغرق في تلك البحيرات الفردوسيّة، على الرّغم من أنّني أجيد السّباحة، وأتوق إلى أن أصبح حوريّة بحر أبتلعها الماء الأزرق الشّهي على حين سهو منها، لكنّ أمّي تفضّل أن أظلّ إنسيّة على قيد الحياة، ونزولاً عند رغبتها المقدّسة كان نصيبي من جمال هذه البحيرات أن أقف على ضفافها، وأن أتأمّلها عن بُعد باشتهاء شديد وحسرة غامرة، وأنا أراقب تلك البيوت العائمة المنتشرة في بحيرات كشمير، وهي بيوت صغيرة أنيقة مصنوعة من خشب البلوط والجوز اللّذين يتميّزان بالقوّة والصّلابة وخفّة الوزن.

هناك الكثير من البحيرات والينابيع في كشمير، مثل بحيرة «شيشناغ» وبحيرة «مانسابال» وبحيرة «ناجين» التي تزخر بالكثير من الألعاب المميّزة، وبحيرة «ولار» التي تحيط بها الجبال من الاتّجاهات جميعها، وينابيع منطقة «أنانتناج» التي تتفجّر منها ينابيع المياه الصّافية، أمّا بحيرة «دال» الواقعة في العاصمة «سريناغار»، فهي البحيرة الكبرى الثّانية في كشمير، وقد سكنتْ وأمّي أمّ بطبوطة في نزل أنيق متواضع بالقرب من إحدى ضفافها.

حقول زهرة الخردل تنداح عبر الحقول، وتغمر المكان بصفرة شهيّة منعشة، تبعث الحياة والطّرب والسّرور في عيني مَنْ يراها، وتضفي على المكان صوراً مزهرة تفيض بالحياة والنّشّاط، فأكاد أسمع صوت الموسيقى الكشميريّة الحزينة تترنّم في الحقول، وتحكي قصّة حزينة لهذه الجنّة المدمّرة المهملة بفعل الحروب والنّزاعات المسلّحة في المكان التي شطرت الأرض والإنسان بين الهند وباكستان والصّين، وملأت المكان بذاكرة الموت، وبحلم الانفصال والاستقلال الذي يحلم به

الكشميريون على غفلة وخوف من الحكومتين الهنديّة والباكستانيّة اللّتين تصمّمان على التّمسّك بما انتزعتا من أرض جامو وكشمير، في حين تعلو أصوات الكشميريين بالمطالبة بالانفصال عن الكيانين العسكريين القويين اللّذين يتنازعان في المكان، ويهملان العناية بالمناطق التي اقتطعوها عنوة عقاباً للأصوات الانفصاليّة المتعالية في المكان؛ فتغدو كشمير جنّة طبيعيّة غارقة في الإهمال الحكوميّ الرّسميّ لها، وتفتقر للخدمات والرّعاية، وتعيش على الجهد الفرديّ لأهلها الذين يسعون إلى توفير الخدمات المعيشيّة الأساسيّة، لكنّهم على الرّغم من إخلاصهم في ذلك، فهم يخفقون في أن يجعلوا منها مدينة حديثة تواكب عصرها كما يتمنّون.

فتظلّ دروبها وطرقاتها طينيّة لزجة، دون خدمات متطوّرة، فيتعمّق شعور مَنْ يراها بأنّ هناك خراباً مقصوداً يُصدّر إليها، فيفسد جنانها، ويصبغ طبيعتها بحزن شفيف تلمحه على وجوه أهلها الذين لا ينجحون في إخفاء أحزانهم ومعاناتهم خلف ابتسامات ودودة حنونة يهبونها بسخاء لمن يلاقيهم في الطّرقات، ويردّ السّلام عليهم، فيردون السّلام بسلام مديد بحروف مرّققة، وهم يترنّمون بردّهم: وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته.

تظلّ زهرة الخردل الصّفراء تردّد أنغام الحياة والبقاء والأمل في المكان، وهي من المنتجات المهّمة في المكان؛ فهي -فضلاً عن جمالها الآخّاذ وصفرتها المعنشة ورائحتها المحفّزة- نبات عطريّ يُستخدم في التّوابل، ولها العديد من الفوائد الغذائيّة والطّبيّة؛ فهي غنيّة بالسّيلينيوم والمغنيسيوم والأحماض الدّهنيّة أوميجا والفوسفور والحديد والمنغنيز وفيتامين النّياسين والألياف الغذائيّة، ؛ لذلك يُستخدم الخردل لوقف

البلغم، وهو ينقّي البشرة، ويخفّف الأورام والآم المفاصل وعرق النّسا، وهو يُبدّد العطش، ويشفي من مرض الثّعلبة، ويفتح الشّهيّة، ويساعد في علاج الرّوماتيزم، وفي تعقيم الجلد، وفي الوقاية من الشّلل الدّماغيّ وتصلّب الشّرايين وضغط الدّم وغيرها من الأمراض والعلل.

لا يمكن أن ترى كشمير دون زهور الخردل التي تستعمر الحقول والمزارع، وتنتشر في الدّروب، وعلى امتداد حواف الإقليم، وتسير مع الطّريق حتى منحدرات الجبال، وتطوّق حدائق البيوت والمباني جميعها بلونها الأصفر الفاقع.

يخسر الزّائر لكشمير كثيراً أن لم تكن إقامته فيها في منتجع جبليّ من منتجعات «غلمرج» و«سونارمارغ» حيث صفاء الثّلج ونقاء الطّبيعة والبيئة وخدمات الرّفاهيّة والمتعة والرّياضة والتّسلية، أو في فندق أو نزل نهريّ أو على إحدى ضفاف النّهر أو في بيوته العائمة، حيث يستيقظ في الفجر على منظر خلاّب يجمع مفردات الجمال الطّبيعيّ جميعها، ويزداد بهجة إنْ تناول الفطور الكشميريّ اللذّيذ في أحضان المكان، وشرب معه الشّاي الكشميريّ النّادر المسمّى «نون»؛ إذ هو مالح، لا حلو كما هو سائد في الهند وفي العالم، على خلاف القهوة الكشميريّة التي لا تُصنع من البن، كما تُصنع القهوة في سائر أرجاء العالم، بل تُصنع من الزّعفران والثّمار الجافّة، وتُحلّى بالسّكر النّاعم.

لا بدّ أن يكون للزّائر أو السّائح جولة في أسواقها التّقليديّة القديمة التي لا تختلف كثيراً عن أسواق كشمير الحديثة؛ إذ كلاهما يبيع البضائع ذاتها من ملابس وجلود وزعفران وخردل وتوابل وملابس كشميريّة ومكسّرات وعسل طبيعيّ وفواكه مجفّفة وقناديل وشمعدانات وصواني وتحف وتذكارات وملصقات ومعلّقات، كما أنّ

كليهما مبني على طراز قديم، ويقع في مبانٍ قديمة في أسواق مهملة العناية، ولا دروب ممهدة تصل إليها.

لا بدّ أن تسمع في أسواق كشمير بعض أشعار المتصوّفة والعشّاق والرّحالة والثّائرين والغرباء الذين يشيدون بجمال هذا المكان، ويتفجّعون على مصيره المعلّق في المجهول بين القوى المتصارعة عليه، وينتظرون غائباً أو غيّاباً سرقتهم الدّروب والأقدار نحو مكان معلّق في البعيد.

السّوق العائم على بحيرة «دال» من أجمل الأسواق وأمتعها في المدينة، وشارع «بوليفارد» الشّهير هو الطّريق الذي يمرّ ببحيرة «دال»، وهو سوق شعبيّ شهير في «سريناغار»، وهو المكان الأمثل لمتعة التّسوّق لتنوّع خيارات الأكل والشّراء، وفيه أجمل فنادق المدينة.

كذلك السّير في حي» لال تشوك» هو متعة خاصّة في الارتداد إلى أزمان ماضية جميلة في حيّ قديم العمارة، ويعزّز مسجد «شاه حمدان» من هذا الشّعور، وهو تحفة معماريّة تستقطب السّياح والزّائرين.

في المكان ترى مصنوعات الورق المعجّن التي ابتكرها المغول في كشمير إبّان القرنين الخامس عشر والسّادس عشر في عهد السّلطان زين العابدين، وأورثوها لها، بعد أن تحوّلتْ من الزّخرفة بالذّهب الخالص إلى الزّخرفة بالألوان الزّاهية، ومع الوقت تمّ إدخال ابتكار جديد في هذه الصّناعة التي بدأتْ بصناعة حافظات الأقلام المسمّاة «كاريكالامدان»، ثم شملتْ صناعة صناديق المجوهرات والمزهريّاتْ وبراويز الصّور ومصابيح المكاتب وعلب حفظ المناديل وربطات العنق، وغيرها من التّحف الأخرى.

جميعها مصنوعة من أبسط المواد الخامّ، مثل نفايات الورق، ويُرسم عليها بريشة دقيقة مصنوعة من شعر ذيل القطط، وهو رسمٌ يمثّل البيئة الكشميريّة بكلّ دقّة؛ إذ تظهر رسومات الحقول الخضراء الممتدّة نحو الجبال المغطّاة بالثّلوج، والأنهار المتلألئة بين الصّخور النّاتئة، وأزهار اللّوتس تتفتّح على مياه البحيرات، وطائر الرّفراف يتغذّى على أسماك البحيران والأنهار، وأوراق القيق تزخرف التّحف والمصنوعات التي تظهر فيها قوارب «شيكاراس» التّقليديّة التي تعمل بالتّجديف اليدويّ.

لا بدّ أن يصادف الزّائر الكثير من متاجر النّسيج المعروف بـ «كاني»، وهو نسيج كشميريّ أصيل وشهير على مستوى العالم، تُنسج به الشّالات وبعض الملابس، كما يُنسج السّجاد الكشميريّ به، وذلك عبر استخدام عدد كبير من «البكرات» ذات الألوان الزّاهية المختلفة، لتخرج قطعة سجّاد أو نسيج غاية في الجمال والانسجام والدّقة المصحوبة بالألوان الزّاهية المتداخلة بحرفيّة عالية.

حدائق المغول ونساء كشمير:

الجمال الطّبيعيّ في كشمير تعلوه أحزان الحرب والنّزاع والدّماء التي تعلن المكان جنّة منكوبة، إلاّ حدائق «نيشات باغ»، و«باري محل»، و«شاليمار» المغوليّة التي بناها أباطرة المغول إبّان فترة حكمهم للمكان؛ فهي متأبيّة على الحزن، متسامقة على النّسيان، متعملقة على الخراب والضّعف؛ فهي ما تزال شواهد على جمال العمارة المغوليّة وعظمتها وجمالها في أدقّ تفاصيلها التي تظهر في الحدائق، وتقدّمها تحفاً خليطاً من الجمال الطّبيعيّ الأخّاذ والبناء المعماريّ الحجريّ الأنيق المتمرّس الذي يربض في المكان، ويرفض أن يرحل عنه مع ما رحل عنه

من سلام وراحة وطمأنينة، ويوثّق لعبور المغول في هذا المكان الجميل الذي لطالما راق للغزاة أن يمرّوا به عبر التّاريخ؛ لأنّه جنّة معلّقة في الجبال بين جغرافيّات أسيرة للجمال والفتنة.

عندما زرتُ «شاليمار» المغوليّة أغراني جمالها بأن أكتري بعضاً من الملابس التّراثيّة الجميلة التي تلبسها نساء المدينة في المناسبات السّعيدة، ويُطلق عليها اسم «فيرن»؛ لأتجوّل بها في الحديقة متقمّصة أرواح نساء المدينة اللّواتي لطالما تجوّلن في هذه المدينة مزهوات بقصص العشق والشّعر والبطولة، وهي ملابس ساترة للجسد كلّه مصنوعة من المخمّل الملوّن، ومغشّاة بالقصب الذّهبيّ، ولها قلنسوة ملوّنة تتدلّى منها قطع تقليديّة لمجوهرات حقيقيّة كانت تلبسها النّساء مع هذه الملابس في الماضي والحاضر القريب في المناسبات السّعيدة والبهيجة.

هذه الملابس النّسائيّة الجميلة تشابه جمال الطّبيعة التي تحيط بالمكان، وهي تذكّرني بحاجتي للصّلاة والسّجود في هذا المكان شكراً لله على خلق هذا الجمال المعجز، وإعطائي فرصة لتمتيع حواسي وأحاسيسي وذاكرتي به، وأنا مَنْ اعتدتُ على الصّلاة في كلّ مكان أزوره؛ لعلّه يكتب في ميزان أعمالي وحسناتي أنّني أوّل ساجدة في هذه البقعة الصّغيرة التي سجدتُ فيها؛ لذلك أطيل الدّعاء في تلك البقع لعلّها تكون مكان استجابة للدّعاء، متأسّية في ذلك بما علّمتني أمّي الحبيبة من آداب العبادة والتّفكّر والتأمّل والشّكر على النّعم أيّاً كانتْ.

تُصنع الملابس الكشميريّة للنّساء والرّجال من الصّوف في الشّتاء، ومن القطن في الصّيف، ويُطلق اسم «الشّيروانيّ» على الملابس التي يلبسها العريس في عرسه، في حين يُطلق اسم «بلهنغا» على الملابس التّقليديّة التي تلبسها العروس في ليلة زفافها.

الوجوه الكشميريّة الحنونة هي ما تزيد المكان جمالاً ورهبة؛ هذا ما يفسّر الفكرة الشّائعة بأنّ أجمل الوجوه الآدميّة في كوكب الأرض هي موجودة في كشمير، لكنّ -وفق رأيي المتواضع- ليس الجمال الخارجيّ بالقسمات والملامح التي تجعلها تتفوّق على غيرها بالوسامة والجمال والفتنة، لكنّه جمال الأرواح التي تفيض بالبشاشة والوضاءة والجاذبيّة والألفة على القسمات المزيج من الأعراق التّركيّة والأفغانيّة والمغوليّة والآرية.

لكن هذا لا ينفي أنّ الملامح الكشميريّة جميلة، لاسيما ملامح النّساء، ومردّ ذلك إلى الخليط العرقيّ الجميل الذي تكوّن من اختلاط أعراق كثيرة في كشمير من أتراك وأفغان ومغول وآريين.

لكن الوجه الكشميريّ الجميل معذّب حزين في خضمّ نزاعات شرسة مستمرّة منذ عقود؛ فالكثير من النّساء الكشميريّات قد تعرّضن للتّعذيب والاختطاف والاغتصاب والقتل في هذه الصّراعات، والأكثر منهنّ أصبحن أرامل لأزواج قد قُتلوا، أو اختفوا في هذه الصّراعات دون ظهور لهم بعد ذلك، ليعشن حياة الضّياع والكفاف والانتظار الذي لا ينتهي، وسط نبذ اجتماعيّ لهنّ، وتضيق عليهنّ؛ إذ يرفض المجتمع الكشميريّ والقانون الاجتماعيّ أن تتزوّج المرأة الأرملة مرّة أخرى إلاّ بعد ثبوت وفاة زوجها، وليس لها أن تقدّم طلب إعلان الوفاة إلاّ بعد سنوات طويلة، وحتى ذلك الوقت، تُقيّد حريّة المرأة، ويُفرض عليها الحرمان العاطفيّ والاجتماعيّ والعزلة والعذاب.

لقد كثرتْ ظاهرة النّساء الأرامل والمطلّقات في كشمير إلى حدّ تسمية وادي كشمير بـ«وادي الأرامل والمطلّقات»، وهي تسمية رسّختْ مفهوم العنف ضدّ هذه الشّرائح الكبيرة من النّساء بحجّة أنّهنّ قد

يقترفن الخطايا في غياب الأزواج؛ لذلك يجب معاقبتهنّ والتّضييق عليهنّ في الأحوال جميعها تحسّباً من حدوث ذلك.

في الوقت ذاته لا يسمح القانون في كشمير للمرأة بأن تطلب الطّلاق من زوجها مهما كانت الأسباب الدّاعية إلى ذلك إلاّ بعد سنوات عديدة من الزّواج.

ما تزال هناك الكثير من القرى في كشمير، مثل قرية «بخاربورا» تقوم ببيع بناتها على شكل جوارٍ وإيماء لمن يرغبون في شرائهن رغبة من الأهل في عدم دفع مهور لتزويج بناتهنّ، ورغبة من الرّجال في الحصول على زوجات بأرخص الأثمان.

إنّ كانت الفتاة شابة وعزباء بِيعتْ إلى عجوز ثريّ يسومها سوء العذاب وعظيم الظّلم والإهانة، وإن كانتْ مطلّقة أو أرملة بِيعتْ لعريس فقير معدم يعاني من قسوة الحياة وضيقها عليه.

تتراوح أسعار بيع النّساء الكشميريّات المبيعات بين 500 إلى 20 ألف روبيّة، وهو مبلغ زهيد وحقير يُدفع مقابل استرقاق شابّة جميلة تعاني من وحشيّة مجتمعها.

لكن الطّبقة المتعلّمة من النّساء الكشميريّات لاسيما من سكّان المدن تحاول انتزاع حقوقها من مجتمعها الذّكوريّ المستبدّ، وتدخل قطاعات العمل بشجاعة حذرة ومدروسة.

مرافقتي المُقدّرة د. عرفاني هي نموذج لهذه المرأة الكشميريّة المتعلّمة الصّلبة التي انتزعتْ حقوقها واحترامها من مجتمعها الذّكوريّ التّقليديّ بفضل العلم الذي أخلصتْ له، وتميّزتْ به حتى غدتْ رئيسة قسم اللّغة العربيّة في الجامعة التي تعمل فيها، وهي الجامعة الإسلاميّة للعلوم والتّكنولوجيا.

في رحلتي هذه قابلت الطّائفة المتعلّمة المتحرّرة نسبيّاً من النّساء الكشميريّات بحكم زيارتي للمدينة، وتعرّفي على نساء الوسط الأكاديميّ في الجامعات التي زرتها من أعضاء هيئات تدريسيّة أو موظّفات أكاديميّات أو طالبات جامعيّات، لكنّني لم أعدم التقاط الكثير من الالتقاطات المهمّة التي تدلّ على أنّهنّ ما يزلن أسيرات خوفهنّ وسطوة المجتمع عليهنّ، وأنّهنّ ما يزلن في بداية درب الحريّة والمساواة، وكيف يمكن أن يحققن ذلك بشكل حقيقيّ في وطن كلّه مستلب؟ ويعاني منذ عقود ليحصّل حرّيته واستقلاله في إزاء قوى ثلاث تطحنه من الجهات جميعها.

حتى الطّالبات الجامعيّات اللّواتي قابلتهنّ في زياراتي للجامعات الكشميريّة كن يتوارين خلف خجل خانق لهنّ، وكان تردّدهنّ وقلقهنّ يخفي أثقال مقيّدات بها، لكنّهنّ على الرّغم من ذلك يحاولن أن ينتزعن حقوقهنّ، وعلى رأسها حقّهنّ في التّعلّم والعمل والتّميّز والإبداع.

أمّا المرأة المسحوقة فقد رأيتها في كلّ مكان يمكن أن تُرى فيه النّساء المحسوقات حيث الفقر والعوز والحاجة والجهل والخوف والاضهاد، هذا موجود بطبيعة الحال في كلّ طبقة من طبقات السّكان في الإقليم كاملاً في مدنه وقراه وجباله وسهوله وبحيراته وأنهاره.

ماعز الكشمير:

يزيد العفاف والحشمة والتّستّر من جمال الوجوه الكشميريّة، وهم يلبسون الملابس الكشميريّة المصنوعة من شعر ماعز الكشمير، ويُطلق عليها أحياناً اسم «بشمين»، وهذه الملابس الكشميريّة هي الأكثر

نعومة ولمعاناً ودفئاً في العالم، وتفوق الصّوف غير الكشميريّ بـ 6 إلى 8 مرّات من ناحية الدّفء والنّعومة، وهي تصنع بشكل يدويّ تقليديّ يحافظ على خصائصه الطّبيعيّة، وعلى رأسها الدّفء الذي يُوهب لمن يلبسها، كما يُوهب طبيعيّاً للماعز التي تشعر بالدّفء بفضل شعرها الذي يحميها من انخفاض كبير في درجات الحرارة حتى الصّفر لا سيما في فصل الشّتاء.

هذه الخصائص تجعل الملابس الكشميريّة هي الأجمل والأغلى مقارنة بغيرها من الأقمشة الصّوفيّة في العالم، ويشتغل أهلها في صنعها بشكل يدويّ، وتزحز أسواقها بالمتاجر الخاصّة بتصنيعها، ومن ثمّ بيعها، وتُصنع منها السّترات والأوشحة والشّالات والقّفازات والقبعات وملابس النّوم وأردية الحمّام التي قد تخلط أقمشتها أحياناً بالحرير الطّبيعيّ، فتصبح أكثر جمالاً ودفئاً ولمعاناً وأغلى سعراً، كما تُصنع منها الملابس التّقليديّة الطّويلة ذات الأكمام والقبعات المتّصلة بالكتفين، ويلبسها الرّجال والنّساء على حدّ سواء، لا سيما في فصل الشّتاء، وهي ملابس دافئة وساترة في الوقت ذاته؛ إذ معظم أهل كشمير من المسلمين المحافظين على شعائر الدّين الإسلاميّ، ومعظم النّساء هناك محجّبات، والكثير منهنّ يضعن البراقع السّوداء على وجوههنّ.

لقد دخل الإسلام إلى كشمير منذ صار إليها محمد بن القاسم الثّقفيّ بعد أن دخل إلى بلاد السّند، وبعد ذلك ضمّها جلال الدّين أكبر إلى دولة المغول الإسلاميّة.

القماش الكشميريّ يستلزم طريقة خاصّة في التّعامل معه للمحافظة على خصائصه المستحبّة؛ فيفضّل غسله على اليّد بماء فاتر لا

تتعدّى درجة حرارته الـ 20 درجة مئويّة، مع استخدام مسحوق غسيل خاصّ بقماش الكشمير، أو استخدام «شامبو» الأطفال، ثم بعد ذلك يتمّ نقله من الماء الفاتر إلى الماء البارد لمدّة 15 دقيقة كي يتمّ شطفه من مسحوق الغسيل، ثم يتمّ تنشيف الملابس بمنشفة ضاغطة عليها، دون وضعها في مجفّف الملابس، ثم تترك القطعة في الشّمس لتجفّ دون تعليقها على حبل الغسيل.

أمّا في حالة غسيل الكشمير في غسّالة كهربائيّة، فيجب أن تكون غسّالة لها خصائص الدّوران اللّطيف.

بعد الغسيل أيّاً كانت طريقته، لا يجوز تعليق ملابس الكشمير في الخزانة، بل يجب طيّها، ووضعها على رفوف الخزانة بعد وضعها في أكياس بلاستيكيّة حافظة مفرّغة من الهواء لمنع وصول حشرة العثّ إليها.

يدخل صوف ماعز الكشمير في صناعة السّجاد الكشميريّ، كما يدخل في صناعة أنواع عديدة من الحشايا التي تسمّى بـ«النّامدا»، وهي تتميّز بزخارف ونقوش نباتيّة رقيقة، ويضعها السّكّان في غرفهم؛ لتضفي عليها ملامح البهجة والزّينة والفرح والدّفء.

الحجّ الهندوسيّ في جامو:

رغبتُ في زيارة مدينة جامو الكشميريّة، وهي القلب الهندوسيّ في الإقليم، إلاّ أنّ الأمور لم تتيسّر لي لأقوم بهذه الزّيارة المأمولة؛ بسبب بعض المواجهات الدّامية في الولاية في قرية «كاثوا» بين المسلمين والهندوس بعد أن قام مجموعة من المتطرّفين الهندوس بخطف غجريّة مسلمة، تبلغ الثّامنة من عمرها، ثم اقتادوها مخدّرة إلى

معبد هندوسيّ، وتناوبوا على اغتصابها بوحشيّة، ثم قتلوها خنقاً، في خطّة منهم لترويع الغجر المسلمين في المنطقة، وحضّهم على الهجرة منها، وترك أراضيهم وغاباتهم للسّكان الهندوس، فاندلعتْ مواجهات داميّة بين المسلمين والهندوس أسفرتْ عن المزيد من الضّحايا، وأعمل شغب وتمرّد.

لقد كنتُ أبغي من زيارتي لجامو أن أتتبّع أماكن الحجيج الهندوسيّ لهذه المنطقة؛ إذ يأتون من الكثير من ولايات الهند حجيجاً قاصدين معبد «هانومان»، وهم في جماعات وزرافات يردّدون الأغانيّ الدينيّة الخاصّة بهم، ويقصدون ضريح «أمارناث» الذي يقع في الولاية، وتحرسهم في درب حجيجهم دوريّات الشّرطة الهنديّة لتحميهم من أيّ هجوم محتمل من الجماعات الإسلاميّة المناوئة لهم وللنّظام الهنديّ الحاكم.

رحلة الحجيج هذه هي رحلة سنويّة مقدّسة للهندوس، وهي رحلة شاقّة؛ إذ تتضمّن تسلّق جبال وعرة، ومواجهة أمطار غزيرة وفيضان للأنهار؛ هذا قد يسبب غرق الطّرق واندثارها، أو حدوث انهيارات أرضيّة خطيرة قادرة على ابتلاع الكثير من الحّجاج الهندوس. لقد حدث ذلك كثيراً في رحلات حجيجهم، لكنّهم يصمّمون على الحجيج؛ ويرون في مشقّتهم هذه جزءاً من إجزال الثّواب لهم، وحصولهم على رضا آلهتهم وبركتها.

تستمرّ فترة الحجّ لشهرين متتالين ابتداء من شهر حزيران، وتسمّى (ياترا)، وينطلق الحجّاج الهندوس في رحلتهم الدّينيّة هذه على الأقدام، أو فوق الدّواب، أو حملاً على المحفّات للكبار والمرضى والعجزة، حتى يصلوا إلى الكهف الذي يبعد نحو 120 كيلو متراً من العاصمة

«سريناغار» الذي يقع على ارتفاع 3880 متر فوق مستوى البحر.

يقود رجال الدّين الهندوس بملابسهم الزّعفرانيّة اللّون هذه الرّحلة الدّينيّة الموسميّة، وينظّمون عمليّة السّير أو التّوقّف لأخذ الرّاحة والقيام بالصّلوات، وعندما يصل الحّجاج وقادتهم إلى مبتغاهم في الكهف المقدّس بعد رحلة تسلّق مضنية وخطيرة تستمّر لساعات، يشرعون يتعبّدون لقطع جليديّة تكوّنت بشكل طبيعيّ على شكل العضو الذّكريّ الذي يعتقدون أنّه يمثّل «شيفا» أحد أهمّ آلهة الهندوس؛ فهم ينظرون إلى العضو الذّكريّ المعروف عندهم في الهندوسيّة باسم «لينجام» على أنّه رمزاً للخصوبة والحياة والامتداد والخلود.

يختار الهندوس وقت حجيجهم هذا قبل زوال الثّلوج عن الطّرق؛ كي يدركوا قطع الثّلج الذّكريّة قبل أن تذوب، وتتلاشى.

مكان الحجيج هذا في ضريح «أمارناث» هو مكان جدليّ بامتياز في الإقليم؛ فهو من ناحية أولى يمثّل مزاراً هندوسيّاً تندلع عنده وفي الدّروب إليه الكثير من المواجهات الدّامية بسبب تصميم الانفصاليين الإسلاميين في المنطقة على التّصدّي لمخطّطات الحكومة الهنديّة التي تبغي أن تغيّر التّركيبة السّكانيّة للمنطقة بدفع المستوطنين الهندوس إليها عبر مصادرة أراضي لبناء ملاجئ ومراحيض مؤقّتة للحجّاج.

من ناحية أخرى يقف المتشدّدون الهندوس وقفة عداء وبغضاء من مسلمي المنطقة الانفصاليين بدعوى أنّ مواقفهم من حجّهم هي محاولة لإبعادهم عن تراثهم الهندوسيّ، ومحاولة لدفنه بعد قتله، ويصمّمون على الحجّ في المنطقة بوصف حجّهم هذا هو رسالة تحدٍ للانفصاليين تفيد بأنّ كشمير جزء من الهند، ولا حقّ لها الانفصال عن الجسد الهنديّ بأيّ شكل من الأشكال.

أمّا الحالة الوسطيّة المعتدلة التي يسلكها معظم سكّان المنطقة، فهي حالة سلام وتقبّل واندماج، إذ يرحّب الأهالي المسلمون بالحجّاج الهندوس الزّائرين، ويساعدونهم في دروب رحلتهم، ويعمرون المتاجر الصّغيرة طوال الطّريق لتقديم الخدمات لهم، ويرحّبون بهم بأكاليل الزّهور، ووجبات الأرز المطبوخ بالسّكر والحليب.

لكن هذه المواقف المتباينة لا تمنع من وقوع الكثير من الصّدامات الدّامية بين الطّرفين في كلّ عام إبّان وقت الحجّ الهندوسيّ للمنطقة.

أمّا أنا، فأرغب في تتبّع رحلة حجيج الهندوس عبر الجبال، لكن دون أن يكون هناك احتمالات للاعتداء عليّ، أو سقوطي في واد سحيق من الأودية حيث الطّبيعة البكر فتّاكة في تلك المنطقة، لكنّني أضرب صفحاً دون ذلك رحمة بأمّي التي لا تستطيع في سنّها هذا أن تقوم بهذه الرّحلة المضنية الخطيرة لترى عضواً ذكريّاً من الثّلج معلّقاً في كهف ما، ويتعبّد الهندوس عنده بضراعة واستعجال قبل أن يدركه حرّ الصّيف، فيذوب، ويغدو إلهاً ثلجياً ذائباً، لا يعدو أن يكون بضع قطرات من الماء البارد المسكوبة على أرض الكهف!

إنّه نبيّ:

تتوطّن الكثير من المعابد والأديرة البوذيّة في منطقة «لاداخ»، مع وجودها في مناطق أخرى بشكل متفرّق، وقد همس لي أحدهم بثقة بأنّ «بوذا» هو نبيّ ما من أنبياء اللّه تعالى، وإن كان المسيحيون يرفضون أن يكون هناك أيّ علاقة بين المسيحيّة والبوذيّة، كما ينفون وجود أيّ دليل تاريخيّ على انتقال المسيح إلى الهند أو التّبت.

في حين يعدّه أصحاب المذهب البهائيّ أنّه واحدٌ من مظاهر الله،

وهذا لقب من ألقاب الأنبياء ونعوته وصفاته عندهم.

يقول أهل الجماعة الأحمديّة أنّ «بوذا» نبيّ، وأنّ ذو الكفل المذكور في القرآن الكريم هو «بوذا»، وأنّ أحواله تشبه أحوال الأنبياء، وتعاليمه في أساسها مثل تعاليم الأنبياء، لكن تعاورها النّاس بالتّحريف حتى انحرفتْ عن جادّة سبيلها، وعن مصدرها السّماويّ القويم.

لكنّ لا حجّة دامغة يقيمها المتجادلون حول ذلك، ولا حاجة في نفسي أقضيها في السّعي وراء ذلك؛ لذلك تأمّلت تماثيله باهتمام بفنّيتها، لا بقدسيتها، وغرفتُ القليل من فلسفته، وبدا لي أنّه فيلسوف مفّكر ينطلق من سمو الأخلاق ونبلها، ويدعو إلى ذلك، في حين ينكر فكرة الإله، ويسخر منها، ويؤمن بالتّناسخ.

هو وصل بالتّأمّل إلى الطّريق الصّحيح وفق وجهة نظره، وهو يتخلّص في الطّريق الأوسط البعيد عن التّطرّف والتّعصّب.

لم يورّطني الفضول في التّوقّف طويلاً عند حقيقة «بوذا»؛ فهي حقيقة مضيّعة، وغائرة في الخرافات والأكاذيب، كما أنّها ليستْ هدفي من هذه الرّحلة؛ فلستُ في شأن التّنقيب التّاريخيّ عنه، وأنا مَنْ تملك حقائق عقديّة إسلاميّة ثابتة لا مندوحة عنها، لكنّني أتجوّل في إحداثيّات الزّمان والمكان، وأتأمّل في معطياتها.

إلاّ أنّه قد راق لي أن أكتب في دفتر ملاحظاتي بعض الجمل الشّهيرة المنسوبة لـ «بوذا»، وهي قد ارتبطتْ في نفسي بشجرة التّين التي كان يجلس تحتها متأمّلاً وصولاً إلى حقائقه المنبثقة من قناعاته وتأمّلاته، وهذه الشّجرة اسمها عند الهندوس والبوذيين شجرة «البارغاد»، وقد أصبحتْ رمزاً للمراقبة الرّوحيّة والتّأمّل، ومن ثم عبدها الكثيرون.

- «يأتي السّلام من الدّاخل؛ فلا تبحث عنه في الخارج».
- «لن تُعاقب بسبب غضبكَ، بل غضبكَ هو العقاب».
- «لا يُعدّ الكلب كلباً جيّداً؛ لأنّه يجيد النّباح، وكذلك الإنسان لا يعدّ إنساناً جيّداً؛ لأنّه يجيد الكلام».
- «إنْ عاش المرء بحكمة، فلن يخشى الموت».
- «يجب أن يُخلق الشّر؛ حتى يثبت الخير طهارته».

لقائي بمسلمي كشمير:

أهل كشمير من المسلمين متعطّشون للإسلام وأهله، ومنحازون للعربيّة وأهلها؛ لذلك هناك أقسام لتعليم اللّغة العربيّة والدّين الإسلاميّ في جامعاتها، ويتحدّث مدرّسوها وطلبتها اللّغة العربيّة بطلاقة، ويحتفون بها، وبمن جاءهم مَنْ أهلها، ويقبلون عليه، ويقيمون له المحاضرات والمناظرات، ويحرصون -بأدبهم الجمّ- على أن يتزوّدوا بعلم مَنْ جاءهم من بلاد العروبة والإسلام، ومنهم الكثير من علماء اللّغة العربيّة وسدنتها، والمتفقّهين في الدّين الإسلاميّ السّمح، وفي تاريخهم الكثير من علماء العربيّة الكبار الذين خدموا العربيّة والإسلام خدمات جليلة حفظها التّاريخ لهم.

لقد كان لي محاضرة في بعض جامعاتها في فنون الأدب العربيّ ومناهجه، مثل الجامعة الإسلاميّة للعلوم والتّكنولوجيا، وقد راقني ما رأيتُ فيها من أستاذتها وطلبتها من تدافع على العلم، وإقبال على أهله، لاسيما إن كان من أهل العروبة والإسلام، وقد تحلّق الطّلبة حولي يسألونني عن اللّغة العربيّة وأسرارها ومفاتنها، ويصغون باهتمام إلى صوت الحرف العربيّ الذي ألفظه، ويتنبّهون إلى جرسه عندما ألفظه.

أكثر ما لفتْ انتباهي ذلك الخجل الطّبيعيّ الذي يسم الإنسان الكشميريّ أكان رجلاً أم امرأة، إلى جانب أدبهم الجمّ الذي يعكس ثقافة وحضارة مترسّخة ترتقي بالإنسان وشيمه وأخلاقه ونبل صفاته وأفعاله وأقواله؛ لذلك من الصّعب أن تحدّث كشميريّ دون أن ترى حياءه على ملامحه وأفعاله؛ ممّا يزيده نبلاً وأدباً، أمّا النّساء فيزداد حياؤهنّ عندما يكنّ أكثر تديّناً وتحجّباً، فتسمع أصواتهنّ منخفضة، وكلامهنّ قليل ومختزل، ونظراتهنّ وجلى ومؤدّبة.

لقد اكتفت الطّالبات بملاحظات خاطفة وجمل سريعة في الحديث معي، وطلب عناويني، والتقاط الصّور التّذكاريّة معي، إلاّ أنّ الطّلبة الذّكور كانوا أكثر جراءة منهنّ في التّواصل معي، والحديث مليّاً إليّ، وطرح الكثير من الأسئلة عليّ حول انطباعاتي وملاحظاتي عن زيارتي هذه لوطنهم، وما كنتُ أعلم عندها أنّ الكثير منهم سيضحون أصدقائي المتواصلين معي على الرّغم من ابتعاد المسافات، ونأي الدّروب، أمثال الباحث ألطاف بدير، والباحث المُجيد توصيف أحمد بت، وفيما بعد تواصل معي د. شمس كمال أنجم، ود. مختار أحمد شير غورجي الذي أُعجب بإبداعي القصصيّ بشكل خاصّ، وقرّر أن يترجم بعضه إلى اللّغة الأورديّة، بدل أن يترجمها إلى لغته الكشميريّة المحليّة، وسوّغ ذلك برغبته في بأن تصل المجموعة مترجمة إلى أكبر قطاع ممكن من القرّاء لا سيما أنّ الأورديّة هي الأشهر في جامو وكشمير والهند وباكستان.

لقد كانت لي حوارات طويلة مع الباحث توصيف أحمد بت الذي كان مهتمّاً بالرّحالة الذين مرّوا بكشمير؛ لذلك اختار أن يكون موضوع رسالته في الماجستير في الأدب العربيّ عن رحلات العبوديّ

إلى شمال القارّة وكشمير، وكان متحمّساً بشدّة لمشروعي المتمثّل في تدوين رحلتي إلى كشمير والهند، وخطّط لأن يجعل منه موضوعاً لأطروحته في مرحلة الدّكتوراه، وساعدني كثيراً في مرحلة تدوين رحلتي إلى كشمير؛ إذ مدّمي بالمعلومات الدّقيقة التي فاتني الالتفات إليها في رحلتي، كما صوّب لي بعض المعلومات والتّفاصيل، لا سيما فيما يخصّ أسماء الذّوات والأشياء والأماكن، ووضحّ لي ظواهر وتفاصيل كشميريّة لم أفهما جيّداً في زيارتي الخاطفة إلى كشمير السّاحرة التي لا تُعطي نفسها بسهولة لمن يقصدها من الرّحالة أمثالي.

لطالما حدّثني توصيف أحمد بت عن خصوصيّة المجتمع الكشميريّ، كما كان يرى أنّ جمال المرأة الكشميريّة شبيه بجمال المرأة العربيّة الشّاميّة والأتراك الجنوبيين، في حين ينحاز هو إلى الجمال الدّاخليّ للمرأة الذي ينصبّ على المعرفة والذّكاء والأحاسيس الدّافئة والإخلاص وجمال الأخلاق.

لقد حدّثني كذلك عن رحلته مع تعلّم اللّغة العربيّة، وهي رحلة بدأتْ من أسرته المسلمة المتعلّمة؛ فقد كان جدّه لأبيه (سيف الله بت) عالماً في الشّريعة الإسلاميّة وسياسيّاً وبرلمانيّاً، فضلاً عن أنّه كان مناضلاً ضدّ الاحتلال الانجليزيّ لوطنه؛ هذا شجّعه على الانطلاق في تعلّم العربيّة حبّاً بالإسلام وأهله؛ فحصل على شهادة العالية والفضيلة في الدّراسات الإسلاميّة من الكليّة السّلفيّة العربيّة في العاصمة «سريناغار»، ثم حصل على شهادة البكالوريوس من الكلّيّة الحكوميّة، ثم سار في الدّرب نفسه، وحصل على درجة الماجستير من الجامعة الإسلاميّة للعلوم والتّكنولوجيا التي قد قابلتُ فيها ثلّة من علماء العربيّة، أمثال: د. عرفاني رحيم، ود. عبد المجيد اندرابي، ود. إرشاد

أحمد أمير، ود. عناية رسول، ود. عبد الوحيد شيخ، ود. عارف القاضي الذي انتقل إلى جوار ربّه بعد عدّة أشهر من زيارتي لجامعته بمرض خبيث مداهم له.

تحدّثت طويلاً مع د. عرفاني رحيم عن تجربتها الرّائعة في الأمومة لابنتها الوحيدة طيف الهدى، وعن تجربتها الفريدة في تعلّم اللّغة العربيّة وتعليمها، فعلمتُ أنّها من قرية «مزاري غند»، من مديرية «بارهمولة»، وقد تعلّمت اللّغة العربيّة في جامعة «الصّالحات رامفور» الواقعة في ولاية «أترابرديش»، ثم حصلتْ على الماجستير في اللّغة العربيّة من جامعة «عليجراه»، في حين نالتْ درجة الدّكتوراه من جامعة كشمير، وفيما بعد تعيّنتْ في قسم اللّغة العربيّة الجامعة ذاتها، حتى أصبحتْ رئيسة القسم.

الإسلام في كشمير هو الدّيانة الرّسميّة فيها بعد البوذيّة والهندوسيّة، وقد انتشر الإسلام فيها عبر العديد من الصّوفيين المسلمين القادمين إليها من آسيا الوسطى إبّان سيطرة البراهمة الهندوس على الدّولة؛ فعاش المسلمون الدّعاة عندها في مناطق رديئة مخصّصة للطّوائف الأدنى قيمة، وكان يُطلق عليهم حينها لقب «المليتشات»، وهي كلمة سنسكريتيّة تنطوي على التّحقير والإهانة، وكانت غالبية المسلمين يلقّبون بها في الهند في العصور الوسطى.

لكن مع بزوغ نجم الدّولة المغوليّة، ووصول غزوها المسمّى «دالوتشا» أو «زولو» إلى كشمير، تحوّلت بالتّدريج إلى الإسلام، إلى أن وصل «سردار الدّين شاه» إلى سدّة الحكم، ليكون أوّل حاكم مسلم لكشمير بعد أن اعتنق الإسلام، وتخلّى عن اسم «رينشانا»، وأطلق على نفسه اسم «سردار الدّين شاه»، وبعد إسلامه أسلم قائده العامّ والعديد من

الهندوس الآخرين، ليستمرّ الحكم الإسلاميّة لكشمير لخمسة قرون (1323–1819)، بعد أن أسلم معظم أهلها هروباً من ظلم الطّبقات، والفقر، والاضطهاد الذي كانوا يعانون منه في ظلّ الدّيانة الهندوسيّة، وشجّعهم على الدّخول في الإسلام التّسامح الإسلاميّ الذي احتواهم بالرّحمة والمحبّة والتّقدير والاحترام، على عكس ما كانوا يُجابهون به في مجتمعاتهم الطّبقيّة القاسية التي تحقّرهم، وتعذّبهم شتّى أنواع العذاب.

كشمير الجريحة:

يظنّ الجاهل أو الغرّ عندما يزور إقليم «جامو كشمير» أنّه يزور إقليماً هنديّاً شأنه شأن أيّ أرضٍ من الأراضي الهنديّة الشّاسعة التي تمتدّ عبر شبه قارّة عملاقة، وقد يظلّ يعتقد هذا الاعتقاد المغلوط حتى عندما يغادرها إن لم يكن حصيفاً مثقّفاً ملاحظاً للتّفاصيل قارئاً في التّاريخ، باغياً فكّ طلاسم ما يجري حوله من متناقضات في الإقليم، ويكون دليله على اعتقاده هذا أنّه رأى دوريّات الشّرطة الهنديّة في كلّ مكان ذهب إليه في كشمير، ورأى علمها يرفرف فوق المؤسّسات الحكومة، ورأى ختم دولتها على صفحات جواز سفره عند الدّخول إلى الإقليم، وعند الخروج منه.

لكن الحقيقة غير ذلك تماماً، فعندما تسير في الدّروب، وتتفاجأ مثلي بوجود عبارات مكتوبة بالعربيّة على جدران البيوت والمتاجر تقول: «فلسطين حرّة مسلمة»، أو «كشمير هي فلسطين الجريحة»، أو «لا لقتل الفلسطينيين في القدس وغزّة»، أو «دمنا فداء فلسطين»، أو «لترحل إسرائيل والهند»، فعندها ستدرك حقيقة موقف الكشميريين

من السّيطرة الهنديّة على بلادهم؛ فهم يرونها احتلالاً لوطنهم، وبعضهم يفضّلون الانفصال عنها لينضمّوا إلى باكستان المسلمة، في حيث أنّ حركة التّمرّد الكشميريّة الانفصاليّة تنادي منذ عقود بالاستقلال عن أيّ كيان آخر، وحُكم نفسها بنفسها.

يرى الكشميريون أنّ مأساتهم هي شبيهة بمأساة فلسطين، ويرون مطالبتهم بالانفصال هي صورة عن مناداة الفلسطينيين بتحرير وطنهم المغتصب، ويدعمون هذه المناداة بحكم الدّيانة المشتركة والقضيّة المشتركة، وهم بذلك يربطون قضيتهم بالقضيّة الفلسطينيّة التي أصبحت رمزاً لكلّ قضيّة نضال عادلة في العصر الحديث.

عند زيارتي لكشمير كانتْ ما تزال هناك تشنّجات وتوتّرات كبيرة فيها جرّاء غضب شعبيّ في الشّارع الكشميريّ المسلم وبعض الجهات الهندوسيّة المتعقّلة جرّاء تصريحات سابقة للحكومة الهنديّة حول نيتها بناء تجمّعات سكنيّة منفصلة لآلاف الهنود الهندوس الذين كانوا قد تركوا كشمير إبّان حركة التّمرّد الكشميريّة الانفصاليّة ضدّ الحكومة الهنديّة؛ ذلك لأنّ الكشميريين المسلمين يرون في هذه المبادرة محاولة لأجل التّقسيم الدّينيّ والطّائفيّ في الإقليم، بدل محاولة ردّ الكشميريين الهندوس إلى أراضيهم، ودمجهم بشكل طبيعيّ مع مواطنيهم من الكشميريين المسلمين؛ ليعشوا جيراناً متحابّين، لا أعداء مفترضين في مناطق معزولة، بعد أن قرّرت الحكومة الهنديّة انتزاع نحو 200 دونم من أراضي المزارعين الكشميريين المسلمين، وبناء تجمّعات سكنيّة هندوسيّة عليها، مزوّدة بالمدارس ومراكز التّسوّق والمستشفيات وملاعب الأطفال والشّبيبة.

لقد حدّثني بعض أهل كشمير أنّ نحو 300 ألف كشميريّ

هندوسيّ قد تركوا منازلهم في أحياء كشمير في بداية حركة التّمرّد هناك؛ خوفاً من الاضطهاد، وانتقلوا إلى العاصمة الهنديّة «نيودلهي» للعيش فيها.

أهل كشمير المسلمون يرون هذا التّقسيم الطّائفيّ للكشميريين أشبه ما يكون بما يفعله الكيان الصّهيونيّ في فلسطين من تقسيم وعزلة قهريّة لأبنائها الفلسطينيين، وأنّ الحكومة الهنديّة بفعلها هذا ليستْ إلاّ صورة أخرى من الاحتلال الصّهيونيّ الذي يزرع الفرقة والبغضاء في كلّ مكان.

سمعتُ من النّاس أنّ سيد علي جيلاني زعيم «حزب مؤتمر الحريّة» الكشميريّ قد ندّد بالحكومة الهنديّة وقراراتها قائلاً: «تريدون أن تخلقوا فلسطين أخرى في كشمير، من حقّ الكشميريين الهندوس أن يعودوا إلى وطنهم، لكن دون عزلهم في تجمّعات سكنيّة خاصّة».

لقد تراجعت الحكومة الهنديّة إبّان زيارتي لإقليم كشمير عن قرارها الغاشم هذا، وأرجأت البتّ فيه إلى وقت آخر، وما دريتُ حينها أيكون قرارها الحاسم في وقت زيارتي للإقليم، أم بعده؟ لكنّني غادرتُ كشمير بصحبة أمّي، والقرار لم يُحسم بعد، والتّوتّر في أوجه، والاحتقان واضح على الأطراف جميعها لاسيما بعد أن قامت الحكومة الهنديّة بدعوة الكثير من الهندوس الكشميريين ليكونوا ضيوف شرف في حفل عسكريّ في الإقليم للجيش الهنديّ.

لقد لفت نظري محاربة الكشميريين بالحجر شأنهم شأن الفلسطينيين، حتى يكاد الرّائي، وهو يرى مشهد الأطفال والشّبّان الكشميريين الملثّمين بقمصانهم، ويرشقون الحجارة رجال الشّرطة الهنود المدجّجين بالسّلاح، يتذكّر الصّور المشابهة لمشهد المناضلين

الفلسطينيين، وهم يحملون العلم الفلسطينيّ، ويرشقون الجنود الصّهاينة بحجارتهم الثّائرة غير آبهين بأسلحة العدوّ أو عتاده أو فتكه بهم.

لقد شاهدتُ في بعض الأخبار المتلفزة بعض الكشميريين يحملون أعلاماً فلسطينيّة أثناء رشقهم الحجارة على الجنود الهنود بعد صلاة الجمعة في إحدى مساجد المدينة احتجاجاً على تكرار اعتقال قياديّ بارز في حركة الانفصال الكشميريّة؛ كأنّهم يوحّدون بين القضيّة الكشميريّة والقضيّة الفلسطينيّة، ويصّرحون بأنّ الكيان الصّهيونيّ والهند شريكان في القمع والاحتلال والظّلم والاستبداد.

كشمير عندما تغنّي رغم أنف الحزن:

على الرّغم من الظّروف القاسية التي تمرّ كشمير بها منذ عقود طويلة إلاّ أنّها ظلّت تحاول أن تحتفظ بتراثها الفنّي المتمثّل أساساً في الموسيقى والرّقص والمسرح.

موسيقاها الكلاسيكيّة الكشميريّة هي خليط ناجح ومبدع بين الموسيقى الكلاسيكيّة الهندستانيّة والإيرانيّ، وهي موسيقى تعتمد على الأنغام الهادئة الشّجيّة، وتفارق الصّخب، ولا تميل إليه.

آلة «السّانتور» هي الآلة الموسيقيّة الأساسيّة في الموسيقى الكمشيريّة، وهي ذات مائة وتر، ويُعزف عليها من خلال عصوين لهما انحناء واضح، إلى جانب وجود آلة الرّبابة والطّبلة في عائلة الآلات الموسيقى الكشميريّة، وهي ترافق الأغاني المؤلّفة باللّغة الفارسيّة والكشميريّة.

هناك الكثير من الرّقصات الكشميريّة الفلكوريّة الشّهيرة، مثل رقصة «الرّوف» التي تؤدّيها النّساء الكشميريّات في الغالب، وهي رقصة مرتبطة بموسم الرّبيع والاحتفال به؛ لذلك تلبس النّساء الملابس

الزّاهيّة لهذه الرّقصة، وتنقسم في صفّين في رقصة مشتركة متناغمة.

كذلك تشيع رقصة «باسا ناغما»، وترجمة اسمها «صوت المراهق الشّجيّ»، وهي رقصة فلكلوريّة شعبيّة قديمة شائعة في كشمير وجامو، وهي في الأساس رقصة خاصّة بالشّباب الذّكور، لكن مع الوقت حدثتْ تغييرات فيها، فأصبحت الفتيات تشترك بها، ليعبّروا جميعاً عن الفرح والحماس بموسم الحصاد، إلى جانب المشاركة بهذه الرّقصة في حفلات الزّفاف والختان، وغيرها من المناسبات السّعيدة.

المسرح حاضر في الفنون الكمشيريّة، وهو مسرح ذو مسحة كوميديّة سوداء ذات سخريّة ونقد لاذع، يبرز معاناة الإنسان في مكابداته اليوميّة، وكان هذا المسرح يعتمد في بداية أمره على فرق مسرحيّة متخصّصة اسمها «باهاند»، ثم ظهر نمط مسرحيّ شعبيّ آخر اسمه «شاهاكري»، وقد ساهمت الإذاعة والتّلفزيون في نشره، وتقديمه للذّائقه الجماهيريّة.

طعام دون بهارات:

كم شعر موظفو النّزل السّياحيّ بالعجب والاستغراب عندما طلبتُ ووالدتي أن يطبخوا لنا الدّجاج والأرز بالملح والزّيت فقط دون إضافة أيّ بهارات أو توابل أو منكّهات عليه؛ لأنّ أمعاءنا ما تستطيع أن تحتمل حرقة الطّعام الكشميريّ أو الهنديّ، فنزلوا عند رغبتنا بكلّ أدب بعد أن سمحوا لي بأن أدخل معهم إلى مطبخ النّزل لأشرف على هذا الطّهو الذي لفت نظر الجميع، ووقفوا مشدوهين ليشاهدوني وأمّي أمّ بطبوطة نأكل الطّعام مسلوقاً دون توابل، وهم مَنْ يعشقونها حدّ الولع، ويدسّونها في طعامهم بكميّات كبيرة.

لقد عجبوا كيف زهدتُ وأميّ بمتعة الطّعام الحارّ المتبّل، ولم يعرفوا أنّني زهدتُ بمتعة طعامهم الحارّ الذي أميل إليه، كما زهدتُ بمتع أخرى مقصودة في بلادهم، مثل متع الصّيد والسّباحة والتّزلّج على الماء؛ لأنّها متع جسديّة تعجز أمّي عن مشاركتي بها، وأنا لا يمكن أن أذوق متعة دون أمّي، فأحرّمها على نفسي، وألتفتُ إلى ما يمكن أن أشرك أمّي به من متع، دون أن تعرف أنّني أتوق لأكل الطّعام الكمشيريّ الحارّ، لكنّني أزهد به إكراماً لذوقها في الزّهد به.

طوال إقامتي في كشمير حمدتُ الله العليّ العظيم؛ لأنّني لستُ من هواة لحم البقر، وأمّي تمقته؛ لأنّ وشائجه عصيّة على الهضم في معدتها الشّفيفة الحسّاسة، وزاد نفورنا من هذا اللّحم عندما علمنا أنّ من الشّائع في الإقليم أن يتعرّض المسلمون لا سيما مربّو الأبقار لاعتداءات وحشيّة من المواطنين الهندوس الذين تحرّم ديانتهم نحر الأبقار وأكل لحومها، في حين ينفّذ المسلمون تعاليم دينهم بنحر الأبقار أضحيات في عيدهم؛ لاسيما أنّ لحم البقر هو الأرخص في الهند وكشمير مقارنة مع لحم الضّأن والماعز ولحم الأسماك والدّجاج وبعض الطّيور الأخرى.

إنّ وجبة من لحم الأبقار في كشمير قد تكلّف المرء حياته، وأنا شخصيّاً أزهد في هذه الوجبة التي قد تحصد رأسي ثمناً لها.

الحقيقة أنّني أفضّل لحم الضّأن الذي ينحاز إليه المطبخ الكشميريّ الذي يعرف أكثر من ثلاثين نوعاً منه، وهو مطبخ غني بالأطعمة التي وردتْ إليه من «أوزبكستان» مع غزو تيمور للإقليم، ثم تأثّر بعد ذلك بمأكولات آسيا الوسطى وبلاد فارس وأفغانستان.

بهار العشّاق:

الكاري هو أهمّ ما يميّز المطبخ الكشميريّ، ونوع كاري «البالتي» هو الأشهر لطعمه المميّز، وقد جلبه المهاجرون الباكستانيون من منطقة «بالتستان»، إلى جانب الاهتمام بالبهارات الأخرى، مثل: القرنفل والقرفة والهيل والزّنجبيل، في حين لا يلاقي البصل والثّوم حضوراً في الأطباق الكشميريّة، وقلّما يكون له حضور في أيّ منها.

«بهار العشّاق» كما يُطلق عليه في النّصوص الأدبيّة هو ملك المطبخ الكشميريّ دون منازع، والمقصود به هو الزّعفران المعروف باسم «الذّهب الأحمر»، لندرته؛ فكشمير واحدة من أشهر أربع مناطق لزراعته في العالم منذ أن بدأتْ في ذلك في القرن السّادس عشر، وهي تشتهر بجودة الزّعفران الذي تزرعه، ويتوفّر فيها بكثرة؛ لذلك يدخل في أطباقها ومشاريبها وحلويّتها ومعجّناتها، وفي طبخ أرزّها وخبزها.

يقّدم الكشميريون المسلمون طبق «الوازوان» الشّعبيّ في أعراسهم التي تمتدّ عادة إلى ثلاثة أيّام متتالية، وهم يتفنّنون في تقديمه، وتزينه، كما يتفنّنون في استقبال الضّيوف، وتقديم ألذّ الأطعمة لهم التي لا تخلو من جوز الطّيب والتّوابل الحارقة والصّلصات المختلفة وكرات اللّحم المفروم التي تقّدم مع الأرز والخضار.

يُصنع هذا الطّبق من اللّحم، وهناك ثمانية أنواع من اللّحم التي تُستخدم فيه، وهناك طبق شهير منه يشبه الطّبق العربيّ التُّراثيّ المُسمّى المضيريّة، كذلك هناك طبق موروث شعبيّ اسمه» ترام»، أو «ترامي»، ويأكل فيه أربعة أشخاص معاً.

حلوى «فيرني»، و«بلاو» هي الأشهر في كشمير، وهي تتكوّن من الثّمار الجّافة والسّكر والزّيت، ويُضاف اللّبن إلى طبق «فيرني».

من يزرْ أسواق كشمير ومطاعمها قاصداً التمتّع بوجباتها اللّذيذة، فلا بد أن يتذوّق طبق «الكشمير ديمو ألو»، وطبق «الرّوغان جوش»، وكلاهما طبقان كشميريان، وقد انتشرا في الهند كلّها، ثم في العالم بأسره، ونالا إعجاب الذّوّاقة في كلّ مكان.

طبق «الكشمير ديمو ألو» هو من الوجبات النّباتيّة بامتياز، ويتكوّن من البطاطس المقليّة على هيئة قطع صغيرة منتظمة، إلى جانب الفلفل الحارّ والأرز، وفي بعض الأحيان يُضاف إلى الطّبق بعض الخضراوات للتّزين وإعطاء نكهة إضافيّة للطّبق.

أمّا طبق «الرّوغان جوش»، فهو الطّبق الحارّ التّقليديّ الذي ابتكره الكشميريون، ويتكوّن من لحم الغنم مع صوص الفلفل الحارّ، وهو طبق مميّز لكلّ منطقة يطبخ فيها في نواحي كشمير.

يمتاز المطبخ الكمشيريّ بطريقة تعامله مع التّوابل؛ فهو على خلاف المطعم الهنديّ لا يقلي التّوابل مع الطّعام، بل يُغلى مع الطّعام، الأمر الذي يغمر الأطباق بنكهة مختلفة، ويهبه رائحة عطريّة زكيّة ومشهية.

في خضمّ تعرّفي على بعض الطّعام الكشميريّ الذي لم يسعفني الوقت والحظّ لأتذوّق الكثير من أصنافه، كنتُ أتذكّر تلك المرأة الهجينة التي كانت تفرض صداقتها عليّ وعلى مجموعة من الكتّاب في العاصمة الأردنيّة عمان، لقد كانتْ تعتقد أنّها خبيرة في الطّعام الكشميريّ؛ لأنّها تناولت الطّعام في مطعم طعام كشميريّ في عمّان لبضع مرّات على حساب الأصدقاء الذين كانتْ تصطادهم لهذا الهدف، لم تكن تعرف أيّ اسم من أسماء الطّعام الكشميريّ، وكانتْ تختاره بإشارة بكماء حمقاء من سبّابة يمناها، ثم تكرّر بتهجّ بعض

الأسماء الموجودة في القائمة قائلة بغلطة وعته «دجاج تكّا» و«رشمي الكباب» و«الشّاهي كورما»، لكنّها على الرّغم من هذا العيّ والجهل كانتْ تعدّ نفسها خبيرة في المطبخ الكمشيريّ الذي لا تدري عنه أيّ شيء في حقيقة الحال.

الشّاعر الحزين:

ماء كشمير فيه عذوبة خاصّة؛ وفيه برودة دائمة، لكنّني عندما كنتُ أشربه لم أمنع نفسي من افتقادي للماء الطّبيعيّ الذي يتدفّق من الينبوع، وتتلقّفه الأيدي، في حين أنّ الحياة المدنيّة المعاصرة علّبت الطّبيعة، وجعلتها مصنّعات في أوعية محفوظة ضمن تواريخ صلاحيّة، بما في ذلك الماء.

شربتُ الكثير من ماء كشمير قبل مغادرتها، وفي طريق مغادرتنا نحو المطار كانتْ قمم جبال الهيمالايا تعانق طيور السّماء المتحدّية للقيود، وتطلّ علينا بإلحاح من خلف الأبنية الجميلة الملوّنة التي تشكّل لوحة معمرانيّة بهيجة تشبه ذلك الثّوب التّقليديّ الجبليّ الذي لبسته في جبالها، وشعرتُ به بدفء الجمال ورونق الأبّهة على الرّغم من برودة الطّقس.

شرعتُ أستذكر وأمي أسرار تلك القمم الثّلجيّة وأساطيرها حيث تعيش بعض القبائل في أجزاء نائية من الهيمالايا في جماعات صغيرة في ظروف معيشيّة قاسية وموارد محدودة؛ لأجل ذلك يتشارك الأخ والأخوان والأخوة في زوجة واحدة، ويكون أبناؤهم هم أبناءٌ لهم جميعاً بالتّشارك والتّساوي، ويقبلون بهذه الحياة الأسريّة النّادرة برضا وتسامح وهدوء، كما يقبلون بتفاصيل حياتهم القاسية النّادرة العطايا،

وينجبون عدداً أقلّ من الأبناء الذي سيشاركوهم مواردهم الشّحيحة على مضض وكره منهم.

ظلّتْ أمّي تحوقل محتجّة على هذا النّوع من الزّواج الشّاذ الخارج عن العرف والعادة والفطرة في المجتمع الإنسانيّ بشكل عام، إلى أنْ انشغلت بالدّعاء بتضرّع لأهالي كشمير بالفرج عندما سمعنا في المطار في طريق مغادرة المكان عن اندلاع مواجهات دامية جديدة في كشمير، وخيّم الصّمت الحزين على الجالسين جميعهم في قاعة انتظار المغادرين، وعلا في آخر القاعة صوت دعاء بالفرج، وهتف الكثيرون بقول: آمين.

حينما أقلعتْ طائرتنا تقلّنا بعيداً عن كشمير الجمال والوجع، كانتْ كلمات شاعر كشميريّ مجهول تدور في ذاكرتي مذبوحة الإحساس:

لا، لا أستطيع شرب جرعة من الماء
أشعر بأنّه أجاج ممزوج بدماء الشبّان
مَن قضوا وسط هذه الجبال

**

لا، لا أستطيع النّظر إلى السّماء
لا، لمْ تعد زرقاء
أشعر أنّها مخضّبة بلون الدّماء

**

لا، لا أقدرُ على الإصغاء
لنهر عَجَّاج
حينها أذكر عويل تلك الأمّ المفجوعة

بجوار جثّة ابنها الوحيد التي تنزف

❋❋

لا، لا أستطيع سماع هزيم الرّعد في السُّحب
كي لا يذكّرني بصوت دوي القنابل والحرب

×××

أشعر أنّ لون الشّحوب قد كسا حديقتي
وربما اكتسب لون الحداد
ومات فيه لون الخُضرة
لا صوت للوقواق ولا للعصافير
كلاهما صامتان
يبدو أنهّما مثلي
أيضاً حزانى

❋❋

في السّماء هناك كان يحلّق بي وجعان؛ وجع كشمير المسلمة الذّبيحة، ووجع فلسطين الأسيرة المخذولة، وكانت الأخبار تنتظرني عندما أهبط في مطار مدينة نيودلهي لأعرف عن سقوط المزيد من الشّهداء على أرض فلسطين، وتجدّد تدفّق نهر الدّم الزّكي هناك.

الرّحلة الثّانية

أم بطبوطة تعاتب أبا بطبوطة

(رحلة في آغرا)

«هل يجب على المذنب أن يلجأ إلى هنا؟
مثل المعفو عنه، أصبح خالي من الخطيئة
هل يجب على الآثم أنْ يشقّ طريقة إلى هذا القصر؟
خطاياه السّابقة جميعها تمّ التّخلص منها
مرأى هذا القصر خلق تناهيد الأسى،
والشّمس والقمر تذرفان الدّموع من العيون
في هذا العالم تمّ بناء هذا الصّرح لإظهار مجد الخالق فيه»

الإمبراطور المغوليّ شاه جاهان يصف «تاج محلّ»

أمّ بطبوطة تعاتب أبا بطبوطة:

وقفتْ أمّي أمّ بطبوطة (نعيمة المشايخ) أمام القبر المرمريّ المهيب، بعد أن أصختْ باهتمام لقصّة الامبراطور المغوليّ العاشق «شاه جاهان» الذي بنى «تاج محلّ» كاملاً ضريحاً أسطوريّاً لزوجته الثّالثة «أرجو ماند بانو بيجوم» الملقّبة بـ «ممتاز محلّ» التي كانت الأقرب إلى نفسه من زوجاته ومحظياته كلّهنّ، وتوفّيت أثناء ولادتها لطفلهما الرّابع عشر.

تأمّلت القبر بما فيه من عظمة لا تناسب حطام الموت، لكنّها تنسجم مع أهوال العشق، ومدامع العشق والصّبابة والافتتان عند أهل العروش.

تنهّدت أمّي أمّ بطبوطة بحسرة، ثم انثنتْ إلى جانب الحاجز المرمريّ الأبيض المزخرف، ودارتْ بيسر دمعة برقتْ حرقتها في عيني، فاقتربتُ منها مشدوهة لأعرف سرّ حزنها المفاجئ، وهي مَنْ كانت تزور المكان بفرح وغبطة، وتتبادل الملاحظات والأسئلة والأحاديث المشوّقة الودودة مع مرافقنا الباحث الهنديّ الشّاب داوود فيصل، إلاّ أنّ حزناً ما قد داهم روحها؛ فاختفتْ ابتسامتها الطّاهرة البريئة على حين غرّة، بعد أن دخلنا غرفة دفن الامبراطور وزوجته في «تاج محلّ».

اغتمّ داوود عندما رأى أمّي تبكي، واقترب منها ليعرف سرّ حزنها، واقتربتُ من أمّي أكثر لأكون أوّل مَنْ يمسح دمعتها الطّاهرة، ويعرف سرّ كدرها المفاجئ، وعندما أصبحتْ أنفاسها السّخينة في محاذاة خدّي،

سألتُها بحنو وقلق: ما الذي أبكاكِ وأزعجكِ يا أمّي؟ أتراني أحزنتكِ بسلوك أرعن ما قد بدر منّي؟

نظرتْ أمّي إليّ مهمومة، ولوتْ رقبتها باتّجاهي بخجل وسريّة كي لا يسمع داوود كلامها، ثم أجابتني بحرقة: انظر ماذا يفعل الرّجال لزوجاتهم؟ هل سيبني أبوكِ لي ضريحاً عظيماً كهذا إنْ متُ قبله؟ طبعاً لن يفعل ذلك؛ فهو حتى لم يبنِ لي أيّ قصر في حياته. فكيف يفعل هذا بعد مماتي؟

حملقتُ في وجه أمّي مشدوهة، وتعاطفتُ مع غيرتها النّسائيّة التي شعرتُ ببعض منها كذلك، ثم انفجرتُ بالضّحك بما لا يليق بالوجود في حرمة حجرة فيها قبران، حملق الزّائرون جميعاً في وجهي مستنكرين مستائين من سلوكي، ثم تجاهلوا ضحكاتي، حتى خفتتْ إلى أنْ توقّفتْ، وأخذتْ أمّي تضحك هي الأخرى بعدما توقّف ضحكي، فمددتُ يدي إلى كتفها، وهي الأقصر قامة منّي، والأطول منّي باعاً وبركة وخيراً وتقوى، وشدّدتها إلى جسدي، وقبّلتها على جبينها الطّاهر البلّوريّ اللّون، ومسحتُ دموعها السّخينة، ثم همستُ في أذنها: من الصّعب أن تجدي رجلاً عاشقاً مجنوناً مثل الامبراطور «شاه جاهان»، لكن يجب أن تلحّي على أبي ليبني لكِ ضريحاً مشابهاً لضريح «تاج محلّ».

انفجرتْ أمّي بالضّحك من جديد، ونسيتْ حزنها من أبي زوجها الذي لم يبنِ لها قصراً أو ضريحاً يليق بتضحياتها من أجله ومن أجل أبنائهما وبناتهما وأسرتهما التي بنياها على امتداد أربعين عاماً ونيف من الجهد والتّضحية، وتبعني داوود بخطوتين وما درى ما أبكي أمّي، وما أضحكها، لكنّه اكتفي بالصّمت العميق المؤدّب، وهو مَنْ كان

يجيد فنون الأدب والتّعامل مع النّاس لاسيما الأكبر منه سنّاً؛ لذلك حظي بمحبّة أمّي، وباتتْ تأنس به، كأنّه واحد من أبنائها، وتتحدّث معه دون توقّف؛ إذ إنّه يتقن اللّغة العربيّة، وهو مَنْ كان يعدّ أطروحة الدّكتوراه في جامعة «جواهر لآل نهرو» الهنديّة الشّهيرة.

من جديد عدنا ننتظم كيفما اتّفق في درب أفواج الزّائرين للمكان، وهم عندئذ عدد عملاق من البشر من مختلف الأجناس والأعمار والألوان والهيئات والدّيانات والأفكار، ولا يجمعهم في تلك اللّحظة سوى الاحتراق من شدّة الحرارة، والانبهار بجمال الضّريح، والأخفاف الزّرقاء القطنيّة الشّفيفة التي يلبسها الجميع فرضاً من إدارة الضّريح؛ كي لا يجرحوا بأحذيتهم العاديّة سطح الأرض المصنوع من المرمر، كأنّه قطعة من قصور الجانّ في ألف ليلة وليلة التي تغمر الكون ببريق رخامها الأبيض النّقي المشعّ.

لا أحد يستطيع الدّخول إلى المكان إلاّ سيراً على الأقدام؛ ولا يُسمح له بأن يُدخل معه سوى ماء للشّري في زجاجة شفّافة، وكاميرات فيديو صغيرة، وهواتف نقّالة، ومحافظ نسائيّة صغيرة، وفي السّاحات الخارجيّة للمبنى لا يُسمح بمرور السّيارات حفاظاً على البيئة.

تجوّلنا في بعض حدائق الضّريح؛ إذ يصعب زيارة حدائقه ومبانيه كاملة في يوم واحد وفي زيارة واحدة؛ لأنّها تمتد على نحو 17 هكتار، اقتربتُ من أمّي، وقرأتُ لها من ورقة تعريفيّة عن المكان بأنّ البناء في هذا المكان الذي هو في حقيقته ليس ضريحاً فقط؛ بل هناك مسجد ومبنى ضيافة، وقد قد استغرق بناؤه 22 عاماً من العمل الموصول، وأنّ الامبراطور المغوليّ العاشق كان ينوي أن يبني ضريحاً آخر تقديري

لزوجته المتوّفاة على الجهة الأخرى من النّهر على أن يكون من الرّخام الأسود، لكنّ حربه مع أبنائه، وخلعهم له عن عرشه قد قتل هذا المشروع العاشق إلى الأبد، في حين ظلّ مشروعه الأوّل الذي أصبح حقيقة رومانسيّة إسلاميّة معماريّة خالدة هو جوهرة مدينة «آغرا» الهنديّة، ليظلّ يروي للدّنيا قصّة العشق التي تأبى أن تموت بموت بطليها.

عندما سمعتْ أمّي هذه المعلومة لمحت الهمّ والغيرة تداهمها من جديد، لكنّني ابتسمتُ لها، وداعبتها قائلة: هل رأيت الرّجال العاشقين ماذا يفعلون؟ فأدركتْ أمّي أنّني أمازحها كي لا تغتمّ من جديد من عطايا الأزواج العاشقين الأثرياء الذين لا يمكن لأبي المسكين أن يجاريهم في هداياهم المستحيلة، أو في عطاياهم الباذخة، ولا يملك ما يملكون من رومانسيّة فطريّة قادتهم إلى الخلود في أسفار الحبّ والهائمين في دروبه، كما لا يملك ما يملكون من مال وجوهر كي يبني لها القصور والمراقد من المرمر والذّهب والماس والجوهر.

من جديد عدتُ أقرأ لها بعض المعلومات الطّريفة عن هذا البناء المذهل من الكتاب التّعريفيّ الذي أحمله، وأنا ألوّح لها باتّجاه تفاصيله على الحقيقة بعد أن أقرأها من الورق صاحب البوح الموصول، وداوود يثني على ما قلت، ويضيف إليه، ويشرح لنا ملغزه، لاسيما أنّه خبير في الأماكن السّياحيّة الهنديّة، وعليم في الجولّات فيها، وهو مَنْ أخبرنا أنّه يعمل مرشداً سياحيّاً في أوقات فراغه كي ينفق على نفسه ودراسته وأسرته فيما يحصل عليه من مال من هذه المهنة التي تناسب طبيعته الحاذقة المرنة الودودة.

أكثر ما أثار عجب أمّي أنّها عرفتْ أنّ أكثر من 1000 فيل قد

شاركوا في نقل الأدوات والمواد إلى المكان من أجل البناء، وأنّ 22 ألف عامل من الهند وتركستان وسوريا وفارس وبغداد من بنّائين ومعماريين ورسّامين ومطرّزين وقاطعي حجارة قد شاركوا في البناء لمدة 22 عاماً ليصنعوا معاً هذه التّحفة المعمارية التي تقع في وسط أربعة مآذن رفيعة متساوية الطّول، وتعلوها القباب والقناطير المنحنية بتطابق كامل من الجّهات الأربعة، وتلفّها الحدائق والكثير من المباني التي تقع داخل أسوارها، بما فيها المسجد وبيوت الضّيافة، والضّريح كلّه محاط بأسوار مانعة وبوابات كبيرة مزخرفة جميلة عالية الارتفاع، لا يمكن الدّخول إلى المكان إلاّ عبرها، وهي ضخمة ثخينة في متنها غرف وحجز للحرّاس والطّعام وقضاء الحاجات والسّلاح والمؤن، ولها مآذن جانبيّة مربّعة الأضلاع، ومدخلها مجوّف نحو الدّاخل مثل نصف قبّة مقلوبة، وهي تشي لرائيها بالمهاباة الموجودة فيما خلفها من بناء.

هذا الضّريح الذي ظهر إلى الوجود عام 1652 في مدينة «آغرا» الهنديّة في إقليم «أوتار برداش»، يقع على نهر «يامونا»، وقد شُيّد كاملاً على مصطبة من المرمر الأبيض، وهو مبنيّ من الرّخام الأبيض المجلوب من «جدهابور»، وهو رخام مضلّع بخطوط زرقاء دقيقة، وقبّته مزيّنة بالرّخام والأحجار الكريمة، ويبلغ قطرها 17متر، وترتفع عن الأرض بمقدار 5و22 متراً، وسارية القبّة من الذّهب الخالص، ومآذنه الأربع البديعة هي من الرّخام الأبيض البهيّ، وارتفاع كلّ منها هو 37 متراً، وهي مقامة على الزّوايا الأربع للمصطبة الرّخاميّة التي تحتوي الضريح في نصفها، وكلّ من هذه المآذن محاط في أعلاه بثلاث شرفات.

على جدران الضّريح رسم الخطّاط سردار أفندي سورة يس، أمّا قبري الامبراطور وزوجته فهما مصنوعان من الرّخام المرمر، ومزيّنان بعدد

لا حصر له من المجوهرات واللّؤلؤ والياقوت، وهما يقعان تماماً تحت وسط قبّة الضّريح.

«تاج محلّ» ليس ضريحاً حسب؛ فالضّريح هو المبنى المربّع الذي يربض في نصف المصطبة الرّخاميّة، ومن غربه وشرقه هناك مبنيان متشابهان تماماً على نيّة التّناظر الهندسيّ، أحدهما مسجد يحتوي على 569 سجادة للصّلاة على رخام أسود، وتصميمه غير معقّد، وله رواق طويل تحفّه قباب ثلاث تشبه تلك القباق الموجودة في المبنى المناظر للمسجد الذي يحمل اسم «جواب»، ويُستخدم داراً للضّيافة.

الصّلاة في مسجد «تاج محلّ» لها نكهة خاصّة؛ فهي صلاة في أحضان الأبّهة والجمال المطلق المنشود، وهي صلاة تجمع ما بين العشق الإلهيّ والخضوع للخالق والعشق الآدميّ الذي أُشيد المكان لأجله.

هناك خلق كثير من المسلمين الذين يزورون المكان، يصلّون صلاة تحيّة المسجد فيه، فيما يقف غير المسلمين يطالعون صلاتهم بوصفها جزءاً من اكتمال طقوس هذا المكان المسلم في غابة هندوسيّة زعفرانيّة كبيرة تمتدّ عبر جغرافيا الهند.

«تاج محلّ» الذي يُطلق عليه أحياناً لقب تاج القصور، قد أُدرج في قائمة اليونسكو للتّراث العالميّ منذ عام 1983، واسم «تاج محلّ» محرّف عن اسم الامبراطورة «ممتاز محلّ»، وهو نموذج للطّراز المعماريّ الإسلاميّ المزيج بين المعمار الفارسيّ والمغوليّ والتّركيّ والعثمانيّ والهنديّ

لقد أمر الامبراطور بالشّروع في بناء هذا الضّريح بعد عامين من وفاة زوجته الحبيبة، وقد أولى مهمّة إنشائه للمعماريّ عيسى شيرازيّ وللمعماريّ أمان الله خان شيرازيّ، أمّا قبّة الضّريح فقد خطّط لبنائها محمد إسماعيل أفندي القادم من اسطنبول، في حين قام سردار

أفندي برسم الخطوط المكتوبة على جدران الضّريح، بعد أن تمّ إحضار مواد البناء من سائر أنحاء الهند ومن التّبت والبلاد العربيّة.

لا يمكن المرور من البوّابات الخارجيّة للضّريح إلاّ بعد المرور في عدّة إجراءات، أوّلها شراء تذكرة الدّخول إلى الضّريح، وآخرها المرور في نقاط تفتيش كثيرة ودقيقة؛ فالحرّاس لا يسمحون لأحد بأن يدخل إلى المكان وفي حوزته أيّ جسم أو آلة يمكن أن تجرح بناء الضّريح أو أرضه، ويفرضون على مَنْ يدخل إليه أن يلتزم بجملة من الأمور للمحافظة على الضّريح، وأهمّها اقتناء خريطة للمكان، وشراء خفين قطنيين للاستعمال الواحد من أجل لبسهما منذ أوّل لحظة تطأ القدم فيها أرض الضّريح كي لا تجرح مصقول ملمسه اللاّمع الفتّان.

من عادة الهنود أن يزوروا الضّريح كثيراً، وتذاكر دخولهم إليه رمزيّة زهيدة، أمّا غير الهنود فيدفعون مبالغ طائلة لقاء دخولهم إلى المكان، لكنّهم ينسون ما دفعوا من مال طائل عندما يطلّ الضّريح عليهم بسحره وفتنته، ويغرقون في أطياف ألوانه البهيّة التي تهبه اللّون الورديّ في الصّباح، والأبيض الحليبيّ في المساء، والذّهبيّ في اللّيل عندما ينعكس ضوء القمر عليه.

لا بدّ للزّائر للضّريح من أن يصل في نهاية مطاف الرّحلة إلى غرفة دفن الامبراطور وزوجته حيث ينداح قبران متجاوران من المرمر المحفور مزخرفان بالزّهور والزّخارف الإسلاميّة، والخلق يتجمّعون هناك في دهشة من هذا الحبّ العظيم الذي أنتج هذه التّحفة الخالدة التي غدتْ واحدة من عجائب الدّنيا السّبع، ويتبادلون الأحاديث حول العشق وأهله ومصائر العشّاق ومآلات المحبّين، ويروي كلّ منهم قصّة العاشقين المدفونين في المكان بطريقته الخاصّة، ووفق ما يشتهي، ويروق له أن

يكون الحبّ، وبعض الزّائرين من المسلمين يقرؤون الفاتحة على روحيهما، وكثيراً ما يتمتمون بكلمات وأدعية لا أحد يستطيع أن يعرف ما تكون، وتتعالى الأصوات في المكان، وتتداخل حتى لا يكاد المرء يفهم ما يقول الآخر.

لقد قرأتُ وأمّي وداوود الفاتحة على روحي العاشقين، ورفعنا الأكفّ في الدّعاء، ونحن نعلم أنّ ما نقرأ الفاتحة عليه ليس إلاّ قبرين فارغين صورة لقبرين حقيقيين موجودين في غرفة محكمة الإغلاق في غرفة في أسفل القصر لأجل حفظهما من السّرقة والتّخريب، وما هذان القبران في هذه الغرافة سوى نسخة طبق الأصل عن القبرين الحقيقيين المحبوسين في أسفل القصر.

لكنّ الكثيرين من الزّائرين يجهلون هذه الحقيقة، وينبهرون بالقبرين وصاحبيهما وقصّتهما وحبّهما الخالد وضريحهما الأبّهة، ويجهلان الحقيقة المدفونة في أسفل القصر.

لعلّ ذلك لا يختلف كثيراً عن الحياة؛ فالمعروض البهي المدهش هو أكذوبة في أكثر الأحوال، والحقيقة مدفونة في ظلام مكان ما لأكثر من سبب، ولأكثر من حجة واهية مفتراة.

في الغرفة السّفليّة حيث القبران الحقيقيان تمّ توجيه وجهيهما نحو مكة، ووُضع تابوت «ممتاز محلّ» الرّخاميّ في منتصف الغرفة الدّاخليّة بالتّمام، وشكله مستطيل، وهو مرصّع بالأحجار الكريمة وشبه الكريمة، وعليه نقوش كتابية ترثي «ممتاز محلّ»، ويقع قبر زوجها الامبرطور «شاه جاهان» في الجهة الغربيّة من قبرها، وهو أطول من قبرها، وقاعدته أطول، وهو مرصّع كذلك بالجواهر، ومرسوم عليه نحوت تقليديّة، وقد كُتبتْ أسماء الله الحسنى على القبرين، إلى جانب نقش بارز على قبر

الامبراطور مكتوب عليه «غادر من هذه الدّنيا إلى دار الخلود في ليلة السّادس والعشرين من شهر رجب».

المهمّ أنّني ومن معي قد أتقّنا دور الانخداع بما أراد المسؤولون عن الضّريح أن ننخدع به، وتعاملنا مع القبرين الفارغين المزوّرين على أنّهما حقيقة، لكنّ ذلك لم يمنع أمّي من أن تغتاظ بغضب أنثويّ رقيق من شديد حفاوة الموت التي حظيتْ بها الامبراطورة «ممتاز محلّ» من زوجها العاشق المخلص الذي بنى لها الضّريح في عام 1631، وظلّ ينتظر اللّحاق بها إلى عالم الموت بحزن وحسرة، إلى أن مات أخيراً، ودُفن إلى جانبها في عام 1666، بعد أن انتهى من بناء الضّريح ليكون مرقدهما الأخير، وليصبح تحفة معماريّة إسلاميّة تخلد إلى الأبد، ويغدو جوهرة للحبّ والعمارة في الذّاكرة الإنسانيّة والتّراث المعماريّ.

قد يظنّ الزّائر أنّ زيارة «تاج محلّ» تنحصر في زيارة مبنى ضريحه ذي الرّخام الأبيض، لكن الزّيارة تطول في رؤية مسجد الضّريح والصّلاة فيه، وهي تحفّة معماريّة تشبه في شكلها الخارجيّ شكل بناء ضريح «تاج محلّ»، إلاّ أنّه مختلف اللّون الخارجيّ.

هناك أيضاً متعة التّجوّل في بيوت الضّيافة والخدمات الملحقة بالضّريح، وهي جميعها تحف معماريّة أنيقة، وهي بذات لون المسجد، وتحتوي على العجائب والفرائد، وتشغل العقل والرّوح والذّاكرة في تأمّلها، وهناك أماكن لجواهر منزوعة قيل أنّ الإنجليز المستعمرين للهند قد انتزعوها من أماكنها، وسرقوها كعادتهم فيما يسرقون من الأوطان والأعمار والبشر والحقائق.

حديقة الضّريح تبلغ مساحتها نحو 300 متر مربّع، ويُطلق عليها اسم حديقة «شارباغ» أو حديقة المغول، والحديقة مقسّمة على الممرّات

الأربعة التي تقسّم الحديقة إلى 16 روضة خفيضة ضمن أحواض زراعيّة، وفي نصفها هناك خزّان ماء رخاميّ في المنتصف بين البركة والقبر، واسمه «وعد الكوثر»، وفي منتصف الحديقة هناك بركة عاكسة لصورة الضّريح، وفي الجهة الأخرى من الحديقة هناك نوافير وأشجار.

بعد أن أنهينا جولتنا التي امتدّت لساعات طوال في المكان سيراً على الأقدام، شعرنا بالتّعب الشّديد من المشي وحرارة الشّمس التي تصلي وجوهنا التي احمرّتْ إلى درجة التفّحّم، جلسنا منهكين في الباحة الخارجيّة للضّريح حيث يجلس مئات الزّائرين يستظلّون بالأشجار العتيقة التي يمتدّ ظلّها لأمتار حولها، فيقصدها البشر والحيوان والطّير ليستظلّ بها، وجلس بالقرب منّا قرد أليف من قرود المكان التي تنتشر بكثرة في الضّريح، ويتناوب الزّائرون على تدليلها، وتقديم المكسّرات والموز لها، ثم انحنى رجل عجوز للقرد في حركة تعبّديّة حقيقيّة، وأخذ يتضرّع له داعياً، والقرد يحدّق به غير آبه به.

أمّا أنا وأمّي وداوود، فأخذنا نرقب ألوان الضّريح التي تتغيّر على امتداد اليوم من الأبيض إلى النّيليّ فالبنفسجيّ ثم العاجيّ؛ إذ يتغيّر لون مرمر الضّريح على امتداد اليوم وفق انعكاس أشعة الشّمس عليه، وانعكاس ألوان الزّهور والأمواه التي تحيط به في برك ونوافيز طوليّة جميلة تمتدّ من بوّابة الضّريح الخارجيّة مروراً بالحدائق الدّاخليّة للضّريح حيث الزّهور الملوّنة اليانعة، ثم وصولاً إلى الضّريح والمباني المُلحقة به.

البّوابة الرّئيسيّة للضّريح تنبثق منها بوّابة أخرى داخليّة لها إطلالة بانوراميّة كاملة على الضريح ومبانيه وحدائقه، وهي المكان الأمثل لالتقاط صورة تذكاريّة مع المكان؛ لذلك يحتشد الزّائرون والمصوّرون في المكان، ويحتاج المرء لساعات من التّدافع في المكان كي يلتقط صورة

فيه، لكن الغنيمة تستحقّ العناء والانتظار، وقد حظيتُ وأمّي بهذه الغنيمة بمساعدة مرافقنا اللّطيف داوود فيصل.

القائمون على الضّريح يبذلون جهوداً مثالية في المحافظة على نظافته وجماله، وعمّال الحدائق يرون الزّهور والأشجار دون توقّف حتى لا تجفّ من حرارة الشّمس الحارقة، والبنّاؤون لا يسمحون لعطب بأن يدبّ في ركن من أركان الضّريح، ويلاحقون ما اعتراه من اعتوار بالإصلاح والتّرميم، حتى أنّنا عندما وصلنا إلى الضّريح وجدناه في حالة إصلاح وترميم؛ فقد كانتْ هناك ورشات عمل كبيرة لتصليح مآذنه الأربعة، لكن ذلك لم يغلقه في وجه الزّائرين، ولم يقلّل من جماله وهيبته، ولم يترك أيّ أثر عليه من آثار أعمال البناء، بل كان في كامل ألقه وجماله ونظافته.

لقد علمنا أنّ الضّريح يفتح كلّ يوم من الصباح حتى المساء، ويفتح في اللّيل في مابين السّاعة الثّانية عشرة إلى الثّانية فجراً لأجل متابعة المنظر اللّيليّ للضّريح في ليلة اكتمال القمر، وفي يومين قبله، وفي يومين بعده، حيث تنعكس ألوان القمر والنّوافير والماء عن سطح الرّخام، فتعطيه مشهداً مذهلاً، خلا يوم الجمعة وشهر رمضان حيث يجب إغلاقه لأسباب أمنيّة.

إلاّ أن يوم زيارتنا للضّريح لم يكن من تلك الأيام المتاحة لزيارة الضّريح في اللّيل؛ فأسفنا لذلك أشدّ الأسف، واكتفينا بأن اشترينا صوراً وتحفاً تجسّد المكان من متاجر التّحف والهدايا التي تتدافع في صفوف طويلة في السّاحات التّجاريّة خارج بوّابات الضّريح التي تُسمّى بـ «ممتاز آباد» أو «تاج غانجي»، وهي مدينة تمّ إنشاؤها في البلدة الصّغيرة الواقعة في جنوب «تاج محلّ» لتكون لخدمة الزّوار للضّريح، وتلبية

احتياجاتهم للطّعام والشّراب والرّاحة والاتّصال وتغير العملات النّقديّة وشراء الهدايا والتّحف والتّذكارات.

راق لنا أن نختار الكثير من هدايانا للأهل والأحباب من هذا المكان البهيج، واشتريتُ لنفسي بضعاً من القلائد اليدويّة والخلاخيل الهنديّة الرّنانة، وأنا من عشّاق الخلاخيل النّسائيّة، وألبسها منذ دهر.

الضّريح الذي يكاد يموت:

هناك مخاوف كثيرة حول مستقبل ضريح «تاج محلّ» في ظلّ الأوضاع البيئيّة المحيطة به؛ إذ إنّ التّلوّث البيئيّ على ضفاف نهر «يامونا» بسبب مصافي الزّيت يهدّد هذا الضّريح بالانهيار، كما ظهرتْ تشقّقات في أجزاء الضّريح بسبب اختلال مستوى منسوب النّهر، وهناك ميلان في مآذن الضّريح، والأسس الخشبيّة للنّصب قد تعفّنتْ بسبب نقص المياه، هذا كلّه يهدّد الضّريح بالتّصدّع والانهيار إن لم يتمّ تدارك الأمر في أسرع وقت ممكن.

في اللّحظة التي يهدّد الموت والفناء الضّريح بالهلاك، يتفنّن العالم في استحضار هذا الضّريح في عوالمه؛ فيبنون المباني على صورته؛ فهناك مدينة ترفيهيّة على شكل ضريح «تاج محلّ» في الجزء الغربيّ من مدينة «شينزين» في جمهوريّة الصّين الشّعبيّة، وهناك عدّة مبانٍ صمّمت على شكل «تاج محلّ» في بنغلاديش، كذلك هناك مقابر على شاكلة هذا الضّريح في «أورانقاباد» في ولاية «ماهاراشتارا»، وهناك مبانٍ مشابهة له في مدينتي «أتلانتيك» و«مالواكي» الأمريكيتين، وفي الكويت بُني مسجد فاطمة الزّهراء على شاكلة ضريح «تاج محلّ».

القرود والموز:

هناك وجود كثيف ولافت للقرود السّائبة المسالمة في ساحات «تاج محلّ» وأكنافها وشوارعها وعرصاتها، وهي قرود ألفت النّاس والزّائرين، واعتادت على وجودهم والتّواصل معهم، وكثيراً ما تحظى بالمكسّرات والموز وانحناءات العابدين لها ممّن يمرّون في الدّرب، لكنّني لم أتعاطف مع أيّ منها، وأنا أكل من الموز الذين اشتريناه من ساحة المدينة، وأطرقتُ أتأمّل المتعبّدين لها الذين يصدّقون أنّها آلهة لهم، أو أنّ أرواحاً من أرواح الأحبّة والأقارب تسكن فيها، وتذكّرت القرود الإنسيّة التي يعبدها الجاهلون الضّعاف في العالم، وينحنون لها تقديراً لما تحوي يديها، وتذكّرت صديق لي كان يروق له أن يستحضر شعر حجظة البرمكيّ ساخراً من القرود البشريّة الذّليلة التي تسجد للقرود البشريّة المستبدّة:

سجدنا للقرود رجاء دنيا حوتها دوننا أيدي القرود

فلم ترجعْ أناملنا بشيء رجوناه سوى ذلّ السّجود

ظللتُ أدعو الله في سرّي أن لا يستهدفني أيّ قرد بمشاكسة أو مداعبة؛ فأنفر منه؛ فأنا أخاف من الحيوانات البريّة حتى وإنْ كانتْ مستأنسة، فتكون النّتيجة حرباً طائفيّة عليّ يشارك بها كلّ منتصر لآلهه القرد من الموجودين في المكان، وتكون نهايتي هي نهاية مؤسفة لرحّالة مسلمة أزعجت الإله القرد؛ إذ لطالما كانت المآلات مؤسفة لكلّ مَنْ تسوّل له نفسه أن يزعج القرود في كلّ مكان في الدّنيا، ولاسيما إن كانوا يشغرون مناصب آلهة أو أنصاف آلهة أو كبار المسؤولين والمتنفّذين.

اشترينا الكثير من الموز ليكفينا في جولتنا الطّويلة، لكنّنا ظللنا نتوق إلى أكل حلويات مدينة «آغرا» المشهورة بحلوياتها المتنوّعة

اللّذيذة، وبأكلها الهنديّ الشهّيّ الخليط من الكثير من المطابخ التي توافرتْ على تاريخ هذه المدينة.

«تاج محلّ» من حديقة «ضوء القمر»:

دائماً هناك غرفة خلفيّة تقود إلى الجمال المحرّم على الفقراء، وعلى مَنْ لا يملكون ثمن المتع، هذا الأمر ينطبق على الفقراء الذين يُحرّم عليهم دخول ضريح «تاج محلّ»؛ لأنّهم لا يملكون ثمن شراء تذاكر الدّخول إليه؛ فعندئذ يقصدون حديقة «مهتاب باغ» المشهورة باسم «حديقة ضوء القمر»، وهي تطلّ على ضريح «تاج محلّ» من ربوة ملاصقة له، ويدفعون مبلغ 100 روبيّة فقط لدخولها، فيتمتّعون برؤية الضّريح منها، ويتمتّعون بجمال جنائن الحديقة، وهي بمساحة 25 فدان، وقد بناها الامبراطور المغوليّ «بابور»، وهي تفتح أبوابها للزّائرين يوميّاً من شروق الشّمس إلى غروبها.

يحاذي أسوار ضريح «تاج محلّ» ممشى شهير مسمّى باسم «الضّريح»، ويمتدّ حوالي 9 كيلو متر، ويقع على بعد 500 متر من البوّابة الشّرقيّة لـ«تاج محلّ»، والمشي فيه هو عبارة عن رحلة راجلة بين الغابات الغنيّة بالنّباتات والحيوانات والبيئات الطّبيعيّة المتنوّعة.

هناك أيضاً حديقة «رام باغ»، وهي كذلك حديقة جميلة تتبع ذلك النّظام من الحدائق المنظّمة الشّهيرة في مدينة «آغرا»، وهناك الكثير من الحدائق في المدينة بمزيج رائع مع عمائرها المهيبة ذات الطّابع المغوليّ الإسلاميّ بعد أن تأسّست المدينة عام 1475 في عهد «سلطان اسكندر»، وحقّقت شهرة عالميّة في عهد المغول، وكانتْ تُعرف في عهدهم باسم «أكبر آباد».

مدينة «آغرا» القديمة هي الجزء الأكثر سحراً في المدينة، وهي تستحضر عظمة الدّولة المغوليّة المسلمة في إبّان قوّتها ومجدها، وهي تصبغ المكان بصبغتها الجماليّة والحضاريّة الخاصّة، هذا الجزء القديم من المدينة يتكوّن من عدد مهول من الممرّات الضّيّقة المتداخلة، وفيها بضائع من سائر أرجاء الدّنيا، وتعجّ بمختلف أنواع التّوابل والسّاري والحناء والمجوهرات والأحذية والأعمال الفنيّة والمجوهرات والقماش والملابس والحرفيّة التّقليديّة والوجبات التّقليديّة والحلوى الشّعبيّة.

هناك الكثير من الأسواق الشّهيرة الحديثة في المدينة على غرار هذه الأسواق التّقليديّة الشّهيرة، مثل سوق «كناري بازار»، وهو شارع مزدحم بالمتاجر والأصوات والألوان والرّوائح، والتّسوّق فيه رحلة في عوالم الأسواق الهنديّة.

من طريف ما يجب زيارته في «أغرا» هي «القرية التّراثيّة المغوليّة» المبنيّة على الضّفّة المقابلة من النّهر لـ «تاج محلّ»، وهي بناء حديث ضمن مبادرة مجتمعيّة خاصّة لتقديم نموذج مصغّر عن المدينة المغوليّة وحضارتها.

الحمراء الفاتنة:

لا يمكن أن تكتمل الرّحلة في مدينة «آغرا» دون زيارة قلعتها الحمراء الشّهيرة «قلعة آغرا الحمراء»، وهي منتصبة بشموخ في محاذاة حدائق «تاج محلّ»، ويعود تاريخها إلى القرن المغوليّ السّابع عشر، وقد بُنيتْ من الحجر الرّمليّ الأحمر، وهي قلعة منيعة حصينة، وتستولي على مساحة 5و2 كيلو متر، وتقع داخل حرمها خلف أسوارها العالية

الكثير من القصور الخياليّة، مثل قصر «جاهانكير»، والعديد من الدّواوين والصّالات ومسجدان أنيقان، كما توجد قاعات عامّة للجمهور وأبراج وساحات.

لقد تمّ استحداث قاعة للصّوت والضوء في العصر الحديث، وهي تعمل مساءً، وتقدّم تجسيداً مرئيّاً لتاريخ القلعة وما عاصرت من أحداث.

يذكر المؤرّخون أنّه قد تمّ بناء القلعة في عام 1080م على يدي عشيرة «الراجبوت»، ومن ثم أُعيد بناؤها على هيئتها الحاليّة لتصبح مقرّاً للحاكم المغوليّ الشّهير «جلال الدّين أكبر» الذي بناها من الحجر الرّمليّ الأحمر؛ لتكون نقطة عسكريّة ومقرّاً له، وقد اكتمل البناء في حكم الامبراطور «شاه جاهان» حفيد الامبراطور «جلال الدّين أكبر».

هي مشيّدة على شكل هلال، ومسطّحة في الجانب الشّرقيّ منها، وفيها جدران طويلة ومستقيمة في مواجهة النّهر.

لقد تمّ إلحاق هذه القلعة بمواقع التّراث العالميّ لليونسكو في العام 1983، بعد أن نجتْ من الدّمار على امتداد عصور من الهجمات والحصار.

مقهى الوجوه المحترقة والقلوب الذّائبة:

في مدينة «أغرا» هناك الكثير من المقاهي الشّعبيّة والرّاقية، إلاّ أنّ هناك مقهى شهير لا يمكن أن ينساه مَنْ يزوره، ليس لأنّه يقدّم مشاريب وطنيّة رائعة؛ بل لأنّه مقرّ منظّمة غير حكوميّة تهدف إلى دعم النّساء الهنديّات اللّواتي تشوّهت وجوههنّ بفعل الأحماض التي أُلقيتْ على وجوههنّ وأجسادهنّ، وشوّهتها إلى الأبد.

اسم المقهى هو مقهى «شي روز هنغ»، وقد أسّسته الهنديّة «سمبت بال ديوي» لأجل أن يكون ملجأ لضحايا الحمض الحارق من النّساء، ومقرّاً لإبراز الجريمة التي أُقترفت بحقّهنّ بكلّ وحشيّة.

قد ينشغل الزّائر للمقهى بخدماته ومكتبته الأنيقة ومعارض الكتب والأشغال الفنيّة التي تُعرض في ساحاته وبازارته، لكن مَنْ يملك قلباً خطرت الرّحمة فيه ولو بمقدار وجيب لمرّة واحدة، لا يستطيع إلاّ أن يشعر بأنّ جزءاً من روحه قد احترق تعاطفاً مع تلك الوجوه النّسائيّة المحرقة ببشاعة وتوحّش.

لقد كتب الرّحالة كثيراً في رحلاتهم في الهند عن أبشع منظر في الهند وفق ما يعتقدون، وهو مشهد حرق امرأة على قيد الحياة مع زوجها المتوفّى، إلاّ أنّني رأيتُ في الهند ما هو أبشع من هذا المشهد، وأكثر وحشيّة وحيوانيّة وشيطانيّة منه، وهي ظاهرة الانتقام من النّساء لسبب أو لآخر بأحماض حارقة، مثل أحماض الكبريتيك أو النّيتريك أو الهيدروكلوريك، هذا السّلوك الشّيطانيّ يعرفه العالم كلّه، إلاّ أنّه منتشر على مستوى قطاع عريض في الهند وباكستان وكمبوديا، وأكثر من 80 بالمئة من ضحاياه من النّساء، ويلجأ الرّجال إليه بكلّ وحشيّة للانتقام من النّساء لسبب أو لآخر، وفي الغالب تكون الأسباب هي للانتقام من المرأة بسبب رفضها الزّواج من رجل ما، أو رفضها حبّه، أو رفضها لإقامة علاقة جنسيّة معه بالإكراه، إلى جانب الأسباب الأخرى، مثل المطالبة باسترداد المهر، أو العنصريّة ومعاداة الأقليّات، أو النّزاعات حول الملكيّات، أو صراعات المنّظّمات والعصابات الإجراميّة، إلى جانب جملة من الدّوافع الاجتماعيّة والسّياسيّة والدّينيّة والمواقف من سلوك الآخر إلى درجة حرق وجوه نساء بسبب ذهابهنّ إلى المدرسة في

بعض المناطق، أو بسبب عدم لبسهنّ الحجاب، أو بسبب انتمائهنّ إلى طائفة أو ديانة معيّنة.

يلجأ الرّجال المعتدون إلى هذا النّوع من الاعتداء لإذلال الضّحيّة، والانتقام الشّنيع منها، وإلحاق الضّرر الدّائم بها بما يمنع قدرتها على التّواصل مع الذّات والمجتمع بعد ذلك؛ إذ إنّ هذا الهجوم يؤدّي إلى إحراق الجلد، وأحياناً يسبب العمى أو الصّمم أو العجز عن الكلام، وقد يذيب العظام، لكنّه نادراً ما يسبّب الموت.

إنّه يؤدّي إلى أن تعيش الضّحية الوجع الماديّ والمعنويّ طوال عمرها ضمن ظروف قاهرة غير مساندة لها؛ لا سيما أنّ ضحايا هذه الهجمات هنّ في الغالب من النّساء الفقيرات اللّواتي لا داعم معنويّ أو ماديّ لهنّ، وكثيرات منهنّ يفقدن عملهنّ بعد هذا التّشوّه ليقعن في فقر مدقع يزيد من معاناتهنّ.

في الغالب تستهدف هجمات الانتقام بالحامض الوجه والرّأس، وهذه يؤدّي في الغالب إلى تشوّه عظام الجمجمة، وتساقط الشّعر، وتشوّه غضاريف الأذن ممّا قد يسبّب الصّمم، وتشوّه الجفن واحتراقه ممّا قد يسبّب العمى، وإذابة غضاريف الأنف أو إذابتها، وتشوّه الشّفتين واحتراقهما مما قد يُفقد الفمّ شكله الطّبيعيّ، ويجعله عاجزاً عن الكلام والأكل بشكل طبيعيّ، وقد يسيل الحامض على رقبة الضّحيّة ممّا قد يسببّ منع حركتها، وقد يسبّب استنشاق أبخرة الحمض ضرراً بالغاً في الجهاز التّنفّسيّ، وقد يصل الأمر إلى أن يتفشّي الحامض في الدّم، فيسبّب تسمّمه، ومن ثم تكون هناك حالة الفشل الكلويّ نتيجة تبخّر كميّات كبيرة من سوائل الجسم عبر الحرق.

أبشع ما يمكن أن يتخيّله الوجدان الإنسانيّ أنّ الكثير من المعتدين

هم على علاقة قرابة وثيقة بالضّحايا من النّساء؛ فقد تكون ابنته أو أخته أو زوجته أو طليقته، وهنا يصبح العذاب أبشع، والجريمة أكبر، والمعاناة النّفسيّة ملازمة.

لقد سألتُ كثيراً عن العقوبات المترتّبة على مَنْ يقترفون هذه الجريمة البشعة، فهالني أن أعرف أنّها عقوبات تافهة مقارنة بحجم بشاعتها، وأنّها غير رادعة أبداً، فضلاً أنّ الكثير من المجرمين يفلتون من العقاب لكثير من الأسباب؛ وهذا يشجّع المجرمين على اقتراف هذه الجريمة مرّة تلو الأخرى، وتكون النّتيجة المزيد من النّساء ذوات الوجوه المحترقة والقلوب الذّائبة حزناً وألماً ووجعاً.

هناك الكثير من المنظّمات الهنديّة التي تناهض هذه الجريمة، وتحاول مواساة ضحاياها، مثل المنظّمة التي أسّستها الهنديّة «شيرين جوالي» التي قام زوجها بإلقاء الحامض عليها لطلبها الطّلاق منه.

كما أنّ هناك هنديّات شهيرات قد كنّ ضحايا الحامض، ومنهنّ «بانو» الهنديّة التي تحوّلتْ إلى عارضة أزياء شهيرة تعرض مأساتها ومأساة نظيراتها من الضّحايا بفضل منظّمة «اصنعوا الحبّ لا النّدب» التي ساهمتْ في دفع تكاليف العمليّات الجراحيّة لها، وإعادة تأهيلها، وإن لم تستطع أن تشفيها من التّشوّهات الأبديّة التي لحقتْ بها.

لقد تعرّضتْ «بانو» لهجمة بالحامض على يدي زوج أختها التي كان يستهدف أختها، لكنّها دافعتْ عنها، وواجهتْ حرق وجهها ورقبتها بدلاً منها.

تساءلتُ بعمق لماذا عليّ أن أترحّل في بلاد الله الواسعة بحثاً عن الجمال والعلم والخير؟ فأرى القبح والبشاعة والسّحق لكلّ جميل؟ ولماذا هناك حرق للوجوه الجميلة والأرواح البهيّة في كلّ مكان في هذه

المعمورة، وللأسباب جميعها، وإن اختلف شكل الإحراق وطبيعة المادة الحارقة؟ أليس حرق الأوطان والشّعوب والكفاءات والثّروات القوميّة على قدر بشاعة حرق وجوه النّساء الهنديّات؟ إذن الحرق في كلّ مكان، والحرائق مشتعلة في الذّاكرة والتّاريخ والواقع.

المدينة العطشى:

اسم المدينة العطشى هو الذي لاح في ذهني اسماً مقترحاً للمدينة التّاريخيّة الشّهيرة «فاتحبور سيكري»؛ لقلّة مواردها المائيّة التي جعلت الكثيرين من سكّانها يهجرونها، ويتركونها رابضة وحيدة في مكانها.

لو علم السّلطان «جلال الدّين أكبر» بأنّ رحّالة عربيّة قادمة من تاريخ مدائن الصّحارى والجبال سوف تسخر من مدينته الرّائعة؛ لأنّها عطشى لأصدر قراراً عابراً للأزمان بإعدامي على بوابات المدينة على الملأ بمجرّد زيارتي لها.

تقع مدينة «فاتحبور سيكري» على بعد ساعة من مدينة «آغرا»، وقد كانتْ فخراً للامبراطوريّة المغوليّة في القرن السّادس عشر، وقد بناها السّلطان المغوليّ «جلال الدّين أكبر»، وظلّت عاصمة للمغول لمدّة عشر سنوات.

هي تقدّم صورة كاملة للمدينة المغوليّة إبّان مجد الحكم المغوليّ في الهند، كما تستحضر فنّ العمارة الإسلاميّة في أجمل حللها بما تعجّ به من مساجد وقصور وقاعات وأسواق.

لا يستطيع مَنْ يتجوّل في المدينة إلاّ أن يشعر بأنفاس سلطانها الباني «جلال الدّين أكبر» تعمر الأماكن، وتنشر أفكاره التّسامحيّة

والإصلاحيّة في أرجاء الهند وباكستان والبنغال التي سيطر عليها جميعاً على امتداد فترة حكمه.

هو يُعدّ أحد كبار سلاطين المغول، وقد صنع شهرته ومجده من سياسته الحكيمة في إدارة دولته؛ إذ تعامل مع الهنود بمنطق المواطنين في الدّولة، لا بمنطق سكّان الأراضي المفتوحة أو حتى المستعمرة، ودخل في علاقة مصاهرة مع المجموعات الدّينيّة والإثنيّة المختلفة في دولته، ومزج ذلك كلّه بحبّه الجمّ للفنون والآداب والعمارة والثّقافة، وجمع آلاف المخطوطات على الرّغم من أنّه كان لا يجيد الكتابة أو القراءة، وأحاط نفسه بالكتّاب والعلماء والموسيقيين والرّسامين والمترجمين، وشهدت الهند في زمنه ثورة إعمارية مهولة ذات طابع خاصّ ومؤثّر، لاسيما في المدن الجديدة التي شيّدها، أو عمل على تجديدها.

عليجراه: الرّحلة التي لم تكن:

كان مخطّط رحلتنا يقتضي أن نغادر مدينة «آغرا» متوجّهين إلى مدينة «عليجراه» على الرّغم من عدم تحمّس أمي وداوود لذلك بسبب إرهاقهم الشّديد في رحلة «آغرا»، إلاّ أنّ هوس التّرحال كان يسيطر عليّ إلى حدّ تجاوزي الأنانيّ لمعاناة تعبهما وتعبي لأجل زيارة تلك المدينة التي يمكن أن نسمّيها مدينة جامعيّة إسلاميّة بامتياز، وإن اقتضى ذلك أن ننحرف عن درب رحلة عودتنا، ونضيف عدد كبير من الكيلو مترات إلى رحلة عودتنا إلى «نيودلهي».

لقد كدنا أن نشرع في تلك الرّحلة عند مفترق الطّرق الخارجيّ، إلاّ أنّ رائدنا في رحلتنا المفترضة هناك قد أخلف ميعاده معنا لسبب

نجهله، وأفسد علينا ترتيبات الذّهاب إلى جامعة «عليجراه»، فحزنتُ لذلك، وفرحتْ أمّي وداوود فرحاً خفيّاً لم يستطيعا أن يخفياه عنّي لإلغاء الزّيارة.

قفلنا ثلاثتنا عائدين إلى مدينة «نيودلهي» برفقة السّائق الذي يرافقنا، دون أن أحظى بزيارة جامعة «عليجراه الإسلاميّة»، وهي جامعة قد تأسّستْ في عام 1920 على يد أحمد خان، وتُدرّس فيها علوم الآداب والعلوم والهندسة والطّبّ والتّكنولوجيا، وفيها كليّة للنّساء، وفي مكتبتها التّاريخيّة نحو أربعين ألف مخطوطة باللّغات العربيّة والفارسيّة والأورديّة والبتغاليّة والإنجليزيّة، ويدرس في الجامعة نحو ثلاثين ألف طالب وطالبة، يدرّسهم نحو ألفا عضو هيئة تدريس.

هذه الجامعة أُقيمت على نموذج جامعة «كمبريدج» البريطانيّة، وقد تخرّج فيها العديد من القادة المسلمين البارزين والكتّاب والعلماء.

هذه الجامعة الإسلاميّة الشّهيرة والمهمّة هي وليدة حركة «عليجراه» التي كانتْ وراء إنشاء نظام حديث لتعليم المواطنين المسلمين في الهند، وقد انطلقتْ في العقود الأخيرة من القرن التّاسع عشر الميلاديّ من مدينة «عليجراه»، وقد قاد هذه الحركة أحمد خان الذي أصبح رائد الإصلاح التّربويّ المحفّز لنهضة إسلاميّة هنديّة، وكان لهذا الإصلاح أثر كبير على الدّين والسّياسة والثّقافة والمجتمع في الهند.

كما قدّمت هذه الحركة اتّجاهاً جديداً في الأدب الأورديّ؛ إذ ترك المنتمون لهذه الحركة الأسلوب القديم في الكتابة الأورديّة الأسيرة للخطابيّة والأكاديميّة المغلقة على جماعتها، وطفقوا يكتبون بطريقة سهلة مبسّطة متاحة لأكبر قطاع من المسلمين؛ بغرض فهم الهدف الرّئيسيّ من الحركة.

كما ساعدتْ حركة «عليجراه» على هجر الرّومانسيّة الأدبيّة، والتّوجّه إلى الكتابة المسؤولة التي تتبنّي موقف أخلاقيّ وثقافيّ وتاريخيّ وسياسيّ، وهو ما كان له أثر واضح على حياة المسلمين الهنود.

بدأنا في رحلة عودتنا إلى «نيودلهي»، وعندي شعور بالخذلان من رائدنا الذي خذلنا، وضيّع علينا رحلتنا إلى مدينته «عليجراه»، وهروباً من انزعاجي قررتُ أن أقوم بالحلّ الأمثل عندي كلّما انزعجتُ، وهو أن أنام نوماً عميقاً إلى أن أنسى ما يزعجني؛ فأسدلتُ جفني، وكان وجه داوود الذي ينام إلى جانبي على الكرسي الخلفيّ من السّيارة آخر ما أرى قبل أن أدخل إلى مملكة النّوم.

الأمير الهنديّ الذي انتظرني عند بوابة «تاج محلّ»:

طوال رحلتي في الضّريح وخارجه في المدينة كنتُ أراقب هيئات الزّائرين لا سيما الهنود منهم الذين لم أكن أرى في أحوالهم وأوضاعهم وملابسهم ثراء وبحبوحة تضاهي أبّهة هذا الضّريح، بل أرى في وجوه الكثير منهم الكدر والضّنك وقسوة الحياة المرسومة على المحيّا والنّظّرات وخطوط الزّمن في الوجوه والأكف وانحناءات الظّهور، فأخمّن أنّها زيارة المنكودين لعروش الأثرياء والمنعّمين ليروا ما حرموا منه في حيواتهم، ولعلّهم حرموا منه لأنّ السّادة والحكّام والمستبدّين قد تنعّموا بحظوظهم من المال والخير والهبات والرّفاهية على حساب أفراد شعوبهم.

لم أشعر بتعاطف كبير مع أحزان الامبراطور «شاه جاهان» التي كلّفت الدّولة الإسلاميّة المغوليّة هذا التّكاليف الباهظة للإنفاق على بناء ضريح زوجته، وتساءلتُ هل أكل كلّ جائع في دولته قبل أن تنفق

الكنوز على هذا البناء الضّخم المبالغ فيه؟ إلاّ أنّني لم أعنِ نفسي عناء البحث عن إجابة لهذا السؤال؛ فهي إجابة تفضي إلى واقع حالم لا يمكن أن تتحقّق إلاّ في الأحلام أو في المدن الفاضلة، واكتفيتُ بالرّثاء لمصير هذا الامبراطور الذي انقلب عليه ابنه «أورانكزيب»، وفرض عليه الإقامة الجبريّة في حصن «آغرا»، ليدفنه بعد موته بالقرب من زوجته المعشوقة «ممتاز محلّ».

ابتسمتُ ساخرة من هذا المصير المأساويّ، وحدّثت نفسي هل فكّر الامبراطور «أورانكزيب» المنقلب على ابيه بما فكّرتُ به الآن من عبثيّة هذا الإنفاق الكبير على بناء قبر؟ والأحياء أجدر بالإنفاق عليهم؟ لعلّه فكّر في ذلك، أو لعلّ أحلام السّلطة والتّفرّد بها هي مَنْ لعبتْ به، وجعلته يخلع والده عن ملكه.

أيّاً كانت الإجابة، فهي لا تهمّني، كلّ ما يعنيني الآن أنّني أمام هذا باب الضّريح أتمنّى أن تتحّقق لي إحدى مستحيلات العشق في هذا العالم؛ فأجدني وجهاً لوجه مع أمير هنديّ فاتن خارج من كتب الأساطير ليعشقني، وقد جاء إليّ على موعد مضروب بيننا منذ ألف عام كي نلتقي في هذا المكان، ونعيد أمجاد الحبّ السّلطانيّ الباذخ الذي عشناه في حياة سالفة من حيواتنا المكرورة.

لقد رسمته كما أشتهي تماماً، بالملامح التي يكون عليها أبطال الأفلام الهنديّة في ملاحمهم السّينمائيّة الخالدة، وتخيّلت معه تفاصيل حبّ ملتهب كما كنتُ أراها في فنتازيا سينما بوليود حيث نجوم السّينما الهنديّة يجسّدون مستحيلات الحقيقة؛ بأن يكون هناك عاشق فاتن ومخلص وجميل ومبدع وشجاع وقويّ ورقيق وطيّب ونقي يقع في حبّ امرأة ما، وينذر وجوده لهذا الحبّ.

تذكّــرت مــلامح أبطالي المفـضّلين من السّــينمــا الـهنديّة، واسـتـحـضـرتُ بكثافـة أهم المشـاهد الخـالدة في ذاكـرتي من قـصص عشقهم، وتصّورتهم جميعاً يرقصون برشاقة على قربان حبّ خالد، وحضر من حضر من العشّاق الإلهيين والبشريين منهم.

فجأة ظهر الأمير الهنديّ الذي يعشقني، لم أصدّق نفسي عندما رأيته يقترب منّي، وعندما ابتسم لي شعرتُ ببرودة تلفح روحي، وذبتُ خجلاً ونظرات أمّي وداوود تتفرّسني بدهشة، لكنّني تجاهلتُ نظراتهما الدّهشى، ومددتُ يدي للأميـر الهنديّ العاشق الهـارب من أسـاطير العشق، وطفقتُ أدنو منه ليلتقط يدي، ويأخذني نحو عالمه البعيد الحنون حيث جبابرة البراهمة، كما يمدّ أبطال السّينما أيديهم لالتقاط أيدي المعشوقات ليصعدن معهم في قطار يتّجه إلى المجهول وسط غناء فرح باللّقاء بعد طول معاناة وفراق.

شـرعنا نبتـعـد عن سـاحـة «تاج مـحلّ» وسط دهشـة أمّي وداوود والموجودين، لكن فجـأة عثرتْ قدمي، وسقطتُ على الأرض، وفجـأة استيقظتُ من حلمي، فوجدتُ سائق السّيارة التي اكتريناها من مدينة «نيودلهي» إلى مدينة «آغرا» ذهاباً وإياباً يقود سيارته بنزق على الطّريق السّريع المسمّى بـ «طريق جمنا السّريع» الذي يقع في موازة نهر»جمنا»، في حين أنّ داوود يغطّ في النّوم متعباً مرهقاً بعد يوم كامل من الجولات في مدينة «أغرا»، في حين أمّي تتململ في مكانها متعبة من الرّحلة، ومتـذمّرة من وعورة الطّريق، ومشيـرة لي بحنان لأصمتْ كي لا أزعج داوود، وأيقظه من نومه؛ وهي مَنْ تشفق عليه من شدّة تعبه بعد يوم كامل من التّفاني في حسن مصاحبتنا في رحلتنا هذه؛ فأمّي ينبوع خالد سحريّ من الحبّ والحنان وطيبة القلب والرأفة بخلق الله أجمعين.

لم يكن الأمير الهنديّ موجوداً في السّيارة، وأيقنتُ أنّه تبخّر مع الحلم الورديّ الذي كنتُ أغطّ فيه، فشعرت بظلمة مفزعة في نفسي لا تقلّ إظلاماً عن هذا اللّيل البهيم الذي خيّم على المكان منذ نحو ساعة، وتركنا أربعة مسافرين على درب وعر نحمل أحلامنا صامتة لا توافي على الميعاد، وأخذت أنتظر أن تنقضي مسافة الـ 200 كيلو التي تفصل «آغرا» عن «نيودلهي» لأعود إلى الفندق حيث أنزل وأمّي، وأدخل مملكة النّوم من جديد، لعلّي أحظى بزيارة أخرى من الأمير الهنديّ الوسيم، وفي انتظار تحقيق الحلم كنت أداعب بلورات الزّجاج المزخرفة التي تحتوي على مجسّمات لـ «تاج محلّ» المصنوعة من المعدن الذّهبيّ الملوّن المطعّم بالعاج الأبيض الجميل بعد أن اشتريناها من باحات السّوق المجاور لـ «تاج محلّ».

بطيخة تعويضاً عن الأمير:

وصلنا بعد رحلة عودة شاّقة إلى فندقنا في مدينة «نيودلهي» في حيّ «مالويا نجار»، كلّ ما بقيتُ أملكه من رحلتي إلى مدينة «آغرا» كان انتظاري للأمير الهنديّ صاحب الحلم، وسحر ضريح «تاج محلّ» ودوار الإعجاب والدّهشة الذي يرافق زيارته، وخذلان من صديقنا العالم المسلم الذي لم يفِ بوعده لنا لمرافقتنا في زيارة جامعة عليجراه الإسلاميّة، وموزة في حقيبتي من موزات ساحة «تاج غانجي»، وقد انسحقتْ من الحرارة، وطول ضغطي عليها أثناء نومي في رحلة العودة.

كان أملي الوحيد الآن بعد إحباطاتي الكثيرة في هذا النّهار المنصرم أن أحصل على بطيخة حلوة لأكلها عوضاً عن وجبة العشاء كي أعوّض نقص السّوائل الذي أعاني منه بسبب حرارة الشّمس

طوال النّهار، وكي أبرّد بها عروقي المحترّة، لكنّنا طوال الطّريق ضللنا نؤجّل مشروع شرائها من أيّ رصيف من الأرصفة التي تزخر بأكوام البطيخ المصفوفة فوق الخيش المبلّل، إلى أن وصلنا إلى الفندق، وفاتنا الحصول على البطيخة الحلم الأخير لي في هذا النّهار المضني.

شعرتُ بانزعاج كبير لأنّنا لم نحصل على البطيخة، وظهر التبرّم على وجهي وكلماتي، ودخلتُ وأمّي إلى داخل بهو الفندق هروباً إلى تكييف المكان من حرارة الفضاء، وودّعنا داوود الذي بلغ التّعب به كلّ مبلغ، واتّفقنا على أن نلتقي في الصّباح المبكّر في جولة جديدة.

دخلتُ إلى غرفتي كسيرة حزينة؛ فخسارتي لحلم البطيخة كان أكثر أثراً في نفسي من خسارة حلم الأمير الهنديّ العاشق لي، وأنا من تشعر بجوع كبير وعطش شديد.

جلستُ على أريكة قبالة السّرير، وأخذت أحضّر نفسي لحمام بارد، وهو الحلم الأخير المتاح لي في هذه اللّيلة، لكن قرعات سريعة ومتحمّسة على الباب قادتني سريعاً إليه، فتحتُ باب غرفتي بتشوّف، وتابعتني عينا أمّي، فألفيتُ داوود عند الباب يحمل بطيخة صغيرة بكلّ فخر، ويقدّمها لي متحمّساً بعد أن ذهب لشرائها على الأقدام، وحملها لأجلي طوال الطّريق؛ كي لا أنام حزينة؛ لأنّني لم أحظَ بوجبة بطيخ لذيذة مع بعض الجبن غير المملّح.

مدّ داوود يديه إليّ ببطيخته الصّغيرة الحارّة، وابتسم لي ابتسامة مديدة، فأخذتها منه بفرح يتجاوز فرحي بأن أتلقّف عطية من يدي امبراطور أسطوريّ يغدق عليّ بباذخ وهبه، وشكرته على لطفه وحنان قلبه وحسن رعايته لي، وهو مَنْ يترك عمله ودراسته والتزاماته وأسرته لأجل الاعتناء بي وبأمّي، ولأجل مرافقتنا في جولاتنا بعد أن اختاره

أستاذه د. مجيب الرّحمن لأجل هذه المهمّة، فأفاض علينا بطيب معشرة، وسعة صدره، وجمال روحه، وعظيم درايته بالأماكن السّياحيّة في مدينة «نيودلهي» وفي مدينة «دلهي» القديمة.

دخلتُ إلى غرفتي، وأنا أحمل البطّيخة الانتصار بعد أن غادرنا داوود بعد تجديد اتّفاق اللّقاء في الغد، وأقبلتُ على أمّي منتصرة أحمل البطّيخة التي سنروي عطشنا بها، ونطفئ بها حرقة النّهار والاكتشافات والتّجوال، لا سيما أنّها تناسب ذوقها في الطّعام؛ بعد أن أنهكها الهرب من الطّعام الحارّ الذي لا تحتمله أمعاؤها الواهية الرّقيقة مثل روحها الشّفيفة.

ثورة المراحيض:

أخيراً أنا أملك أحلامي جميعاً في هذه اللّحظة، وهي أكل بطيخ لذيذ مع الجبن، وشرب كميّة كبيرة من الماء دون خوف من احتياج المرحاض الذي يعزّ وجوده كثيراً في الهند بعيداً عن الأماكن الرّسميّة أو الرّاقية، ومن ثم أخذ حمام منعش في حمّام جميل وأنيق ونظيف له مرحاض صحيّ ونظيف ومعقّم دون الحاجة إلى الاستحمام أو قضاء الحاجة في العراء كما يفعل ملايين الهنود المنكودين في الهند.

لطالما عرفتُ قيمة الحصول على مرحاض شخصيّ يكون نظيفاً ومزوّداً بالخدمات الضّروريّة، لكن في الهند تحوّلت معرفتي هذه إلى احترام كامل ودائم للمرحاض الذي لا يحصل عليه إلاّ كلٌّ محظوظ له شأن بين الخلق في الهند.

من طريف الأمر أنّ الكثير من النّزاعات الأسريّة في الأسر المتوسطة ودون المتوسطة والفقيرة والمعدمة في الهند سببها مطالبة المرأة

بمرحاض في بيتها، لا سيما إن كانتْ قادمة من بيت أسرتها الذي فيه مرحاض، وقد تهجر المرأة الهندية بيت زوجها لتضغط عليه لبناء مرحاض شخصيّ في بيتهم في أقلّ حدود الرّفاهيّة والأناقة؛ فهي لا تطلب أكثر من حفرة متصّلة بقطعة خزف صحيّة ومغسلة ماء وباب يُغلق عليها في وقت قضائها لحاجتها أو استحمامها كي لا ينكشف سترها، ولا تتعرّى عورتها، ولا تكون معرّضة لعيني رقيب، وتجسّس متلصّص، ومداهمة مغتصب.

قد تعود المرأة الهنديّة إلى بيت زوجها بعد أن يسترضيها ببناء المرحاض المطلوب شرطها للمصالحة بينهما، وقد زيّنه لها بالبالونات، كأنّه يقدّم له هدية ثمينة لا تُقدّر بثمن، وهو مَنْ لا يقدّم لها ولنفسه ولأسرتهما أكثر من مرفق صحيّ من الطّبيعيّ وجوده في كلّ بيت، ويعتقد المعتقد الغرّ أنّه موجود في كلّ بيت في الدّنيا، لكن الحقيقة عكس ذلك تماماً في العالم ولا سيما في الهند التي تحتلّ المرتبة الأولى في العالم في الافتقار إلى خدمة المراحيض؛ إذ 60٪ إلى 70٪ من مواطنيها مضطرون إلى قضاء حوائجهم في الهواء الطّلق، أي ما يقارب 774 مليون إنسان في الهند يعانون عند قضاء حوائجهم الطّبيعيّة، ويضطرون إلى الذّهاب في الفجر إلى الحقول والغابات للتغوّط والتّبرّز، ثم يحبسون أنفسهم إلى المساء للذّهاب إلى الأماكن نفسها للحاجة ذاتها، على ما في ذلك من مشقّة وتعب وسير في دروب خطيرة وشائكة، والتّعرّض للحشرات والفطريّات والدّيدان والحيوانات المفترسة والتجسّس عليهم من عيون المتطفّلين، فضلاً عن أن كثيراً من الأطفال والنّساء يتعرّضون للاغتصاب والتّحرّش الجنسيّ بهم في رحلاتهم اليوميّة في العراء لأجل قضاء حوائجهم.

المضحك المبكي أنّ عدد مَنْ يملكون أجهزة هاتفّ خلويّ نقّال في الهند تفوق عدد من يملكون مراحيض في بيوتهم، هذا الوضع الكارثيّ المسكوت عنه في الماضي، أصبح محلّ جدل وحديث صريح في الوقت الحاضر في الهند، وباتت الدّولة والمؤسسّات الخيريّة والصّحيّة المحليّة والعالميّة تسعى إلى حلّ هذه المشكلة، وتبثّ التّوعية بضرورة الحصول على مراحيض بيتيّة، وتمدّ يد العون لتأمينها قدر الممكن، وتبدأ في تأمينها ابتداء لمن يطالب بها، ولعلّ مؤسسّة «سولابه» الخيريّة من الأمثلة الشّهيرة على تلك المؤسّسات التي أنفقت نحو 2و1 مليون دولار لبناء المراحيض في بيوت الهنود الأشدّ فقراً.

العجيب أنّ الكثير من الهنود لاسيما من أهل القرى والأماكن البعيدة عن الحضارة يصمّمون على قضاء حوائجهم في العراء، ويرون ذلك أكثر نظافة وصحّة! ويرفضون أن يتخلّوا عن عادتهم الأثيرة هذه التي تعرّضهم لأمراض وعدوات خطيرة، مثل الكوليرا والإسهال والتيفؤيد والالتهاب الكبديّ، وغيرها، وتهتك سترهم، وتكشف عوراتهم للعامّة دون خجل من ذلك.

هذا كلّه قد أدى إلى ثورة صحيّة فكريّة يمكن أن نسميها «ثورة المراحيض»، وهي ثورة هنديّة شعبيّة على شكل انتفاضة شعبيّة على ثقافة قضاء الحاجة في العراء لصالح بناء مراحيض منزليّة، وقد شاركتْ جهات ومؤسسّات حكوميّة وفرديّة في هذه الثّورة؛ فأعلنت الحكومة الهنديّة أنّها تسعى إلى هند بمراحيض في كلّ بيت مع مطلع عام 2019 عبر بناء نحو 82 مليون مرحاض، للحصول على «هند نظيفة»؛ إذ قامت الحكومة بحملات توعية يمثّل الأطفال فيها دور السّاخر من سلوك الكبار الذين يقضون حوائجهم في العراء.

النّساء هنّ الأكثر انخراطاً في هذه الثّورة؛ فالكثير منهنّ يرفضن الزّواج بِمَنْ لا يملكون مراحيض في بيوتهم، والأخريات هجرن بيوت الزّوجيّة أو حتى تطلقن في سبيل الحصول على مراحيض منزليّة.

بل إنّ بعض رجالات الدّين، لا سيما المسلمين، يرفضون عقد القران لمن لا يملك في منزله مرحاضاً؛ إذ أعلن مجلس الأئمة الذي يضمّ أكثر من 1200 إمام من نحو 110 قرية في مقاطعة «ميوات» في ولاية «هاريانا» في شماليّ الهند أنّهم لن يعقدوا قران أيّ عروسين إن لم يقدّما شهادة من مسؤولي القرية تفيد بامتلاكهما لمرحاض في بيت الزّوجيّة.

هناك حملات اسمها حملات حيطان العار؛ حيث تعلّق صور المخالفين لقانون عدم قضاء الحوائج في العراء على الملأ لإحراجهم، وإجبارهم على بناء مراحيض في بيوتهم، وتهدى لهم أكاليل الزّهور لإحراجهم أكثر.

في حين أنّ الكثير من المبادرات الشّعبيّة الرّائدة مثل «افعلها بنفسكَ» تحضّ على الجهود الشّعبيّة وإعمالها لأجل نشر ثقافة بناء المراحيض.

الكثير من روّاد هذه المبادرات لا سيما من النّساء قد قمن ببيع ما يملكن من قطع مصاغ ذهبيّة لأجل توفير المراحيض لأسرهنّ ولأسر مجتمعاتهنّ الفقيرة.

العالم الآن يتبجّح بوصوله إلى رأس ثورة التّكنولوجيا والمدنيّة والصّراعات النّوويّة، لكنّه في الوقت ذاته يعجز عن تأمين أقلّ الاحتياجات الطّبيعيّة للإنسان المعاصر، وفي حين يتبارى العالم في ترويج موضات الرّفاهيّة والأناقة هناك نساء في كوكب الأرض على

رأسهنّ نساء الهند مضطرّات إلى هدر إنسانيتهنّ وكرامتهنّ في كلّ مرّة يقضين حاجاتهنّ فيها في العراء، وقد يتعرّضن إلى الخطف والاغتصاب الجماعيّ، بل وقد يتعرّضنّ للقتل على أيدي أفراد أسرهنّ لإخفاء تعرّضهنّ للاغتصاب الذي تعرّضن له في دروبهنّ نحو العراء لقضاء حاجاتهنّ.

كم هذا العالم يحتاج إلى كثير من النّظافة والتّنظيف على أكثر من مستوى! حتى يعود محتملاً بشكل ما.

هذا ما كنتُ أفكّر به بأسى، وأنا أستمتع بحمام منعش، وهناك ملايين في الهند وفي العالم لا يستطيعون أن يحظوا بالمتعة الصّغيرة المهمّة التي أحظى بها في هذه اللّحظة، وتخيّلتُ أنّ هناك طابوراً خلف باب مرحاضي في حجرة الفندق ينتظرون الدّور للدّخول إليه لقضاء حوائجهم؛ فوفق الإحصاءات العالميّة سيكون طول هذا الطّابور المتخيّل نحو 384 ألفاً و400 كليو متر، أيّ ما يعادل المسافة التي تفصل بين الأرض والقمر، وهو ينتظم نحو 774 مليون هنديّ، ويستغرق هذا الطّابور زمناً مقداره خمسة آلاف سنة و892 عاماً لقضاء حوائج كلّ من فيه بمعدّل 4 دقائق للشخّص الواحد.

المرحاض: قصّة حبّ:

«المرحاض: قصّة حبّ»، هذا هو اسم الفيلم الهنديّ المدهش الذي حضرته في الهند، ويتحدّث عن امرأة هندية هجرتْ زوجها الذي تحبّه، ويحبّها؛ لأنّه لا يملك مرحاضاً في بيت الزّوجيّة، فطفق الزّوج المهجور العاشق يكافح لأجل بناء نظام صرف صحيّ في قريته ليستعيد زوجته.

هذا الفيلم الذي يلامس معاناة ملايين البشر في الهند والعالم دون حمّام يفسّر مغزى وجود يوم عالميّ للمرحاض، وهو يصادف يوماً 19 من شهر تشرين الثّاني، وهو يوم جرأ بعض المسؤولين الهنديين فيه على رفع أصواتهم بالقول بأنّ «المراحيض أكثر أهميّة من المعابد»؛ وذلك في مجتمع يلبس الذّهب للتّماثيل، ويطعّم جدران المعابد بالجوهر والأحجار الكريمة والمعادن النّفائس، ويترك رعاياه يغوصون في وحل الفقر والحرمان والحاجة الممتدّة حتى إلى الحرمان من مرحاض لتلبية نداء الطّبيعة في التّخلّص من فضلات الجسد.

ألا أيّها المرحاض كم أنتَ موحّد للأمم! في زمن القذارة المستشرية!

من عجيب ما رأيتُ، وسمعتُ في الهند أنّ الهنديّ يحرص على أن يحصل على جهاز اتّصال خلويّ، في حين لا يملك مرحاضاً في بيته، ولا يجد حرجاً أو ضيقاً في نفسه من ذلك، والأعجب من ذلك أنّ الهنديّ في الكثير من الطّبقات الفقيرة يتعامل مع ثقافة المرحاض بازدراء وعدم تقدير، وكثيراً ما يقضي الرّجال حوائجهم وأبواب المراحيض مفتوحة، ويرفضون أن يتستّروا أمام مَنْ يقمن بتنظيف المراحيض من نساء طبقة المنبوذين اللّواتي يعملن في إفراغ المراحيض، ونقل فضلاتها وقذراتها إلى العراء في ظروف إنسانيّة قاهرة مؤلمة.

عبيد المراحيض:

ويلات المراحيض لا تنحصر في الهند في عدم وجودها، بل هي مرتبطة بوجودها كذلك؛ فهناك طبقة كاملة من المنبوذين تُدعى «الفاليميكي»، وهي طبقة معذّبة تقع في قاع طبقة المنبوذين، وهي متخصّصة بتنظيف المراحيض بشكل يدويّ بما في ذلك من قرف

وإذلال وقهر لهم، ناهيك عن الأمراض الخطيرة التي تنتقل إليهم من هذه المهنة القذرة.

لا يتوقّف الأمر عند هذه الطّبقة في نقل براز البشر فقط، بل وفي نقل براز الحيوانات على رؤوسهم، بعد أن ينظّفوه بأيديهم، وكثيراً ما يعمل أفراد هذه الطّبقة في وظيفة التّنظيف في مؤسّسات الصّرف الصّحيّ، وتجبرهم الحكومة على تنظيف المجاري بأيديهم.

تحمل هذه الطّبقة المنبوذة اسم «البانغي»، وهو لقب يعني «الشّعب المكسور» الذي يُحرّم لمسه على أبناء الطّبقات الأخرى، كما يُحرّم عليه الاقتراب من أيّ فرد من الطّبقات الأخرى، ويحرّم الأكل أو الشّرب معه، ويُحرّم زواج أفراده من غير طبقتهم، كما يحرّم زواج أيّ فرد من الطّبقات الأخرى من أحد من طبقتهم.

الغريب أنّ الحكومة الهنديّة لا تسعى لعون هذه الطّبقة التي تعامل معاملة غير إنسانيّة في ظلّ الفكر الطّبقيّ القاسي الذي يسيطر على الفكر الهنديّ، والأعجب من ذلك أنّ أفراد هذه الطّبقة يقبلون بهذه المهنة الوضيعة البشعة بكلّ رضا، ولا يحاولون الثّورة عليها، ويقضون أعمارهم بين الفضلات والبراز والأوساخ والأمراض المستشرية! في ظلّ قبول ذليل منهم بواقع جائز هبط بهم إلى دون مرتبة الحيوان دون أيّ ذنب اقترفوه!

الرّحلة الثّالثة

أسعد وداوود ابنا أمّ بطبوطة

(رحلة في نيودلهي)

«سـقـانـي الحبّ راحـاً بعـد راح
فـمـا للرّاح مني من بـراح
سـقـوني عين شـمس من بدور
فـمـيّـزت البكور عن الرّواح
أرى آيـاتـه فـي كـلّ شـيء
فـفـرّقت السّـهـول من البطاح
تجلّـى النّور من فـوق وتحت
ربت أضـواؤه كـلّ المسـاح
حـيـاتي بـين آيات الكتـاب
وأحـيـاء المسـاند ارتيـاح»

الشّاعر الهنديّ: الشّيخ عبدالله العماديّ

أحلام الأريكة:

الأريكة هي المكان الأهمّ في أخذ قراراتي في هذا العالم، وهي المكان الذي أنطلق منه في رحلاتي كلّها؛ فلا رحلة في حياتي لم تبدأ من تأمّلاتي وقراراتي في الأريكة، ورحلتي إلى الهند وكشمير بدأتْ وأنا أتمغّط بكسل في ضجعتي عليها، وأنا أحضر آخر مشهد من ذلك الفيلم التّاريخيّ الرّومانسيّ الجميل، وإلى الأريكة التي بجانب أريكتي تجلس أمّي بجلستها الوقورة الحنونة، وهي تقشّر البرتقال الشّهي لها ولي.

عندها كنتُ قد أُشبعت تماماً بتاريخ طويل من الثّمالة بقصص الحبّ الهنديّة، وأحداثها الملحميّة الشّهيرة، فقرّرتُ أن أتوارى خلف رحلاتي العلميّة والأدبيّة والاستكشافيّة لأدخل في أرض الأحلام الهنديّة، لا سيما أنّ أمّي الحبيبة شغوفة بالمسلسلات الهنديّة إلى حدّ كبير.

أخذتُ فعليّاً قرار السّفر إلى كشمير والهند برفقة أمّي الحبيبة نعيمة المشايخ وأن غارقة في أريكتي بعد أن وصلتني منذ أيّام رسالة الكترونيّة على بريدي الالكترونيّ من الباحث الهنديّ الجادّ أسعد جمال الذي عرض عليّ أن أشرع في رحلة إلى الهند بدعوة رسميّة من جامعة «جواهر لآل نهرو» الهنديّة يوجّهها إليّ أستاذه البرفيسور د. مجيب الرّحمن.

بدأتُ إجراءات الترتيب للسّفر إلى الهند برفقة والدتي أمّ بطبوطة

التي وافقتْ على أن ترافقني في رحلتي هذه على الرّغم من ألم قدميها الذي بدأ يغزوهما بشراسة منذ أشهر قريبة، لكنّها نزلتْ عند رغبتي بأن تكون رفيقتي في الرّحلة؛ لأنّها كانتْ تطمح -مثلي- إلى أن تدخل إلى أرض الأحلام الهنديّة، وهي من أشدّ المعجبين بالدّراما الهنديّة المدبلجة، ووثيقة العلاقة العاطفيّة بنجومها الذين تتابعهم بمحبّة واهتمام، أمّا أنا فقرّرتُ أن أخوض هذه الرّحلة متسلّحة بجيش من العشّاق والعاشقات الهنود الذين يشغلون مقداراً كبيراً وأثيراً في ذاكرتي ووجداني.

قرّرتُ أن تكون وجهتي الأولى في رحلتي إلى العاصمة الهنديّة «نيودلهي»، تلك المدينة التي كنتُ أعتقد أنّها تعجّ بالرّاقصين والرّاقصات والأعياد والاحتفالات والأغاني والموسيقى والعشّاق والاحتفالات والألوان البهيّة والرّوائح الزّكية والعطور والتّوابل والزّهور والفنون والرّجال الأقوياء والنّساء الجميلات والملابس القشيبة البرّاقة والمناظر الجميلة والحيوانات المحبّبة والقصص السّعيدة والمفاجآت السّارّة، تماماً كما ترسمها لنا السّينما البوليوديّة، وتجاهلتُ معلوماتي عن الوجه الحقيقيّ للهند وأحزانها، وأخفيتُ هذا الوجه الكئيب عن أمّي كي لا تتراجع عن موافقتها على مرافقتي في الرّحلة، إلى حين تكتشف الحقيقة بنفسها.

لم نكد ندخل مدينة «نيودلهي» حتى كشفتْ لنا بصفاقة عن وجهها اللّئيم المقيت؛ فكانت أوّل مرّة في حياتنا نرى المتشرّدين والفقراء يسكنون في عرائش كئيبة من الخرق الممزّقة في كلّ شبر ممكن، حتى أنّهم يقيمون في أرض كلّ جزيرة وسطيّة بين الشّوارع الرّئيسيّة، وينامون على الأرصفة، وهم شبه عرايا إلاّ من حقير الملابس،

حُفاة الأقدام، تحرقهم الشّمس المذيبة، ويسحقهم الفقر والذّل والقهر والتّهميش، وتدركهم في كلّ مكان يستجدون المارّة أحياناً، ولا يبارحون أماكنهم مرّات أُخر.

أما صغارهم فكانوا عرايا تماماً، يتعثّرون بفقرهم وحرمانهم، ولا يعرفون من رحمة الدّنيا طعماً أو لوناً.

مَنْ يردْ أن تظلّ صورة السّينما البوليوديّة حبيسة عينيه، عليها أن يغلقهما كي لا تريا الحقيقة في الهند، أمّا مَنْ يفتحهما، فسوف يرى الحقيقة كاملة، وبكلّ بساطة ووضوح، سيرى صورة منها في مدينة «نيودلهي»، وتتكرّر الصّورة ذاتها في كلّ مكان في الهند، وتشتدّ قتامة وقسوة الصّورة في الأماكن النّائية والأكثر فقراً، حتى تصل إلى أن يجد المترحّل جزراً وأماكن نائية في الهند، ما زال أهلها من الهنود يعيشون في عصور موغلة في البدائيّة؛ فلا لغة ولا حضارة عندهم، يعيشون عرايا، ويقتاتون على ما تقتات عليه البهائم والدّواب، ويجهلون وجود مدنيّة في العالم قد سارتْ قدماً دون أن تصل إليهم، أو تعبر في أزمانهم وأماكن سكناهم، مثل جزيرة «سينتيل»، وهي إحدى جزر «أندمان» الهنديّة الواقعة على «خليج البنغال»، وهي تعيش مغرقة في البدائيّة، ويرفض أهلها التّواصل مع العالم الخارجيّ، ويعيشون عرايا، ويأكلون الأطعمة البحريّة التي تجود بها المياه التي تحيط بالجزيرة.

«نيودلهي» مدينة ذات وجاهين؛ وجه جميل أنيق بهيّ عريق حيث الأماكن التّاريخيّة والأماكن الدّبوماسيّة ومقرّات المؤسسّات الحكوميّة والخاصّة والبنوك والفنادق الكبيرة العالميّة والمتاحف وكبار الجامعات ومقرّات المنظّمات ودارات الأثرياء ورياض المرفّهين، هذا الوجه هو وجه صغير منحسر خجول، أمّا الوجه المتغوّل العريض الذي

يعرفه معظم سكّان المدينة، فهو الوجه الآخر القاتم، حيث الفقر والجوع والاكتظاظ والتّلوّث الشّديد، والعودام التي تخنق الجوّ بغازاتها، والمتشرّدون والفقراء يتيهون في المدينة، والفوضى المروريّة تدبّ في كلّ مكان بسبب الازدحام وسوء البنية التّحتيّة للشّوارع وتدفّق عربة «ركشا» في الدّروب كلّها، وهي بمثابة سيّارة الأجرة «التّاكسي» الرّسميّ في الهند، إلى جانب العربات اليدويّة والدّرّجات الهوائيّة والكهربائيّة.

أمّا عادة البصاق على الأرض، فهي مستشرية في كلّ مكان، والحيوانات السّائمة تجوب في الدّروب، لا سيما الأبقار والكلاب والقطط وبعض الزّواحف، والحواري ضيقة، والشّوارع غير معبّدة أو حتى ممهّدة، وتعجّ بالحجارة والحفر وبراز الدّواب والبشر، والبيوت الآيلة للسّقوط ترسم صورة كئيبة للمكان، إلى جانب قلّة المرافق والخدمات مقارنة مع عدد السّكان، وأسلاك الكهرباء المعرّاة تتدلّى من الأسقف والجدران.

«نيودلهي» هي المدينة الهنديّة الثانية بعد مدينة «مومباي» بالكثافة السّكانيّة، والثّامنة عالميّاً في هذا الشّأن؛ إذ يبلغ عدد سكّانها نحو 26 مليون نسمة، وهي العاصمة السّياسيّة للهند، وتقع على نهر «يمنا»، وتتمتّع باستقلال ذاتيّ، ولها برلمان منذ سنة 1991، وهي مقرّ رئاسات السّلطة التّنفيذيّة والتّشريعيّة والقضائيّة في الهند .

هي من المدن الأولى في العالم في مجالات الفنون والتّجارة والتّعليم، والتّرفيه، والأزياء، والمال والأعمال، والإعلام، والخدمات التّخصصيّة، والبحوث العلميّة، والتّنميّة، والمواصلات والسّياحة والفكر والإعلام والرّياضة.

تلقّب بـ «الهند» المصغّرة، وهي امتداد لـ «دلهي» القديمة التي تمّ تأسيسها في عام 1911 على يد اثنين من أشهر المعماريين في العالم،

وهما «إدوين ليتينز»، و«هيربيرت بيكر»، ثم في عام 1917 تمّ تسميتها بـ «نيودلهي»، أيّ «دلهي الجديدة»، وإحداهما متصّلة بالأخرى، وامتداد لها.

أسماها العرب والفرس باسم «دهلي»، لكن استقرّ اسمها على «دلهي» الذي اختاره الإنجليز لها، وهي تقع بالقرب من سلسلة جبال «أرافلي»، وتمتدّ على مساحة 1483 كيلو متر تقريباً في وسط شبه القارة الهنديّة، وتشترك في حدودها مع ولايتي «هاريانا» في الغرب، و«أوتار براديش» من جهة الشّرق، وتقسم إلى ثلاثة أقسام: تلال «دلهي»، وسهول فيضان نهر «يامونا»، وضفاف نهر»يامونا» التي تتميّز بخصوبة عالية؛ لأنّها مغمورة بطمي النّهر.

تتشكّل «دلهي» من مدن الضّواحي، وهي: غورغاؤن، ونوئيدا، ونؤئيدا الكبرى، وفريد آباد، وغازي آباد.

تُعدّ «نيودلهي» أكثر المدن الهنديّة مناسبة للإقامة فيها؛ لذلك هي متعدّدة الأعراق؛ إذ هي قبلة للكثيرين. يدين أغلب سكانها بالهندوسيّة، وتصل نسبتهم فيها إلى 82٪، ومن ثمّ الإسلام بنسبة 11,7٪، وأخيراً السّيخيّة بنسبة 4٪، والجينيّة بنسبة 101٪، ومن ثم أقليّات صغيرة من اليهوديّة والبوذيّة.

مجيب الرّحمن ملك الإجابات:

أوّل هنديّ عرفته في حياتي هو الباحث أسعد جمال الذي كان حادي رحلتي إلى الهند، وهو مَنْ يملك أجمل لغة عربيّة فصيحة مرنة بهيّة سمعتها من شفتي هنديّ؛ إذ يتعشّق العربيّة مثل أهلها، أمّا أوّل يد صافحتها في الهند، فهي يد البرفيسور الشّهير مجيب الرّحمن، هو

صديقي الافتراضيّ عبر عوالم الانترنت حتى قابلته حقيقة، أوّل جملة قلتها له عندما التقيته: أنا عندي الكثير من الأسئلة التي لا تنضب. فابتسم لي ابتسامة هادئة عميقة مديدة، وقال لي بلطف عريض: وأنا مجيب الرّحمن، وسأجيبك عن كلّ ما تسألين عنه. فضحكتُ، وضحكَ، وضحكتْ أمّي استحساناً لسرعة بديهته في الرّد على أوّل جملة قلتها له وجهاً إلى وجه.

صدق د. مجيب الرّحمن في وعده لي بأن كان يجيب عن كلّ سؤال أطرحه بكلّ رحابة صدر وبشاشة، ولطالما أصغى لي باهتمام، وأجابني عن كلّ سؤال أطرحه أو تطرحه أمّي عليه بإسهاب ودقّة، وفسّر لي بأمانة ملغز ما ضاق فهمي على إدراكه، وشرح لي العلاقات والوشائج التي تربط الأمور بعضاً ببعض في الهند.

فيما بعد اكتشفتُ أنّ د. مجيب الرّحمن هو صورة مشرقة للفئة المسلمة رفيعة التّعليم والثّقافة التي تشكّل الثّقل الإسلاميّ المثقّف في الهند الذي يزاوج بين هنديّته وإسلاميّته في معادلة صعبة جدّاً إزاء قسوة التّنافس والعنصريّات والإقصاءات والأصوات المعادية، ويقدّم نفسه على أنّه هنديّ مخلص لوطنه، ومسلم مخلص لإسلامه، وهو تقديم يفرض عليه الكثير من المفروض والإزدواجيّات والضّغوط والتّحدّيات في دولة زغفرانيّة هندوسيّة تعادي الأقليّات المسلمة صراحة أحياناً، وضمنيّاً أحياناً أُخر، وهي أقليّة ليستْ بالقليلة في الحقيقة؛ فهناك نحو 175 مليون هنديّ مسلم في الهند التي يبلغ عدد سكّانها نحو 2و1 مليار نسمة، هذا يعني أنّ تجمّع المسلمين في الهند هو أكبر تجمّع للمسلمين في العالم بعد أندونيسيا وباكستان.

لكن هذه الأقليّة تُواجه باضطهاد رسميّ وشعبيّ كبير لاسيما من

الهندوس، وتتضاءل فرصها في التّمثيلات العادلة لها في الهند يوماً بعد يوم.

لن أنسى أبداً ذلك الحوار الهاتفيّ الطّويل الذي دار بيني وبين أحد أصدقائي الهنود العلماء المسلمين إبّان تدويني لهذا الكتاب؛ واستأنفناه لأكثر من يوم بعد ذلك؛ إذ كان يعاني من اكتئاب نفسيّ شديد على خلفيّة تهميش المسلمين في الانتخابات الهنديّة الأخيرة في العام 2019، وما يلوّح ذلك به من مستقبل قلق للمسلمين في الهند الزّعفرانيّة وسط محاولات لتهميش المسلمين، وتضييق الحياة عليهم، وإقصائهم عن المجتمع، بما في ذلك إقصائهم عن الحياة البرلمانيّة والحزبيّة، هذا يعني تهميش 15٪ من سكّان الهند، وعزلهم عن الحياة السّياسيّة، وكتم أصواتهم، إلى درجة أنّ الكثير من الأحزاب العلمانيّة قد باتتْ تتجاهل المسلمين مغازلة للسّياسيين والنّاخبين الهندوس.

لقد جرى حذف أسماء ملايين من المسلمين في الهند من سجّلات النّاخبين بحجج مختلفة؛ بغية عزلهم عن الحياة السّياسيّة التي تمثّل الانتخابات عنصراً أساسيّاً فيها، سيراً على السّياسة الهنديّة الحاليّة التي تعلن عدائها للمسلمين، وتتدّخل في شؤون المسلمين جميعها حتى في الجامعات والمراكز العلميّة، كما تتدّخل في القوانين الشّخصيّة الإسلاميّة، بحجّة رفع الظّلم عن المرأة المسلمة، وتقوم بسنّ قوانين جديدة دون استشارة زعماء المسلمين وعلمائهم في الهند، حتى أنّ القضايا الخارجيّة للبلاد مثل الاضطرابات السّياسيّة العسكريّة والسّياسيّة مع باكستان تقدّم بوصفها هجوم على المسلمين والإسلام؛ لتحظى بتشجيع هنديّ هندوسيّ كبير.

لقد حاولتُ جاهدة أن أرفع معنويات صديقي الهنديّ المكتئب

القلق على مستقبله ومستقبل سائر الهنود المسلمين في الهند الزّعفرانيّة التي تتغوّل يوماً بعد يوم عليهم دون أن يجدوا أيّ دعم إسلاميّ أو عربيّ لهم على المستوى المنشود، وأخال أنّ كلماتي قد خفّفتْ عنه بعض ما يكابد من قلق، وأنا من ذكّرته بأن مشيئة الله هي النّافذة، وأنّ المكر الخبيث يحيط بأهله.

إلاّ أنّني في أعماقي كنتُ أشعر بقلق كبير وحقيقيّ إزاء ما يحدث في الهند مع مسلميها، ولم تغبْ عن ذهني تلك المواجهات الدّامية والتّصفيات العرقيّة للمسلمين في القرب من الهند، حيث مسلمو إقليم «أركان» من «الرّوهينجا»، في غرب جمهوريّة «بورما»، أو ما يسمّى بجمهوريّة «اتّحاد ميانمار» التي انفصلتْ عن الهند في عام 1937، وهم يتعرّضون على امتداد عقود من التّنكيل بهم، وتصفيتهم عرقيّاً بأبشع الطّرق على أيدي الجماعات البوذيّة وسط موافقة حكوميّة، وصمت عالميّ مخزٍ ومريب، بعد أن ذاقوا أبشع أنواع التّمييز ضدّهم، وحرموا من أصغر حقوقهم في الحياة والمواطنة والعمل والزّواج والعبادة وممارسة طقوس دينهم الإسلاميّ؛ ليكوّنوا بذلك أفقر جالية، وأقلّها تعليماً، وأكثرها حرماناً من حقوقها الإنسانيّة على الرّغم من أنّ عددهم يبلغ 8 ملايين مسلم ومسلمة.

كذلك تذكّرتُ تلك القضيّة العنصريّة الشّهيرة ضدّ المسلمين في الهند في حادثة هدم المسجد «بابري» في الهند في عام 1992 إثر حملة حزب الشّعب الهنديّ الهندوسيّ عليه الذي قام ببناء معبد هندوسيّ مؤقّت مكان المسجد المهدوم، وما يزال هذا الحزب يلوّح لأتباعه وللنّاخبين بوعده ببناء معبد هندوسيّ عملاق على أرض المسجد «بابري» المهدوم ليكون -وفق وعودهم- مفخرة المعابد

الهندوسيّة في العالم بأسره، في تجاهل كامل لحقّ المسلمين في أرض هذا المسجد الذي كان مسجد «بابري» مبنيّاً على أنقاض مسجد آخر قديم، إلاّ أنّ الهندوس يصمّمون على أنّ معبودهم المزعوم «راما» قد وُلد على أرض هذا المسجد المهدوم، ويطالبون باسترداد الأرض مكان الولادة الميمونة الموجودة في خيالاتهم وأوهامهم فقط!

كثيراً ما يشهد الإعلام الهنديّ الهندوسيّ ووسائل التّواصل تأليب صريح على الهنود المسلمين لأتفه الأمور وأكثرها عرضيّة، وكثيراً ما تتحوّل مشاجرة بين أيّ مسلم وهندوسيّ إلى معركة كبرى، تأجّجها وسائل التّواصل الإلكترونيّة، وتضخّمها، وتشجّع الأطراف جميعاً على الانخراط فيها؛ ليتحوّل موضوع خلاف تافه بين شخصين، إلى مجزرة شعبيّة تُهدم البيوت فيها، وتُشعل الحرائق خلالها، فيُقتل الأبرياء، وتُغتصب النّساء، وتُهاجم المساجد والمعابد، ويكون الجانب المسلم -في الغالب- أكثر الخاسرين في هذه المعارك الدّامية المفتعلة في كثير من الأحيان.

هروباً من الحديث الموجع عن المواقف العنصريّة ضدّ الهنود المسلمين في الهند، سألتُ د. مجيب الرّحمن مرّة إنْ كان يجيد الرّقص والغناء، كما يجيدها أبطال الأفلام الهنديّة، فضحك ملء فمه وقلبه ووجهه البشوش المخلوق للابتسامة الهادئة التي تعجز عن أن تتوارى، كما تتوارى نظراته الخجلى خلف زجاج عدستي نظارته، وقال لي بتفهّم لسذاجة سؤالي: لا، لا أجيد ذلك؛ فليس الهنود جميعهم يجيدون الرّقص والغناء، إنّما يتقنها ممثلو السّينما وممثّلاتها وراقصيها وراقصاتها، إلاّ أنّ الهنود بشكل عامّ يحبّون الموسيقى والغناء.

عندها تشجّعتُ، وطلبتُ منه أن يفسّر لي معنى أغنية هنديّة

شـهـيـرة من فـيـلم هنديّ شـهـيـر، وهي أغنيـة تروق لي، وتهزّ وجـداني، فشـرع يشـرح لي معـانيهـا بأريحيّـة ولطف وحـبور، كأنّه يصف مناحي جمال أيقونة مقدّسة مذهلة.

صمتُ بإصغاء حالم، وانهمك يشرح لي قائلاً: هذه الأغنية كما تعلمين هي من فـيلم «لقـد أعطيـتكَ قلبي يا حـبـيـبي Hum Dil De Chuke Sanam: «هم دل دى شوكى صنم»، من إخراج المخرج سانجاي ليـلا بانسـالي في عـام 1999، ومن بطولة سليـمـان خـان، والحـسناء آيشـواريا راي اللّذين اجـتـمـعـا في هذا الفـيلم، وارتبطا في قـصّـة حبّ ملتـهـبة في أحداثه وفي داخل كـواليسـه كـذلك، وهي أغنيـة شـهـيـرة غارقة في «الرّاغا» الكلاسيكيّة المعروفة بـ اسم «راغا أهير بهايراف» من فئة موسيقى «إندور»، هي أغنية تغنّى بها أستاذ سلطان خان من بيت «إندور» للموسيقى في مطلع السّبعينّات، وقد تغنّى بها في هذا الفيلم كلّ من أسـتـاذ سلطان خـان، وشـانكار مـاها ديفـان، وكـاويتـا كـريشنا مورتي.

الأغنية مبينة على «الرّاغا» فقط؛ فأصواتها تكرار لكلمات:

«ألبـيلا سَجَن آيو ري، مورا أتمان سـوخ بايو رِي»، أيّ أنّ حـبيـبي الفريد قد جاء، وأنّ قلبي قد وجد فرحاً عميقاً.

ثم يردّدون: «شـوك براؤو مـانغال باو»، أيّ قم بتنظيف الفناء، وغنِّ الأغنية المباركة.

«أنغ سوغندهيت، مان أننديت
أنغ سوغندهيت، مان أننديت
شارون أور رنغ برساؤ
شارون أور رنغ برساؤ» أيّ:

الجسم فوّاح والقلب عامر بالسّعادة
الجسم فوّاح والقلب عامر بالسّعادة
والألوان تمطر في الجهات كلّها
والألوان تمطر في الجهات كلّها
« ألبيلا سَجَن آيو ري، مورا أتمان سوخ بايو رِي»
« ألبيلا سَجَن آيو ري، مورا أتمان سوخ بايو رِي» .

أيّ: حبيبي الفريد قد جاء، وإنّ قلبي قد وجد فرحاً عميقاً.

الموسيقى الهنديّة مبنيّة على نظام تأليف للموسيقى، ويسمّى «الرّاغا»، وكلّ أغنية تتألّف منها، أو تُبنى على «راغا» معيّنة.

في التّقاليد الموسيقيّة في شمال الهند هناك ست راغات، وأمّا في التّقاليد الموسيقيّة في جنوب الهند، فيصل عددها إلى 72 «راغا» بما فيها «راغات» شمال الهند، هذا الاختلاف مردّه إلى أنّ الموسيقيين في شمال الهند يتنبّون «راغات» فرعيّة في «الرّاغا» الأصليّة، ويعدّونها جزءاً من «الرّاغا» الأصليّة، أمّا في جنوب الهند، فتحملّ هذه الفروع كلّها أسماء مختلفة.

هذه الأغنية كلاسيكيّة، بمعنى أنّها تتركز على «الرّاغا»، والموسيقى الكلاسيكيّة تختلف عن الموسيقى الشّعبيّة؛ لأنّ في الأوّلى يقع التّركيز على «الرّاغا» أكثر.

بعد هذا الشّرح الجميل لمعاني أغنيتي التي أحبّها، نظر د. مجيب الرّحمن إليّ، وابتسم، ثم أردف قائلاً: لعليّ وفّقت في ترجمة الأغنية التي تحبيّنها كثيراً؛ لذلك رأيتُ من المناسب أن أشرحها قليلاً. والآن سوف تستمتعين بها أكثر.

ابتسمتُ لصديقي مجيب الرّحمن المجيب الدّائم عن أسئلتي،

وشعرتُ بأنّه بإتقانه للأفكار والمعاني واللّغة العربيّة بهذه السّلاسة والإجادة يجيد الغناء، لكن بطريقة أخرى، وهي بطريقة الفصاحة وحسن البيان، وهو مَنْ يجيد اللّغة العربيّة بطلاقة واضحة؟

فضولي وأسئلتي امتدّت حتى إلى رحلته مع اللّغة العربيّة لأفسر بإجاباته وتفاصيل حياته تلك الفصاحة في اللّغة العربيّة التي وجدتها عنده، ومن ثم وجدتها عند حشد كبير من علماء اللّغة العربيّة والشّريعة الإسلاميّة في الهند، ثم وجدتها عند النّخب من طلبتهم ومريديهم وتابعيهم في درب اللّغة العربيّة، وعند الكثير من باحثي المؤسّسات المعنيّة باللّغة العربيّة وآدابها وعلومها.

من جديد عاد يشرح لي د. مجيب الرّحمن بعض ملامح رحلته مع العربيّة التي تشابه ملامح درب الكثير من الهنود الذي بغوا السّير في دربها، وعشقوا جرسها وأسرارها وحروفها، فقال لي: «وُلدتُ في سنة 1972 في قرية مغمورة من قرى مقاطعة «كتيهار» في ولاية «بيهار» تُسمى «كُورسِيل»، وتبعد عن محطة القطار في مدينة «كتيهار» أربعة عشر كيلو متر باتّجاه الجنوب، كانت قريتي مثل معظم القرى الهنديّة متخلّفة، لم تنعم بكهرباء، ولا بتسهيلات حديثة، ولا بمستوى جيد من التّعليم، إلا أنّ والدي -رحمه الله- أصرّ على تعليم أبنائه الخمسة جميعهم، وكنتُ الرّابع من أبناء والدي، واختارني والدي -رحمه الله- لأن أتحصّل التّعليم الدّينيّ، وكان ذلك من حسن حظّي.

بعد تخرجي من مدرسة القرية التي حصلتُ فيها على التّعليم الابتدائيّ دخلتُ عدداً من المدارس الدّينيّة في المناطق المجاورة، وتيسّر لي -بفضل الله سبحانه وتعالى- القبول في دار العلوم التّابعة لندوة العلماء في صفّ العالية الأولى في سنة 1984، وأكمّلت مرحلة العالميّة

(العالية الرّابعة) في سنة 1988، واستشرتُ فضيلة الشّيخ محمد رابع الحسنيّ النّدويّ -حفظه الله ورعاه- في أمر التحاقي بـ«الجامعة الملّية الإسلاميّة» لمواصلة الدّراسات العليا، فأجازني في ذلك، ونصحني بنصائح مفيدة، فجزاه الله خير ما يجزي به عباده الصالحين.

بعد ذلك انخرطتُ في الدّراسة في «الجامعة المليّة الإسلاميّة»، فنلتُ القبول في البكالوريوس في قسم التّاريخ في «الجامعة المليّة الإسلاميّة» في مدينة «نيو دلهي» في عام 1988، وأكملت دراسة البكالوريوس في 1991، وحصلّت درجة الماجستير في التّاريخ الحديث في نفس القسم في 1993، وبعد ذلك اتّجهت إلى جامعة «جواهر لال نهرو»، والتحقتُ فيها ببرنامج الماجستير في «مركز الدّراسات العربيّة والإفريقيّة»، وبدأتُ أستعدّ لامتحان الخدمات المدنية IAS، لكن شاءت الأقدار غير ذلك، ولم أنجح في هذا الامتحان؛ فتغيّرت وجهتي نحو اللّغة العربيّة، وفي السّنة الثانيّة من مرحلة ما قبل الدّكتوراة، بالتّحديد في أبريل 1997 عُيّنتُ محاضراً في قسم اللّغة العربيّة في جامعة «سيلتشار» في ولاية «آسام»، وكنتُ أحد الأساتذة الثّلاثة المؤسّسين لهذا القسم، فعملتُ هناك أربع سنوات ونصف، ثم عُيّنتُ في سنة 2001 استاذاً مساعداً في «مركز الدّراسات العربيّة» في جامعة «جواهر لآل نهرو»، لأترقّى في عام 2012 إلى درجة أستاذ، ثم أصبح رئيساً للقسم في عام 2014

بعدها انطلقتُ في علوم العربيّة، ولي الكثير من الكتب التي ترجمتها في علوم العربيّة وآدابها، ولي كتبٌ مترجمة بين اللّغات العربيّة والهنديّة والانجليزيّة، ولي مشاركاتٌ مهمّة في التّرجمة الفوريّة من العربيّة وإليها في الهند وفي خارجها، مثل الإمارات العربيّة

المتّحدة، وإيران، وسري لانكا، وماليزيا، والصّين، وقد حملتُ العربيّة إلى كلّ مكان سافرتُ إليه؛ كأنّني ابنها البارّ المخلص، وأحببتُها من أعماق قلبي».

من عادة د. مجيب الرّحمن أن يتكلّم بحماس عن كلّ شيء يروق له، أو حتى لا يروق له. مرّة سألته عن الزّعيم الهنديّ الشّهير «غاندي»، فقال لي في جملة ما قال: «يُعدّ غاندي أباً للهند الحديثة، ومرشدها الرّوحيّ، وقائدها السّياسيّ العظيم في كفاحها من أجل الاستقلال عن الاستعمار البريطانيّ عن طريق اللاعنف، وهو منير الدّرب للبشريّة نحو إيجاد الحلول السّلميّة للنّزاعات، وقد لُقّب بالـ «مهاتما» أيّ الرّوح العظمى، وعُدّ من كبار الشّخصيّات في تاريخ البشريّة، ووصفه العالم الشّهير «ألبرت آنشتاين» بأعظم عبقرية سياسيّة عرفتها حضارتنا.

يهيمن فكر «غاندي» على معظم مجالات الحياة الهنديّة؛ فصورته تزيّن الأوراق النّقديّة للعملة الهنديّة، وأُطلق اسمه على عدد هائل من المؤسّسات الوطنيةّ، ولم تكن هناك أبداً أيّ شبهة تحيط به؛ لأنّه مؤسّس الهند الحديثة ومرشدها الرّوحيّ؛ فذلك مقام مسلَّم به بين القاصي والدّاني.

في أعقاب تقسيم الهند إلى شطرين: الهند وباكستان في العام 1947، واندلاع أحد أسوأ الاضطرابات الطائفيّة في كلّ من الهند وباكستان -حيث قُتل مئات الألوف من المسلمين والهندوس، وصارت الأوضاع أشبه بالقيامة الصّغرى- كان لـ«غاندي» دور كبير في إيقاف حوادث القتل ضدّ المسلمين، وتهدأة الأوضاع، وإذا نجحت الهند في تأسيس بلد ديمقراطيّ تقدميّ يضمن الحقوق المتساوية لكافّة المواطنين؛

فالفضل في ذلك مرّده إلى القيادة السّياسيّة الهنديّة الحكيمة تحت الإشراف المباشر لـ«غاندي» الذي اعتمد أحد أكثر الدساتير تقدميّة في العالم.

لّما تعرّض «غاندي» للاغتيال على يد «ناثو رام غودسيه» غرق العالم كلّه في حزن عميق على هذه الخسارة العظمى للإنسانيّة جمعاء.

على الرّغم من ذلك آمل أن يبقى «غاندي» ممثلاً لروح الهند الحضاريّة؛ فهو يرمز –حقيقة– لكلّ جميل في الهند وفي الإنسانيّة جمعاء».

لقد وافقتْ زيارتي للهند انصراف د. مجيب الرّحمن إلى ترجمة كتاب «السّير في الطّريق السّريع» للهنديّ رام بوكساني من اللّغة الهنديّة إلى اللّغة العربيّة، وأطلعني على عمله في هذا الكتاب، وقد نال اهتمامي بسبب اللّغة العربيّة الرّائقة الجميلة التي ترجم د. مجيب الرّحمن الكتاب إليها، وقد سألته بفضول عن سبب قيامه بهذه التّرجمة، فأجابني قائلاً: «بحكم اطّلاعي على عمق العلاقات الاقتصاديّة والسّياسيّة والثّقافيّة والشّعبيّة بين الهند والإمارات؛ فقد كنتُ حريصاً جدّاً على قراءة كتب ومصادر تحكي قصة نشأة مدينة دبي ونموها وتطورها المدهش في العصر الحديث، وقد عملت الأفلام الهنديّة على ترسيخ صورة مشرقة لدبي في أذهان المشاهدين الهنود حيث باتتْ دبي رمزاً للثّراء السّريع، ومن ثم صارتْ مقصداً للباحثين عن العمل والمغامرين في التّجارة والأعمال.

الآن تستضيف الإمارات أكبر جالية هنديّة تُقدّر بـ 2,6 مليون نسمة، ولحسن الحظّ التقيتُ رجل أعمال هنديّ بارز مقيم في دبي منذ

ستين سنة بواسطة صديق حميم لي مقيم في دبي كذلك، وأعجبتني قصّة نجاحه الباهر في مجال الأعمال في دبي، ولما قرأتُ سيرته الذّاتيّة باللّغة الإنجليزيّة «السّير في الطّريق السّريع» أعجبتني قصّة حياته التي تكاد تكون أسطوريّة، وشدّني أسلوب الكتاب، وطريقة عرضه لأحداث حياته، ووجدتُ أنّ هذا الكتاب لا يحكي قصّة حياة فرد هنديّ ونجاحه في مجال الأعمال التّنافسيّ في دبي حسب، بل يحكي أيضاً قصّة نشأة دبي وتطوّرها إلى مدينة عملاقة منذ بداية النّهضة العمرانيّة في الإمارات قبل ستين سنة تقريباً.

كما يدوّن الكتاب تطوّر العلاقات والأواصر بين البلدين، ويتضمّن الكتاب دروساً وعبراً للجميع؛ لأنّ الحكمة لحمته، والخبرة أساسه، ولما عرض عليّ المؤلف أن أقوم بترجمة الكتاب إلى العربيّة لم أتردّد في قبول عرضه، وعكفتُ على التّرجمة ستة شهور، ويسعدني صدور الكتاب في هذا المظهر الأنيق من مدينة دبي».

كانت هذه الإجابة محفزاً لي على قراءة كتاب «السّير في الطّريق السّريع» ، لاسيما أنّني تلقّيت إجابة مقنعة حول سبب ترجمة هذا الكتاب إلى العربيّة؛ كالعادة إجابات د. مجيب الرّحمن مقنعة لكلّ مَنْ عرفه، أو تواصل معه عن قرب، وهي إجابة جعلتني أفتح هذا الكتاب بفضول لأرى ذلك الشّخص الذي نال اهتماماً من د. مجيب الرّحمن ليترجم هذا العمل الضّخم، فاكتشفتُ أنّ اسمه د. رام بوكساني، وهو قامة هنديّة تجاريّة وإنسانيّة نمتْ، وأزهرتْ في الإمارات، وفيما بعد اكتشفتُ أنّه يشكّل بكتابه هذا وبقصة حياته حلقة جميلة من حلقات الاندماج العربيّ الهنديّ عبر دوائر تاريخيّة عملاقة جمعت هاتين الحضارتين.

لم أكن أعرف د. رام بوكساني على المستوى الإبداعيّ أو الأكاديميّ، كما لا أعرف موقع د. مجيب الرّحمن على هذه الخارطة الملبسة؛ وعذري في ذلك ضعف اهتمامي- إن لم يكن انعدامه- بأهلّ المال وناشطيه، لكنّني عندما قرأتُ هذا الكتاب، نقلني الفضول إلى الاطّلاع على منجزات صاحبه، فعرفت أنّه استطاع في كتابه هذا أن يخلق فضاء جديداً له، وهو فضاء الكلمة التي قلّما يبغي أرباب المال والصّناعات أن يحلّقوا في ملكوتها؛ فمحبو الكلمة هم جمهور آخر في الغالب.

على كلّ حال وجدتُ أنّ د. رام بوكساني يجمع الكثير من أنواع الحبّ في ذاته بدليل منجزه الذي راق لي أن أتعرّف عليه، والكتاب يقدّم رحلة في هذا العالم الشّائك المحموم بالعمل والتّحديات، ليغدو في نهاية المطاف بعد 53 سنة قضاها في دبي رئيس مجموعة «آي. تي. أل»، بعد أن شغل منصب مدير بنك» أندوسلاند»، فضلاً عن أنّه عضو شركة «أندوسلند» العالميّة المحدودة في جزيرة موريشيوش، إلى جانب أنّه عضو في الكثير من الشّركات الأخرى المهمة، وقد مُنح شهادة الدّكتوراة من الجامعة العالميّة في واشنطن عام 2004 عن أطروحته «حكومة دبي: تأثير التّقاليد القبليّة في صنع القرار خاصّة في فترات الأزمات خلال تطوّر المدينة».

شاي «الكرك» وأشعار «كبير»:

بدأتُ صباحي وصباح أمّي (نعيمة المشايخ) بتناول فطور هنديّ خفيف، إلى جانب شرب شاي «الكرك» اللّذيذ الذي راق لي على الرّغم من أنّني لستُ من هواة شرب الشّاي، إلاّ أنّه لم يرقْ لأمّي

جملة وتفصيلاً؛ لأنّه يختلف عن الشّاي الذي اعتادتْ على شربه في الأردن، هذا السّبب ذاته هو الذي جعله يروق لي؛ فهو مختلف عمّا اعتدته في دارج حياتي؛ فهو شاي هنديّ تقليديّ شهير، وهو مزيج من الشّاي الأسود والزّنجبيل والتّوابل الأخرى، مثل الهيل والشّمر والفلفل الأسود والقرنفل واليانسون وبذور الكزبرة، وبسبب ذلك فهو ذو رائحة عطريّة زكيّة، ويشربه الهنود حلواً بإضافة السّكر إليه بدرجات متفاوتة، ويتمّ تخميره في الحليب الدّافئ.

يذكر الهنود أنّ لشاي «الكرك» فوائد صحيّة كثيرة، مثل الحفاظ على صحّة القلب، وتحسين الهضم، والتّحكّم بمستويات السّكر في الدّم، وتخفيض الوزن، والوقاية من السّرطان، ومكافحة الأكسدة في الجسم، ومعالجة نزلات البرد، ويحافظ على توازن الهرمونات في الجسم، ورفع الطّاقة في الجسم.

إلاّ أنّ للطبّ رأي آخر في هذا الشّاي؛ إذ يذكر الأطبّاء أنّ له بعض المضار إلى جانب فوائده الشّائعة؛ فهو يفقد بعضاً من خصائصه وفوائده بسبب تسخينه لمرات كثيرة، كما يفقد فاعليته عند خلطه بالحليب الأمر الذي يعمل عملاً عكسيّاً فيما يخصّ فعاليته في مكافحة الأكسدة، كما يحتوي على كميّة كبيرة من الكافيين الأمر الذي يؤدّي إلى فقدان السّوائل في الجسم، الأمر الذي يؤدّي إلى خسارة الكالسيوم من الجسم؛ ممّا يعزّز فرص الإصابة بمرض ترقّق العظام وهشاشته.

لقد كنتُ أفتتح صباحاتي جميعها في الهند بشرب شاي «الكرك». هذا الصّباح مزجتُ شاي «الكرك» ببعض أشعار الشّاعر الهنديّ الصّوفيّ الشّهير «كبير» الذي راق لي شعره، وراق لي أن أردّد

على نفسي أشعاره التي تفيض إنسانيّة وحبّاً إلهيّاً وعطفاً على البشر دون عنصريّة أو تفرّقه:

«إذن أنا مجنون، يا الله، ما زلت عبداً لكَ.
لا أجمع الأوراق، ولا أعبد الأصنام
دون الإخلاص لله، العبادات جميعها عديمة الجدوى
أعبد المعلّم الحقيقيّ
كلّ حين وآن إرضاء له»

كنتُ أتمنى لو أستطيع قراءة شعر الشّاعر»كبير» بلغته الأمّ؛ إذ لفهمته أكثر وأعمق، لكنّني الآن لستُ بعيدة عنه؛ فأنا أشعر تماماً بإحساسه الإنسانيّ البديع، أحبّ هذا الهنديّ الرّقيق، كما أحبّ الأغاني الهنديّة الرّومانسيّة التي لا أفهم معاني كلماتها، لكنّني أشعر بأحاسيسها؛ فالإحساس مستوى متقدّم من الفهم والوعي.

«كبير» شاعر هنديّ شهير (1440–1518) ، وهو يُعدّ حكيماً وقائداً روحيّاً، وله أتباع بالملايين، معظمهم في ولاية «تشهاتيسغار» في وسط الهند، حيث وُلد وعاش، إلاّ أنّه تُوفّي في مدينة «مجاهر» في شمال البلاد.

حياته المرويّة مزيج من الحقائق والأساطير، إلاّ أنّ من المؤكّد أنّه كان يعمل نسّاجاً، وكان يمضي معظم وقته في حانوته الخاصّ في مدينة «بنارس»، ثم اعتنق الإسلام، وهو مَنْ وُلد، ونشأ هندوسيّاً.

مع الوقت تخلّى عن مهنة النّسيج، وانطلق يبشّر بالله وبالحبّ الإلهيّ، فتحوّل حانوته إلى مكان تعبّد وصلاة وتعاليم، ليُتّهم بعد ذلك بالجنون، ثم بالتّنوير، إلى أن حكم عليه الامبرطور «سيكاندر» بالإعدام؛ ففرّ من مدينته هروباً من هذا الحكم الجائر الظّالم.

الهنديّ المسلم النّبيل:

«قمر جلا بدجى الضّلال يبيدها
بشر علا قمم الكمال يفيدها
وغدا يؤرقني الرّبيع هلاله
فبطيبة الخضراء ينام مليكها
عشق الفؤاد فبات يعشق وصله
فسرى الخيال، ففي العيون دموعها»

الشّاعر الهنديّ: الشّيخ محمد ضياء الدّين الفيضيّ

بهذه الأبيات كان يترنّم ذلك الباحث الهنديّ الدّمث الذي قابلته في إحدى ردهات «مركز الدّراسات العربيّة والإفريقيّة»، وكانت روحه عندها تفيض رّقة وتأثّراً بما يترنّم به من أشعار.

لم يكن في بالي أن تكون رحلتي في الهند في الدّرجة الأولى هي رحلة في حياة الهنديّ المسلم الذي يتعلّم العربيّة، ويعيش حيواتها، لكنّني وجدتني أعيش في مجاهل هذه الرّحلة ذات الأدغال السّاحرة بحكم التزامي بأهمّ أسباب رحلاتي في العالم؛ وهو السّعي خلف العلم والأدب والمعرفة، والالتقاء بأهلها، وقد تلقّفتني الأيدي الهنديّة المسلمة، وأفاضتْ عليّ بحبّها الرّائق، ووجدتني أعيش الإسلام والمسلمين في ديار الدّولة الزّعفرانيّة الهنديّة؛ إذ اللّون الزّعفرانيّ هو اللّون المفضّل والمقدّس عند الهندوس.

تعرّفتُ على العالم المسلم والعالمة المسلمة في ضروب اللّغة العربيّة، كما تعرّفتُ على الباحث المسلم والباحثة المسلمة، فوجدّتُ العالم المسلم رقيقاً، ولطيفاً، ومرهف الحسّ، وعميق العلم، وأنيقاً،

ومهذّباً، ومتواضعاً، ومحبّاً للعلم وأهله، ويسعده التّواصل مع أهل العربيّة والإسلام في كلّ مكان، ويسعى إلى ذلك يحدوه إلى ذلك إخلاصه للإسلام والعربيّة، وهو على قدر كبير من العلم والمعرفة، لكنّه متواضع، لا يعرف تبجّحاً أو اختيالاً.

على شاكلة رجل العلم المسلم هي هيئة طالبه أذكراً كان أم أنثى؛ فهو مهذب وأنيق ونظيف الجسد والسّريرة والهندام، طيّب الرّائحة والكلمة والنّظرة، مجتهد في علمه، نادر التّذمّر أو الشّكوى، يسارع في دروب العلم بنشاط، ويقدّم العون للجميع، خدوم لمعلّميه وجماعته ولمن طرقهم من ضيوف، شغوف بالعلم والمعرفة والسّفر والتّعرّف على النّاس دون أن يتجاوز حدود الأدب الجمّ الذي يتميّز به، وتزيد الباحثة المسلمة على ذلك كلّه بالسّتر في ملابسها، والاحتشام في سلوكها وكلامها وصوتها ونظراتها.

من حسن حظّي أن التقيتُ في رحلتي هذه بطائفة كبيرة من علماء الهند المسلمين المعاصرين المتخصّصين في علوم اللّغة العربيّة في مدينة «نيودلهي»، وفيمن صادف وجودهم فيها في وقت زيارتي لها، وترحالي فيها، وقد حضرتُ فيها أكثر من مؤتمر وملتقى وبرنامج علميّ في أطر اللّغة العربيّة وآدابها.

كانتْ لي محاضرات في جامعة «جواهر لآل نهرو»، «والجامعة المليّة الإسلاميّة»، و«مركز الدّراسات العربيّة والإفريقيّة» في قضايا الأدب العربيّ المعاصر الذي خلصتُ فيه إلى أنّ ليس هناك كلمة أخيرة في المنظور الإنسانيّ تجاه عالمه المتغيّر؛ فالحقيقة الكبرى أنّ الإنسان هو المتغيّر الحقيقيّ، وأنّ العالم هو الثّابت بمعنى ما، أيّ أنّ الحقائق هي ثابتة، والرّؤى هي المتغيّرة، ومن هذا المنطلق أطللتُ على أهمّ ملامح

الاتّجاهات المعاصرة في الأدب العربيّ الحديث، وأنا مسلّمة بأنّ الرؤية هي تشكّل خاص للوعيّ، وأنّ زاوية النّظّر تحكم المنظور، وأنّ اختلاف وجهات النّظر هو مَنْ يشكّل القيمة الحقيقيّة للجدال الفكريّ والتّواصل الإنسانيّ، وأهمّ ملامح الاتجاهات المعاصرة في الأدب العربيّ وفق رصدي للمشهد العربي الحديث بكلّ ما فيه من معطيات وإبداعات وتجلّيات يمكن حصرها في التّجريب والحساسيّة الجديدة وأزمة الشّكل وبنائيات المعمار الإبداعيّ، والغوص في مجتمعيّة الأدب وتحطيم الحدود التقليديّة للواقعيّات المختلفة فيه، واستدعاء الموروث الإنسانيّ والاتّكاء عليه في استيلاد الشّكل الإبداعي الجديد، وتداخل الأجناس وتلاقح الأشكال وفوضى التّجنيس، وبزوغ الأدب الرّقميّ أو التّفاعليّ أو الإلكترونيّ، وتجلّي متاهات الإبداع، واستيقاظ الذاتيّة وسبات الخيال العلميّ، وغزو أدعياء الأدب للمشهد الإبداعيّ عبر الشّبكة العنكبوتيّة.

لقد اجتمع لي في هذه المحاضرات خلق كثير من العلماء وطلبة العلم في المستويات الدّراسيّة المتقدّمة: الماجستير والدّكتوراه، وكانت فرصة كي أقابل نخبة من العلماء والباحثين، أمثال د. مجيب الرّحمن، ود. محمد ثناء اللّه النّدويّ، ود. رضوان الرّحمن، ود. محمد أسلم الإصلاحيّ، ود. محمد قطب الدّين، ود. عُبيد الرّحمن، ود. أكرم نواز، ود. عبد الماجد القاضي، ود. نسيم أختر النّدويّ، ود. حبيب الله خان، ود. محمد أيّوب تاج الدّين النّدويّ، ود. فوزان أحمد، ود. صهيب أحمد، ود. أورنك زيب الأعظميّ، ود. رفيع العماد فينان، ود. هيفاء شاكري، ود. أكرم خان، ود. حبيب الله خان، ود. سعيد الرّحمن.

هم جميعاً علماء أجلاّء يتعشّقون اللّغة العربيّة، ويبذلون أعمارهم وجهودهم وآمالهم في سبيل تعلّمها، وقد راقتْ لي قصيدة نونيّة طويلة للدّكتور الشّاعر أورنك زيب الأعظميّ التي قال في مطلعها مادحاً حبّ زملائه علماء العربيّة في «الجامعة المليّة الإسلاميّة» للغّة العربية، وهو من علماء العربيّة الذين قابلتهم في «الجامعة المليّة الإسلاميّة»، وهو ممّن يطيلون الصّمت، ويجيدون الإصغاء، ويعكفون على الإنتاج العلميّ، وله مصنّفات كثيرة في اللّغة العربيّة وفي تحقيق المخطوطات:

نحمّد ربّنا بالشّاكرين
ونعبده ومَنْ في العالمينا
ونشرع في الصّلاة وفي السّلام
على من أرسِل للأجمعينا
نبيٌّ مرسَلٌ أصفاه ربّي
لكلّ الشّاهدين الغائبينا
بهَدْي نُزِّلَ بلسان عُرْبٍ
أقرّ به فحولُ الجاهلينا
يبجّله الرّجالُ على التّوالي
يحبّون، ولا حبَّ الظّعينا
وفي صدر المحبّين رجالٌ،
نساءٌ؛ لا ينون ولا ينينا
ومنهم من تصدّر هؤلاء الـ
أساتذةَ الخيارَ الخادمينا
أساتيذ تمهّروا في الفنون
وأعلامٌ تفوّقوا بارعينا

كما قابلتُ عدداً من الباحثين المهرة المجيدين الذين يسيرون في درب حاملي راية العربيّة، أمثال: د. محمد ريحان النّدويّ، ود. أسعد جمال، ود. داوود فيصل، وأزهر خان، وأفضل حسين، وحامد رضا الذي يعدّ أطروحته في الدّكتوراه عن أدب الأطفال في إبداعيّ القصصيّ، وإنعام الآزاد، ومحمد نعيم المصباحيّ، وزياد عبد السّلام، وفرح شاهين، وكاشف جمال، ومحبوب علاّم، ومحفوظ علاّم، ومحمد أحمد، ومحمد أرشد، ومحمد احتشام، ومحمد ذكي الله، ومحمد عمران، ومحمد مبشّر، ومحمد مجاهد، ومحمد معراج، ومخلص الرّحمن، ومطيع الرّحمن محمد محبوب الرّحمن، ونور الدّين، وأريان سلطان، وحبيب الرّحمن، وحفظ الرّحمن، وراشد الندويّ، وعبد الكريم الأنصاريّ.

إنّ رحلاتي في الهند قد يسّرت لي التّواصل مع علماء وباحثين مسلمين من سدنة العربية من أرجاء الهند، أمثال: د. صغير أحمد، ود. محسن عتيق خان النّدويّ، وسهيل العليميّ، وعبد الرّحمن النّدويّ، وعبد الواسع، وعزيز الرّحمن خان، وعظمت الله علي، ومحمد رفيق، ومحمد شميم النّظاميّ، ومحمد علي الوافي، ومحمد زبير، ود. أصغر محمود النّدويّ، ود. محمد أكرم، ود. حبيب الله خان، ود. نعيم الحسن، وحفظ الرّحمن من «نيودلهي»، ود. عبد الحكيم الفيضيّ، وعبد الرّحمن كوتي الفيضيّ، ود. أيوب وافي، ود. محمد علي الوافي، ود. تاج الدّين المنانيّ، ود. عبد المجيد المدنيّ، ود. نوشاد الهدويّ، ود. سهيل بلاونتي كيزل عمر، ود. محمد سراج الدّين تي، د. محمد رياض، وعباس ويناد ب. م، وإسحاق ك. ب، وجعفر الصّادق، وحافظ مبشر أدرشيريّ، ورحيمة بنت هاشم الدّين، ومحمد فاروق القادريّ،

ومحمد تاج الدّين، ومعزوم أحمد، ومحمد حارث الوافي، ونور الدّين عبد القادر الصّلاحيّ، ومحمد راشد، ومحمد سهيل محمد كتي، ومحمد سهيل، ومحمد شاهن شاه، ومحمد شفيق، وعبد الوهاب حمزة، وسلينه صغير، وشرف الدّين، وسهيل عبد الحكيم، وشفيق الرّحمن، ورياست علي الأزهريّ، وعبد الله محمد السّلميّ، وأكبر بيبوكدوت، ومحمد علي الوافي، ونور النّساء، وشادي شفيق، وعائشة وى وى بلاتور، وفيروز بن عبد السّلام المليباريّ، ومحمد فائز، ومحمد عبد الوهاب، وسعيد عبد العزيز، وعبد الحميد ملباري، وعبد الرّشيد ناكيري، ومحمد علي، وسجاد ف. ب، ورضية. ب، ود. محمد عابد عبد الرّحمن، ومحمد انيس، وسمن سلطانة، وفاطمة جنّة، وفاطمة حنّة، وفسنا، وفاطمة رفا، وعباس. كي. ب، ود. عبد الهادي إبراهيم الفاروقيّ، ومحمود الحسن، ومرشد بن محمد، وعبد الرّشيد الوافي، وسعد الدّين كيري، وسعد علي الوافي اللّذين ترجموا الكثير من قصصي القصيرة إلى اللّغة الملايالاميّة واللّغة المحليّة مالايالم، وجميعهم من «كيرالا»، ود. أنوار أحمد البغداديّ، ود. إشفاق حسين الأزهريّ، ود. محمد خورشيد عالم الأنصاريّ، وخورشيد همدم، ود. سعيد بن مخاشن، ومحمد طيب العليميّ، ومحمد عباس الأزهريّ، ومحمد نور اللّكناويّ، ومولانا نور الهدى مصباحيّ، وشهاب البركاتيّ، وغلام غوث، ود. وثيق النّدويّ من «لكناو»، و د. عبد العزيز صوفيّ من «لداخ»، ود. عرفات ظافر، ود. غلام مرسلين ونعيم أختر من «عليجراه، وعبد الخالق الأنصاريّ من حيدر آباد.

كما يسّرت لي التّواصل مع كثير من علماء وباحثي بنغلاديش وباكستان الذين قابلتهم، أو تعرّفتُ عليهم، أو تواصلت معهم عبر

رحلاتي في الهند، وعلاقاتي معها، مثل: د. محمد ناصر الدّين ميزي، ود. عبد الله فاروق، ود. م حمد محبوب الرحمن، ود. محمد ولي الله، ود. افتخار العالم مسعود، والباحث محمد أسد الزّمان خان، وعبد السّلام كمال، وجميعهم من بنغلاديش، أو مثل د. شير علي خان، ود. ذاكرة جهانتاب، ود. ظهير أحمد، ود. لبنى فرح، ود. محمد إسماعيل، وآمنة أكرم، وبشير أحمد درس، وحبيبة عبد الله، وزاهد عبد الشّاهد، وعقيلة رباب، وعمر رئيس، ولطافت نعيم، وجميعهم من باكستان.

جامعة «جواهر لآل نهرو» هي من أرقى جامعات آسيا، فضلاً عن الهند، وهي تقع في مدينة «نيودلهي»، وتأسّستُ عام 1969، وحملتْ هذا الاسم تخليداً لذكرى «جواهر لآل نهرو» أوّل رئيس وزراء هنديّ.

هي تقع وسط غابة من الأشجار، وتضمّ تسع كليّات، ويبلغ عدد طلبتها 55000 طالباً وطالبة، وينتمي إليها نحو 500 عضو هيئة تدريس، وهي جامعة مختصّة بالبحوث والدّراسات العليا.

أمّا «الجامعة المليّة الإسلاميّة»، فهي ليستْ أقصر كعباً من جامعة «جواهر لآل نهرو»؛ فهي جامعة عريقة من جامعات «نيودلهي»، وقد تأسّستْ ابتداء في عام 1920 في مدينة «عليجراه» في ولاية «أوتار برديش»، ويعني اسمها باللّغة الأورديّة «الجامعة القوميّة».

هي تضمّ تخصّصات مختلفة، كما فيها قسم لغة عربيّة عريق تابع لكلّية العلوم الإنسانيّة واللّغات، وفيه نخبة من علماء العربيّة من الهنود المجيدين للعربيّة وعلومها، كما ينتمي إليها عدد من الباحثين الذي يدرسون علوم العربيّة في أكثر من مستوى دراسيّ.

لقد حظيتُ بتكريم خاصّ على مجهودي العلميّ والأدبيّ في فنون العربيّة في «مركز الدّراسات العربيّة والإفريقيّة»، الذي كان

يرأسه- عندئذ- د. رضوان الرّحمن، وقد كان حفلاً بهيجاً وأنيقاً، حضره خلق كبير من العلماء والباحثين والجاليات الدّبلوماسيّة والبعثات الثّقافيّة العربيّة والإسلاميّة في مدينة «نيودلهي»، وقد كانتْ لي فيه كلمة بعد أن قُدّم لي درع المركز.

«مركز الدّراسات العربيّة والإفريقيّة» يقع في كليّة اللّغة والأدب والثقافة في جامعة «جواهر لآل نهرو»، وهو يعدّ أكبر قسم لغة عربيّة في جامعات الهند، وهو أقدمها كذلك، وقد تأسّس في عام 1971 بوصفه جزءاً من قسم اللّغات الشّرقيّة، لكنّه استقلّ في عام 1996، وحمل اسم «مركز الدّراسات العربيّة والإفريقيّة»، وهو يضمّ كذلك قسم اللّغة العبريّة، فضلاً عن اللّغة السّواحليّة التي كانت جزءاً من المركز.

هذا المركز يدرّس اللّغة العربيّة والأدب العربيّ من مرحلة البكالوريوس إلى مرحلة الدّكتوراه، وقد تخرّج في المركز عدد كبر من حملة شهادات البكالوريوس والماجستير والدّكتوراه، ويشهد إقبالاً متزايداً عليه من الدّارسين؛ لأنّه ينتسب إلى جامعة «جواهر لآل نهرو»، أعرق جامعات الهند، وأطيبها سمعة وشهرة، ويخرّج أشدّ الطّلبة ذكاء ومهارة وطلاقة بحكم البيئة العلميّة الجامعيّة الرّاقية التي تعمل على صقل مواهب الطّلبة، وشحذ هممهم وكفاءاتهم.

هو يركّز على تنمية المهارات اللّغويّة لدى الطّلبة باللّغتين العربيّة والإنجليزيّة؛ لتأهيلهم لسوق العمل الذي يوفّر فرصاً مغرية للذين يجيدون اللّغتين العربيّة والإنجليزيّة بطلاقة؛ إذ هناك الكثير من الشّركات المتعدّدة الجنسيّات في مدن الهند، مثل: «بنجالور»، وحيدر آباد»، و«دلهي»، وغيرها.

كانتْ هناك نقاشات طويلة بيني وبين الحضور من العلماء

والباحثين حول قضايا العربيّة وتحدّياتها وجمالياتها، وقد راق لي ما يتوافرون عليه من ثقافة وحسن نقاش وأدبيّات حديث وإجادة للغة العربيّة، وإقبال عليها بشغف منقطع النّظير، لكن هالهم، ثم صدمهم، ثم غمرهم بضحك جارف جوابي عن سؤال أحدهم حول أكثر ما يغريني في الهند، فأجبته بأنّني ما أزال أبحث عن أمير هنديّ وسيم يقع في عشقي، وأهيم به حبّاً.

لقد سألوني عندها بفضول حنون هو جزء من طبع الهنديّ الألوف العفويّ: ما هي صفات الأمير الذي تبحثين عنه؟ فصمتُ قليلاً، ثم استدعيتُ صورة ذلك الأمير الحلم الذي رأيته في منامي أمام بوّابة «تاج محلّ»، وأخذتُ أصفه للجميع بين صخب مزيج من الضّحك والأريحيّة التي سرتْ بين الجميع، وأشاعت جوّاً من الودّ، وأزالتْ ذلك التّشنّج الذي كان يعلو الوجوه أمام فكرة استضافة امرأة عربيّة رحّالة روائيّة تجوب الدّنيا في رحلة بحث موصولة عن مجهول مدفون في أعماقها.

أكّدتُ للجميع أنّني أريد أميراً هنديّاً له وجه أسمر بقسمات حلوة ناعمة وعينين عسليتين جميلتين، وشعر أسود ثخين ناعم مسترسل، وقامة أنيقة يليق بها أن تكتسي بثوب هنديّ حريرّي يشبه تلك الأثواب التي كان يلبسها الأمراء الهنود في الأفلام التّاريخيّة البوليوديّة التي لطالما أسرتني بجنون، وجعلتني أعتقد أنّني أمام أمير من سلائل الآلهات والملوك وأسياد البراهمة، وأريده كذلك يملك صوتاً بنغمة واثقة آسرة، ونظرات دامعة عميقة تخفي أسرار المعابد والكنائس والمساجد والمتعبّدين والنّسّاك والمتصوّفة والمعتزلين بصمت في رؤوس الجبال ومنابع الأنهار ومجاهل الأدغال.

علا ضحك الجمهور من الجديد، وضربوا صفحاً عن شروطي

الصّعبة لأميري الهنديّ المنشود، وانتقل الحديث مرّة أخرى إلى قضايا اللّغة العربيّة وأزماتها وعظمتها الممتدّة فيها خلا أهلها في الحاضر، لكنّني ظللتُ أبحث عن الأمير الهنديّ لعلّ رحلتي هذه تكون رحلة قلبيّة سعيدة، بدل أن تظلّ رحلة معرفيّة في أعماق الجغرافيا والتّاريخ والإنسان، كما هي رحلاتي جميعاً.

أكثر ما لفتْ نظري في علماء الهند المسلمين وطلبتها وباحثيها المقدار الكبير الذي يتمتّعون به من حظوظ الأدب واللّياقة والكياسة والتّواضع؛ الأمر الذي كان يضفي عليهم مهابة كبيرة، وبشاشة لا تفارق وجوههم ذات الابتسامات الدّائمة في وجهي ووجه أمّي مهما كانوا يعانون من تعب أو إرهاق.

أدبهم منتزع من صميم ثقافتهم الإسلاميّة التي تُوجب عليهم الأدب الجمّ مع العلماء والضّيوف ومَنْ يكبرهم سنّاً، كما هي تتماشى مع الثّقافة الهنديّة التي تحرص على احترام الأهل والأقارب والمعلمين وكبار السّنّ والضّيوف، وقد رأيتُ الكثير من الهنود ينحنون على أقدام مَنْ يحترمونهم، ويلمسونها بتقدير وإجلال تعبيراً عن احترامهم لهم، لكنّني لم أرَ الهنود المسلمين يفعلون ذلك، بل رأيتُ الهنود من غير المسلمين يفعلون ذلك بكلّ مودّة وبشاشة، كما رأيتهم في الدّروب إذا رأى أحدهم الآخر، ضغط كفّاً على كفّ في موازة ذقنه، وحيّاه بتقدير.

كثيراً ما يستقبل الهنديّ ضيفه بالصّحون المزركشة الجميلة التي تحتوي على الزّهور والحلوى والشّموع الموقدة، وعندما يخطئ في حقّ أيّ شخص، فإنّه يعبّر له عن أسفه البالغ بأنّ يمسك أذنيه إشارة لشعوره بالنّدم، وإقراره بالخطأ والذّنب، وعادة ما يكون الرّد على هذا الإقرار الخطير من طرف المذنب بالضّحك والعفو عن المُعتذر له.

أمير «الشّيرواني»:

لم يطل المقام بي في الهند حتى وافتني الصّدف السّعيدة بأمير الهند الذي حلمتُ به إلى حدّ كبير؛ كان ذلك عندما دخلتُ في أحد الجلسات المسائيّة في إحدى ندوات العلم التي حضرتها في مؤتمر جامعة «جواهر لآل نهرو» حول العربيّة، وكانت المفاجأة الكبيرة لي؛ كان معظم الموجودين من العلماء قد اختروا أن يحضروا هذه الجلسة المسائيّة بملابس «الشّيرواني» الأنيقة التي يلبسها علماء المسلمون؛ لقد بدوا لي جميعاً أمراء هنود مسلمين قادمين من أزمان موغلة في العزّ والقوّة والجمال والمنعة؛ فبدوا لي جميعاً مثل أمراء سماويين قاتلوا في حروب دامية، ثم خلعوا تروسهم ودروعهم وملابسهم الحديديّة، ليلبسوا بعضاً من ملابسهم الفردوسيّة الآسرة التي يلبسونها عندما يحضرون مجالس البهجة والعلم والفتنة الموصولة في سدرة المنتهى.

كانتْ هذه هي أوّل مرّة في حياتي أرى فيها ملابس «الشّيروانيّ» التي يلبسها علماء المسلمون في الهند، وقد رأيتُ في كلّ مَنْ يلبسها منهم أميراً هنديّاً ساحراً بمعنى ما مع تفاوت حظوظهم في الوسامة والشّباب والحضور وسحر القسمات والصّوت وجمال الحديث، إلاّ أن جميعهم كانوا شركاء في خلق جوّ آسر جميل في قاعة الجلسة، إلى حدّ أنّني أخذتُ أتفرّسهم واحداً تلو الآخر، وأستمتع بألوان رداء «الشّيراونيّ» الذي يتباين في لونه ونوع قماشه، على أن يكون في الأحوال جميعها لوناً رزيناً، ومصنوعاً من قماش فاخر، ومخيط بفنيّة عالية؛ إذ هناك خيّاطون هنود متخصّصون بخياطة «الشّيروانيّ» وتصميمه وفق تصميمات مختلفة على أن يكون في الأوقات جميعها ممتدّاً من الأكتاف حتى تحت الرّكبتين مثل قميص طويل، وبأكمام

طويلة وساترة، وياقة ملكيّة مرتفعة، وبأزرار ممتدة من أعلاه إلى أسفله، وتحته السّروال الهنديّ الشّهير المتّسع الرّقيق.

لهذا الـ «الشّيروانيّ» ألوان مختلفة، لكن أجملها ألوان الأبيض والذّهبيّ والرّماديّ في الصّيف، والأسود والكحليّ في الشّتاء، إلاّ أنّ اللّون الذّهبيّ الكريميّ ذا الياقعة المذهّبة قد خلب لبّي، وانتزع اهتمامي؛ فهو يَهبُّ مَنْ يلبسه ألقاً خاصّاً، وبريقاً عجيباً يضفي على بشرة من يلبسه بهاء رزيناً مؤثّراً.

عندما سألتُ أحد العلماء الذي كان أوّل مَنْ هلّ عليّ لابساً هذا اللّباس عن اسمه، قال لي: إنّه لباس «الشّيروانيّ»، وهو لباس العلماء المسلمين في الهند، وهو يعني «لباس الأسد»، إلاّ أنّ الهنود غير المسلمين يلبسونه كذلك لا سيما في الأعراس؛ إذ يلبسه العروس الهنديّ، ويكون حينها مزركشاً بألوان مختلفة.

عندها سألتُ صديقي اللّطيف د. مجيب الرّحمن لماذا لا تلبس «الشّيرواني» مثل معظم العلماء الهنود، فأعلمني أنّه يجد راحته في الملابس العصريّة العمليّة، ويفضّلها على غيرها من الملابس الهنديّة التّقليديّة، ويرى نفسه أنيقاً فيها.

فعلاً هو كان أنيقاً بالملابس الغربيّة العصريّة؛ إذ يحرص على تخيّر أجملها، وأكثرها بهجة ورونقاً، إلاّ أنّني بقيتُ راغبة في أن أرى طلّته بلباس «الشّيروانيّ» الذي يسرق لبّي، إلاّ أنّني لم أراه به أبداً.

أريد أن أصبح أميرة هنديّة:

أردتُ أن أصبح أميرة هنديّة، ولو لساعة تنقضي بانقضاء التقاط صورة لي أضعها في «ألبوم» صوري الفوتوغرافيّة التي ألتقطها في

رحلاتي، لكن المهمّة لم تكن سهلة كما أعتقدتْ؛ فكي أحصل على لباس هنديّ أنيق يناسب مسلمة لا تريد أن تظهر بطنها وأقدامها وصدرها وذراعيها كما تظهرها سائر الهنديّات غير المسلمات، فعليّ أنّ أذهب في رحلة في الأسواق الهنديّة التّراثيّة لا سيما أسواق الملابس الهنديّة الإسلاميّة كي أجد الثّوب الهنديّ الهدف.

لقد تحمّل أسعد وداوود أوزار رغبتي هذه؛ فكان عليهما أن يصطحباني وأمّي في رحلات طويلة ومكثّفة في الأسواق الهنديّة كي نجد الثّوب الحلم، وقد تطوّرت محاولات مساعدتي في الأمر إلى حدّ أن أسعد أستعان بزوجته الجميلة الشّابة لتساعدنا في بحثنا المحموم عن الثّوب الهنديّ الذي أريده، وقد امتدّ البحث ليصبح بحثاً جماعيّاً عريضاً عن قافلة من الأثواب والهدايا والعطور للقريبات والصّديقات في الأردن كي يشاركن جميعاً في تجربة التّحوّل إلى أميرات هنديّات آسرات، لاسيما أنّني ما قابلتُ امرأة في الأردن قبل سفري إلى الهند، إلاّ وطلبت منّي أن أحضر لها ملابس هنديّة وعطور وحنّاء؛ إذ اكتشفتُ أنّ جميعهنّ يحلمن بأن يكن أميرات هنديّات مغريات فاتنات دون أن يعترفنّ بأنّ معظمهنّ عجوزات طاعنات في السّن، وأنّهنّ يعشن في الوقت الإضافيّ في الحياة!

أخيراً وجدنا طلبتنا بعد جولات مكّوكيّة نهاريّة وليليّة في أسواق «نيودلهي» و«دلهي» القديمة، وبعد أن سقطت قدماي وقدما أمّي تعباً، وأحرقت أشعّة الشّمس وجهي وجهها، وأنهكنا التّعب، وتحطّم داوود وأسعد وهما يلاحقننا في الأسواق، ويعرضان البضائع علينا، ويساومان التّجّار في الأسعار، ويقومان بدور التّرجمان بيننا وبين الباعة والمتسوّقين الذين كان يحدوهم الفضول للسّؤال عنّا وعن وجهتنا وعن سبب زيارتنا

إلى الهند وعن جنسياتنا ومرادنا من الأسواق، وبعد أن أوهاهما التّعب وهما يساعدان في حمل الأكياس التي تحمل البضائع التي اشترينها من السّوق، بعد أن شرحا لنا قيمة كلّ بضاعة، وعرضا علينا أنواعها وأوجه المفاضلة بينها، ونصحانا بأفضل ما علينا أن نقتني منها.

أخيراً حصلنا على جهاز كامل لقبيلة من نساء عربيّات يردن أن يصبحن هنديّات الهندام والملابس والطّلة والأناقة لأسباب غير مبرّرة منطقيّاً؛ فعدنا مرّة تلو أخرى إلى الفندق نحمل أكياس من الملابس الهنديّة والعطور والخفاف المزركشة والبناطيل الهنديّة الملوّنة النّاعمة الحريريّة والأمشاط العاجيّة المزخرفة والكحل والمسك والحناء السّوداء والحمراء والأكسسوارات الهنديّة، والكثير من زيوت الشّعر والبشرة، والأقراص المدمجة لأغاني وموسيقى هنديّة، لا سيما الموسيقى الهنديّة الصّوفيّة التي تسبي قلبي، ولا تردّه إليّ كلّما سمعتها.

لكن الرّصيد الأكبر من الهدايا كان من زيوت الشّعر الهنديّة التي أوصتني عليها الكثير من نساء الأردن اللوّاتي يعتقدن أنّ كلّ امرأة هنديّة تملك شعراً بديع الجمال والطّول والنّعومة واللّمعان، وأنّ زيوتاً مثل زيت جلد الأفعى هي المسؤولة عن إنبات هذا الشّعر الفتّان، ولا يصدّقن بحتميّات الوراثة الجينيّة، كما يجهلن أنّ هذا الشّعر الجميل ليس ملكاً لكلّ امرأة هنديّة؛ بل الأمر خاضع للتّفاوت بينهنّ؛ فمعظم من رأيت من الهنديّات لم يكنّ يملكن الشّعر الخيليّ الطّويل المهفهف التي تظهر ممثّلات السّينما البوليوديّة به، ولم يكنّ كذلك آلهات للفتنة والجمال وفق أكاذيب الرّواة والأدعياء وتهويمات السّينما البوليوديّة، بل كنّ مثل باقي نساء الكون متفاوتات في الجمال والأنوثة والأناقة، وتزداد حظوظهنّ منها كلّما انتمين إلى طبقة ميسرة؛ لما في ذلك من

رعاية صحيّة ورفاهيّة تسمح للجمال بأنّ يتعزّز، ويظهر، على خلاف الفقر والمعاناة التي تطحن الجمال والصّحة والنّضارة.

لم يكنّ جميعاً رشيقات طويلات القامة جميلات القدّ، بل يغلب عليهنّ أن يكنّ قصيرات القامة، ضئيلات البنيّة المغرقة في سمرة شديدة، وهناك السّمينات جدّاً فيهنّ، حتى أن كروشهنّ تنزلق خارج السّاري.

لكن ذلك لا ينفي أن يكون هناك نساء جميلات وذوات قامات مذهلة وأجساد فاتنة، هذا الصّنف من النّساء النّادرات الوجود في الهند هنّ في الغالب نتاج عمليّات التّهجين بين الهنود وغيرهم من سلالات البشر، وهي هجائن ذات نتائج جماليّة مذهلة، وأجمل ما رأيتُ من جمال هنديّ آخّاذ ذلك الجمال الهنديّ الهجين من سمرة الهنود وملامحهم الدّقيقة المحبّبة، وبين زرقة العيون وتلوّن الشّعر، فتخرج الملامح ساحرة مبهرة، ومن هذا النّوع الهجين جاء الكثير من أبطال السيّنما الهنديّة رجالاً ونساء، وجاءتْ منه الكثير من عارضات الأزياء وملكات الكون في الجمال.

لقد اشتريتُ من السّوق -على حين غفلة من المرافقين لي- علبة نحاسيّة صغيرة مزخرفة من «الزّنجفر» الذي يطُلق عليه أحياناً اسم «السّندور»، وهو الصّباغ الأحمر الذي تضعه النّساء الهنديّات الهندوسيّات في مفرق شعور رؤوسهنّ ليدلّ على أنّ أزواجهنّ على قيد الحياة؛ فأنا ما أزال أحلم بأن ألتقي أميري الهنديّ السّماويّ الذي قد يقرّر أن يضع «الزّنجفر» في مفرق شعري كي أكون أميرته ولو لدقائق.

كانتْ علبة «الزّنجفر» هي أوّل ما أعدمته في الهند وأنا أحزم حقائبي استعداداً للرّحيل عنها؛ خوفاً من أن تندلق على ملابسي

وأغراضي والهدايا، فتصبغها جميعاً بالأحمر، وتعبيراً عن خيبة أملي العريضة؛ لأنّني لم أحظ بالأمير الحلم؛ فلا قيمة «للزّنجفر» دون يدين عاشقتين لرجل يرسم الأبديّة على جبين امرأة متشوّفة لحبّ رجل أسطوريّ.

الأسواق الهنديّة تعجّ بالملابس الهنديّة التّراثيّة، وهي جزء كبير وعملاق من اللّباس اليوميّ للإنسان الهنديّ؛ فمعظم الهنود لم تسيطر عليهم الملابس العصريّة العمليّة؛ فما يزال اللّباس التّراثيّ الهنديّ صاحب الصّدارة في الكساء اليوميّ للإنسان الهنديّ في شتّى الحقول، على الرّغم من أنّ هناك توجّه عند الفئات الشّبابيّة والمهاجرة إلى التّخلّي عن الملابس الهنديّة في الحياة اليوميّة لصالح الملابس العصريّة العالميّة، إلاّ أنّهم لا ينفكّون يعتزّون بها، ويلبسونها في مناسباتهم الخاصّة، لاسيما المناسبات السّعيدة منها، وعلى رأسها الأعراس والاحتفالات والتّكريمات.

الملابس الهنديّة التّراثيّة منوّعة إلى حدّ كبير، ويلعب الثّراء والغنى والطّبقة وأحياناً الدّين والعرق في اختيار نوع القماش ونوع الزّخارف، وخصّ فئة دون أخرى بملابس ما دون فئة أخرى، إلاّ أنّ الصّفة التي تصف الملابس الهنديّة جميعها هي التّنوّع الكبير الذي يسمح بأن تتدرّج قطعة الملابس من بسيطة زهيدة السّعر إلى قطعة فنيّة باهرة تبلغ آلاف الدّولارات.

هذا ما جعلني أحتار في الهند في شراء سار هنديّ لي؛ لأنّ شراء سار هنديّ أنيق يجاري ما تلبسه نجمات السّينما الهنديّة من سوار قد يبلغ ثمنه أحياناً بضعة آلاف دولار، هذا يعني أنّه لا يستطيع شراؤه إلاّ الأثرياء جداً.

لكن ذلك لا يغيّر من حقيقة أنّ الأسواق الشّعبيّة تعجّ بالملابس التي يمكن أن تتناسب مع أيّ ميزانيّة كانتْ مهما تدنّت، وتناسب ميزانيتي المثقلة بقافلة من الهدايا الهنديّة للأردنيّات المتشوّفات لأن يتبخترن بالملابس الهنديّة اللاّمعة الزّاهية في أعراس أسرهنّ وفي مناسباتها السّعيدة بعد أن غزت الدّراما الهنديّة المدبلجة أحلامهنّ وأفكارهنّ.

هناك قطع كثيرة في اللّباس الهنديّ وفق منطقته ومناسبته وجنس مَنْ يرتديه، لكن قطع الملابس الهنديّة الشّائعة عند الهنود هي «البيجامة الهنديّة»، وكلمة «بيجاما» هي كلمة هنديّة ذات أصول فارسيّة، وهي تعني سروالاً فضفاضاً يلبس عادة للنّوم، ويتكوّن من قطعة أو قطعتين، وهي في الأصل كانتْ تتكوّن من سروال فضفاض مربوط عند الخصر بحبل، مع سترة فوقه من ذات قماشه تمتدّ إلى الرّكبتين.

مع الوقت صارت هذه «البيجاما» لباساً يوميّاً في الهند يُلبس في البيت وخارجه، كما يلبسه الرّجال والنّساء والأطفال على حدّ سواء، وهو لباس عمليّ ويوميّ وشعبيّ، لكنّه ليس لباس رسميّ، وليس لباس الأناقة، أو لباس المناسبات الرّسميّة أو المناسبات المهمّة.

كما تلبس النّساء «السّاري»، وهو أجمل الملابس الهنديّة النّسائيّة، وهو يلبس مع مجموعة حُلّي تُسمّى «سولاه شرينغر». هذا اللّباس الجميل المتنوّع الألوان والأشكال هو الأشهر في الهند، وتلبسه النّساء في كثير من المناسبات، وأهمّها مناسبة الزّواج؛ إذ ترتديه العرائس في حفلات زواجهنّ.

تلبس النّساء الهنديّات لباس «سالوار كامييز»، وهو لباس هنديّ

نسويّ له شعبيّة كبيرة في إقليم البنجاب، ويُطلق عليه هناك اسم «بزّة السّالوار».

أمّا الرّجال فيلبسون «دهوتى كورتا»، وهو زي تقليديّ خاصّ بالرّجال، وهو لباس غير مخيط، إنّما هو قطعة قماش طويلة، قد تصل إلى أربعة أمتار ونصف المتر، وتُربط حول الخصر والسّاقين، ويُطلق على هذا اللّباس في البنجاب اسم «لاشا»، أمّا في البنغال فيُطلق عليه اسم «دهوتى».

كذلك يرتدي الرّجال الهنود «التّوربان»، وهو قطعة قماش غير مخيطة، ويلفّ حول الرّأس، وهو يحمل الكثير من الرّموز والمعاني عند الهنود. أمّا «كورتا»، فهو قميص طويل فضفاض، يصل إلى ركبتي مَنْ يرتديه، أو أقصر بقليل، وقد كان يخصّ الرّجال في الماضي، أمّا الآن فتلبسه النّساء كذلك.

اللّباس الهنديّ أكان للرّجال أم النّساء لا تكتمل أهبته إلاّ بوضع نقاط أو خطوط على الجبهة، وهي ليستْ اعتباطيّة، بل لها معانٍ ودلالاتٍ في الثّقافة الهنديّة، وهي فعليّاً بعيدة عن فنتازيّات السّينما البوليوديّة التي شوّهتْ معانيها، وقدّمتها أحياناً بصورة مغلوطة لسبب لأعرفه.

هذه النّقاط أو الخطوط الملوّنة في الجباه الهنديّة تعني ابتداء العين الثّالثة للشخّص الذي يضعها، وهي توضع في منطقة يعتقد الهنود أنّها مركز الجهاز العصبيّ، وعبرها يستطيع المرء رؤية الحقائق الرّوحيّة.

هذه النّقاط تعود إلى 2500 سنة قبل الميلاد في تاريخ سكّان جنوب آسيا، وهي قد تكون على شكل نقطة أو خطوط ملوّنة بالأبيض أو الأسود أو الأحمر، وتجتمع مشكّلة خليطاً من الخطوط والنّقاط لتحمل رموزاً ومعاني وإيحاءات كثيرة.

روى لي البعض أنّ هذه الرّموز تحمل معاني خطيرة، مثل التّضحية بالبشر والحيوانات، وتقديمها قرابين للآلهة، فضلاً عن أنّ رسمها على كامل الجسم يدلّ على رمز الفداء بالدّم.

هذه النّقاط لها علاقة بالأعراف والأصول والأماكن الهنديّة، وهي تشكّل غابة من المعاني والرّموز والإحالات؛ وهذا يحدّد نوع العلامة وموقعها في الجسم؛ فالنّقاط الحمراء تُعرف باسم «بيندي» أو «بوتو»، وهي تُصنع من مسحوق الزّعفران الهنديّ والتّوابل الصّفراء الذي يخلط مع عصير اللّيمون ليتحوّل إلى اللّون الأحمر الفاقع القاني، وهذه العلامة هي الأوسع انتشاراً في الهند.

هناك نقاط تُوضع على جبين النّساء من علامات «بيندي»، وهي تختصّ بالنّساء فقط، وهي ذات معانٍ متعدّدة؛ فالنّساء العزباوات يضعن نقاطاً سوداء، والمتزوّجات يضعن نقاطاً بلون أحمر فاقع، والأرامل تضع نقاطاً بيضاء بيضاء مصنوعة من الرّماد، وقد تضع النّساء نقاطاً سوداء على جباه الأطفال حماية لهم من الأرواح الشّريرة.

أمّا الخطوط البيضاء فتعرف باسم «تيلاك»، وهو نوع من الرّماد المقدّس المستخدم في صنعها وتركيبها، وهي لا تُوضع على الجبين فقط، بل تمتد إلى الذّقن والعنق وراحة اليدّ وأجزاء أخرى من الجسم.

الرأس الهنديّ المدلّل:

لا أعتقد أنّ هناك رأس بشريّ في كوكب الأرض يتمّ الاعتناء به خارجيّاً وشكليّاً، ويتمّ تدليله بعيداً عن العمق الدّاخليّ مثل الرّأس الهنديّ الذي يزيّنه الهنود بكلّ ما عرفوا من ضروب لذلك، ويغطّونه بالكثير من العمامات والقبّعات واللّفائف والمناديل.

هو اهتمام يبدأ من الاهتمام بتربية الشّعر، وتطويله، وتظفيره لا سيما عند النّساء، ويمرّ بتلك التّلوينات والنّقاط والرّسومات والألوان على الوجه، وانتهاء بالاكسسوارات والمجوهرات التي تزين الرّأس والشّعر والأذنين والأنف والجبهة ومفرق الشّعر والرّقبة بكلّ ما يمكن أن يُزيّن به من أدوات الزّينة والتّجمّل، وهو أمر يتنافس عليه الرّجال والنّساء على حدّ سواء؛ فمن الرّائج أن تجد رجلاً هنديّاً من غير المسلمين يلبس أقراط الذّهب في أذنيه، ويعلّق القلائد في رقبته، ويضع الألوان والنّقاط والبقع على جبهته ووجهه، ويزيّن العمامات واللّفائف التي يلفّها على رأسه بالذّهب والجوهر واللّؤلؤ والأحجار الكريمة والاكسسوارات.

لكنّني ما عرفتُ إنْ كان هذا الاهتمام يتضمّن الاهتمام بنظافة الرّأس والشّعر، أم لا؟ لا سيما أنّ هناك الكثير من الطّوائف الهنديّة على خصام مع الاستحمام والنّظافة، ولها فلسفة خاصّة في قذارة الجسد، إلاّ أنّني متأكّدة أنّ المسلمين رجالاً ونساء على علاقة صلح عقديّ وفكريّ وتراثيّ مع النّظافة مهما بلغتْ درجات فقرهم، ودرجات ثقافاتهم، ودرجات تصالحهم مع النّظافة الشّخصيّة؛ فكلّ من قابلتُ من المسلمين في رحلتي – وإن كان معظمهم من طبقة مصطفاة من أهل العلم والتّعلّم- كانوا نظيفي الجسد والشّعر والملابس، وروائحهم زكيّة عبقة.

إلاّ صديق هنديّ عالم مسلم قد جادلني ذات يوم جادلاً طويلاً في قضيّة النّظافة، وعدّها أمراً جانبيّاً في الحياة، بل إنّه سخر منّي عندما أخبرته أنّ النّظافة مطلب أساسيّ في جمال المرأة وتأثيرها وجاذبيتها، فأخبرتني صراحة بأنّه يفضّل المرأة القذرة الجسد غير المتهندمة، ويراها مثيرة، لا سيما إنْ كانت تطلق شعر جسدها، ولا

تتبّعه بالإزالة والتّنظيف، كما أخبرني أنّ ذوقه هذا ذوق يمثّل الكثير من الرّجال الهنود الذين يعرفهم.

عجبتُ من كلامه عجباً كثيرة، وتقزّزتُ من ذوقه وميوله، إلاّ أنّه كان لزاماً عليّ أن احترام رأيه وذوقه على الرّغم من مفارقتهما للفطرة والذّوق الشّائع بين البشر فيما يخصّ النّظافة وعلاقتها بالقبول والإثارة، من منطلق أنّ البشر فيما يعشقون مذاهب.

الأصل في زينة الرّأس عند الهنديّ أو الهنديّة أن تكون من الذّهب والجوهر واللّؤلؤ، هذا هو الشّائع عند الأغنياء والميسرين منهم، بل هو شائع كذلك في الطّبقة المتوسّطة منهم على الرّغم ممّا يستلزم توفيره من تكاليف وأعباء ماليّة، في حين تتوارثه الأسر لأجل تخفيف هذا العبء، والتّعبير عن فخرها بموروثات الأجداد والجدّات.

لكن الأسر الفقيرة أو دون المتوسّطة تكتفي بالزّينة والأكسسوارات من المعادن ذات الأصباغ الذّهبيّة والملوّنة إلى جانب الكريستال والزّجاج اللاّمع، والنّتيجة في النّهاية في الحالات جميعها هي التّزيّن والبهاء والطّلة الجميلة الأنيقة في سائر المناسبات أو تفاصيل الحياة اليوميّة؛ إذ الهنود مولعون بالزّينة والتّزين، والجمال والتّجمّل.

تتميّز تلك الزّينة في الغالب بكبر الحجم، وغلبة اللّونين الذّهبيّ والأبيض عليها، وكثرة تفاصيلها وتداخلها، وأحياناً تتداخل الزّهور الطّبيعيّة فيها لتُعلّق في شعر الرّأس المصفّف بعناية، لكنّها تصنع أيقونة جماليّة خاصّة تميّز أهلها، وتجعل الموضات العالميّة جميعها تنحاز إليها، وتحاول تقليدها، حتى غدا التّزين الهنديّ نمط عالميّ طاغٍ على خطوط الموضة العالميّة.

لقد راقتْ لي هذه الاكسسوارات الأنثويّة البديعة؛ فاشتريتُ منها

عدداً كبيراً، وبدأتُ أخلط طلّتي بها، لاسيما ذلك الاكسسوار الأنيق الذي ينزلق من مفرق الشّعر نحو الجبهة، ويتدلّى عليها نحو أعلى الأنف، ويستقرّ بين الحاجبين مثل ينبوع صغير، وهي قطعة اكسسوار أنيقة جميلة، وقد أسميتها «الدّمعة الهنديّة»؛ لأنّها تظهر مثل دمعة منزلقة على الجبين من مفرق شعر الرأس، وهي تسمّى عند الهنديّات باسم «تيكا»، وأهديتُ الكثير من هذه الدّموع الهنديّة الاكسسوارات «تيكا» لقريباتي وصديقاتي في الأردن، فراق لهنّ ذلك، وتفنّن في لبسها، وإدماجها في طلاّتهنّ الاحتفاليّة في المناسبات السّعيدة، وهنّ يتهن بالمناديل الهنديّة النّسائيّة التي أحضرتها معي ليطرحنها على رؤوسهنّ كما تفعل الهنديّات اللّواتي يسمينها «دوبتا» أو «أورهني».

يصعب أن أتحدّث عن طريقة الهنود في التّعامل الدّاخليّ مع رؤوسهم من الدّاخل من ناحية الفكر والثّقافة والتّحرّر والارتقاء؛ فهذا أمر يحتاج إلى ألف دراسة علميّة جادّة وطويلة.

أمّا الحديث عن الغطاء الخارجيّ للرأس الهنديّ فالكلام يطول فيه كذلك؛ ليستْ لكثرة ذلك، وتنوّعه عند الرّجال والنّساء حسب؛ لكن لتشّعب دلالات ذلك، وثقل محمولاته الاجتماعيّة والدّينيّة والطّائفيّة والفكريّة والجماليّة والقوميّة، وهي جميعاً تعبّر عن عقيدة وحضارة وتاريخ وثقافات أهلها، كما هي تشي بأصول مَن يلبسونها، ولهجاتهم، ودياناتهم، ومستوياتهم، وطبقاتهم، وأحياناً تصرّح بأوضاعهم ومهنهم وحقائقهم وأوضاعهم؛ ففي الثّقافة السّنسكريتيّة الهنديّة يدلّ غطاء الرّأس على مدلولات روحانيّة ذات أبعاد تبجيليّة وتقديريّة.

العمائم وأغطية الرّأس عند الهنود تصل أطوالها أحياناً إلى عدّة أمتار، والكثيرون منهم يبالغون في أطوالها وأشكالها وزينتها إلى حدّ

التّندّر والتّطرّف، ويتنافسون في تطويل العمامة وتكبيرها؛ فالهنديّ البنجابيّ «أفتار سينج ماونى» البالغ من العمر 60 سنة قد حاز لقب صاحب أكبر عمامة في العالم، ودخل بلقبه هذا كتاب جينيس للأرقام القياسيّة؛ إذ تبلغ طول عمامته 645 متر من القماش الملفوف حول رأسه، ويبلغ وزنها 48 كيلو غرام، ويحتاج إلى 6 ساعات يوميّاً للفّها حول رأسه، ويضطر إلى استخدام دراجة بخاريّة للتّنقّل بها؛ إذ لا وسيلة نقل أخرى تتّسع لعمامته التي استغرق 16 عاماً كي يكملها، لتكون بطول 13 حوض سباحة بالحجم الأولمبيّ.

اللاّفت للنّظر في هذه العمامة وصاحبها أنّه لا يرى فيها ثقلاً أو عبئاً عليه، بل يعتزّ بها، ويشعر بأنّها زهرة لوتس على رأسه، على حدّ تعبيره!

في حين أنّ الملياردير البريطانيّ «سردار ريوبين سينغ» من أصول هنديّة يقتني 7 سيارات من طراز «رولز رويس» بألوان سبعة مختلفة ليستخدمها بتوافق مع ألوان عمائمه السّبعة، وهو يفتخر بعمامته، ويراها تاجاً وفخاراً على رأسه.

الرّأس الرّاقص:

الرّأس الهنديّ هو مدرسة سلوكيّة وجماليّة وشعوريّة وتراثيّة كاملة، ولا أعني ما في داخله من عقل ووعي وإدراك؛ فهذا أمر فيه الكثير من الحديث والتّفصل والجدل، وفيه يطول الكلام، إنّما أتكلّم عن دلالاته الخارجيّة ومحمّلاته السّيميائيّة والدّلاليّة.

إذ لا يمكن لَمَنْ يزور الهند لأوّل مرّة أن لا يرتبك أمام حركات الرّأس الكثيرة التي يقوم بها الهنود، لا سيما عندما تُؤدّى دون أن كلام

يساعد على تفسيرها، وهي ذات شبكة محمولة من المعاني والدّلالات بين أهلها، إلاّ أنّها مغلقة على الآخر الزّائر، وتربكه إلى حدّ أنّه قد لا يعرف معناها، أو ما عليه أن يقول ردّاً عليه؛ لذلك ويحتاج وقتاً ليعرف معانيها ودلالالتها، ومن ثم يجد نفسه دون أن يقصد يهزّ رأسه مثلهم؛ ليتحدّث لغتهم الإيمائيّة الرأسيّة.

يمكن القول بكلّ ثقة إنّ هزّ الرّأس عند الهنود هو لغة توحّدهم جميعاً، وتزيل الحواجز الثّقافيّة واللّغويّة الحائلة بينهم، وتجسّر التّفاهم بينهم أنّى التقوا، وضاقت اللّغة عليهم؛ عندها تصبح حركة الرّأس لغة مشتركة بينهم بمعنى أو بآخر، كما تصبح لغة فعليّة قائمة على الحركة؛ لتكون بذلك أبلغ من لغة الأصوات.

أنا شخصيّاً بعد زياراتي للهند ألفيتُ نفسي أهزّ رأسي دون إرادة منّي، وقد استهجن من حولي من أهلي وأقاربي سلوكي هذا، لكنّني أخبرتهم أنّ الأمر يصدر عنّي دون إرادة منّي؛ إذ لعلّ عادة هزّ الرأس هي عادة تنتشر بالعدوى، بدليل انتقال عداوها إليّ، إلاّ أنّها لم تنتقل إلى أمّي، ولا أعرف سبباً لانتقالها إليّ دون انتقالها إلى أمّي، إلاّ أنّني أوّلتُ ذلك بانصهاري الشّعوريّ العميق في هذه الحضارة، وهذه عادتي في سفري وتعاملي مع البشر؛ إذ أنصهر فيهم، وأتناغم معهم، وأنفذ إليهم، وبذلك أفهمهم، وأحبّهم، ويحبّونني؛ فالتفهّم والتقبّل هما سرّا الوصول إلى الآخر.

لقد طرحتُ السّؤال المعتاد والشّهير على الكثير من الأصدقاء الهنود؟ لماذا يهزّ الهنود رؤوسهم بشكل كبير؟ وحصلتُ على الكثير من الإجابات المقنعة وغير المقنعة، لكنّني اكتشفتُ مع الوقت أنّ للموضوع علاقة كبيرة بالكمّ الكبير من العاطفيّة والاستلاب والاستبداد الوراثيّ

في مجتمعهم الذي يكبتْ حناجرهم، ويربيّهم على الطّاعة العمياء في كثير من الأحوال، ويطبعهم على الصّمت خلا بعض الإيماءات المعبّرة عن ذواتهم وانطباعاتهم ومواقفهم، وقد تعمّقتْ ثقتي بتحليلي هذا عندما قابلتُ الكثير من العلماء والمثقّفين والباحثين الهنود لا سيما المسلمون منهم، فوجدتُ أنّهم الأقلّ في تحريك رؤوسهم، بل بعضهم رافقته لمدّة طويلة، ولم أرَ أنّه يهزّ رأسه للتّعبير عن ذاته، وإنّما تؤدّي اللّغة الجريئة المثقّفة الواثقة هذا الدّور عنده.

كما رأيتُ أنّ هزّ الرأس متفاوت الاستخدام بين الهنود؛ فعند زيارتي لكشمير وأهل شمال الهند، لم ألاحظ وجود هذه العادة عندهم إلاّ في النّادر من الحالات، في حين أخبرني الأصدقاء أنّ هنود منطقة «كيرالا» في جنوب الهند مولعون بهزّ رؤوسهم في تواصلهم، إلاّ أنّني لم أذهب إلى تلك المنطقة لأرى ذلك بأمّ عيني.

لقد ركنتُ إلى هذا التّحليل الذي توصّلتُ إليه بعد تأمّل طويل، وراق لي أن أسميه «نظريّة بطبوطة في سرّ الرأس الهنديّ»، ذلك بعد أن أدركتُ المعاني الأساسيّة لهزّات الرؤس الهنديّة؛ فعرفتُ أنّ هزّ الرّأس بشكل أفقيّ يعني: نعم، لكن الشّائع عندهم أنّ نعم تُقال بتحريك الرّأس من اليمين إلى اليسار، ولا يعبّر عنها بالطّريقة المعروفة، أمّا أرجحة الرّأس بحركة بطيئة من اليمين إلى اليسار، فتعني: ربما، أو محتمل، أو غير مؤكّد، وأحياناً هزّ الرّأس يعني: قد فهمتُ، وفي سياقات أخرى هو شكر، وقد يكون معناه إلقاء تحيّة، وقد يكون معناه الودّ واللّطف والأنس.

الهند كلّها في الأسّواق:

مَنْ أراد أن يرى وجوهاً كثيرة وحقيقيّة من الهند، فعليّه أن يتجوّل في أسواقها؛ فهناك أثر من كلّ حقيقة، وتجسيد لكلّ واقع، ونفس من كلّ هواء، وظلّ لكلّ صورة؛ السّوق في الهند هو مهرجان لحياتها، وعرض حقيقيّ مستمرٌّ لتفاصيل أهلها وحيواتهم ومأكلهم وملبسهم وأدواؤهم وأدويتهم وأذواقهم وكلّ ما يستملحون، ويروق لهم.

في مدينة «نيودلهي» عدد كبير من الأسواق، والتّسوّق فيها، والتّعرّف عليها، والإلمام بما فيها يحتاج عمراً فوق العمر، وطاقة لا تفنى كي يُطوّف عليها دون تعب أو كلل.

من هذه الأسواق الشّهيرة هناك سوق «دلي هات»، وهو سوق ذو صبغة قرويّة داخل العاصمة، وقد تمّ إنشاؤه لغاية تشجيع الحرف اليدويّة، وعرضها أمام الزّائرين في متاجر صغيرة مخصّصة لذلك.

هذا السّوق بمثابة معرض دائم للحرف اليدويّة المنتشرة على امتداد الهند، وطاولة طعام كبيرة تبيع سائر أصناف الطّعام الهنديّ التّقليديّ بأسعار زهيدة، وسوق «تبتين» يشبه سوق «دلي هات» من ناحية شعبيّته وأسعاره المنخفضة، إلاّ أنّه يبيع أنواع السّلع جميعها.

في القرب من مسجد «فتح بوري» الذي قامتْ ببنائه زوجة الامبراطور المغوليّ «شاه جاهان» يقع سوق»تشاندني تشوك«، وهو سوق متخصّص ببيع التّوابل والذّهب والأحجار الكريمة والزّهور وقطع غيار السّيّارات والتّماثيل الهنديّة التي تمثّل في الغالب آلهات الهندوس.

يُباع الذّهب والماس والمجوهرات كذلك في سوق «كارول باغ» الموجود في مدينة «دلهي» القديمة، إلى جانب بيع الملابس، مع وجود سلسلة من المطاعم الشّعبيّة ومطاعم الوجبات السّريعة في هذا المكان.

يُعدّ «سوق الغفّار» ذو الأزقّة والحارات جزءاً لا يتجزّأ من هذا السّوق، وهو متخصّص ببيع السّلع الاستهلاكيّة المستوردة، مثل مستحضرات التّجميل والسّاعات والنّظارات الشّمسيّة والآلات الحاسبة ومجفّفات الشّعر، وهي جميعاً سلع أصليّة، وليست مقلّدة.

يشتهر سوق «لاجبات ناغار» بوجود متاجر الصّباغة فيه، كما توجد فيه متاجر بيع القماش والملابس من الماركات المحلّيّة والعالميّة، وفيه متاجر صغيرة تقوم برسم الحنّاء بسرعة خاطفة ومعقّدة على الكّفين.

يمكن شراء المزيد من بضائع العلامات التّجاريّة الهنديّة والدّوليّة من سوق «غريتر كيلاش»، وهناك الكثير من المطاعم والمراقص العصريّة المنتشرة في السّوق، كما يمكن شراء التّحف النّادرة والمشغولات الخشبيّة والقطع المعدنيّة والأحجار الكريمة وشبه الكريمة والمجوهرات من سوق «سوندر ناغار».

مَنْ لا يبالي بارتفاع الأسعار، وعنده ولع بمتابعة آخر صيحات الموضة عبر استعراضها في سوق كبير، فعليه أن يتسوّق في مجمّع «سانتوشتي» مقابل فندق «أشوكا» في منطقة «تشاناكيابوري» في قلب مدينة «نيودلهي»، وفيه الكثير من المطاعم والمقاهي الرّاقية الهادئة.

يوجد سوق «كونوت بليس/ جانباث» في وسط العاصمة «نيودلهي»، وقد تمّ بناؤه في عام 1931، وهو مقّر لبيع المصنوعات الهنديّة وبيع الذهّب والماس والفضة والأحجار الكريمة وشبه الكريمة، كما هو مقرّ للفروع الرّئيسيّة لكبرى البنوك وشركات الطّيران وشركات تنظيم الرّحلات السّياحيّة. وفيه قاعات سينما ومطاعم والكثير من

مرافق الخدمات داخل هندسة معمارية تجتذب الزّائرين لتأمّلها، والتّمتّع بجمالها وطرافتها.

فاكهة «يد بوذا»:

أمّي وأنا نكنّ مودّة خاصّة لسوق «ساكيت للخضار»؛ لذلك كان مقصدي ومقصدها ومقصد داوود وأسعد في كلّ آخر جولة نقوم بها في المدينة؛ إذ نتوقّف عنده كي نشتري فواكه منه للجزء اللّيليّ من ترحالنا في الهند الذي نقضيه في الغالب في سهرات فندقيّة مع أنواع الفواكه المختلفة التي أكتشفها وأمّي لأوّل مرّة، أمّا الخضار فلا نشتريها أبداً؛ إذ لا فرصة عندنا لطهيها في الفندق حيث نقيم في رحلتنا هذه، فكنّا نقلّبها من السّوق، ونعجب من اختلاف ألوانها عن ألوانها الطّبيعيّة في الأردن، وعن اختلاف أحجامها كذلك؛ فكثيراً من الخضار الهنديّة بدت بألوان زاهية أكثر ممّا اعتدتُ عليه من قبل، وبحجم أكبر بكثير من أحجامها في الأردن، أو في أيّ مكان آخر في العالم زرته من قبل؛ فقد كان الجزر والقرع له ألوان مختلفة، في حين أنّ الكوسا والخيار وأنواع خضار أخرى أكبر حجماً عمّا اعتدته في الأردن.

وعجبتُ من ذلك، وأوّلته إلى أنّ الله نمّى هذه الخضار بهذه الشّكل الضّخم لتكفي الأعداد الغفيرة في الهند، ولم أحاول أن أفكّر في الأمر من حيث نظريّات السّلالات والتّهجين كي لا أزجّ بنفسي في حديث يطول، ولا يستطيع أن يخفّف من جوعي وجوع أمّي، ونحن نبحث عن فواكه تقتل جوعنا وسط إضراب أمّي عن أكل الطّعام الهنديّ؛ لأنّها لا تطيق الفلفل والتّوابل الحارّة، واضطراري إلى الانضمام إليها في هذا

الإضـراب على الرّغم من عـشـقي لـلأكل الهنديّ الحـارّ؛ من منطلق تضامن الابنة المحبّة البّارة مع أمّها الحبيبة العظيمة.

أمّا الفواكه في الهند، فلها قصّة طويلة لا سيما أنّها ثاني أكبر دولة في العالم مصدّرة للفواكه بعد الصّين، وفيها أنواع غريبة من الفواكه غير مألوفة في غيرها من أماكن العالم؛ فبعضها فواكه استوائيّة، وأخرى فواكه هنديّة.

كنتُ وأمّي نجرّب هذه الفـواكـه الهنديّة لأوّل مـرّة في حيـاتهـا وحيـاتي، ونتفكّر طويلاً كيف يمكن أن تُؤكل، ونضحك طويلاً، ونحن نجرّب لذّة اكتشاف فواكه لم نأكلها من قبل لا سيما تلك التي لها ألوان مختلفة وقشور جلديّة أو مخمليّة عجيبة، حتى الفواكه المعروفة عندنا من قبل، مثل التّفاح والعنب والتّوت والبطّيخ والشمّام والمانجو كان لها طعم مختلف عمّا هو مألوف عندنا في فواكه المشرق العربيّ.

أكثر فاكهة أدهشتني وأمّي هي فاكهة عجيبة بحجم الكرزة الكبيرة، لكن لها فراء بنّي رقيق، لكنّه قاسٍ، عندما تُقشّر يكون اللّب داخلها بلون أبيض شفّاف، ونواتها سوداء زلقة، وهي ذات طعم حلو، وهي فـاكـهـة شـعـبيّـة شـهـيـرة في الهند، ويُطلق الهنود عليـهـا اسم «ليتشي»، وهي فاكهة غريبة لم أرَ مثلها من قبل في الشّرق الأوسط، إلاّ أنّهـا مـشـهـورة في الصّين كـذلك، وتُعـرف عندهم باسم فـاكـهـة «لونجان»، أو باسم «عين التّنين»، ويعصرها الصّينيون، ويقدّمونها إلى جانب الوجبات لاسيما العشاء، وقد ذقتها من قبل في تايلند، إلاّ أنّني وجدتها في الهند أشهى مذاقاً، وأشدّ حلاوة.

للهنود ولع خاصّ بفاكهة المانجو التي تعدّ نوعاً شعبيّاً من الفواكه الهنديّة الصّيفيّة التي يفضّلونها لخصائصها التّرطيبيّة والتّبريديّة من

قائظ حرارة الصّيف، ولقدرتها على مدّ الأجساد المنهكة من الحرارة بالطّاقة، ولقدرتها على حماية الجسد من وقع ضربات الشّمس.

يمثّل المانجو 22٪ من إجمالي الفواكه التي تنتجها الهند، أيّ ما يعادل 12 مليون طنّ منها، ممّا يجعل الهند الأولى عالميّاً في إنتاجها الذي يضمّ نحو 600 صنف مختلف من المانجو ذي السّلالات والخصائص والأحجام؛ حتى أنّ هناك بعض أنواع المحسّنة والمهجّنة التي يبلغ حجمها نحو 10 كيلو، إلى جانب سلالات مختلفة ذات مذاقات متنوّعة، وروائح زكية.

هناك مهرجانات هنديّة شهيرة لعرض هذه الأنواع من المانجو، وأشهر هذه المهرجانات هو مهرجان يُقام في مدينة «نيودلهي» منذ أكثر من ربع قرن، ويحضره مزارعون وتجّار فواكه ومستهلكون وعشّاق لهذه الفاكهة الذين يأكلون كمّيات كبيرة منها في المهرجان، وتوزّع في آخره هدايا قيّمة على الفائزين بإنتاج أنواع فاخرة من هذه الفاكهة.

المتسابقون في هذه الجائزة من زرّاعها يطلقون أسماء طريفة على أنواع المانجو التي يطرحونها في المهرجان؛ فيطلقون أسماء قراهم وحيواناتهم الأليفة وأقاربهم وأعيادهم والشّخصيّات المحبّبة على قلوبهم على هذه الأنواع المبتكرة من هذه الفاكهة.

هناك مزارعون هنود يزعمون أنّهم يزرعون المانجو كما ورد ذلك في الكتاب الهنديّ القديم «فيداس»؛ إذ يسقونها من مياه نهر «الغانج» المقدّس، ويسمّدونها بروث البقر.

إلاّ أنّني وأمّي لسنا من هواة أكل فاكهة المانجو، وإن كان يروق لي عصيرها البارد المنعش، لكنّني كنتُ حريصة على تجربة الأنواع الغريبة منها، وقد أُتيح لي الحصول على بعضها، وفاتني أن أذوق الكثير المتنوّع

الآخر المشهور في أماكن متنوّعة في الهند.

كذلك شربت الكثير من عصير «جوز الهند» الرّائج في الهند في كلّ مكان بأسعار زهيدة، حيث تدسّ قصبة المصّ البلاستيكيّة في فجوة يحدثها البائع بثقب أو بقص عرضيّ بساطور ضخم في عمق هذه الفاكهة مخترقة قشرتها الخارجيّة الصّلبة، ويقدّمها للزّبون ليشرب عصارتها الدّاخليّة الشّفافة الحلوة، ثم يُلقي بباقي الثّمرة في الزّبالة، دون أن يبالي بلحائها الأبيض الدّاخليّ الذي يكوّن لبّ ثمرتها؛ فهم يكتفون بعصارة مائها الحلو اللّذيذ، ولا يأبهون بالثّمرة ذاتها.

هناك فاكهة شهيرة اسمها فاكهة «يد بوذا»، وهي تنمو في شمال شرق الهند والصّين واليابان، وهي مزيج من الحلاوة والحموضة، وإنْ غلبت الحلاوة عليها، وقد أُطلق عليها هذا الاسم؛ لأنّها مقسّمة إلى أجزاء طوليّة تشبه أصابع الإنسان، وتتّصل من ناحية القرميّة، كأنّها يد بشريّة، وهي تشبّه تماثيل «بوذا» بكثرة من ينبثق منها من أيدي وأصابع، ورائحتها العطريّة تُستخدم في تعطير الأماكن، كما تُستغلّ بوصفها زخارف نباتيّة طبيعيّة في المعابد البوذيّة.

فاكهة «بالميرا» ذات طعم حلو كذلك، وهي طريفة الشّكل والمذاق، إلاّ أنّني فضّلت فاكهة «السّفرجل الهنديّ» عليها؛ فحلاوتها بالغة اللّذة، وطعمها يشبه طعم المثلّجات، وهي تُسمّى في المشرق العربيّ باسم»القشطة»، وتُباع بأسعار باهظة جدّاً تفوق أسعار اللّحوم والأسماك الطّازجة والحلويّات الباذخة، إلاّ أنّ سعرها في الهند زهيد، وفي متناول الجميع.

فاكهة «الجامون» رائجة في الهند، وتُستخدم في صناعة الحلوّيات الشّعبيّة، وهي تشبه حبّات الزّيتون السّوداء، وعندما رأيتها لأوّل مرّة

اعتقدتُ أنّها زيتون أسود، لكن فيما بعد عرفتُ أنّها فاكهة «الجامون» الهنديّة الشّهيرة.

فاكهة الإخلاص:

ليست الفاكهة الطّريفة النّادرة هي ما أدهشتني في الهند حسب، ونالتْ وقتاً من تأمّلي في عظمة الخالق وضعف المخلوق على ما فيه من إبداع خالقه، بل هناك فاكهة حلوة أسطوريّة في الهند سرقتْ لُبّي، وهي فاكهة الإخلاص التي ليست نباتاً يُزرع، وينضج، ويُقطف، ويؤكل، بل هي تصوّر إنسانيّ عميق لتلك العلاقة الجميلة التي تربط العالم الهنديّ المسلم بطالبه أو طالبته، فقد رأيتُ في الهند الكثير من العلماء والطّلبة يهتفون بالتّقدير والثّناء والإخلاص لمعلّميهم، وهم بذلك يسيرون على درب العلماء الصّالحين الذي كانوا يتفاخرون بمعلّميهم، ويسندون علمهم إليهم، ويجعلون أسماءهم في متون سيرهم، ويذكرون أسماءهم مشفوعة بأسماء معلّميهم الذين تتلمذوا على أيديهم، وقد يلزم الطّالب معلّمه ردحاً من عمره، أو طوال عمره، يخدمه، ويكتب له ما يملي عليه من علوم، ويأخذ العلم عنه، ويعايشه في تفاصيل حياته كلّها، ويكون الوارث الشّرعيّ لعلمه ومكانته.

كنتُ أظنّ أنّ هذا الشّكل من العلاقة العلميّة بين المعلّم وطالبه أو طالبته قد انقرض منذ دهر، وأصبح حبيس ذكرى الكتب والسّلف الصّالحين من علماء الأمّة العربيّة والإسلاميّة وغيرها من الأمم العريقة، إلاّ أنّني رأيتُ هذه العلاقة موجودة حيّة نامية في الهند في أجمل صورها؛ فكلّ من قابلتُ من علماء وطلبة علم من المسلمين كانوا يهتفون بأسماء معلّميهم الأجّلاء الكرام؛ فأسعد وداوود وحامد يهتفون

معاً باسم معلّمهم د. مجيب الرّحمن، وفي كثير من الأحيان يحدّثني أسعد عن معلّمه العلاّمة إقبال أحمد النّدويّ الذي ترك فيه أثراً إيجابيّاً كبيراً، وتوصيف أحمد بت يهتف باسم معلّمه د. عبد اللّطيف الكنديّ، وعُبيد الرّحمن البخاريّ يهتف بأسماء معلّميه، وعلى رأسهم د. محمد إشارت علي ملاّ، وعبد الوارث الأثريّ، ود. بديع الرّحمن، ويخلص في عونهم وفي استقبال ضيوفهم من العلماء وإنجاح فعالياتهم الثّقافيّة والعلميّة والبحثيّة على حساب وقته وعمله وأسرته وأعماله الدّعويّة والخيريّة التّطوعيّة، ود. مجيب الرّحمن يهتف باسم معلّمه الشّيخ محمد رابع الحسنيّ النّدويّ، ومولانا محمد إسماعيل، وأبي الحسن علي النّدويّ، ود. محمد إشارت علي ملاّ يهتف باسم معلّمه وحيد الزّمان الكيرانويّ، ود. محمد ثناء اللّه النّدويّ يهتف باسم معلّمه الجليل عبد النّور النّدويّ، ود. مختار أحمد شير غورجي يهتف باسم معلّمه د. محمد حسّان خان، ود. أورنك زيب الأعظميّ يهتف باسم معلّمه الشّيخ العلاّمة بدر جمال الإصلاحيّ.

الحقيقة أنّ علاقة د. أورنك بمعلّمه الشّيخ العالم بدر جمال الإصلاحيّ قد هزّت وجداني كثيراً؛ فقد رأيتُ فيه إخلاصاً عجيباً له، وإصراراً منه على أن يذكره، ويزكّيه، ويمدحه في كلّ فرصة متاحة لذلك، بل إنّه يتفاخر بما تعلّم منه من علوم، كما يتفاخر بأنّه تعلّم العربيّة على يديه في طفولته في بلدة «سراي مير» في مديريّة «أعظم كره» في ولاية «أوترابراديش»، في حين تعلّم الخطّ الفارسيّ على يدي والده الشّيخ قمر الدّين، ثم تتلمذتْ ابنة معلّمه على يديه، فرأى في ذلك بعضاً من ردّ لجميل أستاذه الشّيخ عليه، إلاّ أنّ تمام إخلاصه له ظلّ موصولاً في دأبه على زيارته، وتواصله معه، وزيارته له متى أُتيحت

له الفرص لذلك، وتبادل الكتب والعلوم معه، وقضاء لذيذ الوقت في صحبته في لقاءات حواريّة ماتعة في شؤون اللّغة العربيّة، وهما العاشقان للعربيّة المتيمان بها.

فاكهة الإخلاص بين المعلّم وطالبه حلوة جميلة لا تنضب، ولا تذبل، ولا تموت؛ فصديقي د. أورنك زيب الأعظميّ ظلّ مخلصاً لأستاذه الشّيخ العلاّمة بدر جمال الإصلاحيّ، وقد تتلمذتْ ابنته زبيريّة نيرة على يدي د. أورنك زيب الأعظميّ، فأحسن إليها، ورعاها؛ لأنّها ابنة أستاذه، وهي بدورها ثمرة نقيّة أصيلة من ثمرات فاكهة الإخلاص، فقامتْ بترجمة كتاب صادر عن حياة أستاذها د. أورنك إلى اللّغة الأورديّة، بعد أن أصدرته الباحثة فاطمة الزّهراء في كتاب عنونته باسم «الدّكتور أورنك زيب الأعظميّ حياته وخدماته».

في حين ظلّ د. أورنك يشيد بأستاذه، ويقدّم أعماله ومنجزاته لكلّ مَنْ يتعرّف عليه من أقاصي الأرض وأدانيها، بمن فيهم أنا وأمّي أمّ بطبوطة (نعيمة المشايخ).

بذلك أدركتُ أنّ فاكهة الإخلاص الهنديّة لذيذة وعذبة، ولا تموت، وتظلّ حلاوتها في الرّوح، وذكرياتها في النّفس؛ لذلك كانت أشهى فاكهة أكلتها في حياتي في طوال تطوافي في الأرض، وما أظنّ أنّه سيُتاح لي أن أذوق فاكهة ألذّ منها في هذه الحياة الفانية، ربما لا يمكن أن يكون ذلك إلاّ في السّموات العلا، وفي سدرة المنتهى حيث الصّفاء في كلّ شيء، حتى في طعم الفواكه.

لقد كتب الشّيخ العلاّمة بدر جمال الإصلاحيّ كتباً مهّمة، منها كتاب» التّبيان لما في الهند من الحيوان» الذي جمعه ودوّنه تلميذه د. أورنك، كما كتب كتاب «الهديّة البهيّة في الشّخصيّات الهنديّة» الذي

ترجم فيه لسير شخصيّات هنديّة بارزة في حقول العلم والأدب والسّياسة واللّغة والعلوم الإسلاميّة، وقد تحصّل نظير جهوده في خدمة العربيّة على جائزة رئيس جمهوريّة الهند في الآداب عن فئة العلماء الذين تجاوزتْ أعمارهم السّتين عاماً.

في حين نال طالبه د. أورنك زيب الأعظميّ الجائزة ذاتها في فرع العلماء الشّباب الذين دون عمر الخامسة والأربعين في دورة سابقة من دورات الجائزة ذاتها.

الطّريف في كتاب «التّبيان لما في الهند من الحيوان» أنّه كتاب شيّق مكتوب بلغة عربيّة رفيعة المستوى، مرهفة البلاغة، تجاري لغة الكتّاب العرب الكلاسيكيين العظام، وهو يتحدّث في هذا الكتاب عن الحيوانات الموجودة في البيئة الهنديّة، ويذكر الاسم العربيّ للحيوان ذاته، ثم يتطرّق إلى عاداته وطباعه وخصائصه، ثم يقارن ذلك فيما ورد في كتب العرب من حديث عن خصائص هذه الحيوانات وطبائعها وسلوكياتها وغرائبها، مبيّناً سلالاتها وأنواعها وأجناسها وأصول تسمياتها، ومعرض ذكرها في الحديث النّبويّ الشّريف، وفي أمثال العرب وشعرهم وقصصهم، ويظلّ يسير على هذا المنهج في سائر أنحاء كتابه في حديثه المخصوص عن كلّ حيوان بعينه.

أكثر مَنْ يمكنه أن يتحدّث بحماس متوثّب عن هذا الكتاب وعن غيره من مؤلّفات الأستاذ العلاّمة بدر جمال الإصلاحيّ هو د. أورنك زيب الأعظميّ الذي يروق له أن يقف على مآثر أستاذه، ويفوته أن يشير إلى جهوده العلميّة في خدمة العربيّة، وهو مَنْ له أكثر من سبعين مؤلّفاً بالعربيّة عنها، وعن فنونها وفقهها وآدابها وبديعها، وعن القرآن الكريم والحديث الشّريف وسير المبرّزين والتّاريخ والرّواية والشّعر حديثه

وقديمه وشرحه، وتحقيق المخطوطات، وإعداد معجم شامل في عشرة مجلّدات كبيرة، فضلاً عن إعداده لفهرسة للقرآن الكريم باللّغة الإنجليزيّة، وآخر عن الطّبّ اليونانيّ، وثالث عن تاريخ التّرجمة في العصر العبّاسيّ، وهو مَنْ يكتب مصنّفاته بالعربيّة والفارسيّة والإنجليزيّة والأورديّة، ويدير تحرير مجلاّت علميّة محكّمة وغير محكّمة في الهند، مثل مجلّة الهند، ومجلّة الدّراسات العربيّة والإسلاميّة، ومجلّة العلوم الإسلاميّة العالميّة، ومجلة الدّيبل، ومجلّة طلاّب مدرسة الإصلاح ذات اللّغات الثّلاث، ومجلّة نقش، ومجلة الإصلاح، وغيرها من المجلاّت المهمّة والعريقة.

لقد قابلتُ الدّكتور د. أورنك زيب الأعظميّ لأوّل مرّة في حياتي في ندوة جماهيريّة لي في قسم اللّغة العربيّة في «الجامعة المليّة الإسلاميّة» في مدينة «نيودلهي»، لقد حضر ندوتي حينها بحكم أنّه عضو هيئة تدريس في ذلك القسم، وبدا لي صامتاً أكثر ممّا يروق لي؛ إذ أنا مولعة بأن أسمع كلام العلماء الهنود الذين أقابلهم في رحلاتي، وما ظننتُ حينها أنّ ذلك الرّجل الصّامت البارد الرّدود والانفعالات الذي لم يحضر الجلسة العلميّة المصغّرة معي في مكتب رئيس قسم اللّغة العربيّة، واكتفى بحضور ندوتي الجماهيريّة مع جمهور القسم من علماء وباحثين، سيكون صديقاً حميماً لي في المستقبل، وسينال إعجابي بحبّه للعربيّة وأهلها، واندفاعه الكبير نحو الشّعر العربيّ حفظاً ودراسة وتحقيقاً ونظماً.

أكثر ما كان يجذبني نحوه، هو إخلاصه العميق لأصدقائه بما فيهم أنا، لأكتشف فيما بعد أنّ الإخلاص هو خصلة أصيلة في تكوينه النّفسيّ والفكريّ والسّلوكيّ والعاطفيّ، وأجمل تجلّيات هذه الخصلة فيه

هي إخلاصه لمعلّميه وأصدقائه، وعلى رأسهم أستاذه العلاّمة بدر جمال الإصلاحيّ الذي كان معلّمه وأستاذه في آن، ويفخر بعلمه الغزير، وروحه الجميلة المنتفضة على القبح والجهل، كما يطول حديثه عن معرفته العميقة بالحيوانات والطّيور والأشجار والزّهور، وماله علاقة بهذه المعارف الاستثنائيّة.

العلاّمة بدر جمال الإصلاحيّ لا يفوته أبداً في أيّ مقام أن يتحدّث عن الحيوان والطّير والزّهر والشّجر التي يعشقها جميعاً، ويعرف أصنافها وأجناسها وسلالتها، ويزرع الكثير من سلالات زهورها وأشجارها في حديقة بيته، كما يربّى فيها ما استطاع أن يربّيه من مستأنس الطّير والحيوان، وعندما يتعذّر عليه أن يصحب أصدقاءه وزوّاره وطلبته في جولة في تلك الحديقة؛ فهو يرسل إليهم صوراً فوتوغرافيّة لها متتبّعاً نماءها ونضرتها وبديع تخلّقها، وهو مَنْ يعشق التّصوير والصّور، ويلتقطها أنّى لفت نظره مشهد مرئيّ ما، فيشعر الرّائي لصور فاكهته وزهوره أنّه يكاد يشعر بملمسها وطعمها ورائحتها.

الحديث المفرح المبهج المتفاؤل له عن الحيوانات والطّير والشّجر والزّهر لا يسرقه من ذكرياته القاسية والعصيبة في درب العلم والتّعلّم والحياة والمعيشة؛ فقد عاش حياة مضنية بين قسوة الحياة وسعيها، وضيق ذات اليد وتخلّي الحظّ عنه، إلاّ أنّه ظلّ مخلصاً لشغفه بالعلم وأهله، إلى أن استطاع أن يحقّق حلمه بأن يكون منارة علم لعشّاق العربيّة، فقطع سنين عمره في خدمتها، وفي السّدانة في معبدها المقدّس، وهو مَنْ يعشق أن يتكلّمها وفق أصولها الكلاسيكيّة الفصيحة المغرقة في الجمال والبيان والصّنعة العالية، وآية إنسانيته الحنونة المحبّة التي ترى نفسها قد خُلقت للعلم والتّعلّم تتجلّى في حديثه الحنون مع

غيره بصيغة الأبوّة، فهو يخاطب مَنْ يخاطب بصيغة: أيّ بنيّ، أو أيّ بنيّة.

هو خطاب حنون يجعل مَنْ يحادثه يرهب السّمع والرّوح له، ويُفتن بصدقه وتواضع حديثه، وهو يحتسب عند الله تعالى من توفّي من أطفاله الصّغار، ويسأل الله الصّلاح والهداية للأحياء منهم.

لكنّه يكون في غاية السّحر والتّأثير والأريحيّة الصّادقة التي لا تنبع إلاّ من قلب مؤمن واثق بنفسه وبربّه وبأقداره عندما يقول بفخر أنّا اسمي: «بدر جمال بن قمر الدين بن الحافظ أحمد بن نعمت الله بن خدا بخش»، ثم يشرع يتحدّث عن أصوله ونسبه وحياته؛ فلا يزعم مجداً موروثاً إلاّ ما حصّله منه فعلاً، ويروي تفاصيل دفينة في تاريخه تمّثل الأحوال الاضطهاديّة القاسية التي عاشها الهنود المسلمون في المجتمع الهنديّ الهندوسيّ المتغوّل عليهم، وأكثر ما أثّر في نفسي من قصصه المرويّة عن معاناة أجداده، قصتهم مع الحرمان والفقر والقسوة؛ إذ كانوا يعملون مستعبدين في أراضي الاقطاعيين الأثرياء، أو في النّسيج لهم لتحصيل لقم عيشهم نظير ما يبذلون من جهدهم المرير لقاء ذلك؛ إذ لم يكن لهم أرض أو زرع أو ثروة تكفيهم شقاء الاستعباد في أراضي الأثرياء.

عندما يعودون منهكين إلى بيوتهم من تعبهم النّهاريّ المضني كانوا يُحرمون حتى من الغذاء الصّحيّ المغذّي المتمثّل في لحوم الحيوانات والطّيور المتاحة في بيئتهم؛ خوفاً من أن يفتك بهم جيرانهم الهندوس الذين يزعمون أنّهم لا يأكلون اللّحوم أبداً؛ فيضطر المسلمون عندها إلى أن يغامروا بحياتهم، وأن يطبخوا اللّحوم سرّاً في بيوتهم، ومن ثم يدفنون عظامها في أراضي حدائق بيوتهم؛ كي لا يعرف الهندوس أنّهم قد طهوا اللّحوم، وأكلوه.

هذا النّوع من العلماء الخيّرين الصّادقين الصّابرين مثل الشّيخ بدر جمال الإصلاحيّ يستحقّون الإخلاص لهم.

من هنا أدركتُ سرّ خلود فاكهة الإخلاص في الهند؛ فهي تنبتُ زكيّة مباركة على شجرة العلماء، ويأكلها طلبة العلم هنيّة مريئة سائغة، لتنبتُ من جديد على أشجار العلماء الجدد الذين كانوا في الماضي القريب طلبة علم دؤوبين.

لقد عشقتُ فاكهة الإخلاص الهنديّة، وتمنّيتُ لو أستطيع أن أحمل عشرات الأطنان منها إلى عوالم تردّي العلماء والعلم وطالبيه فيها، حيث فسد كلّ شيء بفسادهم المقصود مع سبق الإصرار والتّرصّد.

أسواق الأحزان:

ليست الأسواق الهنديّة هي موئل البضائع والفرح والبهجة والمرح والأوقات المسليّة والعجائب والغرائب حسب كما يصف أسعد وداوود الهند وما فيها، وكما كنتُ أعتقد أنا وأمّي عندما قصدناها في بادئ الأمر، لكنّها كذلك صورة حزينة عمّا في الهند من حزن وفقر ومرض ونكد وحرمان وتوجّع؛ ففيها خليط من كلّ شيء، ولا يحتاج الأمر إلى عين ثاقبة لرؤية ذلك، أو إحساس مرهف لإدراك ذلك؛ فمن يسير في الأسواق يرى النّاس المعدمة الفقيرة تعمل في أبسط الأعمال وأصغر الخدمات لأجل تحصيل لقم عيشها، وترى الأطفال والعواجيز يتقافزون، ويتثاقلون بين المتسوّقين ليخطفوا لقمهم من عند الأقدام، أو من بين أيدي العابرين، وترى الفقراء الشّاحبين الوجوه والأبدان والهيئات يعبرون من الأماكن دون أن يستطيعوا أن يشتروا شيئاً من نِعم تلك

الأسواق، في حين قد يوافق الحظّ أحدهم، فيحصل على شيء ما بقليل «الرّوبيّات» التي يملكها، فيصرّه على قلبه، ويغادر السّوق يحمله بحرص لا يلوي على شيء في الدّنيا بعد أن حصل عليه.

من عجيب ما رأيتُ في تلك الأسواق ذلك العدد المرعب من المتسوّلين من كلّ صنف وعمر وجنس وهيئة، حتى أنّهم يحاصرون الغرباء الذين يمرّون بالسّوق، ولا ينفكّون عنهم إلاّ بالنّهر والزّجر الشّديدين، أمّا إنْ رقّ الغريب الزّائر لهم، وأخرج من ماله شيئاً للتّصدّق عليهم، فهذه ستكون نهايته ونهاية ماله، ففي هذه اللّحظة سوف يتجمّع عليه خلق كبير من المتسوّلين، وقد يتخطّفون ماله، ويؤول الأمر به إلى شرّ مآل؛ لذلك من الحكمة عدم التّصدّق عليهم إلاّ على عجل وتكتّم وبسرعة، دون أن يرى الآخرون ذلك، وقلّما يتحصّل ذلك؛ فأحدهم رقيب على الآخر.

أمّا المتسوّلون في الدّروب والزّقاق وعلى إشارات المرور الذين يطوّفون على الحافلات والسّيارات وعربات «ركشا»، فهم خطيرون كما هم معذّبون ومنكودون، وليس من الحكمة فتح محافظ المال أمامهم؛ إذ يمكن أن يخطفوها، ويجرون بعيداً، لا سيما إن كانوا أطفالاً خفيفين، أو شباباً رشيقين.

في هذا الوضع البائس المقلق لا يظلّ أمام الزّائر إلاّ أن يتأسى عليهم وعلى حالهم من أعماق قلبهم، وهو يرقب وجوههم الشّاحبة، وأجسادهم الهزيلة المحرّقة بالشّمس، وملابسهم الرّثة، دون أن يجرؤ على التّصدّق عليهم بقرش من المال خوفاً من أن يصبح نهباً للصّوص المتسوّلين، أو المتسوّلين اللّصوص.

من أطرف ما رأيتُ في تلك الأسواق أولئك المتسوّلين الحاذقين

الذي ينتشرون في السّوق بالمئات، وهم ما يكادون يرون زائراً للمكان حتى يجيدوا أن يخمّنوا جنسيته وديانته ولغته من مظهره؛ لذلك يطيرون إليه، يسألونهم بلغته أن يتصدّق عليهم بالمال، وقد يقسمون عليه برموز دينه أن يهبهم بعض ماله.

لقد حاصرتني النّساء المتسوّلات في إحدى الأسواق، فلاحظن ملامحي ولباسي وحجابي وحجاب أمّي، فقدّرن أنّنا عربيّات ومسلمات، فطفقن يتشهّدن بالشّهادتين باللّغة العربيّة بلغة ركيكة، ويطلبن المال والصّدقة باللّغة العربيّة، ويتشفّعن بالله وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم كي نعطيهنّ الصّدقات، وعندما لم نستجب لهنّ، طرن ليحاصرن رجلاً بدا عليه أنّه أمريكيّ أو أوروبيّ، وبدأن يسألنه الصّدقات باللّغة الإنجليزيّة متشفّعات عنده بالمسيح عليه السّلام وأمّه العذراء الطّاهرة، لكنّه ما رقّ لهنّ كذلك؛ لعلّه كان يدري وبال ذلك إن أقدم على فتح محفظته أمامهنّ.

أمّا ما يوجع القلب، ويدميه في تلك الأسواق مرأى الأطفال الصّغار الرّضع المهصورين حرارة وجهداً بين أيدي النّساء المتسوّلات اللّواتي يدرن بهؤلاء الأطفال المساكين على الزّائرين يستدررن عطفهم وعطاءاتهم بعذابات أولئك الأطفال المظلومين بالفقر وبوقوعهم في أيدي تلكم النّسوة أكنّ أمهاتهم حقّاً، أو يكترونهم للتّسوّل بهم.

من مؤلم الأمور أنّ الكثير من المتسوّلين يعانون من أمراض جسديّة وجلديّة مفزّعة، حتى لا يكاد يتخيّل العقل أنّ أولئك المساكين يقطنون الأسواق، ويتوسّلون العطاء من أهلها بدل أن ينزلوا المستشفيات معزّزين مكرّمين للحصول على الرّعاية الطّبيّة التي يحتاجون إليها؛ حتى أنّني رأيتُ رجلاً دون أطراف أبداً عاري الجسد إلى من لباس داخليّ قطنيّ

ممزّق وسخ يزحف على الأرض بجسده مثل بزيقة عاجزة، وقد تمزّق ذقنه وجلد صدره من حرارة الأرض، وقد تدوسه الأقدام في أيّ لحظة، ولا مشفق عليه، أو رحيم به، بل يمرّ الجميع به متخطّين له غير مبالين به؛ إذ اعتاد الهنود على أن يروا أولئك المساكين، ثم يجوزون الدّروب، ويتخطّونهم دون أن يبالوا بهم؛ فهم أكثر عدداً من أن تكفيهم قلوب رحيمة أو أيدٍ واهبة؛ إذ الهند تحتاج ثورة إنسانيّة تكافليّة تراحميّة بإدارة حكوميّة حكيمة كي تنقذ سكّانها من كدر ما هم فيه من عوز وحاجة وفقر وعذاب وحرمان.

كذلك رأيتُ متسوّلين وفقراء في الأسواق يعانون من أمراض جلديّة ما رأيتُ مثلها في حياتي، وهم يعرضون جلودهم العارية للمارّة بما فيها من أمراض؛ لعلّ رحمة ما تدركهم من عطاياهم، وأعجب ما رأيتُ ذلك الرّجل المسكين الذي في جسده مئات الدّرنات العملاقة من رأسه حتى أخمص قدميه، وهي درنات عملاقة كلّ منها بحجم بيضة عصفور، وتبرز من جسده، فيبدو مثل وحش ملعون قد سخط الإله عليه، فوهبه جلداً مسخاً عجيباً.

لذلك كلّه مَنْ يخرج من الأسواق الهنديّة لا يحمل معه البضائع الهنديّة الطّريفة فقط، بل يحمل حملاً ثقيلاً في ذاكرته ممّا شاهد فيها من البؤس والحرمان والألم أكثر ممّا تقوى أيّ ذاكرة ماسحة على أن تلغيه منها.

كذلك يحمل معه ذكرى مسالمة هذا الشّعب وانسجامه مع واقعه وأفراده؛ فعلى الرّغم من الازدحام الشّديد في الأسواق الهنديّة بفعل كثافة السّكان في الهند، إلاّ أنّهم يسيرون في الأسواق بهدوء وسلام وانسجام متقبّلين حيواتهم وفروضها، ومنادحين في تعرّقهم تحت

شمس حارقة تصليهم دون رحمة، دون أن يدفعهم ذلك إلى مشاجرات أو انزعاجات أو إطلاق تأفّفات مطوطة مكرورة تعكّر النّفس، وتنفّر الآخر.

لقد رأيتُ بأمّ عيني شاب هنديّ فقير يمرّ بالسّوق يحمل بضاعة ضخمة فوق دراجته الهوائيّة القديمة الصّدئة التي يقودها، ثم ينزلق نحوه عابر بالسّوق دون قصد، فيسقطه أرضاً، ويُسقط البضاعة التي يحملها، ويبعثرها في السّوق، وهي بدورها تُسقط الكثير من البضاعة القريبة منها، فيرتبك السّوق والمارة، لكن ما رأيتُ أيّ طرف من الأطراف يغضب، أو ينفعل، على الرّغم من شدّة القيظ، والتصاق الملابس بالأجساد بسبب التّعرّق.

لقد قبل كلّ طرف بما حدث معه برضا نفس، وسرعان ما جمع كلّ شخص بضائعه المبعثرة، وغادر المكان، دون أيّ ينبس ببنت شفه، أو تصدر منه كلمة جارحة، فعجبتُ كيف يمكن لهذا الشّعب المسالم في جانب من تكوينه النّفسيّ أن يكون قاسياً ودمويّاً في جوانب أخرى من تكويناته النّفسيّة الأخرى لا سيما في تعامله مع النّساء والأطفال والفقراء والمنكودين والتّقسمات الطّبقيّة الجائرة والمنتمين إلى طوائف وملل أخرى؟

أمّا إن اختار الزّائر أن يجوب في الأسواق الرّاقية الحديثة «المولات»، فسيجدها تعجّ بالبضائع العالميّة المستورة، ولا يقصد هذه الأسواق سوى الأغنياء، ويقف على أبوابها الحرّاس الشّداد الغلاظ يفتّشون كلّ مَنْ يدخل إليها عبر أجهزتهم الإلكترونيّة الكاشفة، ويمنعون المتسوّلين والمتطفّلين من الدّخول إليها، وهناك لن يرى الزّائر أيّ متسوّل أو فقير، بل سيرى الأغنياء الأنيقين المرفّهين جميلي الطّلات

والأزياء والقسمات والهيئات والابتسامات الممتدّة المتّسعة وهم يغرقون في الملذّات، ويعيشون الرّفاهيّة العالميّة بنكهة هنديّة، ويتنعمّون بنعم الله ممّا لذّ وطاب وجمل منها، وينفقون المال ببذخ وطيش دون حسيب أو رقيب، ويسعدون، ويُسعدون عائلاتهم وأبناءهم وبناتهم وأهليهم وأصدقاءهم، فتنسى حينها البؤس والفقر، وتعود إلى الاعتقاد الغرّ بأنّ الهند ليستْ إلاّ فيلماً هنديّاً سعيداً مبهجاً حيث الشّوارع النّظيفة، والملابس المزركشة، والوجوه النّضرة الجميلة، والوقت المرن الممطوط الذي يقضيه أهله في الرّقص والغناء والفرح وقطف الزّهور وتبادل قُبَل العشق في الدّروب.

لكن ما إنْ يخرج الزّائر من تلك الأسواق الكبيرة الحديثة «المولات»، حتى يستقبله المتسوّلون كباراً وصغاراً يطلبون منه بعض فتات الطّعام وزهيد المال، ويسيرون جماعات، يتناوشون الأكياس التي تحتوي بقايا الطّعام التي يحملها بعض الخارجين من تلك «المولات» ليهبوها للمتسوّلين بعد أن ضاقتْ أمعاءهم الممتلئة عليها؛ ليقنعوا أنفسهم بأنّهم متصدّقين عظام تملأ الرّأفة قلوبهم التي ران عليها في داخل أحشائهم لكثرة ما أكلوا وشربوا ممّا لذّ وطاب وعزّ على الفقراء أن يحظوا بمثله.

عندها سرعان ما يطير الفرح والتّنعّم من النّفس، ويسكنها الأسى من جديد على أولئك المساكين الذين يتقافزون في الشّوارع خلف لقمة طعام يلقيها الأغنياء لهم، بدل أن يلقوا بها في حاويات القمامة.

لكن أسوأ ما ألفيتُ في نفسي من شعور، وعجبتُ منه أشدّ العجب، أنّ هذا المنظر المأساويّ كان يقطّع قلبي نتفاً في الأيّام الأولى لزيارتي إلى الهند، لكن مع الوقت بدا لي مألوفاً واعتياديّاً، وقليلاً ما

يستوقفني بتفاصيله الكابية؛ عندها أدركتُ أنّ مرض القسوة بدأ يدبّ في قلبي كما دبّ في قلوب الملايين في هذا المكان، وأن بعضاً من إنسانيتي يكاد يفارقني، أو فارقني لمّا أصبحتْ مشاهد الحرمان والعوز والمعاناة اعتياديّة عندي، وملأتْ ذاكرتي، وسكنتْ عيني!

صاحب القلب الشّجاع سيظفر بالعروس:

هناك فعاليتان يجب أن يُشارك بهما الزّائر للهند لينغمس في السّلوك الوجدانيّ الجمعيّ فيها؛ وهما أن يذهب إلى السّينما؛ ليحضر فيلماً هنديّاً فيها؛ إذ الهنود يعشقون حضور عروض السّينما، ويشكّلون الجمهور الأكبر للسّينما البوليوديّة، وفي حقيقة الحال لا تحتاج تلك السّينما إلى أيّ تسويق عالميّ لها، أو توزيع في مدن العالم وبلادها؛ إذ يكفي أن يشتري الهنود التذّاكر لحضور الفيلم لينجح، وليحقّق عائدات كبيرة بملايين الدّولارات.

أمّا الفعاليّة الثّانية، فهي حضور عرض من عروض لعبة «لكريكيت» التي يعشقها الهنود إلى حدّ الوله، وتعدّ لعبتهم الشّعبيّة الأشهر، وتنتشر ملاعبها في أنحاء الهند، وقد علمتُ أنّ هناك عدّة ملاعب شهيرة لهذه اللّعبة الرّياضيّة في مدينة «نيودلهي»، ويُطلق عليها اسم ميدان، ومن أبرز الميادين هو ميدان «فروز شاه كولتا» الذي تجري فيه المقابلات الدّوليّة في «الكريكيت».

«الكريكيت» هي لعبة رياضة جماعيّة، تتكوّن من فريقين، في كلّ منهما عشرة لاعبين، ويلعب الفريقان بكرة بحجم قبضة اليد الواحدة من قبل لاعب يُدعى رامي الكرة، أمّا اللاعب الخصم الذي يُدعى رجل المضرب، فيحاول صدّ الكرة باستخدام مضرب نحيف

يشبه المجداف، ويتركّز الاهتمام في هذه اللّعبة حول علامتين تشكّلان الأهداف، واسمهما «ويكيت»، وهما مجموعة من ثلاثة عصي متّصلة تُسمّى جذوع «الكريكيت» التي يحاول رامي الكرة إصابتها بهدف إسقاط قطعتين خشبيتين اثنتين مثبتتين على الجذوع ، ويُطلق عليهما اسم «كفالات الكريكيت».

هناك اهتمام لا يُستهان به عند الهنود في رياضات أخرى خلا «الكريكيت»، مثل «الهوكي»، وكرة القدم، والشّطرنج، إلاّ أن قلوب الشّعب الهنديّ كاملاً، إنْ لم أقل الأمّة الهنديّة بأسرها، تهفو دائماً إلى لعبة «الكريكيت» التي زُرع حبّها في قلوبهم بأيدي المستعمرين الإنجليز، كما زرعوها في سائر مستعمراتهم الأخرى في المعمورة، لكن الهنود حافظوا على زَرْعِ أعدائهم في قلوبهم، وتبنّوا هذه اللّعبة، كأنّها جزءاً أصيلاً من تراثهمِ الرّياضيّ، وأعلوا مكانها في قلوبهم وملاعبهم حتى غدوا من أهمّ أسيادها في العالم.

لقد سألتُ أصدقائي الهنود عن أنواع الألعاب الشّعبيّة الهنديّة الأصيلة، فكانتْ معظم الإجابات تصبّ في نصيب لعبة «الكريكيت»، وتهمّش أيّ جذور لرياضات أخرى أكانتْ عالميّة أم هنديّة، فترحّمتُ حينها بعمق وصدق على ابن خلدون ذلك المنظّر الاجتماعيّ العملاق الذي لطالما ردّد مقولة أنّ المغلوب مولع بتقليد الغالب.

عندما خيّرت أمّي بين هاتين الفعاليتين لتختار واحدة منهما لننخرط فيها؛ رفضتْ جملة وتفصيلة حضور لعبة «الكريكيت»؛ إذ هي تكره متابعة هذا النّوع من الرّياضات الجماعيّة، وراق لي رفضها هذا؛ إذ أنا أيضاً أمقت هذا النّوع من الرّياضات الجماعيّة التي تسّلط الاهتمام

على كرة ما يطير الجميع خلفها دون سبب مقنع لذلك.

استقرّ خيار أمّي وخياري على حضور فيلم هنديّ في قاعة سينما هنديّة لنعيش التّجربة كاملة؛ وتركتْ أمّي لي الخيار لأختار الفيلم، فاخترتُ أن نحضر فيلم «صاحب القلب الشجاع سيظفر بالعروس / ديلوالي دولهانيا لي جايينجا/ Dilwale Dulhania Le Jayenge»، من بطولة نجمي بوليود الشّهيرين: شاروخ خان وكاجول، على الرّغم من أنّني قد حضرتُ هذا الفيلم على شاشة التّلفاز عدّة مرّات في الأردن في وقت سابق.

لكنّني اخترته لأعاين مباشرة افتتان الهنود به، وهم مَنْ يحضرونه في السّينمات دون ملل أو كلل، حتى استمر عرضّه لمدّة 1010 أسبوعاً، أيّ ما يقارب عشرين عاماً منذ أن طُرح في الأسواق في عام 1995

لقد علمتُ أنّ الشّركة المنتجة له «ياش راج فيلمز» قد قرّرتْ إيقاف عرضه في السّينمات الهنديّة بعد عقدين من عرضه، وتحقيقه لأرباح بقيمة 19 مليون دولار أمريكيّ، على الرّغم من أنّ تكلفة إنتاجه لم تتجاوز 630 ألف دولار، لكنّ الجمهور الهنديّ ثار على هذا القرار، وصمّم على أن يستمرّ عرض هذا الفيلم دون انقطاع، فنزلت الشّركة المنتجة عند رغبة الجماهير المحبّة للفيلم، واستمرّ عرضه في حفلات يوميّة في السّينمات لإرضاء جماهير الفيلم الذي يشتري التّذاكر جميعها بإقبال منقطع النّظير لا سيما في الإجازات الأسبوعيّة.

رضيتُ أمّي بأن تحضر هذا الفيلم معي، وانتقلنا إلى قاعة السّينما في إحدى «المولات» الشّهيرة في المدينة «نيودلهي» عبر عربة «ركشا» أنيقة تنقلنا إلى هناك بهوادة متمايلة في الهواء المسائيّ المنعش الذي يعزّ نظيره في صباحات المدينة المكتظّة.

توجّهنا إلى ركن بيع التّذاكر بحماس كي نشتري تذكرتين لحضور الفيلم، لكن كانت المفاجأة أنّ الفيلم يُعرض في الجلسة الصّباحية السّاعة 11 ونصف، ولا يُعرض في المساء، فعرض علينا بائع التّذاكر أن نحضر فيلماً هندياً آخر، عندما سألنا إنْ كان هناك ترجمة انجليزيّة مرافقة له، لكنّه أجابنا بالنّفي، عندها تراجعنا عن فكرة حضور ذلك الفيلم المعروض في السّاعة المسائيّة؛ لأنّنا لا نفهم اللّغة الهنديّة، وكنّا نعوّل في حضورنا لفيلم «صاحب القلب الشجاع سيظفر بالعروس» على حفظنا لأحداثه، دون أن نفهم الكلمات، بل نتابع الصّور لا شيء غير ذلك.

قرّرتُ وأمّي أن نعود أدراجنا إلى الفندق بعد أن أُصبنا بخيبة الأمل بسبب عدم حضورنا لفيلمنا المنشود، واكتفينا بعشاء سريع في إحدى مطاعم «المول» جائزة ترضية عمّا لحق بنا من خيبة أمل، لكن خيبة الأمل ظلّت موصولة عند أمّي؛ إذ اكتشفتْ أنّ هناك الكثير من التّوابل الحارّة في الدّجاج المقلي الذي اخترناه على الرّغم من أنّنا اخترنا العشاء في مطعم أمريكيّ من سلسلة مطاعم «كنتاكي» الشّهيرة؛ لنحظى بطعام دون توابل، لكن المفاجأة كانتْ عندما اكتشفنا أنّ هذا المطعم الأمريكيّ الشّهير يقدّم منتجاته في الهند بالنّكهة الهنديّة الحارّة، فأكلتُ حصّتي من الدّجاج المقلي الحارّ برضا وقبول، في حين اكتفت أمّي بأكل الخبز الذي كان في الوجبة ذاتها، وعدنا إلى الفندق نترقّص في عربة «ركشا»، وأنا أغنّي لأمّي المقطع الأوّل من أغنية «صاحب القلب الشجاع سيظفر بالعروس» الذي حفظته بصعوبة، فتبتسم أمّي لي هازئة من الفرح الذي أشعر به على الرّغم من خيبات الأمل التي منينا بها واحد تلو الأخرى في هذه اللّيلة الواحدة،

في حين يطرب سائق «ركشا» لغنائي النّشاز، ويتمايل عليه، ويكاد يوقف «ركشا» ليتراقص معي على ترنّمي بالأغنية.

«ركشا» هي المعروفة في العالم باسم «تكتك»، ذلك الاسم المشتقّ من صوت محرّكها، وهي مركبة ناريّة ذات ثلاث عجلات، وتُستخدم بوصفها وسيلة نقل يوميّة وشهيرة في الهند، وفي كثير من الدّول الأسيويّة وفي مصر والسّودان، وتتّسع لراكبين في المقعد الخلفيّ، أو لثلاثة محشورين في الخلف، أمّا في الأمام فالمكان يتّسع للسّائق فقط.

تنتشر هذه الوسيلة للنّقل بسبب انخفاض تكلفتها، وقدرتها على السّير في الشّوارع والطّرقات الضّيقة، وهي على الرّغم من ذلك غير آمنة؛ لعدم اتّزانها وعدم صلابة هيكلها الخارجيّ وعدم وجود أبواب أو أحزمة أمان لها، إلاّ أنّها موجود بكثرة في المدن الهنديّة، وتلاقي إقبالاً كبيراً عليها، وتصنّعها الكثير من الشّركات الهنديّة، مثل شركة «باجاج» الشّهيرة التي صنّعت «الفيسبا» التي شاع استخدامها في الثّمانينات من القرن الماضي.

لقد راق لي ولأمّي استخدامها على الرّغم من خطورتها لما في ركوبها من متعة، وفرصة لمراقبة التّفاصيل جميعها في كلّ مكان نذهب إليه دون أيّ حاجز أو مانع، فضلاً عن توفّرها في كلّ مكان نذهب إليه، ولو كان زقاقاً صغيراً في دهاليز ملتوية، فضلاً على أنّها المرّة الأولى التي نستقلّ فيها هذه المركبة الطّريفة التي لا وجود لها في الأردن حيث أعيشُ وأمّي.

كذلك يشيع في الهند استخدام الدّرّاجة الهوائيّة للاستخدام الفرديّ، وقد رأيتُها تقلّ أسرة كاملة في آن؛ فالأبّ يقودها، وهناك الأمّ

تركب خلفه، وهي تحمل طفلها بين ذراعيها، في حين هناك طفل أو طفلين آخرين يندسّان بين الأبّ والأمّ، ويتمسّكان بجسديهما بحرفيّة عالية كي لا يسقط أحدهما من مكانه في خضمّ قيادة قد تكون أحياناً سريعة وخطيرة بين تدافع الدّراجات النّاريّة الأخرى والسّيّارات ومركبات «ركشا».

أين الفيل؟

كنتُ وأمّي ضحيّة الخرافات السّياحيّة وأبطال الرّحلات الكاذبة التي أخبرتنا أنّ الفيلة تتجوّل في شوارع «نيودلهي»، وأنّ كلّ هنديّ يملك فيلاً يتنقّل به، وأنّ التّماسيح تجوب شوارع المدن، وتستلقي متشمّسة في الدّروب، وأنّ الحيوانات الأليفة والمفترسة تعيش جنباً إلى جنب مع الهنود الذين استأنسوها منذ دهر، وأنّ أخطر أنواع الأفاعي السّامة الفتّاكة لا تعدو أن تكون لعبة للأطفال الهنود، وأنّ الهنديّ يركض بسرعة نمر، ويشرب السّم مع طعامه، ولا يتأثّر بها بفعل تريقات مستلّة من أنياب الأفاعي السّامة أخذها مسبقاً على جرعات في طفولته، وأنّه يستطيع أن يأكل مزرعة كاملة من الفلفل الحارّ دون أن تدمع له عين، وأنّه يجيد الغناء والرّقص، ويعيش لأجل العشق والمرح والاستمتاع بالطّبيعة الخلاّبة والملابس المزركشة والحفلات البهيجة.

لكن في الهند بمجرّد أن ركبتْ أمّي «ركشا»، وكدّها اهتزازها المستمرّ، وبدأت تتعرّق في شمس «نيودلهي» اكتشفتْ أنّها ضحيّة خرافات لا وجود لها، وأنّها في مدينة حضاريّة اعتياديّة، لكنّها ظلّت تبحث عن الفيلة في كلّ مكان نذهب إليه، وتسأل عنه، فتلفي إجابة واحدة عند الجميع، وهي أنّ الفيل في حديقة الحيوانات أو في الغابات

والأدغال البعيدة، فتصمتُ والدتي بخيبة أمل، فأربتْ على كتفها بحنان، وأعدها بأنّ تلتقي بالسّيد فيل في محطّة ما في ترحالنا في الهند، حتى ولو استلزم ذلك أن نزوره في أدغاله الكبيرة، فتبتسم لي برضا وحنان لا يفارق محيّاها الطّاهر أبداً، وتنتظر أن ترى الفيل واثقة بوعودي التي تذكّرها بوعودها لأخي محمّد الذي كان يطالبها في صغره بأن تشتري له فيلاً ليلعب معه، ويضرب صفحاً عن سؤالها له: أين ستضع هذا الفيل إنْ اشتريناه لكَ؟ لا مكان له في البيت أو حتى في حديقته الصّغيرة.

لكن أمّي لم تحظَ برؤية الفيل في الهند أبداً، وظلّت تتعجّب كيف أنّها وصلت إلى الهند، ولم ترَ الفيل؛ لذلك فرحتْ كثيراً عندما رأتْ ذلك التّمثال الذي على هيئة رأس فيل بجسد ولد كبير في بهو الفندق الهندوسيّ الذي كنّا نقيم فيه في مدينة «نيودلهي»، كان فيلاً بطول نصف قامة رجل مديد، يجلس بفخر وأريحيّة مُنَصَّباً فوق قاعدة حاملة له باحترام، ويحتلّ صدر البهو في مكان ظاهر، وهو فيل مبتسم حدّ وصول شقّ ابتسامته إلى أذنيه الكبيرتين، وفي عنقه عدّة أطواق من ورود «غيندا» الزّعفرانيّة الشّهيرة.

عندما رأتْ أمّي تمثال الفيل في بهو الفندق، أقبلتْ عليه تداعبه، كأنّه قط أليف لا تمثال فيل أصم، لا يسمع، ولا يرى، ولا يستطيع حتى أن يشمّ أطواق الورود المعلّقة في رقبته، وكادتُ تخلع إحدى أطواق وروده؛ إيغالاً منها في ملاعبته، عندها تدّخلتُ بقلق، ومنعتها من ذلك، وطلبتُ منها أن تتعامل مع التّمثال الفيل بوافر الاحترام، أو حتى بكلّ التّجاهل في أسوأ الفرضيّات، أمّا أن تداعبه كأنّه قطّة، وتلهو به، كأنّه لعبة، فهذه غلطة قد تكلّفنا عمرينا لا سيما على أيدي الجهلة

والغوغاء من المؤمنين به من الهندوس؛ فهذا التّمثال يجسّد إلهاً من آلهات الهندوس، صمتتْ أمّي قليلاً محرجة، وتفرّست في وجهي لتتأكّد من جدّية ما أقول، وعندما لاحظت القلق والجدّية في كلماتي، تراجعتْ عن مداعبتها للفيل الإله التّمثال، وغضّت الطّرف عنه في ذهابنا وإيابنا، وما عادتْ تسأل عن الفيلة والفيّالين ومحبّي الفيلة في الهند.

بعد هذه الحادثة طفقتْ أمّي الحبيبة كلّما رأتْ تماثيل الفيلة المدلّلة في كلّ مكان نذهب إليه تضرب صفحنا عنها، وتتجاهلها بإصرار، وتتصرّف، وكأنّها لا ترها، وتسرع في الخروج من المكان ابتعاداً عنها، بعد أن تسألني عن مكان القبلة لتصلّي، فأحدّد لها القبلة عبر برنامج تحديد القبلة في موبايلي الخلوي النّقال، فتشرع تصلّي صلاة طويلة أخال أنّها صلاة نكاية بالفيل، لا سيما إن كانت تصلّي صلوات نوافل.

عندما أنتهز الفرص كي أقرّب بين أمّي والفيل الإله، تبتسم أمّي ابتسامة ساخرة تفارق طبيعتها الألوفة الحنونة، وتسألني السّؤال ذاته في كلّ مرّة: أحقّاً هم يعبدون هذا الفيل المسخ؟ فأهزّ رأسي لها بالتّأكيد العميق، فتتمتم أمّي بكلمات أجهل معناها، ثم تقول بإيمان وارتياح: نشكر الله على نعمة الإسلام.

الفيل الإله -الذي خيّب آمال أمّي في رؤية فيل حقيقيّ يتبختر في شوارع «نيودلهي» يقوده طفل هنديّ حاذق كي ينقل أميرة جميلة إلى قصر حبيبها- هو الإله «غانيش» عند الهندوس الذي يحتفلون كلّ عام بمولده في مهرجان بهيج يستمرّ مدّة أحد عشر يوماً، وتنتهي هذه الاحتفالات بتغطيس تمثال الفيل في الماء.

الإله «غانيش» هو إله مجيد عند الهندوس وذو مكانة رفيعة عندهم؛ فهو ابن الإلهين «شيفا» و«بارفاتي»، وهو برأس فيل وجسم ولد كبير، وله أربع أيدٍ، وجلده أصفر اللّون، وهو إله الحكمة والفطنة والسّلام عند الهندوس، وهو إله ييسّر الأمور، وزيل العراقيل من حياة عابديه.

تروي الدّيانة الهندوسيّة أنّ أمّ «غانيش» وضعته على عتبة دارها لحراسته، وهي تستحمّ، فأقفل الطّريق في وجه الإله «شيفا»، ومنعه من الدّخول إلى البيت، فقطع «شيفا» رأس الطّفل دون قصد، فنذرتْ أمّه أن تأتي له برأس جديد من أوّل مَنْ يمرّ بها، فكان الفيل هو أوّل من مرّ بها، فاستعارت الرّأس من الفيل، ومنذ تلك اللّحظة طفق الهندوس يقدّسون الفيلة بسبب الإله «غانيش».

الاحتفالات بعيد ميلاد «غانيش» احتفالات كبيرة وبهجية وحاشدة؛ إذ يبدأ الحرفيون بصناعة نماذج فنيّة من الطّين للإله «غانيش» التي تتفاوت حجومها من حجم كفّ اليّد إلى تماثيل عملاقة مديدة القامة، ثم توضع التّماثيل في الأماكن العامّة والمنازل، وتُزّين بالألوان الزّاهية وأكاليل الزّهور والأضواء والرّسوم ذات المعاني الدّينيّة.

بعد تثبيتْ تماثيل «غانيش» في أماكنها، تُقام الحفلات لاستدعاء روحه إلى التّمثال، وتُوضع أمامه الحلوى والأرز وجوز الهند، لكّنه لا يقدر على أنْ يأكل من أيّ منها في أيّ حال من الأحوال، ثم يتمّ رشّه بمسحوق «تشاندان» الأحمر اللّون، ويتناول المحتفلون طبق «الموداك» على شرف هذا الاحتفال، وهو نوع لذيذ من الزّلابية المصنوعة من الأرز والطّحين مع جوز الهند الطّازج.

يحضر الاحتفال بمولد «غانيش» مشاهير الهندوس، ويشاركون في الصّلوات له في المعابد التي تحفّها أصوات المغّنين والمحتفلين، ثم تنتهي

الشّعائر بإلقاء تماثيل «غانيش» في مياه المحيط أو في غيره من المسطّحات المائيّة وسط صراح الحاضرين، في طقس يرمز إلى انتهاء إقامته، وموعد مغادرته آخذاً معه المحن والمصائب والمشاكل والآلام.

لقد علمنا أنّ هناك حديقة حيوان كبيرة في مدينة «دلهي»، واسمها «حديقة دلهي»، وقد تمّ افتتاحها في عام 1959، وتعرف باسم «شير يا غار»، وهي تحوي حيوانات نادرة؛ إذ تضمّ 127 نوعاً من الحيوانات والطّيور بما فيها الفيلة الصّغيرة والكبيرة، وتقع على مساحة 71 هكتار.

حاولت أن أقنع أمّي بزيارة الحديقة لتكحّل عينيها الطّاهرتين برؤية الفيل المنتظر، لكنّها رفضتْ الذّهاب إليها، واكتفتْ بتأمّل تمثال «غانيش» في كلّ مكان تذهب إليه، كما شمتتْ بذلك الإله الفيل الذي بحجم طفل صغير عندما وقع من يد صاحبه الذي يحمله، وانكسر، عندها لم أرَ حزناً أو خجلاً على وجه الهنديّ العابد له، إلاّ أنّه جمع أشلاءه المكسّرة دون تأثّر أو احترام واضح، وأبعدها عن الدّرب، وسار مبتعداً، وقدّرتُ أنّه طار نحو متجر لصنع التّماثيل الآلهة ليشتري إلهاً جديداً له كي يكمل به طقوس عيده.

عجبتُ أيّما عجب من الهنديّ الذي يعيش في حضارة القرن الحادي والعشرين بما تحمل من تفجّر علميّ وحضاريّ ومعرفيّ وتواصليّ، ثم يصدّق أنّ ربّه إله مصنوع على يدي حرفيّ ما، ثم يدفع ثمنه من أمواله، ويحمله لينصّبه في مكان ما كي يعبده، ويطلب عونه، وهو مَنْ يحتاج العون بضعفه وعجزه.

وزاد عجبي عندما رأيتُ علماء أجلاّء يديرون دفّة الحضارة الهنديّة بل والعالميّة في حقول المعرفة والعلم، ومن ثم يخرجون من مختبراتهم

العلميّة وجامعاتهم ومصانعهم ووحداتهم العلميّة والإداريّة والبحثيّة، وينحنون لإله صنم، أو شجرة، أو حيوان، أو نبات، أو ذات ما، ويصدّقون أنّ الإله أشطارٌ مشطّرة على ملايين الآلهات التي يعبدونها في كلّ مكان، ويتفنّون في استعطافها، واستدرار عونها ورحمتها بهدايا لا تأبه بها، وتذهب إلى جيوب السّدنة والكهنة وخدّام المعابد والقائمين عليها.

العالم الهنديّ الهندوسيّ أو البوذيّ يترك عقله في المختبر، ويخرج إلى الحياة دون عقله؛ فيصدّق ما يتصدّق به السّذّج والدّهماء والحمقى، ويؤمن بما يؤمنون به، ويخلص للعادات التي يخلصون لها، ولا يفكّر للحظة في أن يُعمل عقله ولو لدقيقة في التّكفير فيما يعبد من آلهات لا تضرّ، ولا تنفع، ولا وجود لربوبيتها إلاّ في ذهنه المعطوب على الرّغم من أنّ فيه مساحات للعبقريّة التي تتعطّل أمام إله فيل أو شجرة أو قرد ما!

الحيوانات المسالمة:

لقد تخلّت أمّي بشكل كامل عن حماسها للفيل الذي ألفته في الهند إلهاً يُصنع بأحجام مختلفة على أيدي الحرفيين، وينتهي الحال به بأن يُغرّق في الماء في نهاية الاحتفال العظيم به، ولا ينتصر لنفسه، ويقبل بمصيره المائيّ التّعس على أيدي من صنعوه ذليلاً صاغراً بما لا يليق بإله عتيد قويّ قادر على القضاء على الهموم والمصائب، لكنّه غير قادر على تغيير أقداره التّعسة التي تتكرّر في كلّ عام!

سرعان ما تحمّستْ أمّي للبقر الذي يجوب الشّوارع لاهياً عن أيّ همّ، ومنقطعاً للتّدليل والأكل والشّرب والنّوم، ولحظّه يحظى بمكانة إله

على كسله هذا! ونحن في عوالمنا العربيّة نستكثر على بقرنا أنّه يحظى بمراكز رفيعة ومواقع قياديّة، ويثري على حساب أعمارنا وثروتنا ومقدّارتنا وأقدارنا. لقد تشابه البقر علينا!

بعد صدمة الفيل الإله تقبّلت أمّي صدمة البقرة الإله، وأخذتْ تراقبها في الأسواق بانبهار، وهي تتبرّز في الدّروب، وروائحها الوسخة تفوح في الأماكن، وتعطّل حركة الدّروب، وتهيم على وجهها تفسد كلّ شيء، وتسطو على الأماكن، وتأكل من أرزاق الفقراء الذي يقابلون ذلك بفرح وتقديس لها، وشكر مديد لها؛ لأنّها تأكل ما يملكون، في حين أمّي تلاحق البقرة بتصويرها، وعندها أسألها عن سبب اهتمامها بتصوير البقر، تبتسم لي، وتقول: لله في خلقه شؤون.

لكنّها أُصيبت بصمت ذاهل عندما شرع عالم لغة عربيّة هنديّ مسلم يُتوسّم الصّلاح والتّقوى فيه يدافع عن عبادة البقر في الهند، ويحلّل رموزها ومفاهيمها، ويعلي من شأنها وقيمتها، عندها أخذت أمّي تستعرض صور الأبقار الآلهة الموجودة في جهاز اتّصالها النّقّال، في حين انبرى ذلك العالم يشرح لي معتقده حول عظمة عبادة البقر إزاء اهتمام كبير منّي في فهم تركيبة تكوينه العقليّ، لا فهم رموز عبادة الهندوس للبقر.

عندها علاه فيض من حماس مضاعف، وراح يستعرض أمامي ما يعرف من معلومات عن عبادة البقر في الهند، ثم قال لي بفخر: لقد قال غاندي عن البقرة: هي أمّ الملايين من الهنود، وحمايتها تعني حماية المخلوقات جميعها. إنّ الأمّ البقرة أفضل من الأمّ التي ولدتنا من عدّة طرق.

لا أعرف لماذا تذكّرت عندها خطاب سمعته في يوم ما من مسؤول

بقرة في عوالمي العربيّة يتبجّح فيه علينا بصفاته ومآثره وفضله علينا إذ يعتلي ظهورنا!

من جديد عاد العالم المسلم المحبّ نصير البقر يقول بنبرة حكيم يحدّث أطفال حمقى: البقرة عند الهندوس مقدّسة؛ لأنّها تُنتج الحليب بوفرة، وبذلك هي ترمز للأمومة، ولها مكان محترم في المجتمع، ويجب عدم أكل لحمها.

تمنّيتُ من أعماق قلبي أن لا تكون أمّي قد انتبهتْ إلى عبارة أنّ البقرة رمز للأمّ، لكن أمّي كانتْ قد انتبهتْ لهذه الجملة المتهوّرة بدليل تلك الابتسامة السّاخرة التي علت محيّاها، وحمّستها أكثر للصّمت هروباً من هذا الحديث الذي لا يروق لها، ويستثير حماسي الفضوليّ لا أكثر.

أمّا أنا فلم يسترعِ انتباهي في الهند سوى مسالمة الكلاب والحيوانات جميعها إلى حدّ مثير للانتباه؛ فهي حيوانات غلب عليها الهدوء والمسالمة، حتى تساءلتُ بعمق: هل الكلاب والحيوانات التي تعيش في بلادنا هي المتوحّشة أكثر من طبيعتها التي جُبلت عليها، أم أنّ حيوانات الهند هي المسالمة أكثر من طبيعتها؟

لم أستطع أن أجد إجابة على سؤالي هذا، إلاّ أنّني وجدتُ نفسي أغدو أقلّ قلقاً عند عبور قطيع من الكلاب من جانبي، أو عندما يدسّ كلب ما أنفه في طعامنا، أو يلتصق بنا في الأسواق والدّروب، أو يجلس إلى جانبنا جبراً بشكل فضوليّ، ونحن نحتسي شاي» الكرك» في الشّارع، أو عندما نتوقّف لنأكل حلوى «الجاليبي» طازجة من عربة بائع متجوّل في السّوق، بعد أن يصمّم داوود على ذلك بحجّة أنّ الفتيات والنّساء تحبّ أكل هذه الحلوى، ولا يجوز أن تمرّ بها دون أن تتذوّقها.

في الأحوال جميعها كانت الكلاب والقطط والحيوانات المسالمة رفيقتنا الجبريّة في الدّروب والأسواق وفي كلّ مكان، ومع الوقت بدأت أبني ألفة خاصّة معها، إلى حدّ أنّني لم أعد أتخوّف منها، أو أتعامل معها بحذر، وهنا بدأتُ أتسأل ماذا حدث لي في الهند حتى ألفتُ الحيوانات وألفتني؟

طبعاً لم أجد جواباً لهذا السّؤال أيضاً، إلاّ أنّني أدركتُ بالنّموذج الحيّ أنّ الألفة تولّد ألفة وسلاماً ورقّة، وأنّ العنف لا يلد إلاّ عنفاً، وعجبتُ من هذا التّوجّه في الهند الذي يملي على الهنود أن يسالموا الحيوانات، وأن يحترموا حياتها ووجودها بقوّة القانون والعُرف، في حين لا يبالون بقتل آلاف البشر المسلمين مقابل حياة بقرة أكلوا من لحمها، أو حيوان ما مقدّس أهدروا أحاسيسه ومشاعره، ولا يبالون كذلك بموت طفل جوعاً وقهراً، في حين يهرعون مناصرين كرامة حيوان ما تعثّر في درب لطالما تعثّر فيه البشر، ولم يجدوا مَنْ يبالي بهم.

أكثر ما كان يثير استغرابي وعجبي تركيبة الإنسان الهنديّ المسالمة اللّطيفة التي تنقلب فجأة إلى شخصيّة دمويّة تتورّط في صراعات طائفيّة وعرقيّة وسياسيّة بشكل دامٍ إذا ما استفزّه موضوع عقديّ ما.

في رحلة تجوالي في الهند أصبحتُ وأمّي على علاقة وثيقة بالحيوانات، وشعرنا بتفاؤل إزاء ذلك؛ إذ هو يبشّر بفرص جيّدة لنا باستثمار هذه التّجربة النّاجحة مع الحيوانات في الهند في التّأقلم والتّعايش مع الحيوانات البشر في شتّى أصقاع الدّنيا.

فجأة لم أعد قادرة على رؤية الجمال والألوان والبهجة في الهند، وأصابني من جديد مرض رؤية المعاناة والحرمان الذي يعيشه ملايين الهنود الذي يموتون في الشّوارع، ويتعفّنون فيها، ولا يجيدون مَنْ يدفنهم

بكرامة، في حين البقر يبرطع كيفما شاء، ويأكل بنزق وتهوّر طعام الفقراء والباعة المتجوّلين، والجميع ينحون له مقدّسين لكلّ ما يفعل، وأمّي تصوّر البقر دون انقطاع بحماس كبير للصّور والتّصوير قلّما تتحلّى به.

كروش وكروش:

قال لي ذلك العالم المسلم النّصير الأكبر للأبقار باستهزاء صفيق بالعروبة المتداعيّة بفضل خونتها: الكروش العربيّة لا تُطاق؛ لقد ابتلعت الدّنيا والثّروات والأوطان.

كلامه يستحقّ النّقاش، ويحمل من الحقائق البيّنة الشّيء الكثير، وفيه ما فيه من رموز ودلالات وإسقاطات، وهو مَنْ لا يخلو من حصافة وذكاء وسعة اطّلاع وثقافة لا يُستهان بها بأيّ حال من حال، ولولا انزعاجي من بعض طباعه لشهدتُ له بالعبقريّة والنّبوغ والألمعية، وهو مَنْ لا يحتاج إلى شهادتي بذلك؛ لأنّه أهل لذلك وأكثر بشهادة أقرانه واحترام طلاّبه له وإصرار منافسيه وحاسديه على إيذائهم له، لكنّني تجاهلتُ حديثه هذا حول الكروش العربيّة، وسألته باستفزاز له: قل لي يا دكتور، لماذا تُظهر النّساء الهنديّات كروشهنّ؟

نظر إليّ نظرة حانقة فهمتْ مغزى سؤالي، ثم حاول أن يخفي نظرته وراء رومانسيّة صوتيّة منتشية تستدعي صوراً مثيرة جميلة، وقال لي بصوت خفيض مؤثّر مثل صوت عابد في خلوة تأمّل: لأنّ هذا اللّباس يظهر جمال بطون النّساء الهنديّات وجمال خصورهنّ، وذلك مثير جدّاً؛ الصّرّة والبطن والخصر وأسفل الظّهر العاري جميعها مثيرة للرّجل الهنديّ. إنّ النّساء الهنديّات يظهرن، وهنّ يلبسن «السّاري»،

ويظهرن بطونهنّ ومفاتنهنّ مثل أميرات سماويّات، أو آلهات مقدّسة.

أردتُ أن أغيظه بأيّ ردّ استفزازيّ من طرفي، وساندني الحظّ في ذلك؛ إذ مرّت في تلك اللّحظة من أمامنا حيث نجلس في الباحة الخارجيّة لمقهى في المدينة زمرة من النّساء الهنديّات العواجيز اللّواتي يتمايلن ببطون كبيرة مرتخية متدلّية خارج القطعة السّفلى من «السّاري» حتى ليشعر من يراهنّ بأنّ بطونهنّ المرتخية سوف تسقط أرضاً، أو أنّها ستدفع القطعة السّفلى من «السّاري» بعيداً عن أجسادهنّ ليصبحن عاريات ممّا يستر عوراتهنّ والجزء السّفليّ من أجسادهنّ.

قلتُ له بتشفٍ مشيرة إلى كروش تلكم النّساء العواجيز: هل تلكم هنّ النّساء الهنديّاتٌ ذوات القدود السّاحرة، والبطون الجميلة والخصور الهيفاء؟

نظر الدّكتور الهنديّ نصير البقر في عيني، وصمت بعمق، ثم ابتسم ابتسامة باهتة، ولم ينطق بأيّ كلمة.

ابتسمتُ ابتسامة المنتصرة، ولو كان نصري هذا صفيقاً مهترئاً، ورحتُ أراقب وحدي كروش النّساء الهنديّات الظّاهرة من ملابسهنّ؛ هي كروش متنوّعة: صغيرة وكبيرة، جميلة وقبيحة، متماسكة ومتدلّية، إلاّ أنّها جميعاً تروي قصص الإنجاب والأمومة والذّرّية والمعاناة والكدّ والعمل.

للحظة راق لي بطن تلك العجوز المجهدة التي تفترش قطعة خيش قديمة، وتصفّ أمامها ضمم الخضراوات لتبيعها للمارّة، وتكسب بها لقمة عيشها، جسدها كلّه متضاءل متآكل حتى لا تكاد تزن أكثر من أربعين كيلو غرام، إلاّ أنّ بطنها الأسمر العجوز كبير جدّاً، ويتكوّر في

حضنها بحجم بطيخة صغيرة، فيروي قصّة أمومة متكرّرة عرفها هذا البطن المتعب المجهد.

شعرتُ برثاء نحوها، وقدّرتُ أنّ من الحكمة إظهار هذا البطن؛ ليس لأنّه مصدر فتنة إثارة جنسيّة أو جمال، بل لأنّه يروي بعض قصص الكفاح، وشاهد على تجارب الأمومة المتكرّرة.

للحقيقة أقول أنّا لم أرَ في الهند سوى نساء نوادر يملكن قامات بوليوديّة، وأجساداً فارهة مديدة ذات بطون مشدودة، وخصور هيفاء، أمّا باقي النّساء فهنّ في معظم الأوقات صغيرات الأجساد متواضعات الألق والحضور وبطونهنّ ضامرة ملتصقة بالظّهور لا إغراء فيها، أو سحر، وفي بعض الأحيان هنّ سمينات بكروش عملاقة لا يمكن أن تستحضر أكثر من كرش الإله الفيل «غانيش»، وهو يجلس على مؤخّرته البشريّة، ويباعد بين قدميّه، ويتأمّل بعجبٍ أولئك الذين يعبدونه على طول الأرض وعرضها في الهند.

لا شكّ أنّ السّينما البوليوديّة قد جمّلت صورة المرأة الهنديّة في المخيال الإنسانيّ الجمعيّ؛ فقدّمتها امرأة جميلة حلوة ساحرة ذات قوام ممشوق، وخفّة في الدّم والحركة، وذات جسد يفيض أنوثة إن تعرّى، ويهيجّ الخيال إن اكتسى بجميل الملابس وأكثرها أنوثة.

لكن الحقيقة على خلاف ذلك؛ فالمرأة الهنديّة متواضعة الجمال الأنثويّ الخارجيّ إلاّ في حالات استثنائيّة، وفي غالب الأحيان تطحنها الأعباء الاجتماعيّة لا سيما في أماكن جيوب الفقر والأقليّات والنّزاعات والاضطرابات الطّائفية والأماكن البعيدة عن المدنيّة والحضارة والتّنمية، إلاّ أنّها تفيض لطفاً وعذوبة وحناناً وحياء، هذا ما رأيته في نساء الهنود المسلمات، ولم أرَ من النّساء الهنديّات غير

المسلمات إلاّ جاذبيتهنّ المتواضعة، وجمالهنّ الفطريّ، لكنّني لم أتواصل معهنّ على المستوى الإنسانيّ والفكريّ لأسبر أغوار هذا الجمال الذي أنجب الكثير من النّساء الهنديّات المؤثّرات عبر حضارة إنسانيّة عملاقة ومديدة.

ظلّ هناك سؤال واحد يلحّ على بالي دائماً وأبداً، وهو كيف تلفّ المرأة الهنديّة «السّاري» بمهارة دون أن يفلت من مكانه؟ أو يسقط أرضاً؟ بعد أن باءتْ محاولاتي جميعها بالفشل في أن ألفّ «السّاري» الأحمر الذي اشتريته بنجاح دون زوائد، ودون أن يكون مهدّداً في أيّ لحظة بالسّقوط أرضاً.

رحلتُ عن الهند وأهلها، و«السّاري» الأحمر مستلقٍ داخل حقيبة سفري ينتظر أن أتعلّم طريقة لفّه بطريقة هنديّة حاذقة، وقد طال انتظار «السّاري» لذلك دون أن أفلح بهذا الأمر، إلى أن قرّرتُ أن أتراجع عن هذه المحاولات غير النّاجحة، بعد أن سلّمتُ بأنّ لكلّ صنعة حرفيين ومهرة، ومالي وحرفة نساء الهند؟ فأنا لا أملك منها إلاّ أن أراقب الكروش، وأن أتنبّأ بالأقدار التي عاشتها؛ فهي تحمل دون قصد تواريخ وأحداث وقصص، ومَنْ يجيد أن يقرأها يستطيع أن يستخلص عوالم تلكم الكروش المتعبة المضنية، وهذا جانب من جوانب عظمتها الصّامتة.

داء الرّكب لا علاج له:

في الهند من السّهل أن يفكّر المرء في كلّ شيء بنمطق الألف نظير ونظير، والألف خيار وخيار؛ فالهند باختصار عالم كامل ومتداخل من المتشابهات والنّظائر والمختلفات والمؤتلفات والمتناقضات، وهي عالم يتوالد باستمرار، وينشطر دون توقّف؛ ويغمر مَنْ يجوبه بفيض لا ينتهي

من التّجارب والأحاسيس والفهوم والمواقف والرؤى، حتى ليشعر مَنْ يزور الهند بأنّه يحتاج زيارة طوليّة لألف عام تمرّ بأزمانها وحضاراتها وشعوبها كي يفهمها، أمّا الرّحليّة الأفقيّة الجغرافيّة فيها؛ فهي تحتاج إلى عمر كامل بامتداد قرن محصّن بالصّحة ووافر المال والطّاقة والتّشوّف كي يستطيع الرّحالة أن يزورها كاملة؛ لذلك لا رحّالة يزعم حتى الآن -وفق معرفتي وقراءاتي- أنّه قد زار الهند كاملة مكاناً مكاناً؛ فالأمر أكبر من الإحاطة به بهذه السّهولة.

لعلّ أكثر الصّعوبات التي قد تواجه الرّحالة في سفره في الهند هي شبكة المواصلات البريّة التّعسة في معظم الأحوال على الرّغم من وجود نظام نقل متقدّم وعريق عبر القطارات وشبكات «المترو» التي تمتدّ عبر أجزاء الهند وفي داخل مدنها؛ إذ البنيّة التّحتيّة للمواصلات البريّة تحتاج إلى تطوير كبير.

أمّا الطّقس الصّيفيّ الحارّ فهو تحدٍ آخر أمام كلّ زائر للهند، لكن من حسن حظّي أنّ زياراتي للهند وجولاتي فيها كانتْ في أوقات مناخيّة مناسبة، في حين تغلّبتُ على مشكلة المواصلات البريّة بالتّنقّل عبر الطّيران الجويّ في معظم الأوقات؛ لما في ذلك من راحة وأمان وسرعة، وإن فاتني بذلك الكثير من التّعرّف على تفاصيل الهند التي كنتُ سأعاينها مباشرة في الرّحلات البريّة؛ لكنّني اخترتُ الطّيران الجوّيّ رحمة بأمّي التي تعاني من آلام القدمين ومشكلات صحيّة أخرى، وأمازحها دائماً بقولي: أنتِ الرّحالة المرأة الوحيدة التي جابت العالم، وهي تعاني من آلام القدمين، وتباريح وجع الرّكب.

كلّما أمّلتْ أمّي نفسها بعلاج شافٍ من وجع قدميها، أحبطها مازحة بلؤم: قالت العرب: داء الرّكب لا علاج له. فتغرق في ضحك

متفائل بالشّفاء على الرّغم من ألمها الشّديد؛ فأمّي مؤمنة خطيرة؛ فالإيمان عندها يصل إلى نخاعها، وهذا سرّ آخر من أسرار حبّها للهند والهنود؛ إذ هي مثل الهنود الذي هم بطبيعتهم متديّنون ومؤمنون، يستطيعون أن يؤمنوا في أيّ شيء بقوّة جارفة، المهم أن يكونوا مؤمنين، حتى ولو كان في ذلك محو لعقلهم ومنطقيّتهم؛ ولا غرو في ذلك فقد رأيتُ الفقراء والمسحوقين والجهلة في العالم هم أكثر النّاس تديّناً والتحاماً بإيمانيّات عميقة، كأنّهم يعوّضون بذلك خسائرهم الكبيرة في الحياة بفكرة تعويضهم عنها في زمن آخر سرمديّ موعود، قد يكون الآخرة عند أهل الكتب السّماويّة، وقد يكون عبر تعويضات في حيوات أخرى قادمة كما هي الفكرة السّائدة عند مَنْ يؤمنون بالتّناسخ في الهند.

لقد ألححتُ مراراً على أمّي كي تُعلاج قدميها وركبتيها في إحدى مشافي الهند، لكنّها رفضت ذلك متمسّكة بالمعجزات والكرامات التي قد تصيبها في أيّ لحظة، وضربتْ صفحاً عن حقيقة أنّها في مدينة «نيودلهي» التي يقصدها الكثير من المرضى في العالم لأجل الاستشفاء فيها؛ وهي مَنْ تملك خدمات طبيّة وكوادر علميّة راقية ومتقدّمة، جعلتها في مقدّمة الوجهات العلاجيّة في العالم؛ لتقدّم الرّعاية الطّبيّة فيها، وانخفاض تكلفتها مقارنة مع غيرها من الوجهات العلاجيّة الأخرى في العالم، فضلاً عن أنّ الجوّ المشرقيّ فيها يجعلها أكثر ألفة للمشارقة لا سيما العرب الذين يعشقون زيارتها؛ وقد قابلتُ فيها الكثير من اليمنيين والعراقيين والأردنيين وغيرهم من الجاليات العربيّة التي كانت تقصدها للعلاج.

هناك مستشفيات رائدة في «نيودلهي»، مثل مستشفى «ميدانتا

جورجاون»، ومستشفى «أرتيميس جورجاون»، ومستشفى «باراس جورجاون»، ومستشفى «دبلو فرتشكا جورجاون»، ومستشفى «نارايينا عالي التّخصّصات جورجاون»، ومستشفى «فورتيس نويدا»، ومستشفى «شاردا غريتر نوئيدا»، ومستشفى «مانيبال دواركا»، ومستشفى «أبولو»، ومستشفى «بي آل كبور»، ومستشفى «ماكس»، ومستشفى «جايوبي»، وغيرهنّ الكثير من المستشفيات المهمّة والشّهيرة.

على الرّغم من أنّني كنتُ أحمل حقيبة دوائيّة وإسعافيّة وكمّامات واقية وأدوية حساسيّة تحسّباً لأيّ مشكلة صحيّة أو وعكة جسديّة قد أمّر فيها في الهند؛ إلاّ أنّني وأمّي لم نحتج إليها، وطابتْ صحّتنا في الهند، وراق لنا المقام فيها، وألفينا أنفسنا نتنفّس فيها جيّداً على الرّغم من التّلوّث الكبير في مدنها بسبب عوادم المواصلات بالدّرجة الأولى إلى جانب انتهاكات المؤسّسات التّصنعيّة وانتهاكات الأفراد الذين لا يبالون في غالب الأحيان بالبيئة بأيّ شكل من الأشكال.

ألف طبق وطبق:

أوّل لقمة من الطّعام الهنديّ ذقتها وأمّي في مطاعم في الهند -لا في مطاعم هنديّة عالميّة في الأردن وفي أمريكا وفي غيرها من دول العالم التي ترحّلتُ إليها- كانتْ في مطعم «كهانا خزانه» في منطقة «تغلق آباد» في العاصمة «نيودلهي» بدعوة عشاء من أسعد الذي دعاني إلى تذوّق الطّعام الهنديّ في مطعم إسلاميّ يقدّم لحوماً مذبوحة وفق الشّريعة الإسلاميّة؛ إذ إنّ الهنود المسلمين في الهند يقصدون غالباً جزّارين مسلمين يذبحون ذبائحهم وفق الشّريعة الإسلاميّة.

أوّل ما لفتَ نظري في هذا المطعم هو صعوبة أن يجد المرء مكاناً ليصفّ سيارته في الهند إلى حدّ يجعل من الأمر تحدياً كبيراً، ويجعل من السّائق الهنديّ ماهراً في دسّ سيارته في أصغر مكان ممكن بمهارة بهلوانيّة مثيرة للإعجاب.

أمّا ما لفت نظري ثانياً في هذه الدّعوة، فكان وجود حفل زفاف بهيّ في إحدى قاعات المطعم؛ فقد كانتْ هذه أوّل مرّة أرى فيها حفل زفاف هنديّ حيث زينة العروسين المبهجة، وأثواب الحاضرين البرّاقة الجميلة ذات الألوان المنعشة، والمجوهرات والإكسسوارت الذّهبيّة وتسريحات الشّعر الأنيقة للشّعر الأسود الفاحم النّاعم في معظم الأوقات.

إلاّ أنّ مائدة الطّعام الهنديّ المتعدّدة الألوان والرّوائح والنّكهات هي ما حازتْ على انتباهي وانتباه أمّي بشكل كامل في تلك اللّيلة، وهي تطلق أبخرتها الحارّة المشهّية في أطباق هنديّة تقليديّة جميلة تشبه تلك الأطباق التي تُوضع الأطعمة فيها في الأفلام الهنديّة.

كانتْ هذه أوّل مرّة أذوق فيها الطّعام الحارّ الهنديّ في موطنه الأصليّ، فاكتشفتُ عندها أنّ هناك معنى آخر لكلمة حارّ في الهند؛ فمقدار الحرارة في طعامهم هو فوق أيّ اعتياد أو عُرف في العالم العربيّ، وفيما بعد عرفتُ أنّ هناك أنواع خاصّة وشهيرة من الفلفل الحارّ في الهند لا نظير لها في العالم، وهي محرقة إلى درجات لا يعرفها البشر الذين لم يذوقوا هذه الأنواع من الفلفل الحارّ، ومَنْ يذقها لأوّل مرّة عليه أن يجرّب عذابات احتراق فمه وحلقه وجهازه الهضميّ كاملاً ولساعات، هذا ما جرى معي ومع أمّي في هذه التّجربة الأولى، غير أنّ هذا الاحتراق المؤلم قد نفّر أمّي من الطّعام الهنديّ إلى الأبد، وجعلها

تركن إلى الخبز الهنديّ وبعض السّلطات الخضراء، في حين أشعل في نفسي عشقاً لهذا الطّعام الحارّ الذي يفتح الشّهيّة، ويرضيها بقدر ما يتحدّاها، لكنّني ظللتُ زاهدة في هذا الطّعام الهنديّ اللّذيذ احتراماً لذوق أمّي في النّفور من الطّعام الحارّ الذي لا تطيقه معدتها الشّفيفة المريضة منذ سنين.

انحازتْ أمّي إلى الخبز الهنديّ بأنواعه جميعها، وأصبح مطلوبها الأهمّ في أيّ وجبة تأكلها في الهند، وأكثر ما راق لها «خبز النّان» و«خبز الباني بوري»، فـ «خبز النّان» هو الخبر الأشهر في الهند، ويتميّز بسمكه، وهو مصنوع من الدّقيق المخلوط مع اللّبن، ويُطهى في فرن أرضيّ، ويقدّم مع صوص اللّحم، أمّا خبز «الباني بوري»، فهو خبز مقلي ذو قوام هشّ محشو بخلطة هنديّة حارّة، ويُقدّم في الغالب مع التّمر، أو مع الحمص والصّلصة الحارّة وشرائح البصل.

كذلك راقت «الزّلابيّة الهنديّة» لي ولها، وهي تُصنع من عجين من أنواع مختلفة من الدّقيق، ثم تُقلى في الزّيت، وتُحلّى بقطر السّكّر.

إلاّ أنّ أمّي المسكينة قد حُرمت من أكل «السّامبوسا الهنديّة»؛ لأنّها غنيّة بالبهارات الحارّة، وهي معجّنات تُحشى بالخضراوات أو الجبن، وهي من المقبّلات الشّهيرة في الهند، ومثلها «المومس»، و«إدلي» التي تُقدّم بوصفها مقبّلات أو وجبات خفيفة؛ إذ «المومس» هي شطائر محشوّة بالصّلصة الحارّة، و«إدلي» مصنوعة من العجين المخمّر المصنوع من الأرز والعدس.

هناك «شيبس الموز» الذي يُصنع من دقيق القمح، ثمّ يُقلى مع بعض النّكهات، ويُعدّ من الأطباق المحبوبة، في حين أنّ «بكري» يُعدّ من أشهر الفطائر الهنديّة، وهو مصنوع من البصل والباذنجان والبطاطا

والفلفل والقرنبيط والفلفل الحارّ، كذلك طبق «دهولكا» يُصنع من دقيق الأرز والعدس بطريقة صنع العجّة.

الأطباق الهنديّة تعود إلى مطبخ عريق يصل يعود عمره إلى نحو 7000 عام قبل الميلاد، وهو مطعم مزيج من الطّعام الهنديّ ومن كثير من الطّعام اليونانيّ والرّومانيّ والبرتغاليّ والاسكتلنديّ والعربيّ والتّركيّ والفارسيّ والباكستانيّ، وغيرها من المطابخ العالميّة.

يتّسم هذا المطبخ بأنّ أطباقه غنيّة بالتّوابل والنّكهات الأخرى مثل الزّعفران، كما أنّها تقدّم مزيجاً غريباً من عدّة نكهات في آن؛ فالطّعام الهنديّ المثاليّ وفق رأي الذوّاقة الهنود هو الطّعام الذي يحتوي ستّ نكهات في آن، وهي نكهات الحلو والمالح والمرّ والحامض والحارّ والقابض.

أشهر طبق راق لي في الهند هو طبق «دوم برياني» المشهور في العالم كلّه باسم «البرياني»، وهو ذو قصّة إنسانيّة شهيرة؛ إذ تمّ ابتكاره بأمر من ملك هنديّ لإطعام الفقراء في عام مجاعة شهيرة في الهند، لقد أمر الطّبّاخين بأن يعدّوا طعاماً كثيراً ليُوزّع على الفقراء، على أن يطهوه في قدور كبيرة من الفخار تُغطّى بالعجين، فابتكر الطّبّاخون هذا الطّبق الذي وصلتْ شهرته إلى الكثير من دول العالم.

هذا الطّبق يتكوّن من الأرز المبهّر بالتّوابل والزّعفران، وقد يُطبخ باللّحم أو الدّجاج أو بالسّمك في حالات قليلة، إلى جانب إضافة قطع اللّحم أو الدّجاج عليه، وبعض الخضراوات التي تزيد من قيمته الغذائيّة.

لقد سمعتُ د. أورنك زيب الأعظميّ يمدح طبق «البرياني» بشعر لطيف محبّب إلى النّفس:

هلمّــوا تســـــمـعـوا عن بيــرياني،
فـــقـــيـــد الندِّ في هذا الـزمــــان
طعــامٌ لا يضـــــــــاهيـــه طعــامٌ
لـذيذ أكله، صـــعب البــيــــــان
يفــوح المسكَ حين الكشف حــتى
تحــيـــــــطُ رياحُـــه كلَّ المكانِ
لذيذ الأكل، ســهــلُ الـهـضم حـتى
صــحـــيـــحٌ مـــأكلُ ذات الأوانِ
وإنْ طار الـهـــواءُ إلى الســـمـــاء
بجـــزء منه مـــتــــروك الصِنان
فـــيلتـــصــــــق الملائكُ بالأمينِ
ينادون مـــزيدَ البــيــــــــرياني
وذاك فـــإنّه ليس بطعـــــــــــم
رخـــيص غـــيــرَ مـــعــدود الأداني
أعــدّته يدا خـيــر فتـــــــــــاة
أقـــــبّــــــــلْ إنْ تجئْ كلَّ البُنـــانِ

هناك طبق «الدّال الهنديّ»، وهو طبق شـوربة العـدس الأصـفـر، ويتميّز بتوابله اللّذيذة وفوائده الصّحيّة الكبيرة. ويعتقد الهنود أنّ شوربة «الدّال» تؤخّر الشّيخوخة وعلاماتها، وهو طبق منتشر ومحبّب عند الطّبقات جميعها.

تشيع في الهند أطباق كشميريّة شهيرة، مثل طبقي الكشمير ديمو ألو»، وطبق «الرّوغان جوش»؛ فالطّبق الأوّل هو من الوجبات النّباتيّة بامتياز، ويتكوّن من البطاطس المقليّة على هيئة قطع صغيرة منتظمة،

إلى جانب الفلفل الحارّ والأرز، وفي بعض الأحيان يُضاف إلى الطّبق بعض الخضراوات للتّزين وإعطاء نكهة إضافيّة للطّبق.

أمّا طبق «الرّوغان جوش»، فهو الطّبق الحار التّقليديّ الذي ابتكره الكشميريون، ويتكوّن من لحم الغنم مع صوص الفلفل الحارّ، وهو طبق مميّز لكلّ منطقة يُطبخ فيها في نواحي كشمير.

يحظى طبق «دجاج ماسالا» بشعبيّة كبيرة في الهند، وهو يقدّم مع الزّبدة، بعد طهيه مع أوراق الحلبة، وإضافة الفلفل الحارّ إليه، وهو يُقدّم مع خبز «النّان». ينال «دجاج التّندوريّ» الشّعبيّة ذاتها، وهو يُقدّم منزوع الجلد، ومتبّل بمجموعة توابل هنديّة.

هناك الكثير من الأطعمة الهنديّة الأخرى، مثل: «شرائح الأنشوجة» المصنوعة من سمك الأنشوجة المحفوظة في صوص الكركم والفلفل الأحمر الحارّ، و«لفائف كاتي رول» التي تحتوي على الكباب والبيض والخضار والتّوابل، و«هريس الباذنجان» المشويّ المهروس مع الخضار والتّوابل، و«الفاصولياء الهنديّة» مع صلصة ثقيلة من الطّماطم والخضراوات المختلفة، وتُقدّم مع الأرز، و«الدّوسة» المصنوعة من الكريب الهنديّ الذي يُقدّم مع الصّلصات المختلفة، لاسيما مع صلصة العدس، و«فادو» المصنوع من دقيق القمح والعدس، و«مسالي» التي تتكوّن من بامية مقطّعة ومحشوّة بالتّوابل.

«الجاليبي» هو من ألذّ الحلويّات الهنديّة، وأشهرها على الإطلاق، وقد سارتْ شهرته إلى العالم بأسره، وهو يُصنع على هيئة كرات هشّة من الطّحين والمياه والخميرة، ويتمّ قليها في الزّيت.

الأحمر بالأحمر والبادئ أجمل:

اللّون الأحمر عند الهنود يحيل دائماً إلى اللّون البرتقاليّ الزّعفرانيّ الذي يُعدّ لون الهندوس المقدّس الذين اتّخذوا منه لوناً وصفة لدولتهم واتّجاهاتهم العقيديّة والفكريّة حتى وُصفت دولتهم بـ«الدّولة الزّعفرانيّة».

هذا اللّون يتّخذه رجال دينهم لوناً لملابسهم، كما يتّخذون الزّهور البرتقاليّة «زهور غيندا/ زهور الأذريون» زهوراً مقدّسة لا تتمّ الكثير من العبادات والطّقوس والشّعائر الهنديّة إلاّ بها. بل إنّ اللّون الزّعفرانيّ يدخل حتى في ألوان العلم الهنديّ.

هذا اللّون البرتقاليّ يرمز عند الهندوس إلى التّضحية ونكران الذّات والفداء والإيثار، ونبذ الأنانيّة والمصلحة الشّخصيّة والفرديّة، كما يرمز إلى عدم الانحياز.

لكنّني لم أكن أفكّر في هذا اللّون ومعانيه عندما اخترتُ ثوبي الفلسطينيّ ذا التّطريز الحريريّ الأحمر لألبسه في حفل زفاف ابنة الحاجّ عبد الرّحمن، ولا كانت أمّي تفكّر بمعاني اللّون البرتقاليّ عند الهندوس عندما لبستْ جلبابها الأحمر لتعبّر به عن فرحها بحضور هذا العرس، وما كنّا نعتقد حينها أنّ العروس الهنديّة الجميلة تلبس في زفافها «سارياً» تقليديّاً أحمر جميلاً بديعاً، وتُشعّ بالحنّاء وحليّ الذّهب البرّاقة وبمساحيق زينة وتجميل متناسقة مع ردائها الأحمر القاني بجمال يحبس الأنفاس.

لقد لبسنا الأحمر يومها بالصّدفة المحضة، وتفاجأنا بأنّ العروس تلبس اللّون الأحمر كذلك، وظننّا عندها أنّ هذه مصادفة جميلة، لكن علمنا فيما بعد أنّ من آداب حضور حفلات الزّفاف في الهند أن لا

يلبس أحـد من المدعـوّين أو المدعـوّات اللّون الأحـمـر؛ لأنّه حكر على العروس في هذه اللّيلة، تماماً كما من العيب أن يُلبس الأسود والأبيض في الحفل؛ لأنّهما لونا حداد في الهند، ويجلبان سوء الطّالع كما يعتقد الهنود، ويُفضّل أن يلبس الجميع الألوان الزّاهية البهيجة التي تعكس فرح الجميع بهذه المناسبة المفرحة.

لكن للمصادفة البحتة غير السّارة، فقد اخترقتُ وأمّي أوّل قاعدة في حضور حفلات الزّفاف الهنديّة، ولبستْ كلّ منّا اللّون الأحمر، فكّنا أكثر احمراراً به من العروس ذاتها! لكن لا أحد أبدى لنا أيّ ملاحظة انتقاد حول ذلك، إلاّ أنّنا عرفنا هذه القاعدة بعد انتهاء حفل الزّفاف، وحمداً لله أنّنا لم نعرف عنها في الزّفاف؛ إذن لتنغّص فرحنا بالحفل، وشعرنا بالخجل والإحراج من سلوكنا هذا.

لقد كان حفل الزّواج في حديقة جميلة اسمها «سيّد العجائب» أو حديقة «الحواس الخمس»، وهي حديقة شهيرة في مدينة «نيودلهي» لإقامة الأفراح، وهي حديقة لا يستطيع اكتراءها سوى الأغنياء والميسيرين أمثال الحاجّ عبدّ الرّحمن والد العروس الذي تكفّل بتكاليف حفل الزّواج هذا وفق عادات الزّواج الهنديّة، وكان يقف في العرس سعيداً فخوراً بهذه الحفل البهيج الذي قصده عدد غفير من المدعوّين أُسراً وأفراداً وهم يلبسون أجمل ملابس الاحتفال النّسويّة والرّجاليّة، والأطفال يتقافزون في المكان بفرح غامر، وهم يتباهون بملابسهم الجميلة الأنيقة التي تحاكي ملابس الكبار في أبّهتها الفلكلوريّة.

كان الحفل هو صورة حقيقيّة عن صور حفلات الزّواج التي تعرضها الأفلام البوليوديّة، وكانتْ هذه أوّل صورة حقيقيّة أراها في

الواقع كما رأيتها في فانتازيا الأفلام الهنديّة، بل كان الواقع أجمل وأبهى وأكثر إسعاداً للرّوح والحواس والذّاكرة؛ فقد كانت الأضواء الصّغيرة الملوّنة في كلّ مكان في أرجاء الحديقة الكبيرة، وكانت الألوان والزّهور تغمر الفضاءات، وكان هناك مهرّجون وشخصيّات تمثيليّة تلعب أدواراً مبهجة لشخصيّات محبوبة، مثل «شارلي شابلن» وغيره من الشّخصيّات الهزليّة والطّريفة، وفي قسم الرّجال كان يجلس العريس يلبس «الشّيروانيّ» البهيّ الذي أعشقه، ويستحضر في ذهني أجمل صورة الرّجولة الهنديّة المؤثّرة في الحواس.

أمّا في قسم النّساء، فكانتْ هناك العروس ذات «السّاري» الأحمر الحارق وحشد كبير من النّساء والأطفال، فيما تقوم أمّ العروس والقريبات بدور المستضيف والمستقبل المحتفي بالجميع، وكان استقبالهم لنا هو الأكثر حفاوة وبهجة؛ إذ أصبحتُ وأمّي محطّ أنظار الجميع، وسرت الهمهمات في المكان تسأل بفضول من نكون؟ وسرعان ما تشجّعت الكثير من النّساء ممّن يجدن الإنجليزيّة وبعض فتات اللّغة العربيّة على أن يسألنني مَنْ نكون.

كم كنّ فخورات بنا عندما علمن أنّنا رحّالتين وأديبتين من الأردن؛ امرأة وابنتها تزوران حفل زفافهم، وسوف توثّقانه في الكتاب الذي تعدّانه عن رحلتهما إلى الهند، عندها توافد الجميع علينا يأخذون معنا الصّور التّذكاريّة، ويرحّبون بنا من جديد بحفاوة كبيرة، ودفء حنون، وفرح غامر.

لقد كان ذلك الزّفاف هو حفل أسطوريّ تماماً، حتى شعرتُ أنّني لأوّل مرّة أدخل حقيقة في سحر الهند، وأغوص في سحرها الفتّان، وتمنيّتُ أن لا تنقضي تلك اللّيلة بما فيها من نسائم مساء عليلة، ومباهج

لا حدّ لها، كلّ شيء كان فيها مثاليّاً، حتى موائد الطّعام كانتْ مثاليّة كما تُوصف في حكايات ألف ليلة وليلة؛ فيها كلّ ما لذّ وطاب ممّا لم ترَ عيني من قبل، ويقوم عليها خدم كُثر لطاف أنيقون يخدمون الجميع بطيب نفس وبشاشة، ويهيلون الطّعام والشّراب والسّكاكر والحلويّات والمثلّجات والماء البارد هيلاً على موائد الطّعام التي ما تكاد تفرغ حتى تمتلئ من جديد.

لم ينقص اكتمال هذا الحلم الهنديّ البديع إلاّ عدم وجود الغناء والموسيقى والرّقص في المكان، وأنا مَنْ كنتُ أتوق إلى ذلك توقاً شديداً؛ لكن حفل الزّفاف كان لعائلة مسلمة ملتزمة بالشّريعة الإسلاميّة؛ لذلك لم يكن فيه معازف أو غناء أو رقص، بل كان عرساً هنديّاً إسلاميّاً بكلّ ما في الكلمة من معنى، لا عرساً يعجّ بالرّقص والغناء كما هي أعراس الطّوائف جميعها في الهند خلا طائفة المسلمين التي تتوّخى في الغالب الالتزام بالصّبغة الإسلاميّة في سائر شؤونها ما استطاعتْ إلى ذلك سبيلاً.

لم أجرؤ على أن أسأل ذلك السّؤال الطّفوليّ الأحمق الذي يطرحه كلّ مَنْ يزور الهند مأسوراً لسطوة أكاذيب الأفلام البوليووديّة: مَنْ منكم يجيد الرّقص والغناء؟

كنتُ أتمنّى من أعماق قلبي لو أنّ والد العروس استدعى بعض محترفي الغناء الصّوفيّ الذي يشكّل تيّاراً غنائياً وموسيقيّاً عريقاً وأصيلاً في الموسيقى الهنديّة، لكن الحفل خلا من ذلك أيضاً؛ فزاد توقي لسماع بعض موسيقى «الكارناتيك»، أو لأرى بعض رقص «كاثاكالي»، أو «بهاراتاناتيام»، أو «أوديسي»، أو «كوتشيبودي».

لكنّ فرح والد العروس بمشاركتي وأمّي في حفل زفاف ابنته

مـلأني فـرحـاً يعـادل فـرح الرّقص والغناء، وهو رجل مـسنّ طيب القسمات، ويلبس ملابس أنيقة، ولحيته البيضاء تشيع النّور والسّكينة والفرح في نفس مَنْ يلتقي به، وهو يملك وكالة سفريّات للحجّ والعمرة في «دلهي» القديمة، ومن هذا العمل أثرى بالحلال، واستطاع أن ينفق على حـفل زفاق باذخ مـثل حـفل زفاف ابنتـه، وهو حـفل بهـيج يسـرّ القلوب، لكن لا يستطيع أيّ والد عروس هنديّ من الطّبقة المتوسّطة أن ينفق عليه ما لم يكن ميسراً إلى حدّ كبير.

تحمّستُ كثيراً عندما علمتُ أنّني يمكن أن أدخل إلى قسم الرّجال في الحـفل لأجل أنّ أسلّم على الرّجل العـروس؛ لأنّني أريد أن أرى كيف يبدو لباسه في ليلة حفل زفافه، كما أريد أن أرى ذلك الطّقس الهنديّ الغريب عن ثقافتنا العربيّة، إذ يُغطّى وجه الرّجل العروس عن عروسه بأكاليل زهور تتدلّى على وجهه، إلى حين يزفّ إلى عـروسه، ويكشف عن وجهه، وهو طقس شائع عند الهنود المسلمين وغيرهم، إلاّ أنّني وجدتُ الرّجل العروس مبتسماً سعيداً مكشوف الوجه دون غطاء ورديّ، وخجلتُ أن أسأله لماذا لا يغطّي وجهه بالزّهور البيضاء الجميلة إلى حين يُزفّ إلى عروسه في نهاية الحفل وفق عادات الهنود؟

حفل الزّفاف هذا تمّت دعوتي وأمّي إليه بترتيب من داوود وأسعد اللّذين أخبرتهما برغبتي في حضور حفل زواج هنديّ بعد أن أعياني التّطفّل وأمّي على الأعـراس الهنديّة الشّـعـبيّـة التي كنّا نمر بهـا في تسكّعنا في مـدينة «دلهي» القـديمة دون دعوة أو سـابق معـرفـة بأهلهـا، لنصبح محطّ أنظار الجميع وريبتهم، لكنّنا لم نكن نبالي بذلك انتصاراً لفضول الرّحالة الذي يضجّ في جنباتي وفي روح أمّي.

هناك فرق في تفاصيل حفلات الزّفاف الهنديّة بين المسلمين وغير

المسلمين لا سيما الهندوس والبوذيين؛ فحفلات الزّفاف عند المسلمين تحافظ على نوع خاصّ من الطّباع الإسلاميّة، مثل عدم الاختلاط والتستّر في اللّباس والحشمة في الاحتفال، وغياب الموسيقى والرّقص والصّخب والخمور، مع التّمسّك بالولائم الفاخرة والزّينات المبهجة والأضواء الملوّنة والملابس الجميلة الفاخرة، وهدايا العرس، وطقوس زينة العروس ولباسها السّاري الأحمر الجميل، بعيداً عن وجود المسكّرات والخمور.

أمّا حفلات الزّفاف عند غير المسلمين، ففيها طقوس ابتهاجيّة كثيرة، وموسيقى ورقص وغناء وصخب ومسكّرات شعبيّة وخمور؛ وفيها عادات متّبعة كثيرة ومشهورة، ولا مندوحة عنها في تلك الحفلات، والهنود مولعون بالتّفاصيل والعادات والطّقوس حدّ التّطرّف، بما قد يوهم الزّائر بأنّ حياتهم سلسلة من الأفراح والاحتفالات والابتهاجات واليسر والبحبوحة، وهي في حقيقة الحال عكس ذلك في أغلب الأحيان، وعند معظم الهنود.

حفل الزّفاف الهنديّ لغير المسلمين يكون في منزل العروس، وتُقام حفلات قبله وبعده، وفي يوم الزّفاف يلفي الرّجل العروس على منزل والد العروس الذي يستقبله بالباب مرّحباً به باللّبن والعسل، من بعد ذلك يتمّ تبادل الأكاليل بين العروسين أمام الجميع في حفل بهيج اسمه «جايمالا»، وهذا الحفل رمزٌ للقبول والرّضا والانسجام والتّوافق.

هناك حفل شهير مخصّص للنّساء ضمن أيّام الاحتفال بالزّفاف، ويُطلق عليه اسم «الميهندي»، ويتمّ فيه تزيين يدي العروس وقدميها بالحناء المرسومة على شكل زخارف دقيقة وجميلة ومعقّدة، وهي إشارة إلى الرّابطة المستقبليّة المنشودة بين العروسين.

هناك أدوار كثيرة لوالد العروس في الحفل، ومن أهمّها أنّه لا يأكل أيّ طعام بعد انتهاء الحفل، وذهاب ابنته العروس إلى منزل الزّوجيّة حفاظاً على الطّهارة.

للنّيران حضورها المقدّس في حفلات الزّفاف؛ فلا بدّ من إشعالها بوصف ذلك أساس من أسس عقد القران بين الزّوجين؛ لتكون شاهدة على هذا الحدث المقدّس، ويلفّ الزّوجان حولها سبع مرّات مع قراءة عهود الزّواج الهندوسيّة أثناء ذلك.

بعد ذلك يأتي دور فقرة «لاجا هوما» المحبّبة إلى الأنفس؛ ففيها يصبّ شقيق العروس الأرزّ على يدي أخته، لتنسكب من يديها إلى يدي زوجها العروس الذي يضع يديه تحت يديها، ثم لتكمل انزلاقها نحو النّار المقدّسة.

من ثم هناك حفل استقبال للعروسين من الأقارب والأصدقاء، وفيه يحصلان على البركات والهدايا من الجميع الذين ينخرطون في رقص وغناء وفرح، دون أن يُسمح للضّيوف الذّكور بأن يرقصوا مع العروس، أو أن يقبّلوها؛ وهي مَنْ عليها أن تكون مثال الاتّزان والرّزانة في هذا اليوم في كلّ سلوك تقوم به.

بالمختصر حفل الزّواج الهنديّ حفل متكلّف ومكلف كثيراً؛ الأمر الذي يجعله غاية في المتعة والجمال والبهجة للحاضرين، إلاّ أنّه يشكّل عبئاً كبيراً على كاهل والد العروس، بل يشكّل أحياناً كارثة ماليّة عليه وعلى أسرته، وديون طائلة قد يمضي حياته معوزاً منكّداً كي يسدّدها.

هناك تفاصيل في الأعراس الهنديّة لا حدود لها، حتى سمعتْ أنّ والد العروس قد يهدي المدعوين جميعاً ملابس جميلة وراقية مهما بلغ عدد المدعوين حتى إن وصل إلى الآلاف، وقد أثار ذلك عجبي

وتعاطفي مع الآباء الهنود الذين يختنقون بهذه التّفاصيل المكلفة كي يسيروا على تقاليد الأعراس عندهم، دون أن يفكّروا في التّمرّد عليها، ورفضها، ونبذ تفاصيلها المنكهة لميزانياتهم الأسريّة.

لكنّني لم أرَ في حفل زفاف ابنة مضيفنا الكريم الحاجّ عبد الرّحمن أيّ توزيع لملابس أو هدايا على المدعوّين على الرّغم من الاحتفاء الكبير بهم، ودعوتهم إلى ولائم كبيرة ولذيذة، أو أنّ ذلك قد فاتني، ولم أره على الرّغم من وجوده.

أبو بطبوطة ينتحر في الهند:

تخيّلتُ لو أنّ والدي أبا بطبوطة كان يرافقنا في هذا التّرحال، وعلم بالأعباء الماليّة التي تترتّب على والد العروس في الهند لانتحر مباشرة هروباً من مصائب تجهيز بناته السّبع البطبوطات للزّواج، وهو أمر يحتاج منه ثروة طائلة لا تنضب؛ فزواج الفتاة الهنديّة أكانت مسلمة أم غير مسلمة يقتضي من والدها أن يدفع مهراً للرّجل العروس، هذا المهر المسمّى «الدّوتا» يكون مقداره على وفق المستوى الاجتماعيّ والاقتصاديّ للعروسين، وأحياناً يضطر والد العروس الهنديّة لأن يدفع صاغراً للرّجل العريس مهراً قد يصل إلى شقّة وسيّارة وأموالاً طائلة، في حالة رغب والد العروس في أن يحصل لابنته على زوج مثقّف ومتعلّم وثريّ ومن أسرة عريقة، ويتناقص مبلغ مهر الرّجل الهنديّ وفق مكانته في مجتمعه، والعكس صحيح.

بحسبه صغيرة قمتُ بها وأمّي على عجل وجدنا أنّ والدي المسكين يحتاج إلى سبع شقق وسبع سيّارات وسبع حفلات زواج وعدّة ملايين من الدّولارات إن أراد أن يزوّج بناته السّبع البطبوطات

زيجات تليق بهنّ وبمستواهنّ الاجتماعيّ وبشهاداتهن العلميّة الرّفيعة وباسم عائلتنا.

شكرتُ الله لأنّنا نعيش في الأردن، حيث زوّج والدي أبو بطبوطة معظم بناته بيسر، دون أن يتكلّف إلاّ القليل من المال نظير احتفاله الخاصّ بزواج بناته برغبته لا جبراً بقوّة العادات والتّقاليد، وتدلّل على الأزواج الخاطبين بالطّلبات والمهور حتى قبل أن يزوّجهنّ ممّن طلبوا الزّواج بهنّ من بناته.

تذكّرتُ كم كانتْ أمّي تتدلّل، وتتيه فخراً على الخاطبين لبناتها، حتى ترضى عن أحدهم، وتقبل أن يصير صهراً لها، وأن تنكحه ابنتها التي تنزلها منزلة الأميرة في حياتها، وتفخر بها، وتصمّم على أن تحظى بأفضل الفرص الحياتيّة العائليّة والعمليّة والعلميّة.

عندما تأمّلت قسمات الحاجّ عبد الرّحمن والد العروس الهنديّة، وقدّرتُ كم تجشّم من خسائر ماليّة ليزوّج ابنته، تنفّستُ أنا وأمّي الصّعداء فرحاً بأنّ والدي ليس معنا في الهند؛ فيضطر إلى أن يزوّج بناته وفق طرائق الهنود في الزّواج، حيث والد العروس هو مَنْ يدفع المهر للرّجل العروس، وهو من يقدّم له الهدايا الثّمينة الباهظة، وهو من يتكفّل بتكاليف حفل الزّفاف وشراء الذّهب والجهاز للعروس، بمساعدة رمزيّة من الرّجل العروس وأهله.

لو كان والدي في هذا الوضع لانتحر في ساحة عامّة في الهند احتجاجاً على هذا التّقليد العجيب، أو على الأقلّ لحكم على بناته جميعاً بأن يترهبنّ طوال أعمارهنّ هروباً من هذه التّكاليف الخرافيّة للزّواج التي يجب أن يتحمّلها والد العروس في الهند صاغراً مقهوراً.

الأطرف من ذلك كلّه أنّ على والد العروس أن يكون سعيداً

وفخوراً بالمهر الكبير الذي يدفعه للرّجل العروس، وبالهدايا الفاخرة الباذخة التي يقدّمها له ولأهله، وأن يرفع أنفه فخراً بأنّه استطاع أن يزوّج ابنته بمهر كبير، وحتى لو اقتضى الأمر أن يستدين، أو أن يبيع أملاكه، أو حتى أن تصيبه عسرة ماليّة ملازمة له لطوال عمره نظير هذا الزّواج العجيب.

هذا كلّه يكرّس فكرة امتهان المرأة وتدنّي مكانتها في الهند إلى درجة أنّها هي مَنْ تدفع المهر لأجل أن تحصل على زوج مناسب لها، وفي غالب الأحوال إنْ حاولتْ ترك الرّجل أو طلاقه لا تستردّ المهر الذي دفعته له، وبالكاد تستطيع أن تستردّ وأسرتها بعض الهدايا المقدّمة للرّجل العروس، وفي حالات كثيرة لا تستردّ أيّ شيء إلاّ ما ندر وفق اتّفاق داخليّ بين الزّوجين وأسرتيهما.

هذه النّظرة الدّونيّة للمرأة الهنديّة في مجتمعها جعلتها عُرضة للقتل والتّعذيب والاضطهاد وحتى الوأد في طفولتها، أو حرمانها من فرصة الحياة عبر إجهاض الأحمال إن كانتْ بإناث، ممّا جعل هناك انخفاض في نسبة الإناث في الهند في معظم الولايات مقابل عدد الذّكور بنسبة 1 إلى 6، لكن ذلك كلّه لم يغيّر من استمرار عادة دفع الآباء لمهور للرّجال كي ينكحوا بناتهم.

هذه الظّاهرة الاجتماعيّة آفة من آفات المجتمع الهنديّ؛ إذ تسبّب الكثير من المشاكل الاجتماعيّة التي على رأسها تعسّر الزّواج، وانتشار العنوسة، وشيوع الفاحشة لتعذّر الزّواج، واضطرار الآباء إلى الاستدانة لأجل تزويج بناتهم، والاعتداءات الكثيرة على النّساء بسبب هذه العادة العجيبة التي تكرّس فكرة امتهان المرأة الهنديّة، وتدنّي مكانتها الاجتماعيّة.

لذلك قامت الدّولة الهنديّة منذ عام 1961 بتجريم عادة تقاضي الرّجال للمهور من النّساء، إلاّ أنّ هذه العادة ظلّت مستفحلة الانتشار في الهند بشكل غير رسميّ أو قانونيّ، وهذا جانب يزيد المشكلة سوءاً، ويزيد من عثراتها ومزالقها ومخاطرها.

المسلمون الهنود يسيرون على هذه العادة في معظم الأوقات على الرّغم من أنّ الشّريعة الإسلاميّة قد أوجبت المهر للمرأة من الرّجل تكريماً وتشريفاً ورفعاً لمكانتها، إلاّ أنّ الأمر يختلف عند الهنديّ المسلم، وهو في غالب الأحيان ينحاز إلى الأعراف الاجتماعيّة الهنديّة غير الإسلاميّة في قضيّة المهور، ويقبل بأن يأخذ المهر من المرأة المسلمة نظير زواجه بها، بل ويسعى إلى ذلك، ويضرب عرض الحائط بالأعراف الإسلاميّة في الزّواج؛ ما دام سوف يستفيد ماديّاً من عادة المهور المدفوعة للرّجال، إلاّ أنّ المسلمين العلماء الذين تخرّجوا في مدارس إسلاميّة يرفضون هذه العادة، ويحاربونها جهاراً، ولا يأخذون مهوراً من زوجاتهم، ولا يدفعون مهوراً لأزواج بناتهم، وينصحون النّاس بهجر هذه العادة الجاهلة المخالفة للشّرع الإسلاميّ، ويحاولون جادين أن يقتلوها عبر تشكيل موقف مجتمعيّ مناهض لها.

تتفشّى عادة المهور هذه بشكل واضح في «بيهار»، و«البنغال»، و«راجستان»، وفي بعض مناطق «أوترابراديش»، والهنود في هذه المناطق استحدثوا ما يشبه تسعيره شائعة للمهور وفق أحوال الرّجل ومكانته، وللمرأة أن تحصل على الرّجل الذي تريده وفق إمكاناتها الماليّة لهذا الشّراء تحت غطاء المهر، وكلّما زاد ثراء المرأة زادتْ فرصها كي تحظى بأكثر الرّجال وسامة وأصالة وعلماً ومكانة، في حين تتدنّى فرصها في ذلك إن كانتْ أقلّ ثراء، أمّا إن كانت فقيرة معدمة، فلن

تحصل على زوج أبداً إلاّ في بعض الاستثناءات؛ إذ تتزوّج عندها من رجل فقير يحتقرها، ويجرّعها الويل والعذاب، وقد يقتلها في سورة غضب من سورات غضبه؛ لأنّها تزوجته دون أن تمهره مهراً يفتخر به أمام أقاربه وأصدقائه وأقرانه.

سمعتُ عالماً هنديّاً من علماء العربيّة المسلمين الذين قابلتُ في الهند يتحسّر؛ لأنّه تسامح مع زوجته وأهلها، ولم يتقاضَ مهراً منهم لقاء زواجه هذا، وبذلك فاته المغنم الماديّ من هذا الزّواج، كما فاته أن يتفاخر بارتفاع قيمة المهر الذي حصل عليه مقابل قبوله بهذا الزّواج، كما يتفاخر الرّجال الهنود بهذا الأمر في أغلب الأحوال؛ فهم لا يرون عيباً أو عارة أو سبّة أو منقصة أو مثلبة في الرّجولة في أن تدفع النّساء المهور لهم، بل الأمر موضوع للفخار بين الرّجال الهنود فيما دُفع لهم أو بهم من مهور، دون أن يروا في ذلك احتقاراً لهم، أو تبخيساً لرجولتهم، ودون أن يروا في ذلك أيّ مثلبة تجرح رجولتهم التي تتقزّم لتأخذ المال من كفي امرأة ليقبل بأن ينكحها، وأن تكون شريكته في حياته، وأمّاً لأبنائه.

عجبتُ من تحسّراته هذه أيّما عجب؛ وأنا مَنْ كنتُ أظنّه مترفّعاً عن سعار الماديّات، ومتسامياً بالعلم والشّريعة الإسلاميّة على غيره من أقزام الرّجال، وزاهداً في أمور التّكسّب والأرباح التي تأتي من الابتزاز والاستغلال الاجتماعيّ، لكن يبدو أنّ الموروثات الاجتماعيّة في الهند أقوى من سطوة العلم والدّين الإسلاميّ والرّفعة الزّهديّة والعفّة النّفسيّة؛ فلا فرق في الهند بين الرّجال -في أغلب الأحوال- بما يخصّ موضوع المهور؛ فعند هذه النّقطة بالذّات يشتدّ التّكالب والسّعار على الماديّات، ويتساوى الجميع في النّهم، والجري وراء ذلك، إلاّ مَنْ

رحم ربّي، ويصبح المحبّ والجشع والمسلم وغير المسلم والمثقّف والجاهل وسليل العائلة الرّاقية أو ابن العائلة الفقيرة أو المعدمى على حدّ سواء في الجري وراء المال والكسب السّهل.

كثيراً ما يقع الطّلاق، أو يدبّ الخلاف بين الزّوجين وأسرتهما إن تخلّفتْ أسرة المرأة عن تسديد كامل قيمة المهر والهدايا المُتّفق عليها، هذا الخلاف قد يصل إلى حدّ الاعتداء على المرأة، وتعذيبها، وأحياناً قتلها بأبشع الطّرق، أو دفعها إلى الانتحار.

السّجون الهنديّة تعجّ بالنّساء والرّجال المتورطين في جرائم المهور «الدّوتا»؛ ففي غالب الأحيان يطمع أهل الزّوج بالمزيد من المال أو الهدايا، أو يتأخّر عليهم أهل الزّوجة في تأدية المهر المتّفق عليه، فيقوم الزّوج وأهله بالاعتداء على المرأة الزّوجة بحرقها حيّة، أو تسميمها، أو دفعها من شرفة مرتفعة لتسقط أرضاً مهشّمة العظام أو ميّتة، فيذهب الرّجل وأهله إلى السّجن لتورّطهم في هذه الجرائم الوحشيّة.

في الغالب تُدفع الكفالات لإخراج الرّجال من هذه الورطات الخانقة المخزية، في حين تظلّ النّساء الحموات أو بنات الحموات في السّجن سنين طويلة ينتظرن الدّور في المحاكمة التي قد تصل إلى الإعدام، أو السّجن لسنين طويلة، بعد أن تخلّى رجال العائلة عنهنّ، وتركوهنّ يواجهن سوء العاقبة بعد انتظار طويل للمحاكمة في عجلة قضاء بطيئة حدّ الشّلل، لقاء جشعهنّ، وتورطهنّ في التّنكيل بالمرأة، وهنّ نساء؛ فأكثر مَنْ تنكّل بالمرأة هي المرأة في الغالب، هذا الحال واضح وبيّن في الهند في موضوع المهور بالتّحديد.

لعلّ موضوع المهور هذا جعلني أفهم أكثر عقليّة التّعامل مع المرأة في الهند، وهي عقليّة قائمة على العنصريّة الجندريّة بقصديّة كاملة؛

لذلك المرأة هي الأقلّ في كلّ شيء عند مقارنتها بالرّجل، وعندما ترتفع قيمتها في المجتمع، فترتفع لعلاقتها بالرّجل الذي هو والدها أو زوجها أو ابنها، أو لثروتها الماليّة، وعند الحقوق والواجبات، هي الأكثر واجبات، والأقلّ حقوقاً؛ فهي تدفع المهر للزّواج من الرّجل الذي قد يعذّبها، ويفتك بها إنْ وجد المهر أقلّ ممّا يشتهي، ويطمع.

عندما يموت الرّجل يتوقّع المجتمع الهندوسيّ أن تحرق المرأة نفسها حيّة معه، بل ويرّحبون بذلك لا سيما أهلها وأهل زوجها؛ كي لا يتحمّل أهلها عبء رعايتها والإنفاق عليها، وكي لا تطالب أهل زوجها بإرثها من ابنهم المُتوفّى؛ لذلك يفضّلون أن تُحرق حيّة أمام أعينهم على أن تطالب بنصيبها من هذا الإرث.

أمّا إنْ رفضتْ ذلك فسوف تعيش على الهوان والحرمان؛ إذ يُحرّم عليها الزّواج مرّة أخرى وفق الدّيانة الهندوسيّة، وتُكتب عليها المعاناة طوال عمرها؛ في حين أنّ الرّجل غير مطالب بحرق نفسه عند موت زوجته، وله حقّ الزّواج بغيرها؛ ولا عجب في ذلك؛ فالهند هو مجتمع الظّلم والاستبداد والاستلاب بامتياز.

زوجة دون سرير:

حديثي الطّويل مع أصدقائي وصديقاتي في الهند عن الزّواج والمهور عندهم قد انحرف بالموضوع من الجدّ إلى المزاح؛ لكن الكثير من الحقائق تكمن في المزاح؛ فعلمتُ أنّ المرأة الهنديّة كثيراً ما لا تملك حتى الحقّ في أن تنام في سرير زوجها، لاسيما إنْ أنجبتْ طفلاً أو أطفالاً، عندها يصبح مكانها الطّبيعيّ في غرفة الأطفال لترعاهم، شأنها في ذلك شأن أيّ مربّية أطفال أو خادمة أسرة، بعد أن تقدّم

فروض الخدمة والطّاعة لزوجها السّيد في غرفته، إلاّ إنْ طلبها لخدمة جنسيّة له، فعندها تؤدّيها له، ثم تعود إلى غرفة أطفالها مهينة صاغرة، وتظلّ غرفة الزّوجيّة التي تكون الغرفة الأفضل في البيت للزّوج وحده يرتع فيها كما يشاء.

هذه الحالة هي الحالة السّائدة في معظم المجتمع الهنديّ حيث الجهل والخرافة وذكوريّة المجتمع وأبويّته، وتزداد ظهوراً في بيئات الفقر حيث الأسرة كلّها تعيش في غرفة واحدة، ويقلّ بروز هذه الظّاهرة في البيئات الغنيّة والمثقّفة والمنفتحة، أو في البيئات التي تعيش خارج الهند لسبب أو لآخر.

مَنْ يريد أن يفهم حال المرأة في الهند عليه أن يخلع صورة الفيلم البولوديّ من ذهنه؛ حيث المرأة الهنديّة جميلة أنيقة مرفّهة سعيدة عاشقة ذات شخصيّة وقرار، وأن يغوص في المجتمع الهنديّ حيث المرأة الهنديّة تعاني معاناة كبيرة في كثير من الأحوال.

صحيح أنّ الإنسان الهنديّ أكان رجلاً أم امرأة هو مرهف ورقيق في طبيعته، إلاّ أنّه في أوّل مواجهة أو فرصة يتحوّل إلى كائن شرس ومخيف، يكفي أن تحضر فيلماً هنديّاً رومانسيّاً لتعرف مقدار رقّة مشاعر الإنسان الهنديّ، ثم يكفي لأن تحضر مواجهة طائفيّة واحدة في الهند لتعرف مقدار وحشيّته وشراسته عند استفزازه وتعبئته ضدّ الآخر، وبين فكي هذه المفارقات العملاقة ينهصر الإنسان الهنديّ في مجتمع عملاق سمته العامّة القسوة والألم والظّلم والتّطاحن وصعوبة الحياة والمفارقات العملاقة.

لقد تذكّرت سؤالاً كنتُ قد سألته لصديق هنديّ عن سبب وجود ثيمة ثابتة للعشق والعشّاق في الأفلام الهنديّة، إذ سألته عن سبب

وجوب وجود حرب وخصام وكره وإيذاء بين أيّ عاشقين هنديين قبل أن يوحدهما حبّ جارف يتجاوز الماضي وأفعالهما القاسية؟ وعن سبب إصرار السّينما الهنديّة على تصوير العاشقين على هيئة عنيدين نكدين يحاربان الحبّ، ويرفضانه، إلى أن ينتصر عليهما، ويغلبهما؟ فأجابني أنّه لا يعرف سبب وجود هذه الثّيمات في الأفلام الهنديّة، بل إنّه لم يلاحظ وجودها في الأفلام الهنديّة قبل أن ألفَ نظره إليها.

لكنّني فيما بعد عندما درستُ المجتمع الهنديّ عن قرب، وعاينتُ تناقضاته وقسوته على الرّغم من نعومته الظّاهريّة الخارجة، أدركتُ سبب هذه القسوة وهذا العناد وتلكم الدّروب الموجعة في سبيل الحبّ إلى حين ينتصر في نهاية الأفلام الهنديّة بعد رحلة طويلة نكدة معذّبة.

المرأة الهنديّة هي الأكثر توجّعاً وتجنّياً عليها في المجتمع الهنديّ الذّكوريّ حتى النّخاع، ووضعها ملبس ومضطرب؛ فمن مكانة جليلة متساوية في العصور القديمة، إلى مكانة هابطة في العصور الوسطى، إلى مكانة متأخّرة في العصر الحديث على الرّغم من جهود منظّمات حقوق الإنسان وحقوق المرأة والمصلحين، ووصول نساء مبرّزات إلى أماكن عليا في المجتمع الهنديّ، مثل رئاسة الجمهوريّة، ورئاسة الوزراء، ورئاسة المعارضة، ورئاسة بعض الأحزاب السّياسيّة.

المرأة الهنديّة التي تعيش في مجتمع طبقيّ بامتياز، هي تبوء بالمكانة الأدنى في كلّ طبقة فيه، وهي صاحبة الكأس المكسور فيه؛ والعادات والتّقاليد في هذا المجتمع الطّبقيّ حرمتها -في الغالب- من حقوقها في الحريّة، والإرث، وجعلتها تُباع في الأسواق، وقد تصبح المرأة عبدة بسبب خسارة الرّجل لها في القمار، وفي بعض الطّوائف

الهنديّة كان يتوجّب عليها أن تُحرق نفسها حيّة إن مات زوجها، كما أنّها تُحارب حتى وهي في رحم أمّها؛ فكثيراً من الأحمال تُجهض إن عرفت النّساء أنّهن يحملن بأجنّة إناث، ثم هناك الكثير من جرائم القتل التي تقع في حقّ النّساء، لاسيما بسبب عجز النّساء عن دفع المهور التي وعدتْ أسرهنّ بدفعها للأزواج.

الأميّة تنتشر في صفوف النّساء الهنديّات بشكل كاسح، ويتعرّضن إلى موجات من الاغتصاب والإيذاء بشكل مخيف أدّى إلى انخفاض عدد الإناث إلى الذّكور بنسبة 1- 6، على الرّغم من أنّ القوانين الهنديّة صارمة في حقّ الدّفاع عن المرأة، إلاّ أنّها تخفق في حمايتها؛ لأنّ الكثير من الجرائم الاجتماعيّة لا يُبلّغ عنها بسبب الخوف على سمعة العائلات في وسط تقاليد هنديّة متشدّدة في هذا الشّأن.

الثّقافة الهنديّة والعادات الهنديّة والدّيانات الهنديّة خلا الإسلام، تساهم في تسليع المرأة، وتعهيرها، واستعبادها، ويكفي القول في هذا الشّأن أنّ الكثير من طقوس العبادات الهنديّة والبوذيّة تقوم على العريّ والزّنا والفواحش، وتأجيج الشّهوات، والتّشجيع على الفواحش، وعبادة الأعضاء الجنسيّة، والدّفع نحو غريزة الجنس بشكل إباحيّ دون ضابط أو رباط شرعيّ مقدّس.

لقد جاء في بعض كتب الهندوس المقدسّة أنّ «مانو» عندما خلق النّساء قد فرض عليهنّ حبّ الفراش، والمقاعد، وحبّ الزّينة، وحبّ الشّهوات المدنّسة، والتّجرّد من الشّرف، وسوء السّلوك. كما ذكرت شرائعهم الضّالة أنّ المرأة هي أسوأ من الجحيم والسمّ والأفاعي والنّار والرّيح.

هذه كلّه يشجّع المجتمع على التّنكيل أكثر بالمرأة، حتى المُغتصِب

في المجتمع الهنديّ قلّما يلاقي عقاباً ما في ظلّ تستّر العائلات على حالات الاغتصاب خوفاً من المجتمع، في حين تُعاقب المرأة وحدها على هذه الجريمة، وهي الضّحيّة والمجني عليها، وفي الغالب تتعرّض للقتل، وتعلّق جثّتها على الأشجار لتصبح عبرة لغيرها من النّساء المسحوقات.

التّنكيل بالمرأة لا ينحصر في المجتمع الهنديّ بشكل عامّ، بل يبدأ من الأسرة الهنديّة التي لا ترحبّ بالمرأة، وترفض إنجاب الإناث، وتعدّ إنجابهنّ خسارة ماليّة كبرى على الأسرة، إلى حدّ أنّ الأسرة الهنديّة لا تحتفل بمولد الأنثى، ولا تحتفي بوجودها، وتشيع حكمة خبيثة بين الأسر الهنديّة تقول: «تربية الابنة تشبه ريّ حديقة شخص آخر»؛ لذلك فالمرأة تعيش خادمة حقيرة في بيت أهلها ما قبل زواجها، ومن ثمّ تُزوّج لتكون خادمة مهينة في بيت زوجها حتى موتها؛ حيث تخدم الزّوج وأهله كلّهم صاغرة مستعبدة.

إنْ لم يتمّ وصولها إلى بيت الزّوج عن طريق الزّواج الرّسميّ، فقد يخطفها الرّجل من حقل ما، أو من درب تعبره، ثم يهرب بها إلى قريته أو مدينته ليتزوّجها هناك عنوة وقهراً؛ لتكون عبدة شرعيّة له لا خادمة فقط، وإن لم ترقْ له ولأسرته لسبب أو لآخر، فعندها سيقومون ببيعها لأسرة جديدة ولزوج غاشم آخر لتعاني من جديد من أنواع العذاب والقهر جميعها، بما فيها الاغتصاب والتّعذيب والقتل في مرحلة متقدّمة من مراحل التّنكيل بها.

يؤكّد الكثيرون من المختصّين العالميين أنّ الهند هي المكان الأخطر في كوكب الأرض للمرأة؛ لذلك على أيّ امرأة لم تُولد في الهند أن تكون ممتنّة لله على ذلك؛ لأنّ فرصها في أن تعيش حياة كريمة حرّة هي أعلى من فرص أيّ امرأة في الهند.

أمّا إنْ وُلدت المرأة في الهند، فعليها أن تتوقّع أن تكون ضحيّة المجتمع والأسرة والأعراف والتّقاليد وتعاليم الديّانات الهنديّة حاشا الإسلاميّة؛ فجميع تلك القوى تحقّر المرأة، وتسحقها، وتمارس البطش ضدّها، على الرّغم من أنّ القانون الهنديّ متشدّد في حماية المرأة، وفي معاقبة مَنْ يعتدي عليها، إلاّ أنه لا يستطيع أن يحميها ممّا تكابده من معاناة مجتمعيّة فادحة، بل أحياناً يتورّط رجال الشّرطة أنفسهم في الإساءة للنّساء، ويتورّطون في اغتصابهنّ وهنّ مَنْ لجأن إليهمّ طلباً للحماية، وهروباً من المغتصبين الأوائل، ليجدن أنفسهنّ ضحايا لاغتصاب جماعيّ جديد من قِبل رجال الشّرطة أنفسهم.

أمّا الشّوارع الهنديّة، فكثيراً ما تكون مكاناً للاعتداء المجتمعيّ على المرأة الهنديّة؛ ففي الشّارع هناك حفلات اغتصاب جماعيّ للنّساء على مرأى من الجميع، وهي مكان للاعتداء على النّساء بتجريدهنّ من ملابسهنّ، وقصّ شعورهنّ، وجلدهنّ، أو رجمهنّ بالحجارة حتى الموت، أو شنقهنّ على أغصان الأشجار لتهم كثيرة، منها مطالبتهنّ بحقهنّ بالإرث من أهل الزّوج بعد موته، أو لتورّطهنّ بعلاقة جنسيّة غير شرعيّة، أو لأيّ تهمة مزوّرة قد يلصقها بهنّ أيّ مفترٍ أو مفترية.

لعلّ الأرامل الأكثر تنكيلاً بهنّ في المجتمع الهنديّ؛ فبعد أن يموت الزّوج، ويترك زوجته وحيدة، وقد تكون ما تزال في سنّ الطّفولة؛ إذ يزوّج الكثير من الهنود بناتهنّ طفلات لا تتجاوز أعمارهنّ الخامسة أو السّادسة، وفي هذه الحالة يرفض أهل الأرملة أن تعود إليهم، ويرفض أهل الزّوج أن تبقى في بيت الزّوجيّة، ويرفضون كذلك أن يعطوها نصيبها من الإرث، كما ترفض تعاليم الدّيانة الهندوسيّة أن تتزوّج من جديد، وهكذا تجد الأرملة نفسها في الشّارع

وحيدة منبوذة فقيرة، لا معين لها أو حام؛ لذلك يطمع الطّامعون فيها، وتقع فريسة للاغتصاب، أو بيع جسدها، بعد أن حرمتها التّعاليم الهندوسيّة من الحصول على زوج آخر يحميها، ويصون شرفها، ويرعاها، كما حرمتها من الزّينة والتعطّر والتّجمّل ووضع الزّهور، وأوجبتْ عليها أن تظلّ أسيرة ملابس الحداد البيضاء دون زينة أو جواهر أو حليّ أو عطور أو زينة.

الأعجب من كلّ ذلك أنّني كنتُ أحدّث عالماً هنديّاً رفيع الشّأن والمكانة والمنتج العلميّ، وهو من علماء الهند المسلمين، وقد كنتُ معجبة بعلمه وخلقه وتحرّر عقله أيّما إعجاب، وكان يحدّثني عن وجوب تحرّر المرأة، وعن مكانة المرأة المسلمة.

ذلك الحديث التّقدّميّ راق لي كثيراً، لكنّه عاد وفجعني عندما أخذ يقسّم النّساء وفق رأيه إلى نساء جميلات ومشهيّات ونساء ذابلات لا قيمة لهنّ في الحياة؛ فالنّساء الجميلات المشهّيات –وفق كلامه– هنّ العشرينيّات اليانعات اللّواتي يسعدنه جنسيّاً، ويتحرّقن في السّرير شهوة وحرارة وشبقاً، أمّا النّساء الذّابلات؛ فهنّ النّساء الأربعينيّات والخمسينيّات اللّواتي لا يرقن له في السّرير، وينفر من أجسادهنّ، ولا يرى لهنّ معنى للوجود في الحياة، حتى وإنْ كنّ صاحبات أمجاد علميّة وفكريّة ومجتمعيّة وإنسانيّة.

عندما سمعتُ كلام هذا العالم الهنديّ الجليل، شعرتُ بأنّ السّماء قد سقطتْ على رأسي كسفاً لخيبة أملي به؛ فإنّ كان هذا هو تصنيف الرّجل العالم الهنديّ المسلم للمرأة، فكيف يكون تصنيف الرّجل الهنديّ الجاهل لها؟

عندها أدركتُ أنّ الفتق في الهند قد اتّسع على الرّاتق، وأنّ النّظرة

الذّكوريّة في المجتمع مستفحلة حتى في أنفس العلماء والعقلاء والنّجباء؛ فلا -إذن- عجب أن تعشعش الخرافة والاضطهاد والوحشيّة والطّبقيّة في عقول الجماهير العريضة من الدّهماء.

زاد من خيبة أملي عندما سألتُ صديقين هنديين أحدهما بوذيّ والآخر مسلم إن كان كلّ منهما يقبل أن يتجاوز نظام الطّبقات الهنديّ، وأن يتزوّج، أو يزوّج أحد أبنائه أو بناته من طبقة أقلّ من طبقته، لاسيما من طبقة المنبوذين؟ فرفض كلاهما الأمر رفضاً قطعيّاً، ورفضا كذلك الحديث فيه، أو الخوض في تبريراته، وكأنّ لعنة المنبوذين وعارهم سوف يلحق بهما إن تحدّثا ببعض الرّحمة تجاه أولئك المنكودين، فزاد هذا الموقف من حيرتي ويأسي وخيبة أملي من إنسانيّة الإنسان الهنديّ المحصورة في طبقات ومراتب، والمشروطة بأوضاع وهيئات.

دار بيني وبين أمّي نقاش طويل حول هذا الأمر، إلى أن انتهينا إلى أنّ من رحمة الله بي وبأمّي أنّنا لم نُولد في الهند القاسية على الرّغم من جمالها الباهر، واللّئيمة على الرّغم من نعومتها المضلّلة.

أسعد وداوود ابنا أمّ بطبوطة:

لقد أعلنت أمّي أمّ بطبوطة (نعيمة المشايخ) في رحلتها هذه إلى الهند عن تبنّيها للباحثين أسعد جمال وداوود فيصل ليكونا ابنين لها في الهند، وهي مَنْ تبنّت ضمناً كلّ طالب هنديّ مسلم قابلته في لقاءاتنا المتعدّدة مع طلبة العلم المسلمين في الأماكن التي زرناها في الهند؛ فأمومتها العملاقة تتّسع لجيش من الأبناء والبنات، ولو كان الأمر ممكناً لتبنّت كلّ مَنْ قابلت من باحثين مسلمين في الجامعات

التي زرنها، وهي مَنْ رقّت لهم بعد أن أسروها بلطفهم وجامّ أدبهم وحسن أخلاقهم.

لكنّها أعلنت صراحة عن تبنّيها لأسعد وداوود تأثّراً منها بلطفهما وعونهما ومرافقتهما لنا في جولاتنا في مدينة «نيودلهي» ومدينة «آغرا»، وفرحاً منها بطيبتهما ودماثة أخلاقهما وجمال معشرهما وقدرتها على التّواصل معها باللّغة العربيّة الفصيحة التي يجيدانها إجادة بادية، حتى أنّها تستطيع أن تثرثر معهما بكلّ أريحيّة وحبور.

لقد انتخبت الأقدار أسعد جمال ليكون رفيقنا في هذا الدّرب؛ وهو مَنْ عرفني قبل أن أعرفه، واختارني قبل أن أختاره، ووجدني قبل أن أجده، وتواصل معي قبل أن أتواصل معه؛ فقد اختار أن تكون أطروحته في الدّكتوراه عن منجزي القصصيّ بإشراف صديقي د. مجيب الرّحمن؛ ليكون بذلك أوّل باحث أكاديميّ يكتب عن إبداعي في الهند وكشمير قبل أن يكون هناك فتحاً من الدّراسات الأكاديميّة المتخصّصّة عن منجزيّ الإبداعيّ في حقوله المختلفة، فضلاً عن أنّ أسعد كان أوّل هنديّ أتواصل معه في حياتي، عندما وصلت إليّ رسالة الكترونيّة منه، وسرعان ما أصبح صديقاً أثيراً لي في الهند.

لقد جاد عليّ بحسن رفقته، وبوقته، وبتزويدي بكلّ معلومة أبحث عنها في الهند، على الرّغم من انهماكه في إعداد إطروحته للدّكتوراه، والتزامه بعمله مع أسرته في أعمال البناء والعقارات في منطقة جامعة «نجار»، ورعايته لابنه الصّغير عمر ولزوجته الحامل بطفلهما الثّاني إبراهيم.

أمّا داوود فيصل فقد انتخبه د. مجيب الرّحمن من طلبته النّجباء ليكون ممثّله في ترحاله معي في الهند؛ وقد أحسن د. مجيب بهذا

التّمثيل؛ إذ اختار لي شخصاً لطيفاً حاذقاً ومحبّباً إلى النّفس وسريع البـديهـة؛ ولا عـجب في ذلك؛ إذ إنّ د. مـجـيب الرّحـمن ذوّاقٌ في السّلوك والرّؤية والأداء والتّواصل واستـخـدام اللّغـة الجـمـيلة المؤثّرة في اللّغة العربيّة والإنجليزيّة والهنديّة.

فرسان العربيّة في الهند:

لقد راقتْ لي طلاقة أسعد جمال وداوود فيصل في اللّغة العربيّة، كما أدهشتني فصاحة الكثير من علماء العربيّة في الهند ممّن قابلتُ منهم في رحلاتي إلى الهند؛ لذلك حرصتُ على السّؤال الدّائم عن معالم هذه التّجربة التّعليميّة والتّعلّميّة التي جعلتهم في بعض الأحوال يبزّون أهلها في الفصاحة والبيان والطّلاقة وحتى في الإبداع النّثريّ والشّعريّ وعلوم العربيّة والقرآن والحديث النّبويّ الشّريف، فضلاً عن حبّهم العميق وإخلاصهم العظيم للعربيّة وأهلها.

حدّثني أسعد عن تجربته في تعلّم العربيّة، وهي تجربة يصفها بأدبه الجمّ بالمتواضعة، كما يصف معظم مَنْ قابلتُ من علماء العربيّة الهنود تجاربهم وقدراتهم وعلومهم في العربيّة بأنّها متواضعة، وهي في حقيقة الحال على نقيض ذلك؛ لكنّهم ينطلقون في أمرهم كلّه من الأدب الجمّ والطّموح المستمرّ في الاستزادة من علوم العربية؛ وهذا يزيدهم جاذبية وألقاً في عيني مَنْ يلتقي بهم، ويتعرّف عليهم، في إزاء كثير من أدعياء اللّغة العربيّة في الوطن العربيّ الذين لا يحملون من علومها سوى شهاداتهم المزوّرة وأبحاثهم المسروقة.

لقد حفظ أسعد القرآن الكريم قبل أن يتجاوز العاشرة من عمره وفقاً لرغبة والده (نعيم الدّين) الذي أراد أن يوجّهه إلى علوم الدّين

الإسلاميّ واللّغة العربيّة، ثم التحق بدار العلوم التّابعة لندوة العلماء الكائنة في مدينة «لكناو» الهنديّة، حيث انقطع هناك لدراسة مصنّفات أدباء العربيّة ومبدعيها، إلى أن التحق بجامعة «جواهر لآل نهرو» لدراسة الأدب العربيّ فيها، واستمرّ في دربه في مصاحبة كتب العربيّة ومبدعيها، إلى أن وصل إلى ما وصل إليه من إتقان عظيم للغتها فهماً ونطقاً.

هذا ذكّرني بحديث طويل مع د. محمد ثناء الله النّدويّ حول إجادته العجيبة للعربيّة، حتى أنّه يتحدّثها بطلاقة وأريحيّة مثل أهلها، فأخبرني بأنّ أستاذه الجليل عبد النّور النّدويّ خريج الأزهر قد علّمه طريقه مبتكرة لإجادتها؛ إذ عليه أن يتخيّر عالماً من علماء العربيّة المجيدين أو مبدعاً من مبدعيها المفلّقين بلسانها الفصيح، ثم يطّلع على آثاره جميعها، ويدرسها حتى يتقنها، وبعدها ينطلق لتكوين شخصيّته العلميّة الخاصّة بعد أن يكون قد استدخل نظاماً لغويّاً إبداعيّاً كاملاً لواحد من أبناء العربيّة المبدعين، عندها يكون قد أتقن العربيّة بوصفه واحداً من أبنائها النّجباء، وملأ جوفه وذاكرته ووجدانه بلغته التي حفظها عن ظهر قلب.

لقد اختار د. محمد ثناء اللّه النّدويّ أن يتخيّر العلاّمة مصطفى صادق الرّافعيّ ليسير على منهجه لعمق المنهجّ الفلسفيّ عنده ولجماليّات بيانه وفصاحته، إلى أن قرأ ما كتبه من مصنّفات بشكل كامل على امتداد ثلاث سنوات، وانكفأ يكتب على هديه، ويعرض كتاباته على أستاذه المرشد الذي يصحّح ما كتب، ويبين له مواقع العثرات والهنات والضّعف، إلى أن أتقن منهج الرّافعيّ، ثم أخذ بالنّصيحة الثّانية لأستاذه بالجمع بين ثلّة من الأوّلين والآخرين من

العرب والأعاجم في منطلق توفيقيّ كوّن ثقافته العريضة، ولغته العربيّة والإنجليزيّة، وكوّن له سماته الفكريّة والثّقافيّة والبحثيّة، إلى أن استوى له شخصه العلميّ الفكريّ المستقلّ الذي تكوّن من الجمع المبرّز، ثم انحاز لخصوصيته البصمة.

حدّثني الكثير من أصدقائي الهنود أنّهم اتّخذوا هذا المنهج في دراستهم للعربيّة حتى أتقنوها؛ فقد عكف د. أورنك زيب الأعظميّ نفسه على دراسة القرآن الكريم لسنوات طوال، في حين أنّ أسعد جمال تأثّر بالأديب علي الطّنطاويّ لسهولة أسلوبه المنغمس في لغة حلوة ومؤثّرة على حدّ تعبيره.

هناك أكثر من مؤسّسة إسلاميّة هنديّة اجتهدت لحماية اللّغة العربيّة في صفوف المسلمين الهنود، وأشهرها مؤسّسة دار العلوم ندوة العلماء، ومدرسة الإصلاح، والجامعة الإسلاميّة دار العلوم «ديوبند» الهند، وهي جميعاً قد لعبتْ أدواراً عظيمة في حماية العربيّة وآدابها وعلومها خدمة للدّين الإسلاميّ، وهي مؤسّسات خرّجت فيها أكبر علماء العربيّة في الهند عبر أجيال متتالية، وطبعت المتخرّجين فيها بطابع عريق من الرّصانة والفكر الحرّ والعلميّة والطّلاقة في اللّغة العربيّة، حتى باتْ كلّ خرّيج فيها يُلحق اسمه باسم المؤسّسة التي تخرّج منها، ويجعله اسماً ملاصقاً لاسمه بشكل أبديّ؛ فمَنْ يتخرّج في دار العلوم ندوة العلماء يحمل لقب «ندويّ»، ومَنْ يتخرّج في دار العلوم في «ديوبند» يُطلق عليه لقب «قاسميّ»، ومَنْ يتخرّج في مدرسة الإصلاح يتلقّب بلقب «إصلاحيّ»؛ لذلك نجد الكثير من علماء العربيّة الهنود يحملون ألقاب «ندويّ»، و«إصلاحيّ»، و«قاسميّ»، هذا لا يعني أبداً أنّهم ينتمون إلى عائلات نبغ فيه الكثير

من علماء العربيّة، كما اعتقدتُ بادئ الأمر عندما لفتت هذه الظّاهرة انتباهي وتساؤلي، لكن هذا يعني أنّهم جميعاً من خرّيجي تلك المؤسّسات التّعليميّة العريقة.

دار العلوم ندوة العلماء قد تأسّستْ في عام 1893، وهي تحتلّ بناية عظيمة على شاطئ نهر «كومتي» في مدينة «لكناو»، وفيها مكتبة كبيرة تحتوي على نحو 80 ألف كتاب، ونحو 2000 مخطوطة نادرة، ودار لإقامة الطّلبة، ومسجد جميل.

أمّا الجامعة الإسلاميّة دار العلوم في «ديوبند»، فهي أكبر جامعة إسلامية أهليّة في الهند، وهي أقدم جامعة كذلك؛ إذ أُنشئتْ في عام 1867، ولها شعبيّة ساحقة بين مسلمي الهند، وهي تقع في بلدة «ديوبند»، وقد نشأتْ فيها الحركة الدّيوبنديّة، وفي مكتبتها نحو 677 مخطوطة عربيّة وفارسيّة نادرة.

العلماء المتخرّجون منها يقومون بنشاطات متنوّعة في الرّيادة الدّينيّة والمجالات الاجتماعيّة والسّياسيّة، ويضطلعون بأدوار نخبويّة، مثل التّدريس، والإفتاء، والقضاء، والدّعوة والإرشاد، والخطابة، والإمامة، والصّحافة، والتّأليف، والبحث العلميّ، والقيادة العامة، فضلاً عن العمل في أعمال حرّة، مثل التّجارة والزّراعة والصّناعة.

لقد قامتْ مدرسة الإصلاح بدور كبير في خدمة اللّغة العربيّة والعلوم الإسلاميّة منذ أن تأسّستْ في عام 1909، وهي تقع في بلدة «سراي مير» قرب «أعظم كره» في الهند، وقد قام عليها، ووضع منهجها المفسّر حميد الدّين بن عبد الكريم الفراهيّ، ومنهج المدرسة قريب ممّا هو متّبع في ندوة العلماء في «لكناو»، وهو يتلخّص في تدرّس القرآن الكريم وعلومه، واللّغة الإنجليزيّة، واللّغة الهنديّة، والعلوم

والرّياضيّات، والعلوم السّياسيّة، والاقتصاد، وعلوم الحاسب الآليّ.

لقد حظيت الصّحافة النّاطقة بالعربيّة باهتمام تلك المؤسّسات العلميّة الرّفيعة؛ فصدرتْ «جريدة الكفاح» عن جمعيّة علماء الهند، كما صدرتْ «صحيفة الدّاعي» عن دار العلوم في «ديوبند»، وصدرتْ مجلّة «صوت الجامعة» النّاطقة بالعربيّة عن الجامعة السّلفيّة في «بنارس»، وأصدرتْ دار العلوم في «حيدر آباد» مجلّة «الصّحوة الإسلاميّة»، في حين أصدرت الجامعة الإسلاميّة «مجلّة النّور»، وطفقت الكثير من المنّظمات الإسلاميّة والهيئات التّعليميّة والثّقافيّة تصدر مجلاّت وصحف ونشرات ناطقة بالعربيّة، وتُعنى بشوؤنها وأهلها ومصنّفاتها وقضياها.

من حسن حظّي أنّ رحلاتي إلى الهند قد يسّرت لي الاطلاع على كثير من هذه المجلاّت، والحديث مع طواقهما العلميّة، والمشاركة فيها بنشر بعضٍ من موادي الأدبيّة والنّقديّة والفكريّة؛ الأمر الذي قدّم قلمي لشريحة المهتمّين بالعربيّة والمختصّين بها في الهند.

لقد بذل علماء الهند جهوداً كبيرة لأجل إقامة المجامع العلميّة والأكاديميّات البحثيّة لتكثيف الجهود في تحقيق المخطوطات والتّأليف والتّصنيف في علوم العربيّة والإسلام، ومن هذه المؤسّسات مجمع دار المصّنفين في «أعظم جراه»، وندوة المصنّفين في «دهلي»، ودائرة المعارف العثمانيّة في «حيدرآباد»، والجامعة العثمانيّة في «حيدر آباد» ومدرسة الإصلاح في «أعظم جراه»، والمدرسة السّلفية في «بنارس».

إقامة هذه المؤسّسات العلميّة والبحثيّة العريقة استوجب إنشاء المكتبات الكبيرة خدمة لأهدافها ولعمليّات البحث العلميّ فيها، مثل مكتبة «بانكى بور» في مدينة «بتنه»، ومكتبة «رضا» في «رامبور،

والمكتبة الآصفيّة في «حيدرآباد»، ومكتبة «دار العلوم» في «ديوبند»، ومكتبة «جامعة عليكره»، ومكتبة العلاّمة شبليّ النّعمانيّ» التّابعة لندوة العلماء.

صوت القلب:

أجمل الأعياد التي تهزّ وجدان الهند الهندوسيّة هو «عيد الألوان»، المعروف عندهم بـ «مهرجان هولي»، وهو يوافق يوم 24 من شهر آذار، وهو العيد الثّاني الأشهر عند الهندوس بعد عيد «الأنوار»، وهو عيد يغلب عليه الطّابع الشّعبيّ على الرّغم من أنّه عيد مقدّس مهمّ عند الهندوس الذين يحتفلون به في فصل الرّبيع.

يتمّ فيه تراشق الألوان المائيّة في الشّوارع في أجواء من الفرح والبهجة والسّرور والضّحك، ليستمر هذا الاحتفال لمدّة ستة عشر يوماً، بعد أن تبدأ طقوس الاحتفال بارتداء المحتفلين الملابس الملوّنة، وهم يردّدون الأغاني الخاصّة بهذه المناسبة، ويرشّ أحدهم البودرة الملوّنة على الآخر في صخب من الهتاف والصّراخ.

الهندوس يرون أنّ سبب هذا الاحتفال يعود إلى أنّ الإله «كريشنا» قد أصابته الغيرة الموجعة من بشرة «رادها» توأم روحه، وكانتْ بيضاء البشرة، فشكى لوالدته ما يشعر به من حزن وكمد بسبب اللّون الدّاكن لبشرته، فكان حلّ أمّه لغيرته هذه أن يقوم برشّ وجه «رادها» باللّون الذي يريدها أن تكون عليه.

لكن هذا العيد لم يهزّ فضولاً في وجداني؛ لأنّني كنتُ مجذوبة إلى ذلك الغناء الصّوفيّ الإسلاميّ الهنديّ الذي يهزّ الوجدان، ويرسم اسم الله ونبيّه سيّدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام على القلب والرّوح.

اكتشفتُ هذا النّوع من الغناء والموسيقى قبل زيارتي إلى الهند؛ إذ كنتُ أتابع أشهر رموزه المعاصرين عبر تسجيلات محرّك البحث «يوتيوب»، إذ لطالما تابعتُ مقاطع مصوّرة لـ «نصرت فتح علي خان» بشغف، وهو يغنّي «القوّالي» حتى يصل إلى حالة واضحة من الاندماج مع عوالم عليا من السّمو والوصول، ويدخل في حالة غيبوبة وانقطاع عن كلّ ما هو حوله، حاشا الغناء الذي يطير به إلى سماوات بعيدة، لكنّني في الهند سُحرت به؛ فبون شاسع بأن ترى تسجيلاً للمشاعر عبر تصوير الفيديو، وأن تعاين لواعج الرّوح والأحاسيس في وجه صوفيّ منشد أو في حركاته وصوته حيث يتنّزل الإيمان والشّوق للخالق الواحد الأحد في كلّ أداء من أداءاته.

ظلّت روحي تهتزّ على قرع غناء الأغنيّة الصّوفيّة «املأ حقيبتي بالأماني»، وتردّدها دون توّقف:

يأتون إلى بابكَ وقلوبهم متألّمة
أولئكَ الذين ترغب في رؤيتهم يا نبيّ
أتيتُ إلى بابكَ حانياً رأسي
أنتَ مَنْ تصلح الأقدار السّيئة
أرجوكَ حقّقْ أمنيتي يا محمّد
أرجوكَ حقّقْ أمنيتي يا سيّد المدينة المنوّرة
لن أعود خالي الوفاض
أرجوكَ حقّقْ أمنياتي يا محمّد
نرجوكَ حقّق أمنياتنا جميعاً يا محمّد
لن أعود خالي الوفاض
عيناي المغلقتان ممتلئتان بالدّموع

خِيطت الدّموع في قلبي
انظرْ ما جرى لي
وأنا أبحثُ عنّكَ يا نبيّ
أرجوكَ واسِ قلبي
أتيتُ من البعيدة مليء بالأحزان
اغدقْ عليّ بالقليل من كرمكَ
هذا السّائل لن يغادر عتبة بابكَ إلى أن تحقّق أمنيته
لن أعود خالي الوفاض
إلى أن تستجيب لدعائي
أنفاسي لكَ يا علي

هذه الأغنيّة الصّوفيّة القديمة هي من نوع «القوّالي»، وهي مشهورة بين المتصوّفة المسلمين في الهند وباكستان وبنغلاديش، وقد غنّاها – لأوّل مرّة– المغنّي الباكستانيّ «صابري» وإخوانه في عام 1975، ولطالما استخدمت الأفلام الهنديّة هذه الأغنية وغيرها من أغاني المتصوّفة المسلمين لأجل إضفاء نوع من التّسامح الدّينيّ على تلك الأفلام.

إلاّ أنّني حرّفتُ هذه الأغنية بما يليق بفكري الجدليّ التّنويريّ العلميّ الذي يرفض الكثير من طروحات المتصوّفة المسلمين لا سيما فيما يخصّ التّوسّل بالقبور والأنبياء والأولياء لتحقيق المآرب، والطّلب منهم تغيير الأقدار والأحوال؛ لذلك كنتُ أترنّم بهذه الأغنية وفق ما يناسبني:

يأتون إلى بابكَ وقلوبهم متألّمة
أولئكَ الذين ترغب في رؤيتهم يا الله
أتيتُ إلى بابكَ حانياً رأسي
أنتَ مَنْ تصلح الأقدار السّيّئة

أرجوكَ حقّقْ أمنيتي يا الله
أرجوكَ حقّقْ أمنيتي يا سيّد السّماء
لن أعود خالية الوفاض
أرجوكَ حقّقْ أمنياتي يا الله
نرجوكَ حقّق أمنياتنا جميعاً يا الله
لن أعود خالية الوفاض
عيناي المغلقتان ممتلئتان بالدّموع
خِيطت الدّموع في قلبي
انظرْ ما جرى لي
وأنا أبحثُ عنّكَ يا الله
أرجوكَ واسِ قلبي
أتيتُ من البعيدة مليئة بالأحزان
اغدقْ عليّ بالقليل من كرمكَ
هذه السّائلة لن تغادر عتبة بابكَ إلى أن تحقّق أمنيتها
لن أعود خالية الوفاض
إلى أن تستجيب لدعائي
أنفاسي لكَ يا الله

أتقنتُ في الهند بعض الملكات المتواضعة والعابرة التي تسمح لي بأنّ أحلّق في عوالم سماويّة طاهرة، وأنا أسمع موسيقى «القوّالي»، لعلّني حصلتُ على هذه التّقنيّات من خلال المجانسة والمجالسة والقدرة الرّوحيّة التي لطالما شعرتُ أنّني أملك مساحات شاسعة منها في أعماقي، وكنتُ في حاجة إلى وقت أطول في الهند لعلّي أتقن الطّيران في تلك العوالم كما يتقنه غيري من المريدين.

لقد أُشتقّتْ كلمة «القوّالي» من الكلمة العربيّة «قوّال»، أيّ كثير القول، وهي ظهرتْ قبل نحو 700 سنة على يدي الشّاعر الهنديّ «أمير خسرو» الشّهير بلقب «عندليب الهند» على هيئة موسيقى دينيّة صوفيّة امتدتّ في جنوب آسيا لاسيما في الهند.

بسرعة كبيرة انتشرت موسيقى «القوّالي» في الهند إبّان العصور الوسطى، إلى درجة أنّ الكثير من الهندوس قد اعتنقوا الإسلام تأثّراً بما صدح به «أمير خسرو»، لتتحوّل هذه الموسيقى إلى مفردة عزيزة على المسلمين في جانب حيواتهم الوجدانيّة الدّينيّة، حتى لا يمكن أن يخلو مزار صوفيّ في الهند أو باكستان من موسيقى «القوّالي» التي تنتمي إلى الموسيقى الكلاسيكيّة الهندوستانيّة في بناء ألحانها، وارتجالاتها الصّوتيّة المرنة والمنفردة التي يصدح بها المغنّون باللّغة الأورديّة أو البنجابيّة في غالب الأحيان، أو باللّغة العربيّة والتّركيّة والفارسيّة في حالات نادرة.

إلاّ أنّ «القوّالي» له بصمته الخاصّة في تعدّد الإيقاعات الموسيقيّة، في حين تردّد الفرق المؤدّية الكثير من أشعار الصّوفيين، أمثال جلال الدّين الرّوميّ وغيره، وهي غزيرة المعاني في العشق الإلهيّ والاشتياق للاتّحاد مع الخالق، ومدح نبي الله محمد عليه الصّلاة والسّلام، وذكر مناقب الصّالحين والأتقياء والمريدين.

لقد تجاوز الكثيرون من روّاد هذا الفنّ قوانينه وأنغامه وأدواته التّقليديّة، وصبغوه ببصماتهم الشّخصيّة، واستخدموا آلات الإيقاع أو الطّبول أو «السّيتار» الوتريّة، ثم استخدم المغول الآلات العوديّة الفارسيّة والشّرقيّة، وحديثاً أُستثمرتْ آلة «الأورغان» في موسيقى «القوّالي»، ليُستعاض بها عن آلة «السّيتار» في كثير من الأحيان.

مَنْ يطمح إلى حالة سمو منقطعة النّظير عليه أن يحضر حفل موسيقى «القوّالي» كاملاً، وهو يستمرّ أحياناً لساعات متّصلة إلى أن يصل الحاضرون والمغنّون إلى حالة انتشاء مهولة تدخلهم في عوالم خفيّة سامية، تشعرهم بالصّفاء والسّمو والقرب من الله تعالى، والاندماج في ملكوته، واكتشاف مساحات النّفس.

متحف البشر والمعمار والحياة:

هناك الكثير من المتاحف في مدينة «نيودلهي»، مثل «المتحف الوطنيّ»، و«متحف غاندي»، و«المتحف الوطنيّ للتّاريخ الطّبيعيّ»، و«متحف الحرف»، و«متحف القوّات الجويّة»، و«المتحف الأثريّ»، و«المتحف الوطنيّ للسّكك الحديديّة»، و«المتحف الوطنّي للشّرطة»، و«متحف المحكمة العليا في الهند».

هي متاحف غنيّة بمواد العرض، وتجتذب الزّائرين بأعداد كبيرة في كلّ عام، وهي وجهة مفضّلة من وجهات السّيّاح، إلاّ أنّني أفضّل أن أعيش في متحف البشر والمعمار والحياة الذي يُدرك في حياة النّاس في الشّوارع والفعاليّات ومناحي الحياة المختلفة؛ فهذا هو المتحف الحيّ الصّادق الذي أحبّ أن أتجوّل فيه بوصفي جزءاً من نبضه، على أن أكون مجرّد كائن حيّ يسير على بلاط المتحف البارد، ويراقب الحيوات المحنّطة في ذاكرة التّاريخ.

لذلك فقد انطلقت استنطق الحياة في المتحف المفتوح في الأجواء في رحلة فريدة مع أمّي وأسعد وداوود برفقة شراب «جامون جلاب» المصنوع من كرات الحليب المكّثف المحلّى بالعسل، وشراب «كولفي» المصنوع من اللّبن والفستق واللّوز، اللّذين يخفّفان بحرارة الشّمس.

في صباح يوم مشمس كعادته وحارّ حدّ الدّبق زرنا شارع «لودي» حيث يقع «مركز الثّقافة الإسلاميّة» في قلب مدينة «دلهي» القديمة؛ أمّي أمّ بطبوطة كانت الأكثر حماساً لزيارته لسبب أجهله، في حين اكتفيتُ بفضول متوسّط حول المكان، وهو قد شُيّد لأجل أن يكون مركز إشعاع للتّسامح الإسلاميّ في الهند، بوصف أنّ الدّين الإسلاميّ هو ثاني أكبر ديانة فيها بعد الهندوسيّة، وقد انطلقت الحكومة الهنديّة في هذا المشروع في خطوة منها للتّقريب بين الأديان في الهند، وأبدتْ «أنديرا غاندي» في حينها إعجاباً كبيراً بفكرة هذا المشروع.

لقد وُضع حجر الأساس لهذا المركز في 28 آب من عام 1984، بعد أن قدّمت الحكومة الهنديّة أرضاً تبلغ مساحتها 8000 متر في «دلهي» لأجل بناء المركز الذي جُمعت لأجله التّبرّعات من مركز الدّراسات الإسلاميّة ووزارة الثّقافة.

المركز يضمّ عدداً كبيراً من العلماء في ضروب شتّى من العلوم والمعارف والفنون وتخصّصات الثّقافة الهنديّة، يعملون بإخلاص دؤوب لأجل ترسيخ مفاهيم التّعايش والاندماج بين المواطنين؛ لذلك تُنظّم في المركز النّدوات والاحتفالات لأجل تفعيل هذا الهدف السّامي الذي يجتذب المهتمين والزّائرين من الهند وخارجها.

لكن للأسف لم تتحْ لي الفرصة لمعاينة نشاطاته عن قرب، وحضور بعض فعاليته؛ لارتباطي بمواعيد ثقافيّة وأكاديّمية كثيرة، على الرّغم من أنّ أمّي الحبيبة كانتْ ترغب بقوّة في أن تتجوّل في أنحاء المركز، وأن تقابل القائمين عليه، وأن تحضر بعض فعاليّاته؛ فإيمانها الفطريّ الطّاهر النّقي يدفعها دائماً لحبّ الإسلام والمسلمين في كلّ مكان، دون أن تحمل أيّ ضغينة لسواهم؛ فمن مخلوقة من الحبّ

ولأجله، لكنّني للأسف لم أستطعْ أن أحقّق لأمّي رغبتها هذه، وليتني فعلتُ ذلك.

صوت الرّوح في المسجد الأحمر:

ليس هناك صوتٌ ممكن أن يطرب روحي وروح أمّي الطّاهرة مثل صوت الآذان الذي يخترق الوجدان، لقد اشتقنا له، وقرّرنا أن نبغيه في أكبر مسجد في «نيودلهي»، فذهبنا أربعتنا إليه: أنا وأمّي وأسعد وداوود إلى حيث تصدح المآذن بصوت الله أكبر.

إنّه مسجد «جاهان ناما»، الذي اسمه باللّغة الفارسيّة «جاهان نما»، والمشهور باسم مسجد «جاما»؛ نسبة إلى صلاة الجمعة التي تُقام فيه في كلّ أسبوع، ومن هنا أخذ اسمه الشّعبيّ، أيّ اسم «مسجد الجمعة»، أو «المسجد الجامع».

لقد أمر ببنائه الامبراطور المغوليّ «شاه جاهان» باني «تاج محلّ»، واكتمل بنائه في عام 1656، وهو المسجد الرّئيسيّ في «دلهي» القديمة، وهو واحد من أكبر المساجد في الهند، ومن أكثرها بهاء كذلك، كما هو أكبر مسجد في آسيا؛ فهو يتّسع لنحو خمسة وعشرين ألف مصلٍّ في آنٍ.

تُقام فيه الصّلوات الخمسة، بالإضافة إلى صلاة الجمعة، وتُقام الدّروس الإسلاميّة الدّينيّة فيه كذلك، وهو مكان بديع للعبادة والتّأمّل وراحة النّفس وقراءة القرآن والتّدارس في العلوم الإسلاميّة.

هذا المسجد الأحمر مبنيّ من الحجر الرّمليّ الأحمر، ويتميّز بفنائه الواسع وبواباته المقوّسة وجدرانه المكسوّة بأحجار حمراء ورخام أبيض، في حين أنّ الزّخرفات الدّاخليّة للمسجد مطعّمة بالخطوط السّوداء.

للمسجد ثلاث بوّابات شهيرة وكبيرة، ويحتوي في فنائه الدّاخليّ على بركة ماء للوضوء، وله ثلاث قباب من الطّراز المغوليّ الإسلاميّ، وله منارتان، فضلاً على احتوائه على عدّة آثار مهمّة، مثل القرآن الكريم المكتوب على جلد الغزال.

لقد راق لي أن أطلق اسم «المسجد الأحمر» على المسجد الجامع الذي أسرني بحمرته الدّافئة الحيويّة، وأجوائه الرّوحانيّة السّامقة التي تحدث أريحيّة في النّفس والبدن.

لقد شعرتُ بسكينة كبيرة تهبط على قلبي في هذا المكان، وحدّثتُ نفسي أنّ السّكينة تغشى كلّ مَنْ يدخل إليه، أو يجلس، حتّى أنّني رغبتُ في النّوم فيه لبعض الوقت لأتحمّل ببعض راحته التي سكنت الكثير من الأبدان التي نامت في الزّوايا على السّجّاد الأنيق النّظيف في دعة واستسلام مطمئن، لكنّ ماء البركة الذي توضّأتُ به ومن معي بعث نشاطاً وصحوة في بدني، لكنّه لم يسلبني ذلك الهدوء والاستسلام الذي سكن وجداني.

أكثر ما آثار استغرابي أنّ الرّجال والنّساء يتوضّؤون في بركة السّاحة الدّاخليّة للمسجد دون أن تطلب النّساء مكاناً مغلقاً لذلك، كما هي عادة النّساء المسلمات عندما يتوضَأن. لكن النّساء المسلمات اللّواتي يقصدن هذا المسجد يكشفن عن أذرعهنّ وأقدامهنّ وشعور رؤوسهنّ أمام الملأ من الرّجال دون تحرّج وهنّ مجذوبات إلى هذا الطّقس المطهّر للجسد والرّوح دون أن يتوجّسن ريبة من عين متطفّلة من عيون الرّجال.

الرّجال الذي يتوضؤون في المكان ينشغلون بالتّطهّر بالماء، ولا يسترقون نظرة على عورات النّساء؛ إنّه مشهد من انشغال المسلم

والمسلمة بلحظة التّطهّر، والاستعداد للوقوف بين يدي الله في صلاة خاشعة.

لقد شجّعني هذا المنظر المؤثّر على أتوضّأ في البركة مع أمّي وأسعد وداوود دون أن أتحرّج من ذلك أمام الملأ من الرّجال والنّساء؛ لأنخرط في هذا الشّعور الجمعيّ الرّوحيّ، حيث الجميع لا يفكّرون إلاّ في الوقوف بين يدي الله.

عندما يدخل المسلم إلى «المسجد الجامع» يترك بعضاً من نفسه فيه، ولا يستطيع عند الخروج منه أن يستردّ منه سوى حذائه الذي تركه عند باب المسجد في عهدة موظّف خاص مهمّته أن يحفظ أحذية المصلّين والمصلّيات إلى حين خروجهم من المسجد؛ إذ لا يُسمح بدخول المسجد إلاّ لحفاة الأقدام حفاظاً على نظافته البالغة وطهارته ولمعان بلاطه.

بعد الصّلاة والدّعاء والتعبّد في «المسجد الجامع» أدركنا جوع شديد، فقصدنا مطعم «الجواهر» الشّهير الذي اختاره أسعد، وهو يقع في القرب من إحدى بوّابات المسجد، ويقدّم الطّعام الهنديّ اللّذيذ، ويقصده خلق كثيرون، ويعمل فيه الكثير من الموظّفين والطّهاة، ويقصده الكثيرون لأجل طعامه المشهور بطعمه الهنديّ اللّذيذ.

هذه المنطقة فيها الكثير من المطاعم التي تقدّم لحوم الذّبائح الإسلاميّة؛ لأنّها تجمّع من التّجمعات الكبرى للمسلمين في «نيودلهي» و«دلهي»، كما يتجمّعون في حي «حوض راني»، وحي «مالويا نجار»، وحي «سيلام بور»، وحي «خوريجي».

في هذا السّوق الشّهير المزدحم هناك الكثير من السّاحات الصّغيرة التي يكتري النّاس أماكن فيها لاصطفاف سيّارتهم، وقد رأيتُ في هذا

المكان -لأوّل مرّة في حياتي- الحلاّق المتجوّل أو حلاّق الرّصيف أو الشّجرة؛ فالحلاّق الشّعبيّ في الهند يجوب الشّوارع ليحلق للنّاس في أيّ مكان أرادوا أن يحلق لهم فيه، وبعضهم يتّخذ موقعاً ثابتاً له على رصيف أو تحت شجرة ما، فيعلّق المرآة على جذع شجرة ما، ويُجلس الزّبون على كرسي بلاستيكيّ أو خشبيّ أو حديديّ متنقّل يحضره مع أدوات الحلاقة التي يحملها معه في حقيبة يد كبيرة أينما اتّجه؛ ليتمّ عمليّة حلاقة الشّعر والذّقن وحفّ الشّوارب في الهواء الطّلق أمام المارّة دون أيّ تحرّج من أيّ عابر درب، أو متطفّل على عمليّة الحلاقة.

لقد تطفّلتُ طويلاً على الحلاّق وبعض زبائنه في الشّارع، وراقبتُ باهتمام عمليّة الحلاقة بعد أن دسستُ نفسي بين جموع الرّجال المنتظرين أدوارهم في الحلاقة التي تنتهي دائماً بمسح الصّابون عن وجه الزّبون بمنشفة مبلولة، ومن ثم تعطير بشرة وجهه بعطر منعش من النّوع الشّعبيّ.

لكن الهنود كعادتهم لطاف جدّاً، ويتعاملون مع المتطّفلين على ثقافتهم وطقوسهم وتفاصيل حياتهم بمحبّة وتقبّل وسلام؛ ويرحّبون بهم، ويبتسمون لهم بودّ؛ لذلك قبل حلاّق الشّارع وزبائنه بتطّفلي عليهم، بل وراق لهم ما يرون في عيني من فضول واهتمام بتفاصيل صغيرة تخصّهم، ولا يمكن أن تستوقّف إلاّ رحّالة مثلي تجيد رؤية التّفاصيل الصّغيرة والتوّقّف عندها.

بوّابة السّحر:

وقف أسعد منتصباً بثقة أمام تلك البوّابة العملاقة، وقال لي ولأمّي بفخر بصوت جهوريّ جميل يشبه صوت ممثّل مسرح بحركة

تمثيليّة معبّرة من يديه، وهو يشير إلى بوابة ضخمة: وهذه هي بوّابة الهند، وهذه الحديقة الجميلة هي حديقة البوّابة، وهؤلاء جميعاً هم هنود.

لكن فاته أن يقول يردّد على مسمعي جملته المفضّل: الهند أرض العجائب والغرائب. لكنّني آثرتُ أن أسمي البوّابة ببوابّة السّحر؛ لأنّها تفتح الدّرب على شبه قارّة ذات إرث إنسانيّ ضارب في العمق والأصالة والغنى.

أمّا أنا وأمّي، فطفقنا نتجوّل في المكان الجميل، لا تدهشنا البوّابة التّاريخيّة الجميلة، ولا تسرقنا الزّهور الجميلة في الحديقة المكتظّة بالزّائرين، إنّما كان يذهلنا دفق الجماهير المتنزّهة في المكان من الهنود الذين يأتون من كلّ حدب وصوب، يحملون أشياءهم الخاصّة للتنّزه، ويفترشون الأرض في كلّ مكان مستمتعين بالأوقات الجميلة والصّحبة المحبّبة، فيبدون بملابسهم الملوّنة مثل فراشات تغمر البساط الأخضر بألق زاهٍ بهيج.

بوابة الهند هي من أكبر صروح الحرب في الهند، وهي تقع في قلب العاصمة «نيودلهي، وتمّ الانتهاء من بنائها في عام 1931 بعد عشر سنوات من البدء في ذلك.

البوّابة هي تشكّل قوس نصر بناه الهنود تخليداً لذكرى مصرع 90000 جندي هنديّ خسروا أرواحهم في رحى الحرب العالميّة الأولى والحروب الأفغانيّة عبر انخراطهم في الجيش البريطانيّ الهنديّ، هذا المكان يضمّ قبر الجندي المجهول.

المنارة الحارسة:

تبدو «منارة قطب» أو «قطب منار» حارسة لمدينة «دلهي»؛ فهل المنارة الأطول على الإطلاق في الهند، وبذلك تشرف على الهند، وتنتصب بخلود قدريّ، كأنّها تحرس الهند وأهلها، وتنير الدّرب لمن يريد أن يدخلها محبّاً لها؛ لذلك شعرتُ بأنّها ترحّب بي وبأمّي ونحن نزورها، ونقف في ظلّها متأمّلتين جماليّة معمارها برفقة صديقنا اللّطيف المخلص أسعد، وبعد طول توقّف عندها تجوّلنا متفحّصين المباني الأثريّة التي تضمّها «منارة قطب».

هذه المنارة المدرجة في قائمة التّراث العالميّ، قد شُرع في بنائها في عام 1193 بأمر من «قطب الدّين أيبك» التّركيّ الأصل الذي وضع حجر أساسها، وهو أوّل حاكم مملوك تركيّ يؤسّس سلطنة «دلهي»، ثم أكمل خليفته «شمس الدّين» بنائها، إلى أن قام «فيروز شاه تغلق» بإكمال بناء المنارة التي كانتْ مئذنة شاهدة على ذلك العصر.

لقد بُنيت المنارة من حجارة أنقاض «لال كوت» البرج الأحمر لمدينة «دلهي» القديمة، وهي بارتفاع 5و72 متراً، ويبلغ قطرها في الجزء الأسفل 32و14 متراً، وفي الجزء الأعلى يبلغ 75و2 متراً.

هذه المنارة الجميلة مبنيّة من الحجر الرّمليّ الأحمر، وتحيط بطوابقها شرفات مزخرفة على شكل حلقات دائريّة مزيّنة بنقوشات من آيات القرآن الكريم، والزّهور الجميلة، وفي محيطها يقع المسجد والعمود الحديديّ الأكثر شهرة، وهو يحمل نقوشاً كثيرة ومتقنة.

هذه المنارة لا تحرس القديم من الآثار فقط، بل تبدو فارعة إلى حدّ يسمح لها بأن تحرس الأماكن الحديثة في المدينة؛ حيثُ يقع البرلمان الهنديّ الذي أُفتتح في عام 1927، وبالقرب منه يقع مبنى مقرّ رئيس

الجمهوريّة المسمّى «راشترابتي بهاوان»، وقد صُمّم في عام 1929، وهو مزيج من العمارة المغوليّة والعمارة الحديثة، ويتكوّن من قبّة ضخمة، وحديقته تزخر بالزّهور والورود والنّباتات الغريبة والنّادرة.

لكنّني أشعر بأنّ «منارة قطب» تنحاز إلى أترابها من الآثار الرّابضة في التّاريخ والجغرافيا، وتطلّ عليها بحنان، وتستمدّ منها القوّة للبقاء والصّمود والشّموخ.

في أقرب نقطة منها تقع قلعة «تغلق آباد»، وهي من أكبر القلاع الهنديّة المبنيّة من الأحجار التّقليديّة، وتُنسب إلى بانيها «غيّاث الدّين تغلق» الذي أسّس سلالة «تغلق»، وهي تضمّ قبر مؤسّسها.

أمّا قلعة «فيروز شاه كوتلا» التي تقع قرب بوابة «دلهي»، فقد بناها «فيروز شاه تغلق» حاكم سلطنة «دلهي»، وقد تمّ تحويل ساحة القلعة إلى أرضيّة ملعب «الكريكيت»، وبالقرب منها هناك ضريح زعيم الهند «المهاتما غاندي» الذي يُطلق عليه اسم «غاندي سمادي».

لا بدّ لمن يُعجب بالخلود أن يزور «القلعة الحمراء»، و«ضريح لودهي» وحديقته، ومبنى «فيروز شاه كوتلا»، و«ضريح همايون»؛ فجميعها غرر على جبين التّاريخ والمعمار.

- «القلعة الحمراء» مبنيّة من الحجر الرّمليّ الأحمر، وهي من عجائب الإرث المعماريّ الذي خلّفه الامبراطور المغوليّ «شاه جاهان» في الهند.

حديقة «لودهي» هي مقبرة أباطرة المغول، وتُعدّ متنزّهاً طبيعيّاً خلاّباً في العاصمة الهنديّة، وهي مزدحمة بالنّصب والبيئة الطّبيعيّة المتميّزة، ويعود تاريخ بنائها إلى القرنين الخامس عشر والسّادس عشر.

«ضريح همايون» بنته «حميدة بانوم بيجوم» تخليداً لذكرى زوجها

المتوفّى الامبراطور المغوليّ «همايون»، وهو ضريح معماريّ لا يقلّ فخامة عن ضريح «تاج محلّ».

كذلك هناك الكثير من المعابد الهندوسيّة في «نيودلهي»، مثل معبد «أكشاردام»، ومعبد «لاكشمي نارايان» الذي بنته أسرة «بيرلا»، كما هناك معبد «اللّوتس» المعروف باسم المعبد البهائيّ المبنيّ على شكل زهرة «اللّوتس»، وهو معبد للدّيانة البهائيّة، وهيكله مصنوع من الرّخام والإسمنت والرّمل.

مَنْ يزرْ هذا المبنى الطّريف، عليه أن يزور مبنى «جنتر منتر» الأكثر طرافة؛ فهو صورة مفترضة لأقدم مرصد على وجه كرة الأرض، وقد صمّم معدّاته «الماهاراجا جاي سينغ الثّاني» في مطلع القرن الثّامن عشر الميلاديّ؛ لأجل رسم جداول بمواقع النّجوم، ورصدّ تحرّكات القمر والكواكب والشّمس.

إله الذّهب:

أحتاجُ عمرين على عمري، وعمراً على عمر أمّي أمّ بطبوطة لأجل أن نزور المعابد المشيّدة في الهند، أمّا إحصاء آلهاتهم في الأديان الهندوسيّة والبوذيّة وغيرها من الأديان الوثنيّة والوضعيّة الكثيرة، فهو أمر يكاد يكون مستحيلاً؛ إذ يزعم بعض الدّارسين أمثال المؤرّخة الهنديّة الشّهيرة «روميلا ثابر» أنّ هناك أكثر من 300 مليون إله وإلهة في الهند؛ فالهنود الهندوس يعبدون كلّ شيء أكان مفيداً أم ضارّاً، مهمّاً أو تافهاً؛ فهناك إله لكلّ شيء عندهم، حتى اعتقدتُ أنّ الزّفرة والنّظرة والغفوة والصّبوة لها إله عندهم كذلك، ولا أعرف لماذا كلّما سمعتُ باسم إله جديد من آلهتهم تذكّرت الآية القرآنيّة الكريمة

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39]، ثم تذكّرتُ أمّي الحبيبة أمّ بطبوطةَ (نعيمة المشايخ) وهي تزفر بعمق كلّما أرّقها المشهد في الهند، أو صدمتها تفاصيل وثنيّة ما، ثم تحوقل، وبعدها ترفع عينيها الطّاهرتين إلى السّماء بامتنان عريض، وتتمتم: الحمد لله على نعمة الإسلام.

لذلك أصابني الصّداع والدّوار، وأنا أحمل قلمي، وأحاول أن أحصي أسماء الآلهة التي أسمع أسماءها في كلّ مكان، وأرى تماثيلها في الدّروب والمتاجر والبيوت والمعابد والحدائق والواجهات والمتاحف والمباني، حتى أراها معلّقة على شكل معلّقات صغيرة تتدلّى من عربات «ركشا»، أو تتراقص على مقود درّاجة هوائيّة، أو تموج في عقد ذهبيّ يطوّق رقبة تابع هنديّ أو تابعة هنديّة يقبل التقشّف القهريّ في ملبسه وحياته ومأكله ومظهره، إلاّ في تمثال إلهه المصنوع من الذّهب الخالص الذي يعلّقه في رقبته الذي يصمّم أن يكون من الذّهب الخالص؛ ليختال به، ويعبده بضراعة، ويسأله كلّ خير، ويظلّ يرتع في فقره المقيم، وإلهه المزعوم لا يصيخ لاستنجادة واحدة من استنجاداته.

للهنود ولع خاصّ وعجيب بالذّهب، والتّجمّل به، وأغرب ما رأيتُ في هذا الشّأن أن ترى الرّجال من غير المسلمين يلبسون الكثير من أقراط الذّهب في آذانهم، ويتحلّون بأسوار الذّهب وقلائده، ويجارون النّساء في هذا الأمر، أو يفوقهنّ فيه؛ وليس هذا الشّيء الملفت في الأمر فقط، بل هناك ما هو أعجب من ذلك؛ إذ يحرص الهنود على التّحلّي بالذّهب مهما تدنّت أحوالهم الاقتصاديّة، بل إنّني رأيتُ فقراء ومتشرّدين يسكنون الشّوارع، وينامون على الأرصفة، ويتحلّون بالذّهب، ورأيت متسوّلين يلبسون الذّهب، وعجبتُ من ذلك، وما عرفتُ له

تفسيراً، سوى ما يرويه البعض عن أنّ لبس الذّهب عند الهنود هو نوع من الادخار للمال في شكل جامد يمنع صرفه إلاّ عند الحاجة القصوى إليه، في حين روى البعض لي أنّ للّذهب عند الهنود علاقة ببعض طقوس التّعبّد في دياناتهم، وتتعمّق جذوره ضاربة في أعماق العقيدة الهندوسيّة، ويزيد الطّلب على الذّهب في «عيد الأنوار» الهنديّ السّنويّ المسمّى باسم «دوالي»؛ ويقدّم الذّهب مهراً في مراسم الزّواج.

أمّا رجال الهند من المسلمين فلم أرَ منهم مَنْ يتحلّى بالذّهب لا سيما الأقراط والخواتم والقلائد، بل رأيتهم يحرصون على تجّنب ذلك؛ لما في لبس الرّجال للذّهب من تحريم في الإسلام، وما رأيتهم أصلاً يبالون بشكل الزّينة الهنديّة الوثنيّة في الهند، بل رأيتُ اهتمامهم منصبّاً على أن يكون هندامهم إسلاميّ رزين، بما في ذلك من شروط النّظافة والأناقة والتّواضع دون إسراف أو بذخ أو تشبّه بالنّساء، وقد لفتتْ نظري نظافتهم الشّديدة، وأناقتهم دون بذخ، كما كانتْ روائحهم دائماً جميلة تنمّ عن نظافة دائمة على الرّغم من حرارة الجوّ وما يفرضه ذلك على الأجساد من تعرّق.

كذلك النّساء المسلمات اللّواتي رأيتهنّ في كشمير والهند، جميعهنّ كنّ نظيفات محتشمات متهندمات دون بذخ أو إسراف أو تعرّ، وما رأيتهنّ مولعات بلبس الذّهب، بل رأيتهنّ زاهدات في أنواع الزّينة جميعها التي تظهرهنّ بمنظر التّجمّل الذي لا يليق بسترة المرأة وحشتمتها في الإسلام.

أمّا الهنود الهندوس فحتى أبقارهم المدلّلة التي تهيم في الشّوارع والزّقاق على وجهها، ويقدّسها الجميع على أنّها ألهة للهندوس هي تلبس الذّهب كذلك، وتتبختر به، فتراه معلّقاً أقراطاً في الآذان أو

الأنوف، وأحياناً أطواقاً معلّقاً في الرّقاب الغليظة الغافلة عن كلّ شيء، إلاّ عن الأكل والتّجوّل والجثو في أيّ مكان للرّاحة، ولو كان ذلك فوق برازها، بل إنّها تجهل قيمة الذّهب الذي علقّة عابدوها على جسدها، وتجهل أنّها آلهة حمقاء جاحدة؛ تقبل أن تتحلّى بالذّهب وأعداد مليونيّة من عبّادها جوعى عرايا حفاة مشرّدين! فعلاً للنّاس فيما يعبدون مذاهب.

منظر الأبقار المصّيغة بالذهب الخالص في الهند كان يلفت نظر أمّي الحبيبة، ويستفزّ فضولها، فتشرع تصوّر هذا المشهد الغريب بكاميرا جهاز موبايلها، وهي لا تكاد تصدّق ما ترى عيناها الطّاهرتان.

الأعجب من ذلك كلّه أنّ هناك معابد الهندوس مصنوعة من الذّهب، وتغصّ بالذّهب الذي يُقدّم على شكل هبات ونذور، فتغرق الآلهة التّماثيل وسدنة المعابد في الثّراء الفاحش، في حين يتضوّر الهنود المعدمين جوعاً على امتداد الهند، بل إنّ المتضوّرين جوعاً ذاتهم، إنْ حصلوا على قطعة ذهب طاروا إلى المعبد للتبّرع بها، وظلّوا على جوعهم وفقرهم، وهذا أمر له العجب؛ فقد وصل الاستلاب فيهم إلى هذا الحدّ المفجع والمضحك في آن؛ فشرّ البليّة ما يُضحك فعلاً.

هذا أمر عجيب فعلاً، فما قيمة أن تكون المعابد من ذهب، والعباد جوعى حفاة مشرّدين! أليستْ لقمة في فم جائع خير من هذه المعابد جميعها أيّاً كانت ديانة الذين بنوها؟

لعلّ أجمل ما سمعتُ في هذا الشّأن قول الإمام عبد القادر الجيلانيّ -إن صحّتْ نسبة هذه الأقوال لها- في خطبته الأقصر: «لقمة في بطن جائع خير من بناء ألف جامع، وخير ممّن كسا الكعبة،

وألبسها البراقع، وخير ممّن قام لله راكع، وخير ممّن جاهد للكفر بسيف مهند قاطع، وخير ممّن صام الدّهر والحرّ واقع، وإذا نزل الدّقيق في بطن جائع له نور كنور الشّمس ساطع، فيا بشرى لمن أطعم جائع».

من ناحية أخرى في معرض حديثنا عن الذّهب وقصّته مع الهنود، فالهند أكبر مستهلك للذّهب في العالم، ومعظم هذا الذّهب يذهب هباتٍ للمعابد، في حين يظلّ الهنود فقراء معدمين، هذا الذّهب المكدّس في المعابد وفي سراديبها السّريّة يكفي -لو وزّع على الهنود- بأن يتزوّد كلّ مواطن هنديّ بالوقود مجاناً لمدّة 500 عام مقبل، أو أن يستقلّ القطار مجاناً لمدة 100 عام، أو أن يأكل مجاناً لمدّة عامين، كما بمقدور الهند أن تبني خمس مدن مماثلة لمدينة دبي، لو أنّها استخدمتْ مخزونها من الذّهب لذلك.

إذن الهند ليستْ بلداً فقيراً لضعف إمكاناته، ولا لكثرة عدد سكانه، ولا لتخلّفه العلميّ؛ إنّه باختصار بلد تهيمن عليه المعابد والخرافات والكهنة والسّدنة الذين يثرون على حساب الفقراء الدّهماء الجهلة.

تذكّرت يوم سألتُ د. مجيب الرّحمن: لماذا الهند فقيرة؟ فشرح لي طويلاً معادلات الإمكانات وأعداد السّكان وقدرة الدّولة والنّفقات، وهي تبدو معادلات مسوّغة لهذا الفقر المدقع المستشري في الهند على الرّغم من وجود عدد لا يُستهان به من أصحاب الثّروات العريضة.

لكن مَنْ يزر الهند، ويتجوّل فيها بعين فاحصة غير مسلّمة للفرضيّات الجاهزة لتفسير الكثير من الظّواهر، يستطيع أن يخلص إلى حقائق مدهشة ومفزعة حول كلّ شيء؛ وبذلك أدركتُ أنّ الهند ليست دولة فقيرة، بل هي دولة في أمسّ الحاجة إلى ثورة بيضاء

كاسحة لمحو خرافاتها وجهلها العقديّ كي تستيقظ من سباتها الأزليّ الذي يغمر أمّة كاملة، ولا يستثني من ذلك إلاّ قلة قليلة من العلماء والمثقّفين والنّخب المستنيرة المتعلّمة التي تجرّ الهند بأكملها بصعوبة في ركب الحضارة والتّقدّم والازدهار، ما استطاعتْ إلى ذلك سبيلاً.

أستطيع القول الآن إنّ الإلهة العظمى في الهند، هي إلهة الذّهب والثّروة والحظّ، وهم يسمونها «لاكشمي»، حتى وإن زعم الهنود أنّ هناك آلهات أعظم منها عندهم في الأنساب المثيولوجيّة المعقّدة.

للحقّ هذه الإلهة هي شهيرة في كلّ مكان في الدّنيا، وتُعبد سرّاً وعلانيّة، ومَنْ لا يستطيع أن يعبد الإلهة الذّهبيّة البرّاقة؟ هم قلّة فقط من البشر المتعالين على الماديّات جميعها مهما كانتْ، أمّا باقي البشر فأذلاّء أمام الذّهب والمال والجوهر والمكاسب!

يزعم المجلس العالميّ للذّهب أنّ الهنود يملكون 220 ألف طنّ من الذّهب ملكيّة خاصّة، في حين أنّ المعابد الهنديّة تستولي على نحو 120 ألف طنّ من الذّهب بقيمة تريليون دولار، وهذه الأطنان جميعها قدّمها الأفراد للمعابد.

تملك معابد «تريباتي»، و«وشيرادي ساي بابا»، و«سيدي فيناين»، و«كاشي فيشوينث»، ودائع من الذّهب بقيمة تريليون دولار من الذّهب ملكيّة خاصّة لها.

معبد «تيدمانيسواني» المشيّد في القرن السّادس عشر ميلاديّ هو أغنى معبد في الهند والعالم؛ إذ يحوي 3000 طنّ من الذّهب، وقد تمّ اكتشاف كنوزاً في الأقبية السّريّة للمعبد بقيمة 3و22 مليار دولار، إلى جانب قيمة القطع الأثريّة التي لا تقدّر بثمن، وهي مرصّعة كذلك بالماس والجوهر، ويحوي الكنز كذلك قطعاً ذهبيّة مرصّعة بالماس،

وتيجاناً ذهبيّة، وأيقونات من الّهب الخالص، و17 كيلو غرام من العملات الذّهبيّة، وطنّ من الحلي الصّغيرة، وأوعيّة ذهبيّة.

هناك سراديب أخرى في المعبد لم تُفتح بعد، ويُعتقد أنّها تضمّ كنوزاً أكبر، لكن ما تزال هذه الكنوز طيّ التكتّم عليها بسبب الخرافات التي تدور حول وجود ثعابين سامّة تحرسها، وهذه الكنوز تعود إلى الأسر الحاكمة البائدة.

كما أنّ هناك سراديب في معابد جنوب الهند تحتوي على نحو 35 طناً من الذّهب، في حين تتزاحم خلفها الآلاف من أطواق الزّهور التي تدلّ على أنّ أصحابها على أتمّ الاستعداد لتقديم تبرّعات سخيّة للمعابد التي يتراوح ما يتلقّاه الواحد منها بين 80-100 كيلو غرام من الذّهب شهريّاً.

أمّا معبد «سيديفينايك» الشّهير في مدينة «مومباي»، فيحتوي على خمسة أطنان من الذّهب، ويحرسه نحو 65 رجلاً من رجال الأمن المسلّحين، ويتلقّى المتحف تبرّعات سنويّة تقدّر بقيمة 4و3 مليون دولار سويّاً.

هذا المعبد قطعة من الذّهب الخالص؛ فسقف ضريحه الدّاخليّ مطلي بالذّهب الخالص، وفيه إله على شكل فيل مرصّع بجواهر ثمينة، كما فيه 500 كيلو غرام من الذّهب، وأكثر من 2000 كيلو غرام من الفضّة.

الحديث عن الذّهب والمعابد الهندوسيّة في الهند لا ينتهي؛ فهناك معابد غارقة في الذّهب والهدايا والهبات من الهندوس الزّائرين، مثل معبد «شيريدي ساي بابا»، ومعبد «كاشي فيشانت».

من المعتاد أن نسمع في الهند قصصاً مثل قصّة ذلك التّاجر الثّريّ

الذي تبرّع لمعبد «تريمولا تريوباتي» بهبّة سخيّة؛ إذ قدّم مصباح زيت وملاعق ذهبيّة وحوض استحمام جميعها من الذّهب الخالص الذي يزن نحو 33 رطلاً بما يعادل وزن حفيده المولود حديثاً الذي تبرّع بمثل وزنه ذهباً للمعبد.

تعيد المعابد تدوير الهبات الذّهبيّة؛ لأجل استدرار عطايا الهندوس بأن ترسل مقتنياتها الذّهبيّة إلى دار سكّ العملة في مدينة «مومباي»، وتُصنع من القطع الذّهبيّة عملات ذهبيّة فئة 22 قيراطاً، ثم تقوم ببيعها للمتبرّعين بأثمان مضاعفة لقيمتها الحقيقيّة، وتحقّق بذلك أرباحاً ماليّة كبيرة، بحجّة أنّها عملات ذهبيّة تحمل البركة والخير.

إله الكذب:

أنا بطبوطة ابنة أمّ بطبوطة اعتقدتُ في لحظة تهوّر وتوهّم أنّني أضفتُ إلهة جديدة إلى قائمة آلهات الهند، وأطلقتُ عليها اسم «إلهة الكذب»، وهي مَنْ لها أنصار وأعوان ومريدون في كلّ زمان ومكان، لكنّني عجبتُ أيّما عجب عندما اكتشفتُ أنّ الهنود قد سبقوني إلى ذلك، وأطلقوا اسم «فيديا فاشيني» على إلهة الكذب التي نالتْ حظّها من العبادة والتّقديس عندهم، وهم مَنْ يعبدونها علانيّة بكلّ صفاقة ومجاهرة، في حين سائر البشر يعبدونها سرّاً، ويسيّرون أمورهم بسلطانها الطّاغي المسيطر.

كنتُ قد حاولتُ اختراع هذه الإلهة اعتباطاً وزوراً وتحدّياً لآلهتهم التي لم أستطعْ أن أحصيها عدداً، وتعليقاً على قصّة طريفة سمعتها من صديق عربيّ ثقة مقيم في الهند منذ أكثر من ثلاثين عاماً؛ إذ حدّثني عن طالب عربيّ مهمل كسول جاء إلى الهند قبل سنوات في بعثة

دراسيّة من جهة حزبيّة عربيّة ليدرس الطبّ في إحدى جامعاتها بعد أن حصل على المنحة بمنطق المحاصصة بين لصوص الأحزاب العربيّة، دون أن يستحقّ ذلك، ودون أن يملك نجاحاً وتفوّقاً في الدّراسة يؤهله لهذه المنحة الرّفيعة في تخصّص عريق.

في زيارة اعتباطيّة له لمنطقة نائيّة طرقها في الهند اتّفاقاً تمّ تأليهه فيها، وترك الدّراسة في الجامعة، وتفرّغ لتلقّي هبات تأليهه، وللعيش متوّجاً ثريّاً مدللاً فوق أعناق الفقراء الجهلة من أهل تلك المنطقة، وفي مدّة قصيرة من إقامته في الهند غدا له أبتاع يتجاوز عددهم ثلاثمئة ألف شخص جاهل، وهو رقم يفوق بكثير عدد المنتمين للحزب الفاسد الذي أرسله في منحة لدراسة الطّب، وهو خامل كسول، بالكاد استطاع أن يتخطّى دراسته الثّانويّة.

عندها ضحكتُ كثيراً حتى كادتْ أن تتمزّق أوداجي، وصنعتُ للهنود إلهة جديدة أسميتها «إلهة الكذب»، وفكّرت بجديّة في الاسم الذي يمكن أن يناسبني إنْ قرّرتُ أن أصبح معبودة لمزيد من الجهلة والحمقى والمغفلّين في هذا الكوكب المجنون، ولم أجد أفضل من اسم «الإلهة بطبوطة» اسماً مفترضاً لي، ثم باء سعي كلّه بالفشل؛ عندما اكتشفتُ أنّ الهنود قد اخترعوا إلهة الكذب المحبّبة المدلّلة قبل أن أزورهم!

عندما كنتُ أنصرف إلى الكتابة وتسجيل ملاحظاتي عن ترحالي هنا وهناك، كان د. محمد ثناء اللّه النّدويّ يمازحني قائلاً: «بأنّ إله الحرف والكلمة «شبد برهما»، وإلهة العلم والموسيقة والفنّ والحكمة والتعّليم «سرسوتي» قد باتا ينفثان سحرهما في يراعي كي أكتب كلماتي ونصوصي الأدبيّة»، فأصمتُ طويلاً متمثّلة احتراماً ما لإلهين

مزعومين لم يقدّما لي أيّ شيء سوى الهباء، ثم أكمل الكتابة، وليس في ذهني سوى عفريتة شقيّة اسمها بطبوطة تسكن في أعماقي، وتقودني في درب رحلة حياتيّة لا تنتهي، ولا تعرف شبعاً من المزيد من معارف الحياة وأسرارها.

لا يقطع انهماكي في الكتابة سوى جملة واحدة مبهمة يقولها د. محمد ثناء الله النّدويّ بمعنى عميق: «إلاّ أنّني لا أكفّركِ». ومن جديد يصمت، وأصمتُ، وأؤجّل الكتابة إلى وقت آخر بعيداً عن الإيمان والكفر، وعن ذلك الجدل الصّاخب في نفسي حول ثنائيّات الكفر والإيمان بمعانيها الغريبة الطّريفة الملغزة التي تتراءى أنّى التفتُ في الهند.

عندما أرغب في استفزازه ردّاً على استفزازه لي، أسأله إن كان يجيد الرّقص والغناء مثل أبطال السّينما البوليوديّة الذين يصلح بملامحه الهنديّة الأصيلة أن يكون واحداً منهم، فيحدّق بي دون مبالة، ثم يحرّك رأسه بحركة تدلّ على النّفي، ويغرق من جديد في صمته الملغز والمثير في آن.

هناك الكثير من الآلهة المزعومة في الهند، بعضها منها مشهور في الهند كلّها، في حين هناك الكثير من الآلهات المحلّيّة والإقليميّة والطّائفيّة التي لا يمكن أن يحصيها محصٍ.

هذه الآلهات على جنسين؛ ذكور وإناث. أشهر آلهة الذّكور هم: «ندرا» إله الحرب والطّقس وملك الدّيفات أو الآلهة، وربّ السّماء في الهندوسيّة، و«براهما» موحّد الكون وروحه وجوهره، ويُعرف بالخالق، و«شيفا» وهو الإله المسيطر، و«غانيش» الإله الفيل، و«سوريا» الإله الشّمسيّ، و«ناندي» حارس إلوهيّة «كايلاسا»، و«فيشنو» الإله الأعلى أو الحقيقة العليا».

من الآلهات الإناث كلّ من: «داكشايني» إلهة السّعادة وطول العمر في الهندوسيّة، و«دورجا» وهي الأمّ الآلهة العليا في الهندوسيّة، و«ديفي» وهي التّجسّد الأنثويّ للربّ الأعلى، و«ساراسواتي» وهي آلهة الكلام والعلم والتّعليم، وهي في اعتقادات الهندوس مَنْ خلقت اللّغة السّنسكريتيّة، كما خلقتْ آلهة موسيقيّة تشبه آلة العود، و«شاكتي» وهي تمثّل القوّة الإلهيّة المؤنّثة الفعّالة، و«لاكشمي» وهي إلهة المال والحظّ والثّروة والذّهب، و«بارفاتي» زوجة «شيفا»، وغيرهنّ.

كلّما كانتْ أمّي تتعرّف على إله جديد عبر تمثاله الموجود هنا وهناك، كانتْ ترفع عينيها الطّاهرتين إلى السّماء بامتنان كبير لله جرياً على عادتها الأثيرة، وتقول بطهر وإيمان عميق مخلص: الحمد لله على نعمة الإسلام، على الرّغم من أنّها في نظري إلهة حقيقيّة للحبّ والعطاء والبذل والتّضحية؛ لذلك هي أمّي الحبيبة أمّ بطبوطة (نعيمة المشايخ) التي أعتزّ بها دون توقّف، وأرى رضاها هو السّر الأكبر لنجاحي وسعادتي في الحياة.

أمّا أنا فلم يسترعِ انتباهي من هذه الآلهة وعشيقاتهم ومحظياتهم وقصصهم وخرافاتهم وترّهاتهم سوى الإله «كريشنا» ومعشوقته الفضلى «راداها» التي اقترن اسمه بها، وكوّنا معاً مثالاً خالداً للعشق المخلص، على الرّغم من أنّ «كريشنا» كان له أكثر من 16 ألف زوجة.

هو يُمثّل عند الهندوس على شكل ولد صغير يرعى البقر، ويعزف النّاي، وفي أوقات أخرى يمثّل على شكل أمير حكيم يقدّم الحكمة والتّوجيهات الفلسفيّة لأتباعه، وقد مات -وفق خرافات الهندوسيّة- بإصابه سهم في قدمه من صيّاد طائش أصابه بالخطأ. يالها من ميتة عجيبة لا تليق بإله معبود؛ فإله يموت فهذا عجيب، والأعجب منه أن

يموت بسهم طائس من بشريّ هالك، فعلاً عجب في عجاب، وليس لنا إلاّ أن نسمع، وأن نتعجب.

لطالما سمعتُ تلك التّراتيل المقدسّة التي يُتغنّى بهذين الثّنائيّ العاشق في المعابد والأسواق ووسائل النّقل، وكنتُ أطرب لها، وأنا لا أعرف معنى ما تقول، وعندما كان يترجم لي بعض الأصدقاء شيئاً من تلك التّراتيل، كنتُ أضرب صفحاً عمّا أسمع فيها ممّا يخالف قناعاتي العقديّة الإسلاميّة، وأكتفي بأن أعيش تلك الحالة من الاندغام الشّعوريّ مع الذين يغنّون بكامل دفقاتهم الشّعوريّ والانفعاليّة، وهي دفقات عملاقة جارفة لوجدان مَنْ يسمعها بذلك الصّوت الهنديّ السّاحر الذي يغنيّها برقّة تخترق الشّعور، وتنام في الأحاسيس.

تذكّرتُ قصيدة للشّاعرة الأميرة الأسطوريّة «ميرا بائي» التي تعبّر فيها عن ذوبانها في حبّ «كريشنا»، كأنّها زوجة له، وهي مَنْ جادتْ قريحتها العاشقة بمئات التّراتيل في هذا الحبّ الأسطوريّ:

وحده هو يعلّم مرارة الحبّ
الذي أحسّ إحساساً عميقاً بشجونه
عندما تكون في ورطة
لا أحد يقرب منكَ
عندما يبتسم الحظّ لكَ
الكلُّ يسارع لمقاسمتكَ الفرح
الحبّ لا يظهر أيّ جرح خارجيّ
ولكن الألم يتغلغل في أحشائكَ
وفي مسام جسمكَ جميعها

تقدّم المحبّة «ميرا» جسدها
كأضحية إلى «غيريدهار» إلى الأبد.

الوليّ المبارك:

لا أؤمن بخرافات الأولياء و كرامات المبروكين التي يؤمن بها الدّهماء بتسليم مطلق، لكن عندما أسير في درب ضريح «نظام الدّين أولياء» لا أستطيع إلاّ أن أتنكّر لإنكاري بغية في أن أعيش التّجربة كاملة، فأقف تحت تلك الشّجرة القديمة ذات الأربطة الملوّنة المعقودة على غصونها للنّذور، وأتأمّل الزّائرين الذي يأتون إلى المكان حفاة كسيري القلوب معلّقي الأرواح بقبر يأملون ممّن يرقد فيه عاجزاً متهالكاً نخراً أن يحقّق لهم آمالهم، وأن يتشفّع لهم عند الله عزّ وجلّ!

أشيحُ برأسي بعيداً كي لا يرى قاصدي المكان نظرات الشّكّ في عيني، وأظلّ أتأمّل أحوال القادمين والذّاهبين، وما يزال الأمر المرجو معلّق في الوجوه المصلوبة على زمن الانتظار الموجع.

يصرّف أسعد جمال أوراق الدّولار التي أحملها بروبيّات كثيرة من صرّاف مسلم، له متجر بضائع وصرافة في زقاق منطقة «نظام الدّين»، ثم نغادر المكان على مهل وحذر وسط الزّحام في حركة معاكسة مع الذين يقصدون الضّريح محمّلين برجاءاتهم المحرورة، وأظلّ أحاول بجديّة أن أخفي ما يفيض من نفسي من إنكار لسؤال العبد، ونسيان الرّب!

«نظام الدّين أولياء» هو أديب متصوّف هنديّ شهير، وأصول أجداده من مدينة «بخارى»، لكنّهم هاجروا إلى الهند، وسكنوا في مدينة «بدايون» حيث وُلد «نظام الدّين»، ثم توفّي في «دهلي».

في الهند عدد لا يحصيه إلاّ الرّب من قبور الأولياء ومزارات الصّالحين ومراقد القدّيسين والعبّاد وأهل الصّبوة والتّنسّك والانقطاع للعباد والزّهد والمعبودين والمقرّبين والمجهولين، وجميعهم لهم مريدون وأتباع وطلبة ومعلّمون وقاصدون لهم وخدّام لمراقدهم وقائمون عليها، كما لهم شعائر واحتفالات ومهرجانات وطقوس كثرتْ أم قلّتْ.

للمرء أن يتخيّل عدد البشر الدّهماء الذين يصّدقون بهذه الخرافات، ويسيرون في هذه الدّروب، ويؤمنون بأنّ هناك بشر لهم وساطات عند الله، ولهم مآثرهم وقواهم في الأرض!

هناك الكثير من قبور الصّالحين والأولياء والعلماء في مدينة «نيودلهي»، وقد أُقيمت المزارات المتفاوتة في القيمة والأهميّة وعدد المريدين والزّائرين والأتباع على هذه بعض هذه القبور، مثل مزار «قطب الدّين بختيار»، ومزار «الشّيخ أبو بكر الطوسيّ الحيدريّ»، ومقام «نصير الدّين محمود شيراغ دهلويّ»، ومقام «السّيدة بي بي فاطمة»، ومزار»السّيّد خواجه الشّيخ عماد الدّين الفردوسيّ»، ومزار «الشّيخ الشّاه ولي الله الدّهلويّ»، ومزار «الشّاه رفيع الدّين الدّهلويّ»، ومزار» الشّاه عبد القادر الدّهلويّ»، ومزار»الشّاه عبد العزيز الدّهلويّ».

كثير من هذه المزارات هي لأولياء صوفيين، وهم طائفة تحظى بالحبّ والتّقدير والإعجاب لدى شريحة كبيرة من الهنود؛ لما يتمتّعون به من زهد وتسامح وهجر لملذّات الحياة، وانصراف إلى العبادة، والتّقرّب من الله تعالى.

هؤلاء الصّوفيّة قد ساهموا في انتشار الإسلام في الأوساط الهنديّة لما لاقوا من قبول وتقدير بسبب بساطتهم، وعدم تهالكهم على

المكاسب الماديّة في الحياة، وتأسيسهم لأفكارهم على المحبّة بين البشر والعفّة وإنكار الذّات والتّواضع.

من هؤلاء الصّوفيّة أتباع الطّريقة «القادريّة»، و«النّقسبنديّة»، و«الجشتيّة» الذين انطلقوا من الإيمان بوحدانيّة الله، وأدّوا فروض الإسلام، مثل الصّلاة والصّوم والحجّ والزّكاة، وكرّسوا حيواتهم لعبادة الله وذكره.

لكن في المقابل هناك جماعات صوفيّة ضالّة تماماً، تؤمن بالوجد وسماع الموسيقى والرّقص والتّبرّك بالقبور والمزارات والأولياء، متأثّرين بالكثير من الأفكار المشركة التي جملّتها الصّوفيّة التّركيّة، والصّوفيّة القادمة من آسيا الوسطى التي جلبتْ معها الكثير من البدع الخارجة عن ملّة الإسلام، ومحمد سعيد سرمد من أشهر أعلام هذه الطّرق الصّوفيّة الضّالة، وهو يهوديّ زعم أنّه قد أسلم، وكان يجمع حوله الأتباع على الضّلال، وسرعان ما قُتل على يد الامبراطور المغوليّ المسلم «أورنك زيب»، وهو مَنْ كان يعيش عارياً في دير، ويفشي الشّرك والضّلال بين أتباعه.

الصّوفيّة في الوقت الحاضر في الهند هي ذات ملفّ كبير وشائك، ويطول الحديث فيه وعنه، كما يكثر الجدل حوله لا سيما بين المسلمين الذين يرون في الكثير من سلوكيّات الصّوفيّة المعاصرة ضروباً من المغالاة والشّرك الصّريح.

لقد صادفتْ زيارتي لمدينة «نيودلهي» جدلاً كبيراً في الأوساط الهنديّة حول انعقاد مؤتمر دوليّ للصّوفيّة، وقد نظّمته مؤسّسة حديثة الولادة اسمها «مجلس العلماء والمشايخ بعموم الهند»، تحت شعار «السّلام والحبّ غير المشروط»، بدعم من حزب «بهاراتيا جاناتا» الحزب

اليمينيّ الهندوسيّ الحاكم في الهند، وهو حزب هندوسيّ قد بدأ في تعزيز بعض الصّوفيين ضدّ أتباع المذاهب الأخرى، إلاّ أن المؤتمر تحوّل إلى أداة لتشويه المسلمين بجريمة الإرهاب، وأثار حفيظة المسلمين الذي رأوا فيه قصديّة لتشويه الإسلام والمسلمين، وتأليب أحدهم على الآخر، إلاّ أنّهم أعلنوا أنّ الأهداف الشّريرة المسمومة للمؤتمر معلومة عند الجميع، وأنّ الجهات المنّظّمة للمؤتمر لن تنجح في بثّ روح الفرقة بين المسلمين، أو حتى بين الهنود جميعهم من شتّى الملل والنّحل والأصول.

يبدو أنّ إقامة هذا المؤتمر المشبوه تنطلق من سياسة السّيادة من خلال التّفريق التي بدأتها بريطانيا في الهند في تعاملها مع الهنود جميعاً بغض النّظر عن دياناتهم أو طوائفهم، ثم انحازتْ إلى الصّوفيين المسلمين، تهتمّ بهم، وتشجّعهم، وترعاهم؛ لما رأتْ عند معظمهم من عدم اهتمام بالسيّاسة، وبعدٍ عن تعاليم الإسلام، واستعداد لمهاجمة غيرهم من المسلمين وغير المسلمين الذين يرفضون الاحتلال البريطانيّ للهند، ويقاومونه بشراسة؛ فالسّياسة البريطانيّة الشّريرة لا تعاون إلاّ مَنْ تريد أن تستخدمه أداةً لتحقيق مصالحها، وإنْ انتهتْ مصلحتها عنده، فسرعان ما تدوسه دون ان تبالي به.

الطّريقة البطبوطيّة:

هناك ولع كبير في الهند عند الخاصّة والعامّة بالصّوفيّة، وهو ولع لا يعرفه علماء المسلمين ودهمائهم حسب، بل هو شائع ومتفشٍّ عند غيرهم من الملل والنّحل والطّوائف المنتشرة في الهند، حتى تغدو هذه الصّوفيّة مزيجاً متضخّماً من المآثر والقصص والخرافات والأكاذيب

والضّلالات والخرافات والتّرّهات والأساطير والتّهويمات والشّطحات والدّسائس التي يتقاسمها الجميع، ويتشاركون بها، ويؤمنون بها إيماناً منقطع النّظير، لا سيما أنّ الهنديّ بطبيعته مؤمن إيماناً مطلقاً بأيّ شيء كان، وهو منساق خلف أيّ فكرة توارثها، أو وجد سلفه عليها، ولو كانت الجهل عينه؛ لذلك من السّهل عليه أن يقبل بخليط من الأفكار المتداخلة بين أديان شتّى، ويؤمن بها، كأنّها من صميم دينه؛ فلا عجب عندها أن نجد المتصوّف المسلم، أو مَنْ يظنّ نفسه متصوّفاً مسلماً يتعبّد في معبد هندوسيّ أو مزار بوذيّ، ويتشفّع بكاهن هندوسيّ زاهد ليقرّبه من الله، وغير مستبعد أنٍ تجد هندوسيّ متصوّف يقصد مزاراً لناسك هندوسيّ مدفون في فناء مسجد للمسلمين.

من الطّبيعيّ والمتوقّع أن يسألك الهنديّ المتصوّف إلى أيّ طريقة صوفيّة تنتمي، هذا هو السّؤال الذي طُرح عليّ كثيراً في الهند، وقد كنتُ في البداية أنفي أنّني أنتمي إلى أيّ طريقة صوفيّة، وإن كنتُ صوفيّة بطريقتي الخاصّة التي تنبع من الإيمان الذّاتيّ العميق بالله جلّ وعلا، وتفيض على النّفس بالزّهد والتّزوّد من حطام الدّنيا بالطّاعات والأعمال الصّالحة، والبعد عن التّهافت على المتع والمحارم والظّلم وإيذاء الخلق أكانوا بشراً أم غير ذلك.

لكن عندما هالتني تلك الفوضى التي ينغمس الهنود المتصوّفة فيها، هان عليّ أمر التّصوّف والمتصوّفين، وشرعتُ أزعم أنّني أنتمي إلى الطّريقة البطبوطيّة في التّصوّف، وعندما يسألني السّائلون ما هي هذه الطّريقة؟ كنتُ أجيبهم أنّها طريقة متوارثة في أسرتي، وهي تحمل اسم رجل صالح من أسرتي اسمه الشّيخ بطبوط، وأنّ أسرتي اختارتْ لي اسم بطبوطة تيمّناً بهذا الشّيخ الصّالح الذي أسير على طريقته

البطبوطيّة، وقد اقتنع الكثيرون بما أقول، وكنّوا الاحترام العميق لهذه الطّريقة الصّوفيّة التي ظنّوا بوجودها في عائلتي، والله شهيد على أنّني من الكاذبين، بقدر ما هم الكثير من دعاة الصّوفيّة وغلاتها من الأفّاقين الخارجين عن الدّين الإسلاميّ.

فيما بعد غدوتُ أطلق اسم «الطّريقة البطبوطيّة» على كلّ كذب وإفك وافتراء أراه، أو أشجبه، أو أسخر منه، وأضفتُ السّنائيّة إلى تلك القائمة العملاقة من الطّرق الصّوفيّة التي يتناوب المتناوبون على الإيمان بها، ويلحقون بمريديها وخدّامها، وأخذتُ أخوض من الخائضين في تفاصيل تلك الطّرق، مثل طريقة القادريّة، والسّعديّة، والرّفاعيّة، والبدويّة، والأكبريّة، والشّاذليّة، والدّسوقيّة، والقزلباشية، والعروسيّة، والخلوتيّة، والسّمانيّة، والسنوسيّة، والكزكزانيّة، والجعفريّة، والبرهانيّة، وغيرها.

كما راق لك أن أناقش الكثيرين في مصنّفات أعلام المتصوّفة وأفكارهم ومقولاتهم وحيواتهم وأقوالهم وأشعارهم وشطحاتهم وأفعالهم ومواقفهم ورؤاهم ومصائرهم، أمثال الحلاّج، وابن عربيّ، وأبي حامد الغزاليّ، وأحمد التّيجانيّ، وابن الفارض، وابن سبعين، والمكاشفيّ، والكباشيّ، والحبيب علي الجفريّ، وناظم الحقانيّ، وغيرهم الكثيرين.

كلّما كان يُغلق عليّ أمر في هذا النّقاش، وكثيراً ما كان يُغلق عليّ لقلّة استغراقي في هذه الطّرق، واستهتاري بالكثير من مقولاتها، كنتُ أُسند حديثي إلى الطّريقة البطبوطيّة، وأزعم أنّ ما قلته في الأمر هو ممّا فُتح به على الشّيخ بطبوط صاحب الطّريقة، وممّا قال به، وسار عليه مريدوه.

عندما كان ينفضّ عنّي مَنْ يناقشونني في طريقة البطبوطيّة التي

لا وجود لها إلاّ في أكاذيبي وفي عقول أرباب الخرافة ومحبّيها، كنتُ أردّد على نفسي ساخرة قول الإمام الشّافعيّ الذي أُثر عنه أنّه قال: «لو أنّ رجلاً تصوّف من أوّل النّهار، لم يأت عليه الظّهر إلاّ وجدته أحمقَ»، وكانتْ أمّي تردّد عليّ قول الله عزّ وجلّ في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: آية 159]

غابة من الألسن، أدغال من اللّغات واللّهجات:

العالم صغير جدّاً بفضل ثورة التّكنولوجيا والمواصلات، لكن الهند كبيرة جدّاً بفضل ما فيها من تناقضات وتنوّع واختلاف تراث، حتى أكاد أزعم أنّ الهنديّ ذاته لا يتوفّر له أن يرى وطنه الكبير هذا إلاّ بشقّ الأنفس، وعظم الهمّة، وجليل الحظوظ والسّعي؛ فقد يحتاج الهنديّ عمراً أو أعماراً فوق عمره ليزور موطنه الهنديّ كاملاً، أمّا الزّائر مثلي الذي يطير خلف التّرحال والرّحل، فهو لا يمكن أن يرى الهند كاملة مهما اجتهد في ذلك، ولو قطع عمره كاملاً في ذلك؛ فمن هو الذي يستطيع أن يغوص عاموديّاً وأفقيّاً في إحداثيّات إنسانيّة وحضاريّة وتاريخيّة غير قابلة للسّبر أو الإحاطة بها بشكل كامل؟

أكثر ما حيّرني، وأثار دهشتي في الهند هو تلك الغابة من الألسن واللّغات واللّهجات التي تمور الهند بها؛ حتى كدتُ أشعر أنّهم يخترعون هناك ما يشاؤون من اللّغات دون رقيب أو حسيب أو منظّم، وأن لا أحد يستطيع أن يجزم تماماً بعدد اللّهجات والألسن المنبثقة عن عدد اللّغات التي تعجّ الهند بها.

تذكّرت ذلك اليوم الذي اصطحبتُ فيه صديقاً هنديّاً كان يزور

الأردن إلى حفل زواج أردنيّ في كنيسة من كنائس مدينة عمّان القديمة، وهناك قابلنا صدفة موظّفاً هنديّاً يعمل في إدارة خدمات الكنيسة، وعندما اقترب صديقي الهنديّ من ذلك الموظّف للحديث معه لاحظتُ اضطراب اللّغة والتّفاهم بينهما، إلى درجة بديا فيها أنّ أحدهما عاجز عن التّحدّث إلى الآخر، فلجأ صديقي الهنديّ الزّائر إلى التّفاهم معه بالإنجليزيّة، لكنّه أخفق في ذلك؛ لأنّ الموظف الهنديّ كان جاهلاً باللّغة الإنجليزيّة إلاّ لماماً.

عندها أدركتُ أنّ الهنود ضائعون في غابة لغاتهم ولهجاتهم الكثيرة، وأنّ الهنديّ قد يعجز عن التّفاهم اللّغويّ مع الهنديّ الآخر بلغة مشتركة تجمعهما تحت أيّ مظلّة كانتْ، في حين يستطيع العربيّ أن يتحدّث مع العربيّ مهما نأتْ بهما المسافات والجغرافيا واللّهجات بمجرد أن يستعينا بالمستوى الفصيح من اللّغة العربيّة التي هي صمّام التّواصل العربيّ مع لغته في سائر مستوياتها وثقافاتها ومخزوناتها؛ لذلك هي سادنة الحضارة والوحدة والتّواصل والامتداد والتّفاهم بين كلّ من ينطق لغة الضّاد.

من عجيب ما رأيتُ هناك أنّ الهنديّ قد يلتقي بالهنديّ القادم من منطقة غير منطقته، فلا يستطيع أحدهما أن يتفاهم مع الآخر بلغة أو بلهجة مشتركة، ولا يكون لهما ملجأ من هذه القطيعة اللّغويّة سوى بالتّحدّث بالانكليزيّة التي تتحدّثها الطّبقة المترفة والثّريّة والمتعلّمة بتباه بها، كأنّها لغتهم الأمّ، لا لغة عدوّهم المستعمر البريطانيّ الذي عاث فساداً ونهباً وظلماً في بلادهم، وقد يضرب الهنديّ صفحاً عن لغته الأمّ، ويتحدّث الانجليزيّة صلفاً وصفاقة؛ لأنّها لغة الصّفوة المزعومة التي تتفاخر بلغة عدوّها، ولا تعتدّ بلغة

أجدادها وحضارتها؛ شأنها في ذلك شأن الطّبقات الخائنة النّفعيّة في كلّ مكان وزمان، فهي تجيد السّير في ركب مصلحتها، ولو عنى ذلك السّير في ركب محتلّ وطنها.

أعجب إنجليزيّة يمكن للمرء أن يسمعها في الهند هي إنجليزيّة العوام وغير المثقّفين التي هي خليط مضحك من فتات الإنجليزيّة بصوت الحرف الهنديّ المشبع بلهجات هنديّة شعبيّة مختلفة، حتى أكاد أجزم أنّ الإنجليزيّ ذاته لا يستطيع أن يفهم هذه الإنجليزيّة المكسّرة الهجينة المغلوطة إلاّ بصعوبة شديدة، وجهد كبير.

اللّغات واللّهجات في الهند تختلف باختلاف الجغرافيا؛ فأهل شمالها يتكلّمون الهنديّة والأورديّة، وأهل الجنوب يتحدّثون التّاميليّة والماليالاميّة والكاناد والتيلفو، وغيرها من اللّغات واللّهجات، وأهل شمال شرق الهند يتحدّثون لغات المانيبوريّة والنّاغا والبودو والغارو والخاصي، وغيرها من اللّغات واللّهجات.

قد تتشابه بعض اللّغات السّائدة في الهند مثل الأورديّة والهنديّة في النّطق، لكنّها تختلف في المستوى الكتابيّ؛ إذ الهنديّة تصدر عن السّنسكريتيّة التي تحاول الدّولة الهنديّة الهندوسيّة أن تفرضها على شعبها لغة ثقافة وأدب وفكر، في حين أنّ الأورديّة تصدر عن خليط من العربيّة والفارسيّة واللّغات المحلّيّة.

يزعم الهنود أنّ هناك نحو461 لغة في بلادهم، وأنّ نحو 14 لغة منها قد انقرضتْ مع الزّمن، في حين أنّ الدّستور الهنديّ قد اعترف بـ 22 لغة رسميّة في البلاد، بما يُعرف باسم اللّغات المجدولة، وتضمّ كلّ من: السّنسكريتيّة، والهنديّة، والإنجليزيّة، والغوجارتيّة، والبنجابيّة، والبنغاليّة، والأساميّة، ودوغري، والأورديّة، والأوريا، والمهاراتيّة،

والكانادا، والتّاميليّة، والتّيلجو، والمالايالاميّة، والكونكانيّة، والماينبوريّة، والكاسيّة، والميزو، والتّيلوجو.

اللّغة الهنديّة هي السّائدة بين الولايات الـ 29 والأقاليم السّبعة التي تشكّل اتّحاد الهند، ويتحدّث بها نحو 551 مليون هنديّ، لتحتلّ بذلك المرتبة الرّابعة المستخدمة في كوكب الأرض بعد اللّغة الصّينيّة والإسبانيّة والإنجليزيّة، وهي من سلالة اللّغة السّنسكريتيّة، ويتحدّث نحو 125 مليون هنديّ اللّغة الإنجليزيّة إلى جانب تحدّثهم بلغتهم الهنديّة، وهناك نحو 91 مليون هنديّ يتحدّثون البغاليّة في مناطق جنوب آسيا، ويتحدّث 84 مليون إنسان لغة التّيلوجو.

تشيع اللّغة الأورديّة في الهند، وكلمة أورديّة مأخوذة من اللّغة التّركيّة والمنغوليّة، وكلمة أوردو تعني معسكر الجيش، ويُطلق على اللّغة الأورديّة اسم «زبان أردو معله»، أيّ اللّغة الرّفيعة للجيش، وهي اللّغة الرّسميّة في خمس ولايات في الهند، وهي مزيج من اللّغة السّنسكريتيّة والفارسيّة والعربيّة والتّركيّة والبشتونيّة، كما تأثّرتْ باللّغة الإنجليزيّة في مرحلة متقدّمة من تاريخها إبّان الاحتلال البريطانيّ للهند، بعد أن تبلورتْ في عهد سلطنة «دلهي» التي قامتْ على يدي محمد غور؛ لتكون لغة التّواصل بين الأقاليم والمقاطعات.

لقد حمدتُ الله على أنّني لا أجيد أيّ لغة أو لهجة هنديّة؛ بذلك عُوفيتُ من الضّياع في أدغالها الملغزة، واستثمرتُ الكثير من وقت الرّحلة لتطوير لغة خاصّة لي ولأمّي أمّ بطبوطة، وجعلناها لغة بمفردات قليلة ومحدّدة من الكلمات والأصوات العربيّة ذات المدلول الخاصّ عندي وعندها، وأخذنا نستخدمها بسريّة كلّما أردتْ إحدانا أن تلفت

انتباه الأخرى إلى أمر ما دون أن يلحظ الموجودون مرادها هذا، وفيما بعد طوّرنا هذه اللّغة لتحتوي على الكثير من الكلمات الهنديّة المغنّاة بطريقة ممطوطة تشبه طريقة المجذوبين الصّوفيين الذين يتسامون إلى عوالم أخرى وهم يغنّون، فيبدون كأنّهم قد سُرقوا إلى عوالم سماويّة بعيدة لا يعرفها سائر البشر الفانين؛ فأصواتهم وأحاسيسهم فوق الاندثار والموت والثّناء.

ظللتُ أردّد بفرح كلمة «سنّسكريتيّة»؛ فهي من الكلمات التّحدي التي لفظتها بصعوبة في طفولتي إلى جانب كلمة «القسطنطينيّة»، وبعض الكلمات الإنجليزيّة المعقّدة اللّفظ، وتذكّرت أختُ جدّتي لأمّي التي كانتْ تصف أيّ كلام لا تفهمه بأنّه كلام سنسكريتيّ، وهي لم تزرْ الهند طوال حياتها، ولم ترَ بأمّ عينيها هذا الطّوفان العرمرم من اللّغات واللّهجات والكلمات والحروف والأصوات التي تملأ جغرافيا الهند، ولو كانتْ ما تزال على قيد الحياة، ورافقتني وأمّي في هذه الرّحلة لعرفتْ أنّ كلمة سنسكريتيّ التي تستخدمها خبط عشواء تعني أكثر بكثير من مجرّد كلام رطانة غير مفهوم المعنى، ولعرفتْ أنّها لغة تحمل إرثاً عملاقاً لتاريخ ممتدّ من البشر.

كنتُ سأحتاج الكثير من الوقت والجهد والنّقاش مع أخت جدّتي لأمّي لأقنعها بأنّ السّنسكريتيّة لغة مستقلّة بحدّ ذاتها، وليس مجرّد وصف للكلمات المبهمة المعنى كما اعتاد العرب على وصف الكلام الذين لا يفهمونه، لكنّ أخت جدّتي العظيمة كفتني مؤونة هذا الجهد المضني، وانتقلتْ إلى جوار ربّها قبل الدّخول في هذا الجدال، وعافتني من الشّرح الطّويل، كما عافتني من مغبّة صدمها بالكثير من المعلومات عن السّنسكريتيّة التي تُعدّ أقدم اللّغات الهنديّة، والقاعدة الأمّ لكثير

منهـا، وجـذورها تعـود إلى اللّغـات الهندوأوروبيّـة التي تنتـمي إلى الإنجليزيّة والألمانيّة واللاتينيّة والفارسيّة.

لقد عرفتْ هذه اللّغة تطوّرات متختلفة، كما عرفتْ فترات ازدهار وانتكاس، إلى أن قام اللّغويّ الهنديّ «بانيني» بتصميم شكل فصيح لها، ليعُرف بالسّنسكريتيّة الكلاسيكيّة التي غدت اللّغة الكلاسيكيّة للدّيانة الهندوسيّة ولثقافتها ولمن ينتمي إلى فكرها.

الأدب السّنسكريتيّ بدأ بـ«الفيـدا» التي تناقلتـها أجيـال الهنود شفاهيّة، والأجزاء الرّئيسيّة منها هي مجموعة من التّراتيل المقدّسة التي تُسمّى «السامهيتا»، أمّا الأعمال الفيديّة اللاّحقة فهي تشمل «البراهمانا» التي تحتوي على الطّقوس الدّينيّة والتّعاليم عند البراهمة، في حين أنّ «الأرانيكا» و«الأبانيشاد» هي مؤلّفات لاهوتيّة فلسفيّة.

السّنسكريتيّة تنساق في موضوعات متنوّهة؛ فهناك الملاحم الأسطوريّة للآلهة الهندوسيّة في ملحمتي «المهابهاراتا» و«الرّامايانا»، وتعرض «البورانا» طروحات الأساطير الهندوسيّة لنشأة الكون وخلق البشر في شكل دوريّ لا ينتهي.

هناك الكثير من المسرحيّات والقصائد الملحميّة المكتوبة باللّغة السّنسكريتيّة، مثل أعمال الكتّاب الهندوس المشاهير: «أسفاغوسا»، و«بهاسا»، و«كاليداسا»، كما تخلو الكتابات السّنسكريتيّة من الكتابات العلميّة المتخصّصة في مواضيع الحساب والطّب والفلك وغيرها.

وداع أسعد وداوود في الغابة:

هناك ربوة جميلة تحتضن حديقة مزهرة داخل غابة جامعة «جواهر

لآل نهرو» التي تقع في منطقة «مونيركا» في العاصمة الهنديّة «نيودلهي»، وهي حديقة يروغ العشّاق إليها كي يتطارحوا فيها تباريح العشق في بيئة فردوسيّة هادئة غير آبهين برقيب أو حسيب.

لطالما رغبتُ في التّوقّف عندها، والجلوس فيها في زياراتي لجامعة «جواهر لآل نهرو»، لكن الوقت لم يسعفني لأحقّق رغبتي الرّومانسيّة التي أظنّها تداعب خيال كلّ مَنْ يمرّ بهذه الحديقة زائراً للجامعة.

كما لم يسعفني الوقت لأجد وقتاً يقدّر بسنين ضوئيّة لأقرأ في تلك الكتب والمخطوطات النّادرة الموجودة في مكتبتها الرّئيسيّة؛ فالعمر أقصر من الظّفر بما تشتهي النّفس من كتب ومطالعات فيها.

آخر ما ودّعتْ عيناي من غابات تلك الجامعة العريقة هو ذلك المطعم الطّلابيّ الذي يقع بين لفيف الأشجار السّامقة إلى جانب منازل الإقامة الدّاخليّة للطّلبة والطّالبات داخل حرم الجامعة، وهو مكان رومانسيّ جدّاً، يركن إلى ليل عليل ألوف، حيث رائحة الزّهور والوجبات اللّذيذة تفوح منه.

لقد سهرتُ فيه مع أسعد وداوود إلى وقت متأخّر في اللّيل في ذلك المطعم الطّلابيّ اللّطيف بناء على دعوة مفاجئة منهما لي للقيام بذلك؛ فقد أصرّا على دعوتهما هذه قبل سفري وأمّي في الصّباح المقبل إلى مدينة «كلكتا»؛ لأنّهما أراد أن أشاركهما متعة السّهر في هذا المكان الجميل، فطرنا إليه ثلاثتنا في سيّارة أسعد جمال، في حين آثرتْ أمّي الحبيبة أن تظلّ في سريرها في الفندق لترتاح من عناء تجوالها الصّباحي الذي أوهى قدميها المريضتين.

في ذلك المطعم الطّلابيّ قصّ أسعد وداود عليّ الكثير من قصص العشق والعلم والبحث في الجامعة، وإلى جانبنا ترقد على الأرض

عشرات الكلاب الأليفة التي ترفض أن تغادر أماكنها بين الطّاولات الخشبيّة المنتشرة على بساط أخضر بهيّ، وتأكل من بقايا طعام الطّلبة والطّالبات، وتحظى بتدليل خاصّ من الطّالبات الهنديّات اللّواتي يتعاطفن مع الكلاب بشكل لافت.

لقد أُجبرتُ على أن أتعاطف مع تلك الكلاب، وأنا أكره الكلاب الآدميّة والحيوانيّة؛ لأنّها تلتصق بالمكان، وترفض أن تبتعد عنه، وتفرض نفسها على كلّ مَنْ يقصده، لاسيما أنّها شديدة اللّطافة والمسالمة والألفة؛ هذا ما جعلني أن أتقبّل التصاق نحو خمسة كلاب ضخمة بالطّاولة الخشبيّة حيث أجلس دون أن أقفز مهرولة بعيداً عنها، لكنّني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أظلّ على أهبة القلق والاستنفار إنْ حاول أيّ من تلك الكلاب مداعبة رجلي كما يداعبون أرجل الطّالبات اللّواتي يسهرن بأريحيّة في المكان، ويتناولن الطّعام اللّذيذ والمرطّبات المنعشة.

قد شدّ انتباهي في تلك السّهرة ذلك الصّخب الذي رافق وصول فتاة طالبة أمريكيّة شقراء برصاء إلى المكان، سألتُ داوود عن سبب هذا الاهتمام بها؛ فأشار بيده إلى بشرته السّمراء، وقال لي: لأنّها شقراء.

عندها لم أفهم ما قيمة الشُّقرة عند الهنود، لاسيما أنّ تلك الفتاة الأمريكيّة الشّقراء البرصاء التي علمتُ أنّها تدرس في جامعة «جواهر لآل نهرو» ليستْ جميلة بأيّ مقياس من المقاييس، وأخال أنّها في سوق الشّقراوات في أمريكا لا تساوي سنتاً واحداً؛ فهي ليستْ أكثر من صفراء بعينين خرزيتين، ضئيلة الجسد والحضور، وأراهن على أنّها -في موطنها حيث الشّقار بضاعة كاسدة- لا تجد من يعيرها أيّ

اهتمام أو إعجاب من الرّجال، لكنّها وجدتْ جيشاً من المعجبين بها في الهند من الطّلبة السّمر الحاذقين تقديراً لصفرتها الشّقراء البرصاء!

لكن فيما بعد عرفتُ مدى ولع الهنود بالشّقرة والشّقراوات، وأنّهم يفضّلهنّ -في الغالب- على غيرهنّ من نساء الدّنيا على الرّغم من تفنّنه بالتغزّل بنساء الهنود اللّواتي يملكن الكثير من مزايا الجمال وفق مقاييسها الهنديّة، لكن عندما تدخل الشّقرة في الميزان، فهي مَنْ ترجح كفّتها في الغالبيّة السّاحقة من الأحوال.

لعلّ هذا الولع متأتٍ من عشق الإنسان للمختلف عنه، وطلبه له حثيثاً، فضلاً عن أنّ الهنديّ في أعماقه نوع من الاستلاب للأبيض المستعمر وعلى رأسه المستعمر الإنكليزيّ الذي عبث حتى بالذّوق الجماليّ للهنود، كما أثّروا في ذوقه وطرائقه مهما حاول الإنكليز والهنود إنكار ذلك.

الحقيقة أنّ لهذا الولع الهنديّ بالشّقراوات نتائج جماليّة باهرة؛ فأجمل حالات التّهجين بين السّلالات البشريّة -وفق رأيي المتواضع- هي ما حدث بين الشّقرة الأوروبيّة والسّمرة الهنديّة؛ إذ أنتجتْ جمالاً هنديّاً أوروبيّاً عجيباً؛ حيث البشرة السّمراء الفاتنة مع العيون الزّرقاء أو الخضراء، بملامح هنديّة رقيقة ذات قسمات أوروبيّة مهيبة، وهذه السّلالات الجميلة المهجّنة لاقتْ استقبالاً كبيراً في السّينما والإعلام وعالم الموضة والمال والأثرياء؛ فكثير من نجمات السّينما الهوليوديّة هنّ من تلكم السّلالات المهجّنة الفاتنة.

ظلّت أطياف هذه الغابة تسكن ذاكرة عيني، والطّائرة التي تقلّني وأمّي إلى أجواء مدينة «كلكتا» ترتقي طبقات السّماء بسرعة، وتبتعد عن أرض مطار «أنديرا غاندي الدّوليّ» للرّحلات الدّوليّة، وظللتُ

أتذكّر كلام أسعد جمال الذي يعشق العربيّة، ويعشق أهل الفصاحة؛ لذلك انجذب نحو أعمالي القصصيّة، واختارها موضوعاً لأطروحته في الدّكتوراه لما فيها من فصاحة ولغة عربيّة عليا تتكبّر على العيّ والضّعف والتّهافت، وهو مَنْ كان يبغي أن يبحث في أدب أديب عربيّ ما يزال على قيد الحياة ليعاين تجربته عن قرب، ويتواصل معه، متمنيّاً أن يعايش مَنْ يدرس أدبه، وأن يلتقيه، وقد جاد عليه القدر بهذه الرّغبة، والتقيّنا إبّان انطلاقه في دراسته البحثيّة عن أدبي القصصيّ.

كم عجبتُ من أسعد وداوود ومن غيرهم من الباحثين المسلمين الشّباب الذين قابلتهم في رحلاتي في الهند؛ إذ هم جميعاً يعشقون اللّغة العربيّة حدّ الهيام بها، ويسيرون في فجاج غريبها ونادرها، ويتسلّقون سوامق بلاغتها، وينفقون النّفيس والرّخيص لأجل تعلّمها، ويتفاخرون بما يتوافرون عليه من تحصيل منها، ويتيهون على غيرهم فخراً وهم يتكلّمونها بطلاقة، في حين أنّ الغالبيّة من شباب العرب وشابّاتهم يعزفون عنها، ويخجلون منها، ويتساقطون على الإنجليزيّة وغيرها من اللّغات الأخرى تساقط الذّباب على قطرة سكّر؛ فشأنهم في ذلك شأن المغلوب المولع بتقليد غالبه؛ لذلك ينأى العربيّ الجاهل المهزوم عن لغته العربيّة الأمّ، ويتعلّق هباء بلغات أخرى لا تعترف به أصلاً، إن لم تكن تكرهه، أو تحتقره.

ما أعجب أقدار اللّغة العربيّة التي يتنكّر لها معظم أبنائها، ويرعاها غيرهم من محبيّها في العالم، ويضعونها في قلوبهم، وتنطق ألسنتهم بها، وينحازون إليها انحيازهم إلى ذواتهم وأهليهم، والهنود المسلمون أعظم مثال على ذلك؛ فهم سدنة حقيقيين للعربيّة، وخزّان عظيم لها.

الرّحلة الرّابعة

أمّ بطبوطة تفتح مدينة «كلكتا»

(رحلة في كلكتا)

سواء أكان الهندوسيّ أم المسلم
أجلس بعدالة مع الكلّ
لا أنتمي إلى طبقة أو طائفة أو نحلة
أنا مختلف حقّاً
لستُ عطشان ولا مروياً
لستُ مرتدياً ولا عارياً
أنا لا أضحك ولا أبكي
ولا أبقى ولا أذهب
لستُ آثماً ولا قديساً
ولا أعرف الإثم ولا الكبح
. . .
لا أعرف مَنْ أنا
لستُ أنا مؤمناً لأذهب إلى المسجد
ولستُ متّبعاً طرق غير المؤمنين
لستُ نظيفاً ولا نجساً
لستُ فرعون ولا موسى
لا أعرف مَنْ أنا
لستُ آثماً ولست من القدّيسين
لستُ سعيداً ولا حزيناً
لا أنتمي إلى الماء ولا إلى الأرض
أنا لستُ النّار ولا الهواء
ولا أعرف أسرار الدّين
ولا أنا وُلدتُ من آدم وحواء

لم أعطِ نفسي أيّ اسم
لا أنتمي إلى أولئك الذين يقعدون ويصلون
ولا إلى أولئك الذين ضلوا الطّريق
كنتُ في البداية
وسأكون في النّهاية
لا أعرفُ أحداً سوى الواحد
أنا لا أعرف مَنْ أنا
الشّاعر الهنديّ الصّوفيّ: بوليه شاه

مدينة السّعادة:

يقول الشّاعر الهنديّ الصّوفي «بوليه شاه»:

«الذي أدركه وحده يستطيع أن يقول:

الحبّ ليس جديداً ولا ريّاناً

يقول العشّاق بأعلى صوتهم:

الحبّ دائماً جديدٌ وريّانٌ»

كنتُ قد أنهيتُ القراءة في الدّيوان المترجم الذي أحمله للشّاعر الهنديّ الصّوفيّ «بوليه شاه»، حين بدأ د. محمد ثناء الله النّدويّ يحدّق في عيني كلّ منّا على التّوالي بنظراته الثّاقبة الملغزة، ثم يعود يبتسم لنا ابتسامة عميقة تكفي لنوزّعها بالتّساوي على ثلاثتنا: أنا وأمي والدّكتور عبد القادر بخوش أستاذ الفلسفة الجزائريّ الذي وافنا من قطر التي يدرّس في جامعتها لأجل أن يشترك في فعاليّات النّدوة الدّوليّة «نهرو وآزاد والدول العربيّة والفارسيّة».

عندما يثق بأن ابتسامته قد وصلتْ إلى أرواحنا، يقول لنا بثقة مَنْ يقف حاجباً على بوّابة الفردوس الأعظم: «ستجدون السّعادة في «كلكتا»؛ فهي مدينة السّعادة». عندها ننهال عليه نسأله بحماس أشدّه عندي، وأقلّه عند أمّي، وأعمقه عن د. عبد القادر بخوش: لكن ماذا تقصد بالسّعادة؟ وكيف سنجدها في هذه المدينة؟ ومتى؟

لا يجيبنا د. محمد ثناء الله النّدويّ عن سؤالنا المصيريّ هذا، ويبتسم، ويسير أمامنا في دروب قاعات الوصول في مطار «نيتاجى

سـوبهـاش تشـاندرا بوس» الـدّوليّ في مـدينة «كلكتـا»، ونظلّ نتـقـافـز خلفـه، كلّ منّا يمنّي الـنّفس بالسّـعـادة الهـديّة التـي سنجـدها في هذه المدينة التي ندقّ أبوابها مع أفول الشّمس.

نظلّ نتـسـاءل مـاذا هناك خلف بوابة الخـروج في المطار؟ وهل ستكون السّعادة في انتظارنا عند أوّل خطوة نخطوها على أرض مدينة «كلكتا»؟

تمنّيتُ أن أجد سعـادة مـا في هذه المدينة كي تكون عـزاء لي عن لذّة الاكتشاف في زيارتي التي كنتُ أنوي القيام بها إلى «خاجوراهو» حيث يرتع «كـامـديو» إله الجنس عند الهنود بكلّ فـخـر واعتـزاز، ثم تراجعنا عن الفكرة رغبة في أن أحظى بالمزيد من اللّقاءات العلميّة مع علمـاء العـربيّـة الـهنود الذي بدا مـواتيـاً لي أن ألتـقي بهم في النّدوات الدّوليّة التي تكاد تبدأ فعاليتها في اليوم الثّاني من وصولي وأمّي إلى «كلكتا».

هكذا أنقذت الأقدار أمّي للمرّة الثّانية من مواجهة تراث الجنس عند الهنود؛ وهو تراث عريق عندهم، وأمّي سيّدة محافظة متدينة رزينة وخجولة، ولا أخال أنّها ستسرّ بزيارة معبد جدرانه تعجّ بتماثيل وصورة ثلاثيّـة الأبعـاد تمثّل المـمارسـات الجنسيّـة المختلفـة، لكن ذلك لم يكن، والزّيارة تمّ تأجيلها إلى أجل غير مسمّى قـد لا يحين أبداً، تماماً مثلما حدث في زيارتنا لـ«كشمير» عندما لم تكن الظّروف مواتية لنزور ضريح «أمارناث»، فنجتْ أمّي من زيارة مكان يتعبّـد زائروه لقطع ثلجيّـة على شكل أعضاء جنسيّة ذكوريّة.

هكذا لم أزر منطقة «خاجوراهو» التي كـانت في جدول ترحـالي في الهند انطلاقـاً من فضـولي من جملة سـمـعتُ الكثـير من الـهنود

يتفاخرون بها، ويقولون بانتفاج كامل «نحن أباطرة الجنس في كوكب الأرض»؛ لذلك رغبتُ في زيارة هذا المكان الأثريّ التّراثيّ الاستثنائيّ؛ إذ يقدّم تجربة فريدة وجريئة في تاريخ الثّقافة الجنسيّة في الهند، وتقع هذه المنطقة في ولاية «ماديا براديش» الهنديّة، في منطقة «شهاتربور»، وكان اسمها في الماضي «خورجافافاكا» المشتقّة من كلمة «خارجور» السّنسكرتيّة التي تعني نخلة التّمر.

هي تحتوي على عدد كبير ونادر من المعابد الهندوسيّة والجاينيّة والدّيبريكيّة، وجميعها ذات منحوتات جنسيّة جريئة، لتعكس بذلك الانفتاح والليبراليّة التي كانتْ تعيشها الهند في القرن الثّالث عشر ميلاديّ.

لقد تمّ بناء هذه المعابد في فترة حكم سلالة «تشانديلا» في الفترة الممتدّة بين 950- 1050، وقد أدرجتها منظّمة اليونسكو في قائمة مواقع التّراث العالميّ منذ عام 1986.

الاهتمام بالجنس في الفكر الهنديّ قديم ضارب في أعماق الإنسان الهنديّ الذي عبد الأعضاء الجنسيّة، وقدّس العمليّة الجنسيّة بوصفها المسؤولة عن استمرار العرق البشريّ في كوكب الأرض، كما عدّ الهنود «كاما»-أيّ الرّغبة الجنسيّة- جزءاً من الأهداف الإنسانيّة الأربعة للحياة إلى جانب المكاسب الأخلاقيّة والمكاسب الماديّة وتحقيق وسائل الحياة، والإفراج عن دورة الحياة وإعادة الميلاد.

لقد اكتفيتُ بالحصول على نسخة هنديّة من كتابهم الشّهير «الكاماسوترا» لمؤلّفه الفيلسوف الهنديّ «مالاينجا فاتسيايانا»؛ لأضعه في مكتبتي ضمن مقتنياتي التّراثيّة من المكتبة العالميّة.

رزمته ضمن العدد الكبير من الكتب التي حصلتُ عليها في

الهند على نيّة نقلها معي إلى الأردن، مخالفة بذلك أهمّ قواعد الرّحالة في التّخفّف في الحمل ليسهل التّنقّل والسّفر، لكنّني أضرب عرض الحائط بهذه القاعدة الذّهبيّة انحيازاً لامتلاك المآثر الإبداعيّة والفكريّة مهما جشّمني ذلك من أعباء النّقل والحمل وغرامات الأوزان الزّائدة في المطارات.

كتاب «الكاماسوترا» ظهر إلى الوجود في الفترة بين 400–200 قبل الميلاد، وقد ألّفه الفيلسوف الهنديّ «مالاينجا فاتسيايانا» في محاولة منه ليقدّم نصائح مفيدة للهنود ليعيشوا حياة جنسيّة وصحيّة وعائليّة مستقرّة وهانئة ومشبعة، منطلقاً من قناعته بأنّ الحياة الجنسيّة المستقرّة المرضية تساعد الإنسان على الحياة السّويّة المنتجة القانعة.

للجنس قصصه وطرائقه عند الهنود، ولنظرتهم له حكاية طويلة لا تستوفيها دراسات ورحلات وأساطير؛ فهي موضوع مشعّب وذو وشائج ضاربة في عمق الثّقافة الهنديّة، وأغرب ما سمعتُ عنه في الهند هي علاقة جماعة «الأغوريون» بالجنس؛ إذ يمارسونه مع الموتى قبل أن يلتهموهم، ويهيمون على وجوهم عراة في الحياة، ويرون في ممارساتهم هذه وغيرها، مثل النّوم بين الجثث، وتناول المخدّرات، والشّرب في جماجم الموت، تجاوزاً مقصوداً لقوانين النّقاء لأجل تحقيق التّنوير الرّوحيّ للتّوحّد مع إلههم.

كلمة «الأغوريون» باللّغة السّنسكريتيّة تعني «الذين لا يخافون»، وهم جماعة مسالمة تتكوّن من الرّجال عادة، يعيشون حياة بسيطة مندمجة مع كلّ شيء، حتى أنّهم يلمسون طبقات لا تُلمس في الهند، ويدعون للجميع في صلاتهم، ويرعون بعض المرضى الذين تنبذهم جماعاتهم، مثل مرضى الجذام.

عيد بعد عيد:

لم أستطع أن أختلس معلومات من د. محمد ثناء الله النّدويّ عن مسيرته العلميّة سوى معلومات متطايرة مشتّتة عن سرّ طلاقته المدهشة في اللّغة العربيّة التي أدهشتني بمثل أدهشتي من قبل بطلاقة د. مجيب الرّحمن وأسعد وداوود، وعلمتُ منه بعض ملامح محطّاته العلميّة الطّويلة في رحلة شاقّة وكثيرة التّرحال، لكنّه ظلّ يروغ إلى الصّمت الذي يروق له الجنوح إليه في تأمّل طويل لم أتبيّن له معنىً أو تفسيراً.

لم أكن أعرف عنه سوى أنّه من أصدقاء د. مجيب الرّحمن المقرّبين، وهو مَنْ اختصر وصفه لي في جملتين لا ثالث لهما: «هو يحبّ العلم والعلماء، وقلبه طيّب نقي»؛ لذلك تحمّستُ لفكرة د. محمد ثناء الله النّدويّ الذي عرض على د. مجيب الرّحمن أن يستعيرني من «نيودلهي»؛ لأزور «كلكتا»، وأشارك في مؤتمرها العلميّ؛ فوافقتُ على ذلك دون طويل تفكير أو تردّد؛ لأنّني في السّفر لا أتمنّع على مغامرة، ولا أضيّع فرصة اكتشاف، وما ظننتُ حينها أنّ مَنْ خطفني وأمّي من «نيودلهي» إلى «كلكتا» هو عالم هنديّ جليل واستثنائيّ بحقّ؛ فهو دائرة معارف متنقلّة بأكثر من لغة يجيدها، فضلاً عن طلاقته في اللّغة العربيّة التي يعرف أسرارها، وعلى علاقة وثيقة بتراثها، ويفهم الكثير من لهجاتها العاميّة، ويجيد أن ينصرف إلى العلم والبحث ولقاء العلماء؛ لذلك يسيح في الأرض في بحث أسطوريّ لا ينقضي، ثم لا يطيب له أن يصف نفسه إلاّ بـ«دودة الكتب» التي التهمتْ عدداً لا حصر له من الكتب والمراجع والمصادر والأبحاث والدّراسات والمخطوطات وأسرار أخرى من أسرار الكون والبشر والأشياء والأحداث.

وصلنا إلى مدينة «كلكتا» مع بداية ظلمة اللّيل، وكانتْ دروبها مزيّنة بالزّينات والأضواء المحشودة ابتداء من بوّابة مطار«سوبهاش تشاندرا بوس»، وعندما سألنا عن سبب هذه الاحتفاليّة المبهرة التي تحوّل اللّيل إلى كتلة فرح مضاءة بألوان لمّاعة، أجابني د. محمد إشارت علي ملاّ بأنّ «كلكتا» تحتفل بعيد ما، وما دريتُ ما هو هذا العيد، لكن قدّرتُ أنّه عيد هندوسيّ؛ إذ ليس الميقات هو ميقات عيد الفطر أو عيد الأضحى.

الهنود مولعون بالاحتفال بكلّ صغيرة وكبيرة، وأعيادهم طويلة وتمتدّ أحياناً إلى أسابيع، وعطلهم كثيرة، على الرّغم من أنّ جلّهم يعيشون حياة الضّنك والشّظف، ولا يدري المرء ما سرّ أعيادهم الكثيرة وانخراطهم فيها، وهم مَنْ يعيشون في الغالب أحوالاً تستدعي إقامة المآتم لا الأعياد والأفراح!

يصعب عليّ تفسير هذا الأمر، فهل الهنود غارقون في الأعياد من منطلق أنّ الجاهل الغرّ ينزع عادة نحو الفرح والانبساط والأريحيّة، وهو لا يدري أيّ دركٍ يعيش فيه؟ أم هم ينفسّون بهذه الأعياد عمّا تعتمله نفوسهم من معاناة ووجع وخيبة أمل؟ أم هم بطبيعتهم يميلون إلى الفرح والاستعراضيّة في حياتهم مهما ضُيّق اخناق الحاجة على رقابهم؟ أم تراهم يصنعون لحظات الفرح لتعوّضهم عن حزن عريض؟

أيّاً كان التّفسير الذي أجهله لكثرة الأعياد الهنديّة، فالنّتيجة واحدة، وهي أنّ الهنود من أكثر خلق الله احتفالاً وانقطاعاً لذلك لأيام موصولة كاملة، ولهم طقوس مبهجة في أعيادهم، حتى في أصغر تفاصيلها؛ إذ يستقبلون الضّيوف الأعزاء بالصّواني الجميلة التي تحتوي على الشّموع والحلوى والنّذور.

لم أدرِ هل الفقراء الهنود لهم نصيب في الاحتفالات البهيجة هذه التي تشغر الدّروب والمعابد بالزّينات والشّموع والحلوى والهدايا؟ أم هي نصيب الأثرياء والموسيرين فقط؟ في حين يتوارى العيد عن المنكودين؟ ويحتجبون عنه؟

هناك احتفال في الهند لكلّ شيء؛ حتى أنّني فكّرتُ في أن أصنع هناك عيداً باسم «عيد أمّ بطبوطة وبطبوطة» يكون عيداً للرّحالة النّساء في أقاصي الأرض وأدانيها، لكنّني تراجعتُ عن الفكرة لأنّ أمّي تفضّل «عيد الأمّ» على كلّ عيد آخر؛ وهي المخلوقة لأجل أن تكون أمّ كونيّة لشعوب من الأبناء والبنات؛ فقلبها الطّيّب يتّسع لكلّ ذلك.

الهنود عندهم احتفال بيوم الأخّوة، تربط الأُخت فيه خيطاً حول معصم أخيها، وهناك احتفال عندهم بحمل المرأة عندما تبلغ الشّهر السّابع من حملها، وهناك يوم تحتفي الزّوجات فيه بأزواجهنّ عند ظهور القمر بعد يوم صيام طويل طلباً لطول الأعمار لأزواجهنّ.

الأعياد في الهند تشمل الطّوائف جميعها، ومنها عيد «هولي»، أيّ عيد الألوان، وعيد «ديوالي»، أيّ عيد الأنوار، وعيد «ماها شيفراتري»، وعيد «رام نومي»، وعيد «بود بورنيما»، وعيد «دسهرا»، وعيد مولد المسيح، وعيد «دسهرا»، وعيد «الجمعة المقدّسة، وعيد الفطر، وعيد الأضحى، وعيد المولد النّبويّ الشّريف لسيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، وعيد 10 محرّم، وعيد «مولد غروناناك»، وعيد مولد «غاندي».

أمّ بطبوطة تفتح مدينة «كلكتا»:

كنتُ أتخيّل وأمّي أنّ المشاركات العلميّة في رحلتنا في مدينة

«كلكتا» ستكون من نصيبي فقط دونها، في حين الحضور والدّعم لي والفخر بي هو سيكون النّصيب الدّائم لأمّي في هذه الرّحلة، لكنّني تفاجأتُ بأنّ قلب النّشاطات العلميّة جميعها في قسم اللّغة العربيّة في جامعة «كولكتا» د. محمد إشارت علي ملاّ قد اختار لأمّي (نعيمة المشايخ) أن تقدّم ورقة عمل في المؤتمر لطفاً منه، وحنواً على أمّي التي تزور مدينتهم لأوّل مرّة في حياتها.

أقلقني هذا العرض خوفاً من أن تتعرّض أمّي الحبيبة لأيّ إحراج في حديث أمام هذه الحشد من العلماء والطّلاب والإداريين في الجامعة، لكنّني تفاجأتُ بأنّ أمّي رحبتْ بالأمر بحماس، على الرّغم من أنّها لم تحضّر أيّ ورقة علميّة لذلك، كما فعلتُ أنا تحضيراً لحضوري لأكثر من فعاليّة عمليّة في مدينة «كلكتا».

في أوّل جلسات المؤتمر وقفتُ أمّي أمّ بطبوطة بفخر وزهوّ، وشرعتُ تلقي كلمتها بكلّ ثقة واعتزاز وفرح، كأنّها قد فتحتْ «كلكتا»، بدتْ لي عندها أطول قامة بنحو شبرٍ أو شبرين أو ثلاثة ممّا هي عليه فعلاً، وشعرتُ بأنّها تملك اعتزاز فارس يمتطي جواده الأصيل، ويمدّ رقبته للمستقبلين ليطوّقوه بقلائد الزّهور «غيندا» البرتقاليّة.

كم كانتْ أمّي أمّ بطبوطة بهيّة جميلة فصيحة في ذلك اللّقاء! وكم شعرتُ بالفخر لأنّها أمّي فوق فخري الملازم المعتاد! فهي أوّل امرأة رحّالة عربيّة فصيحة تفتح «كلكتا» بكلماتها وبقلبها الكبير المحبّ الذي شرع سريعاً يمارس أمومته المعتادة مع طلبة وطالبات جامعة «كولكتا» الذين أحبّتهم حبّاً جمّاً، كما أحبّوها جميعاً، وعجبوا من فصاحتها في اللّغة العربيّة، وتأثّروا كثيراً بكلمتها أمام المؤتمر.

شعرتُ بالامتنان العميق لـ د. محمد إشارت علي ملاّ الذي أفرح

قلب أمّي بهذا الاحتفاء الدّافئ بها، وهي المولعة بندوات العلم ومحافل العلماء، كما صمّم على أن يناديها بالأستاذة الدّكتورة على الرّغم من أنّها لم تحصل على درجة الدّكتوراة ملاطفة لها، كما أعطاها شهادة تقدير رسميّة وشهادة مشاركة رسميّة في المؤتمر شأنها شأن غيرها من المشاركين في المؤتمر.

شهادة المشاركة هذه أفرحتْ أمّي كثيراً؛ ليس لحصولها على ورقة، وهي الزّاهدة في كلّ شيء بطبيعتها الممتلئة بكلّ شيء؛ بل لأنّها شعرتْ باحتفاء الجميع بها، وبحبّهم لها، لا سيما أنّها امرأة مخلوقة من الحبّ النّقي الممتدّ.

فيما بعد اكتشفتُ أنّ اللّطف صفة أصيلة في طبيعة د. محمد إشارت علي ملاّ الذي أجاب عن سؤالي الفضوليّ الملحّ حول حكايته مع تعلّم اللّغة العربيّة، فأعلمني أنّه قد حصل على شهادة الفضيلة من الجامعة الإسلاميّة دار العلوم في «ديوبند» في عام 1988، وفي السّنة نفسها التحق بجامعة «عليجراه» الإسلاميّة، وتخرّج فيها في درجتي الماجستير والدّكتوراه، ثم تمّ تعينه في جامعة «كلكتا» في سنة 1996 التي تدرّج في رتبها العلميّة حتى حصل على درجة الأستاذيّة في قسم اللّغة العربيّة الذي أصبح رئيساً له.

كانتْ لي كلمة ضيف شرف وإدارة جلسات في أكثر من مؤتمر في «كلتكا»، كذلك كان لي محاضرات خاصّة في قسم اللّغة العربية في قسم اللّغة العربيّة في جامعة «كولكتا»، فضلاً عن تقديم أوراق بحثيّة في عدّة ندوات دوليّة.

كان الحضور من الهنود ينظرون بإكبار لي؛ لأنّني أجيد لغتي بفصاحة أقلّبها بنجاح في أبحاثي ودراساتي وأعمالي الإبداعيّة

والنّقديّة، وما في إتقان المرء للغته فضل، وإنّما هو واجب وحاجة ملحّة وانطلاق من احترام الذّات ومعرفتها.

أمّا أنا فكنتُ أنظر إليهم باحترام كامل؛ لأنّهم أجادوا اللّغة العربيّة، وهم ليسوا من أهلها؛ ورائدهم في ذلك حبّهم للعربيّة وأهلها وإخلاصهم لدينهم الإسلاميّ، على ما في تعلّمهم ذلك من عناء ومشقّة وتضحيات طويلة قاموا بتقديمها عن طيب خاطر لأجل أن يتعلّموا العربيّة بطلاقة، وينافسوا أهلها بها، ويبزّون الكثير من بنيها بفصاحتهم فيها.

كان هناك بحر متلاطم من الرّؤى والأفكار في تلك اللّقاءات الفكريّة القيّمة، وكنتُ أتأمّلها بصمت، ويزداد إيماني بأنّ أيّ استزاده في العلم والمعرفة توصل صاحبها إلى حقيقة مقدّسة واحدة، وهي أنّه لا يعرف شيئاً مقابل الكثير الذي يكتشفه في هذا العالم الممتدّ الصّغير الكبير في آن.

كان الجميع ممّن يسمعون كلامي وآرائي في جامعة «كولكتا» يعتقدون أنّني أعلّمهم بعضاً من أسرار اللّغة العربيّة، لكنّني كنتُ أتعلّم منهم أكثر؛ فقد تعلّمتُ في الحياة أنّ خير معلّم هو مَنْ يجيد أن يتعلّم ممّن يقابلهم، ويأخذ منهم علماً ومعرفة مقابل ما يعطيهم منها، هذا أمر أجيده بكفاءة، أيّ أن أتعلّم دون توقّف، أو هدر للفرصة المواتية لذلك.

«الشّيروانيّ» من جديد:

من جديد أحاط بي «الشّيروانيّ» السّاحر؛ وكانت اللّقاءات العلميّة في جامعة «كلكتا» وفي المؤتمرات العلميّة التي عقدتها بالتّعاون

مع مؤسّسات علميّة وثقافيّة هنديّة التي كانتْ فرصتي الماسيّة لألتقي بالمزيد من علماء الهند وباكستان وبنغلاديش في اللّغات والآداب والفلسفة والفكر والأديان المقارنة، ولاسيما علماء الهنود في اللّغة العربيّة وآدابها والعلوم الإسلاميّة، كما هي فرصة نادرة كي أتعرّف على القائمين من العلماء على مؤسّسات فكريّة هنديّة، مثل «معهد مولانا أبي الكلام آزاد للدّراسات الأسيويّة»، و«المؤسّسة القطبيّة للمنح الدّراسيّة».

أكثر ما كان يطربني أن أرى الكثير من العلماء يقبلون وهم يرتدون أثواب «الشّيرواني» البديع بألوانه الرّصينة وقماشه الفاخر وياقاته الملكيّة المزركشة، وأستطيع القول إنّني قدّرتُ أنّ بعض مَنْ كانوا يلبسونه من الحضور العلماء يصلحون بقاماتهم الرّشيقة ومشياتهم الواثقة وابتساماتهم الهادئة أن يكونوا نجوماً في السّينما البوليوديّة، وعندما كنتُ أمازح أحدهم بذلك، كان يضحك على استحياء كما هي عادة الهنود المسلمين؛ إذ يغلب الأدب والحياء والتّواضع على ردودهم.

لقد همس لي صديق ضيف يحضر المؤتمر بأنّه يرغب في أن يشتري لباس «الشّيرواني» ليلبسه في بلاده من شدّة إعجابه به، فصمتُ، وتمنّيتُ أن لا يفهم صمتي تشجيعاً له على الأمر؛ فهذا اللّباس لا يصبح ملكيّاً بسطوة خلاّبة إلاّ عندما يلبسه وسيم هنديّ رشيق بتفاصيله الجماليّة الكثيرة المستعصية على تجسيدها في كلمات؛ أمّا أن يلبسه صديقنا السّمين في بلاده الصّحراويّة، فهو ضرب من ضروب زرع الفراولة في قلب صخرة!

لم يكن المسلمون الذين قابلتُ وأمّي في «كلكتا» أو «نيودلهي» أو

«دلهي» أو «كشمير» من علماء وباحثين وأهالي يتعاملون معي ومع أمّي بمنطق المضيف الكريم المحبّ فقط، وليتهم كانوا يعاملوننا كذلك فقط؛ إذن لشعرتُ وأمّي بمقدار أقلّ من الإحراج في إزاء التّقصير الإسلاميّ العربيّ الرّسميّ والشّخصيّ في رعاية المسلمين المؤمنين في ديار غير مسلمة، لكنّهم كانوا يعاملوننا كأنّنا أميرتان من أرض الإسلام جئنا نحمل إليهم الإسلام والعروبة مرّة أخرى، فكانوا يفيضون علينا بحبّهم واهتمامهم واحترامهم، ويقبلون علينا إقبالاً منقطع النّظير، ويحرصون على حسن صحبتنا، وإرضائنا بأيّ شكل كان، حتى لو جشّمهم ذلك مشقّة كبيرة.

هذا كان يشعرني بفيض من المحبّة تجاههم، وبوجع التّقصير نحوهم؛ فهم ينظرون إلى العروبة المسلمة بوصفها إمارتهم الرّاعية الحارسة، ويتبرّكون بالعرب المسلمين، ويحبّونهم، ويرغبون في زيارة ديارهم حيث مهد النّبوة المحمّدية والحرمين والأراضي المقدّسة وأرض الفتوحات والرّباط والحشر ، ولا يعلمون أيّ حال وصلتْ إليه ديار العرب المسلمين، فضلاً عن التّقصير العربيّ والإسلاميّ في دعمهم والاهتمام بهما وتبنّي قضاياهم الكبرى، وعلى رأسها اضطهادهم في بلدانهم بسبب ديانتهم الإسلام، فضلاً عمّا يتعرّضون له من مضايقات وتنكيل يصل إلى حدّ الإبادة الجماعيّة، والعرب والمسلمون غارقون في الصّمت المخزي، ولا يحرّكون ساكناً لدعمهم، وكفّ الأذى عنهم.

كلّما قابلنا مسلم في رحلتنا، حيّانا بأدبه الجمّ، ولولا أنّ المسلمين لا ينحنون لأحد، لرأيتهم ينحنون لكلّ ضيف مسلم يزور ديارهم، ويطلب صحبتهم، إلاّ أنّهم يقدّمون من طاعة المحبّين أكثر ممّا يقدّمه غيرهم ممّن أخلفوا وعود المحبّة والقرابة والدّم والعروبة.

عندهم ولع كبير بالسّؤال عن ديار العروبة المسلمة، وعندي ولع في الهرب من الإجابة عن هذه الأسئلة الدّامية؛ كي لا أخيّب آمالهم، إلاّ أنّهم يلحّون على ذلك، وأنا أصرّ على الهروب من الإجابات المنتظرة، ولا تنفرج أساريري في الحديث إلاّ عندما يحدّثونني عن علماء العربيّة الهنود الذين خدموا العربيّة بإخلاص منقطع النّظير، وصنفّوا مصنّفات خالدة في علوم العربيّة والدّين الإسلاميّ، وملؤوا الدّنيا والتّاريخ بنظراتهم ودراساتهم ورؤاهم وجهودهم في سبيل عروبتهم اللّغويّة؛ فهم كانوا عرباً مسلمين أكثر ممّن ولدوا عرباً من أصلاب العرب؟ أخال أنّهم كذلك.

تذكّرتُ تلك الرّحلة الاستثنائيّة من العاصمة الأردنيّة عمّان إلى مدينة «نيودلهي» توقّفاً لساعات انتظار في مطار «مسقط الدّوليّ» في العاصمة العمانيّة؛ إذ هناك كنّا نعيش تجربة ظهور الطّيف الهنديّ الملوّن المحبّب قليلاً قليلاً حتى نصل إلى الهند ذاتها؛ فالوصول إلى الهند لا يبدأ عند دخول حدودها، بل يبدأ من بلاد العرب الخليجيّة حيث هناك جاليات كبيرة من الهنود وباكستان والبنغال، ومن هناك تبدأ الهند تظهر بملابسها الملوّنة ووجوهها السّمراء الوديعة، وقليلاً قليلاً يزداد الطّيف الهنديّ في المطارات الخليجيّة في رحلات متّجهة إلى أكثر من وجهة في الهند، ومن ثم في الطّائرة يطغى الطّيف الهنديّ، وتبدأ رائحة الطّعام الهنديّ تفوح من أطباق وجبات الطّعام التي تُقدّم في الطّائرة الهنديّة التي ستقلّنا من عُمان إلى مدينة «نيودلهي»، وبمجرّد أن تصل الطّائرة إلى بغيتها، وتفتح أبوابها لخروج المسافرين منها يسود اللّون الهنديّ بإشعاعه الطّاغي، ولا يعود أيّ إشعاع قادر على العلوّ عليه.

أكثر ما أتذكّر في تلك الرّحلة هي ساعات الانتظار في مطار

«مسقط الدّوليّ»، فقد وافق وصول طائرتنا إلى ذلك المكان وصول طائرة من أندونيسيا، وكان على متنها الكثير من النّساء الأندونيسيّات المسلمات المحجّبات المحتشمات؛ وقد تقاسمن معي وأمّي معظم ساعات الانتظار في مصلّى قاعة الانتظار في المطار، وقد أبدت الأندونيسيّات احتراماً كبيراً لي ولأمّي؛ لأنّنا مسلمات من ديار العروبة؛ وهنّ مَنْ يعتقدن أنّنا ما نزال نعيش في مجد العروبة المسلمة، وإحداهنّ طبعتْ قبلة مخلصة على يدي أمّي احتراماً وتقديراً لها، وأخرى احتضنتني بمحبّة، وأخبرتني بالإنجليزيّة الرّكيكة أنّها ترغب في زيارة أيّ بلد عربيّ، وتتمنّى أن تقيم فيه لتكون في أقرب نقطة من مهد النّبوّة المحمديّة، فابتسمتُ لها ابتسامة عميقة، وتمنّيتُ من قلبي أن لا تزور أيّ بلد من بلاد العرب المسلمين كي لا تبوء بخيبة أمل عريضة.

هل تظنّ أنّني هنديّ؟

العلماء والباحثون والمصنّفات والمكاتب حولي في هذه المدينة من كلّ حدب وصوب، وصديقي الهنديّ العالم يعرض عليّ صوراً بهيجة لطفله الوليد الذي رُزق به قبل أيّام من حضوره إلى مدينة «كلكتا» لأجل المشاركة في المؤتمر العلميّ المعقود فيها.

أكثر ما لفت انتباهي في هذه الصّورة فضلاً عن وجه الطّفل الملائكيّ تلك النّقطة السّوداء الكبيرة المرسومة كالسّخام على وجهه الوديع.

سألتُ صديقي المسلم عن مغزى هذه النّقطة السّوداء، فأخبرني أنّه وضعها على وجهه لردّ الشّرور والحسد عنه.

لم أعلّق على كلام صديقي، ولم أكرّر على مسمعه ما يعرفه

أفضل منّي بأنّ الإسلام يقرّ بأنّ لا حماية لبشر إلاّ من الله تعالى، أمّا خرافات النّقاط وغيرها؛ فهي ضرب من ضروب الشّرك الأصغر بالله تعالى.

لكنّني لم أقل له أيّ كلمة ممّا دار في رأسي حول ذلك؛ لأنّه يعرف تماماً هذه الأمور العقديّة الحسّاسة في الإسلام بحكم أنّه مسلم مثقّف ومتديّن، لكن يبدو أنّ الخرافة ما تزال تسكن روحه، كما تسكن أرواح الكثيرين غيره في هذه المعمورة.

لا أعرف لماذا خطرتْ في بالي تلك الخرافة العربيّة الحمقاء التي تجعل العرب والأعراب والمستعربين يعتقدون أنّهم خيرٌ من كثير من البشر بما فيهم الهنود، وتذكّرت جملة سوقيّة شهيرة عند العرب يستخدمونها بشكل تبخيسيّ للهنود عندما يقولون لمن يحاول أن يستغفلهم «هل تظنّ أنّني هنديّ؟»، وكأنّ الغفلة على علاقة حتميّة بالهنود؟ في حين الذّكاء والحكمة على علاقة قدريّة مع العرب والأعراب والمستعربين!

تداعتْ في خاطري تفاصيل تلك الحلقة السّياسيّة الكوميديّة التي حضرتها في قناة هنديّة ما، حيث كان المتناظران السّياسيان اللّذان يقدّمان البرنامج يسخران من العرب والأعراب الذين يقتل أحدهم الآخر في تصفيات سياسيّة ملعونة انتصاراً للعدوّ ولخططه.

تمنّيتُ من أعماق قلبي لو أنّ أعاريب العرب على سويّة علميّة رفيعة تتيح لهم أن يتمنّوا بحقّ لو كانوا هنوداً يسابقون الدّنيا بالعلم والقّوة، وهم مَنْ قدّموا خدمات علميّة جليلة للعربيّة وأهلها وللإسلام وعلومه، ويضيق أيّ مقام علميّ عن حصر أسمائهم وأعدادهم وجهودهم، وعلى رأسهم عبد المقتدر الدّهلويّ، وحسن الصّغانيّ

اللاّهوريّ، ومرتضى الزّبيديّ البلكراميّ، وكرامت حسين الكنتوريّ، وعبد النّبيّ بن عبد الرّسول الأحمد نجري، وعبد المقتدر الكنديّ، وأحمد بن محمدي التّهانيسريّ، وغلام الشّيخ غلام علي آزاد البلكراميّ، وإسماعيل بن وجيه اللّكهنويّ، وفضل حقّ الخير آباديّ، وفيض الحسن السّهارنبوريّ، وذو الفقّار، وولي الله الدّهلويّ، وحسن القنوجيّ، وعبد الحيّ اللكنويّ الفرنجيّ محليّ، ومولانا قاسم النّانوتويّ، وشبليّ النّعمانيّ، وأبو الحسن علي الحسني النّدويّ، وتقي الدّين الهلاليّ المراكشيّ، وخليل بن محمد العربيّ اليمانيّ، ومسعود عالم النّدويّ، وعبد الحي فخر الدّين الحسينيّ، وإقبال أحمد النّدويّ، وحميد الدّين بن عبد الكريم الفراهيّ، ود. عبد اللطّيف الكنديّ، وعبد الوارث الأثريّ، ود. بديع الرّحمن، ومحمد حسان خان، وغيرهم الكثيرون من العلماء الأجلاّء المخلصين للعربيّة والإسلام.

أمّا علماء الهنود الذين ساهموا في بناء معمار الإنسانيّة في غير علوم اللّغة العربيّة والدّين الإسلاميّ؛ فهم جهابذة عمالقة يضيق تدوين أيّ رحّالة عن ذكر أسمائهم جميعاً، والإحاطة بجهودهم وتفتّقاتهم العلميّة المذهلة، أمثال: أريابهاتا، وأفيناش كاك، وإندر بير سينغ باسي، وباتانجالي، وبانيني، وبراهماغوبتا، وسابرامانين تشاندراسخار، وساتيندرا ناث بوز، وسرينفاسا أينجار رامانجن، وسوهاج كاك، ومانيندرا أغراوال، وأناندا شيف براساد، وجون هالدين، وفينكاترامان راماكريشنان، وهار غوبند خورانا، وتشاندراسيخارا رامان، ساتيندرا ناث بوز، وفيكرام سرابهاي، وأناندا شيف براساد، وجون هالدين، وفينكاترامان راماكريشنان، وهار غوبند خورانا، وأفيناش كاك، وبراناف ميستري، وراج ريدي، وسوغاتا ميترا، ومانيندرا أغراوال،

وكوماريلا بهاتا، وأبو بكر زين العابدين عبد الكلام، و جاكاديش ساندار بوس، وفاندانا شيفا، وردام نارا سيمحا، وفيلايانور رمشيندرا، وساتيندرا ناث بوز، والكثيرون غيرهم من العلماء الأفذاذ.

شعرتُ أنّ جزءاً من روحي الرّحالة قد أصبحتْ هنديّة بمعنى ما، وابتسمتُ لأمّي، وسألتها مداعبة لها: هل تعتقدين أنّني قد أصبحتُ هنديّة الآن؟

فابتسمتْ أمّي لسؤالي دون أن تردّ عليه؛ فقد اعتادتْ منذ دهور على شطحاتي وأسئلتي الغريبة وتأمّلاتي الاستثنائيّة، كما تعوّدتْ على حبّي العشقيّ لها، ولابتسامتها السّاحرة التي تغمرني بفرح الوجود كلّه؛ فهي تحبّني حبّاً لم تحظَ به ابنة من قبلي سواء كنتُ عربيّة أم هنديّة.

هل تريدون التقط صورة معي ومع أمّي؟

«هل تريدون التقاط صورة معي ومع أمّي؟» هذه هي الجملة الأكثر جرياً على لساني طوال زيارتي لجامعة «كلكتا» وفعاليّات النّدوات الدّوليّة فيها؛ فقد ظللتُ أكرّرها على طلبة قسم اللّغة العربيّة في الجامعة وطالباتها؛ إذ كان حياؤهم الطّاغي يمنعهم من الاقتراب منّي، وطلب التقاط صورة معي، وهم مَنْ يظلّون يقفون في أقرب نقطة منّي، يتشاورون مع أصدقائهم بقلق إن كان من الحكمة الاقتراب منّي والحديث معي؟ أم الأفضل أن يحجموا عن طلب التقاط صورة معي على أن يضعوا أنفسهم في أيّ موقف إحراج محتمل؟ وهم مَنْ لا يعرفون طباعي وردود أفعالي.

فكنتُ أختصر عليهم جميعاً حيرتهم بين الإقدام والإحجام،

وأقبلُ عليهم مبتسمة، وأعرض عليهم أن يلتقطوا الصّور معي ومع أمّي الحبيبة التي تقابلهم بشعاع خارق من العطف والمحبّة، فيستفزّهم الفرح والحبور، ويقبلون على أمّي وعليّ ببهجة وارتياح، فيلتقطون معنا مئات الصّور واحدة تلو الأخرى، ثم يلتفّون حولنا، ويتجرّؤون على الحديث معنا باللّغة العربيّة التي يجيدونها في الغالب إلى حدّ مقبول، لكن يخجلون من أن يحدّثوا بها ضيفة عربيّة تبتسم لهم ابتسامة مديدة.

فيما بعد احتذى الضّيوف الموجودون في النّدوة بسلوكي، وشرعوا جميعاً يسألون الطّلبة والطّالبات الذين يظهرون اهتماماً بهم: «هل تريدون التقاط صورة معي؟»، لكنّني وأمّي ظللنا صاحبتي الرّصيد الأوفر بالصّور المخلّدة لهذه اللّحظات الحنونة الجميلة.

كان أكثر مَنْ أُعجب بجملتي السّحريّة «هل تريدون التقاط صورة معي» التي تقرّب الجميع منّي دكتور الفلسفة الجزائريّ «عبد القادر بخوش» الذي رأى في جملتي هذه جملة فلسفيّة بديعة قادرة على اختزال مسافات إنسانيّة كبيرة، وتمتلك رؤية في إدراك أفكار الآخر، والتّقرّب إليه عبر تفهمه، والتّجاوب معه.

زاد الطّلبة فرحاً وسعادة عندما عقد لهم د. محمد إشارت علي ملاّ رئيس قسم اللّغة العربيّة في جامعة «كلكتا» لقاء خاصّاً معي، كما عقد لقاء نظيراً لهذا اللّقاء مع أعضاء الهيئة التّدريسيّة في القسم، فاستخفّ الفرح بهم، وكانوا أكثر إقبالاً عليّ دون خجل أو قلق، وقدّمني لهما الباحث النّبيه في مستوى درجة الدّكتوراه عُبيد الرّحمن البخاريّ، وشاركني في هذا اللّقاء علماء من القسم ذاته، وعلماء أجلاّء من «بنغلاديش»؛ وهم د. محمد ناصر الدّين ميزي، ود. عبد الله فاروق، ود. م حمد محبوب الرحمن، ود. محمد ولي الله.

شعرتُ بطاقة إيجابيّة عملاقة تحتويني في هالة الحبّ والمودّة والخير التي غمرني بها الطّلبة والعلماء الهنود والعلماء القادمون من بنغلاديش، حتى شعرتُ أنّني قادرة على التّرحال في الهند حافية القادمين مثل مَنْ يقصدون المزارات والمعابد البعيدة طالبين المغفرة والعون والنّجدة.

تعبيراً عن نشوتي بطاقة المحبّة التي أدور في فلكها في جامعة «كولكتا» قرّرتُ ذلك المساء أن أتحدّى حرقة التّوابل والبهارات والفلفل الأسود، وأن آكل الطّعام الهنديّ الحار باللّحم المذبوح على الطّريقة الإسلاميّة في مطعم «أرسلان» الذي يقع في شارع «مرزا غالب»، وهو مطعم شعبيّ شهير دعاني د. محمد إشارت علي ملاّ لتناول طعام الغداء فيه بصحبة العلماء الهنود والعلماء القادمين من «بنغلاديش» الذين حضروا محاضرتي في قسم اللّغة العربيّة في جامعة «كولكتا»، وشاركوا فيها.

من جديد شعرتُ بالإعجاب الشّديد بأدب طلبة علماء المسلمين، حتى أنّني سألتُ أساتذتهم على الملأ في جلسة من الجلسات العلميّة العلنيّة عن سرّ أدب طلبتهم؟ وعن كيفيّة تأديبهم لهم بهذا الشّكل المغبط؟ فردّوا عليّ بابتساماتهم المتواضعة المحبّبة إلى النّفس والرّوح، ولم ينبسوا ببنت شفة، لكنّني فيما بعد عرفتُ إجابة سؤالي الفضوليّ هذا؛ فقد تعلّم الطّلبة حسن الأدب من معلّميهم العلماء الذين كانوا يتكلّمون باعتزاز عمّن تتلمذوا على أيديهم، ويدعون لهم بالخير، ويلقّبونهم بأجمل ألقاب العلم والصّلاح، ويطلبون طول العمر وحسن الخاتمة للأحياء منهم، ويسألون الله المغفرة والرّحمة للذين طواهم الموت، فأدركتُ حينها أنّ البرّ وراثة، وأنّ الدّرب خيار، وأنّ الأدب عدوى

حميدة، وعادة مكتسبة، فأكبرتُ ذلك في العلماء ومريدهم في الهند من المسلمين الذين قابلتُهم، وتفاعلتُ معهم، وتعلّمتُ منهم الكثير من حسن الأدب، واجتهاد العلم والسّعي والإصرار.

عُبيد الرّحمن البخاريّ ابناً لأمّ بطبوطة في مدينة السّعادة:

لا تنفكّ أمّي تمارس موهبة الأمومة التي تجيدها إلى حدّ محيّر ملغز؛ فهي خُلقتْ لتكون أمّاً، إلى حدّ أنّني أعتقد أنّها قد وُلدتْ أمّاً صغيراً، ثم كبرتْ سريعاً، لتغدو أمّاً في سنّ الأمومة.

لقد احتضنتْ أمّي من جديد الطّلبة والطّالبات الهنود الذين قابلتهم في جامعة «كلكتا»، وفي رحلاتنا في أرجاء «كلكتا»، وكانتْ تغمرهم بمحبّتها التي يردّونها لها محبّة واحتراماً والتفافاً حولها، إلاّ أنّها تخيّرت عُبيد الرّحمن البخاريّ ابناً لها في «كولكتا»، بعد أن ودّعت ابنيها في «نيودلهي» أسعد وداوود مكرهة موجوعة القلب من فراقهما.

عُبيد الرّحمن البخاريّ صورة مشرّفة من صور طالبي العلم المسلمين في «كلتكا» الذين يسلكون سبيل العلم المجهد المضني في سبيل الوصل إلى الصّورة المثاليّة التي يصل إليها العلماء الهنود المسلمين الذين قابلتُ الكثير منهم في رحلتي إلى مدينة «كلكتا»؛ فقد قابلتُ هناك علماء من أرجاء مختلفة من الهند ومن بنغلاديش وأفغانستان ومن أماكن أخرى من العالم حيث يستقرّ بعض الهنود المسلمين خارج وطنهم لأسباب كثيرة.

لقد قابلتُ في «كولكتا» الكثير من علماء العربيّة في الهند وبنغلاديش وأفغانستان، أمثال: د. محمد ثناء الله النّدويّ، ود. محمد إشارت علي ملاّ، ود. محمد أشرف علي، ود. محمد بديع الرّحمن،

ود. معراج أحمد معراج، ود. سعيد الرّحمن محمد حسين السّلفيّ، ود. أنيس الرّحمن، ود. مسيح الرّحمن، ود. معراج عالم، ود. عبد الخالق الرّشيد، ود. رحيم رضاء، ود. محمد نعمان خان، ود. مظفّر عالم، والسّيّد منال شاه القادريّ، ود. شريف حسين القادريّ، ود. شرف عالم، ود. أميت دى، ود. شاه نور الرّحمان، ود. حسّان خان، ود. صغير أحمد، ود. حسين قطب الدّين، د. محمد شكيل، ود. محمد أبو بكر الصّديق، د. نصير مزي، ود. محمد شاه نور الرّحمن، ود. أنيس الرّحمان، ود. مستفيض الرّحمان، و د. أبو سفيان إصلاحيّ، ود. السيّد حسنين أختر، ود. عائشة كمال، ود. شبير أحمد، ود. صدر الإسلام، ود. رضوان الحقّ، ود. عابد علي قطب الدّين، ود. جمشيد أحمد النّدويّ، ود. روح الأمين، ود. سرور حسين، ود. علي رضا، ود. محمد أشرف علي، ود. شمس الدّين مليك، ود. محمد ناصر الدّين ميزي، ود. عبد الله فاروق، ود. محمد محبوب الرّحمن، ود. محمد ولي الله، وسيف الدّين جوبتي.

كما كان لي لقاء بعدد كبير من الباحثين والباحثات في جامعة «كولكتا» وفي غيرها من المؤسّسات التّعليميّة في المدينة ممّن يدرسون اللّغة العربيّة، وهم نخبة مشرّفة من الباحثين المسلمين الذين يجتهدون اجتهاداً مخلصاً في تعلّم العربيّة وتعليمها، أمثال: عُبيد الرّحمن البخاريّ، وأطيع الرّحمن البخاريّ، وأمين الإسلام مولا، محمد تاج الدّين، ومحمد عبد الوهّاب، ومحمد رجاء الله، ومحمد رضاء الله، ويوسف علي، ومحمد أرشد علي، ومحبوب عالم، ومنجو علي عالم، وصادق الرّحمن، ورشيد الإسلام، وعصيل عثمان، ومجاهد الإسلام، ومحمد هداية الله، ورقيّة خاتون، ورمّانة حسنة، ونازية رحمن، وفاطمة

مندل، وروما أروبي، ونشاط تسنيم، وقمر الإسلام، وغيرهم.

كذلك كان لي لقاء خاصّ وحوارات شيّقة مع الأخوة آل قطب الثّلاثة، وهم: د. عزيز قطب الدّين، ود. حسين قطب الدّين، ود. طاهرة قطب الدّين التي تعمل أستاذة في جامعة «شيكاغو» الأمريكيّة، وهم أبناء العالم «خزيمة قطب الدّين»، وهم جميعاً علماء في تخصّصاتهم، ويحملون درجة الدّكتوراة فيها، وهم يديرون «المؤسّسة القطبيّة للمنح الدّراسيّة»، وقد شاركوا في تحمّل نفقات الكثير من الفعاليّات العلميّة والبحثيّة، وقاموا ثلاثتهم بتوزيع الشّالات الكشميريّة على الحضور؛ تعبيراً منهم عن محبّتهم للجميع، وقد لفتَ نظري مقدار ما يتمتّعون به من علم وتواضع وظرف وخفّة ظلّ زادها حضوراً إتقان د. عزيز قطب الدّين، ود. حسين قطب الدّين للهجة العاميّة المصريّة التي يتحدّثانها بطلاقة بفعل إقامتهم في صباهما لفترة طويلة في القاهرة لدراستهم اللّغة العربيّة هناك، وهما يجيدان قول النّكات والملح بهذه اللّهجة، كأنّهم من أهلها، ويشيعون الفرح والأريحيّة في كلّ مكان يحضرون إليه.

كم كان يوم توزيعهم للشّالات الكشميريّة على العلماء يوماً بهيجاً مضحكاً؛ إذ قاموا بذلك بطرق طريفة محبّبة إلى النّفس، حتى أنّهم قاموا بلف الشّالات على أجساد بعض المكرّمين تقديراً لهم، كما فعلوا مع د. محمد إشارت علي ملاّ، أمّا أنا فكانتْ لي حصّة من الشّالات الكشميريّة في حفلة الاستقبال الافتتاحيّة.

قابلتُ في رحلتي هذه د. منال شاه القادريّ، وهو عالم جليل، وإنسان لطيف، ومهيب الطّلّة، ويحمل درجة الدّكتوراة في اللّغة العربيّة، وكان عضو هيئة تدريس في قسم اللّغة العربيّة في جامعة

«كلكتا»، وعميداً لكليّة الفنون في الجامعة ذاتها، كما كان سفيراً للهند في إحدى الدّول، كما هو من كبار رجال سلسلة «القادريّة» الصّوفيّة، ويحظى باهتمام كبير في الجهات الرّسميّة الحكوميّة الهنديّة، وله منزلة كبيرة في جماعته من أتباع الطّريقة «القادريّة» الصّوفيّة المنتشرة في الهند وباكستان وبنغلاديش، إلى جانب الطُّرق الجشتيّة والنقشبنديّة والسّهراورديّة والمجدديّة، وغيرها.

سمعتُ أنّ البعض من أتباع «القادريّة» يسجدون للدّكتور منال شاه القادريّ، وعجبتُ من ذلك الأمر العجب كلّه، إلاّ أنّني لم أرَ بعيني أحداً يسجد له.

إلاّ أنّ ذلك ليس غريباً في البيئة الهنديّة المسلمة وغير المسلمة على حدّ سواء؛ إذ تؤمن العقليّة الهنديّة بفكرة التّوسّل بالأولياء والصّالحين والخيّرين للتقرّب لله تعالى؛ لذلك تكثر المزارات والأضرحة والقبور التي يؤمّها المؤمنون بها كي تقرّبهم من اللّه زلفى عبر النّذور والهدايا والعطايا والصّلاة والعبادة والاعتكاف فيها أو الانقطاع فيها لبعض الوقت لخدمتها مقابل تحصيل رضا الرّب.

على الرّغم من أنّ هذا الفكر كلّه مرفوض في الإسلام، ويعدّ شكلاً من أشكال الشّرك بالله تعالى، إلاّ أنّ هناك الكثير من المسلمين الهنود لا سيما في أوساط المسلمين غير المتعلّمين أو المثقّفين يؤمنون بهذه الوساطات والكرامات للأولياء والمبروكين، وينقطعون لها، ويقبلون عليها بطقوس غريبة عن الإسلام والتّوحيد، ويرفعون بعض رموز الطّوائف الدّينيّة إلى درجة الإله، ليسقطوا في الشّرك بشكل كامل.

هم بفعلهم هذا يماثلون الهنود غير المسلمين الذين يؤمنون بكرامات الصّالحين والعابدين والكّهان من أهل مللهم، وكثيراً ما يجد الزّائر

هندوسيّاً مدفوناً في مقام لوليّ مسلم، والعكس صحيح.

هناك أولياء يقدّسهم المسلمون والهندوس على حدّ سواء، أمثال «شيريدي ساي بابا» (1838– 1918) المشهور بأنّه معلّم روحيّ هندوسيّ، لا أحد يعرف اسمه الحقيقيّ، أو مكانه ولادته وتاريخها، لكنّه يحظى بتقديس من أتباعه المسلمين والهندوس، وقد عاش حياته في مسجد، ومن ثمّ أُحرق جثمانه في معبد بعد موته، وله معبد شهير يحمل اسمه، ويقصده الأتباع والمريدون من كلّ حدب وصوب، وهو معبد فيه نحو عشرة أطنان من الذّهب.

قبور الأولياء ومزاراتهم موجودة في «كلكتكا» بكثرة، كما هي موجودة في أرجاء الهند؛ فهناك مزار «مولا علي»، ومزار «السّيد جلال شاه»، ومزار «دادا حضور»، ومزار «المجذوب فتح علي وائسي»، ومزار «مجدّد الزّمان العلاّمة أبو بكر الصّديقيّ».

كذلك قابلتُ د. محمد شهيد الله الذي كان عميداً للمدرسة العالية في «كولكتا» التي تأسّستْ في عام 1780، وهو عضو هيئة تدريس في قسم اللّغة العربيّة في جامعة «كلكتا»، وقد نال جائزة رئيس جمهوريّة الهند على جهوده في خدمة اللّغة العربيّة. وما كدتُ أغادر الهند حتى علمتُ بخبر وفاته، فحزنتُ لذلك حزناً كبيراً؛ فقد كان رجلاً عالماً وطيّباً ومسالماً.

لطلبة العلم المسلمين ولع خاصّ بتعلّم اللّغة العربيّة؛ لأنّها دربهم إلى دينهم الإسلاميّ، وهم يجتهدون فيه، ويبزّون أهلها في إتقانها عندما يخلصون في تعلّمها، وعُبيد الرّحمن البخاريّ من أجمل صور طلبة العلم الهنود المسلمين الذين قابلتهم في رحلاتي.

جرياً على عادتي الفضوليّة، والفضول قاعدة ذهبيّة أخرى من

قواعد الرّحلات وسلوك الرّحّالة، ألححتُ على عُبيد الرّحمن البخاريّ كي يحدّثني عن سيرته مع العربيّة والعلم؛ ليتوسّع تصوّري عن هذا الدّرب وأهله ومريديه، فأجابني بأدبه الجمّ الذي لا يفارق حديثه وطيبة لسانه الذي لا يغيب ذكر الله عنه، وهو يغضّ بصره كعادته، فأعلمني أنّ اسمه هو عُبيد الرّحمن بن منير الزّمان، وأنّه من «مادرغاجي» في مديريّة «اترا دينا جفور» غرب «البنغال»، وأنّه ينتمي إلى أسرة مسلمة متديّنة، وأنّه قد بدأ بتعلّم القرآن الذي حفظ منه 16 جزءاً في كتّاب قريته، ثم درس العربيّة في المدرسة الابتدائيّة إلى جانب تعلّم اللّغات الإنكليزيّة والهنديّة والأوردية والبنغاليّة، كما تعلّم فيها السّيرة النّبويّة والحديث النّبويّ الشّريف والتّاريخ والأدعية والأذكار والحساب وغيرها.

لقد حمل لقب البخاريّ نسبة إلى جامعة الإمام البخاريّ الهنديّة في «كشن غنج» في «بيهار»، وبعد ذلك انتقل إلى جامعة «محمديّة خيدو فورة» في «اترا براديش»، وثمّ إلى «الجامعة الإسلاميّة»، ثمّ انتقل إلى المدرسة الحكوميّة، وحصل على الشّهادة العالميّة ثم الفضيلة في عام 2010، وبعد ذلك التحق بكليّة «مولانا آزاد» في «كلكتا»، وتخرّج فيها بدرجة البكالوريوس في اللّغة العربيّة في عام 2015، وبعد ذلك انتسب من جديد إلى جامعة «كولكتا» التي تخرّج فيها من جديد بدرجة الماجستير، ثم سجّل في مستوى الدّكتوراه في «الجامعة العالية» في «كولكتا» ليكتب أطروحته عن»دور المدرسة العالية في كولكتا في تطوير اللّغة العربيّة»، بإشراف أستاذه الدّكتور جاهانغير عالم.

لقد راقتْ لي ولأمّي صحبة عُبيد الرّحمن البخاريّ؛ فكان رفيق دربنا في «كولكتا» مهما رافقنا غيره في أيّ وجهة من وجهاتها، وهو

المؤدّب الخلوق الذي يفخر بأنّه قد حجّ إلى بيت الله الحرام في عام 2014، وأنّه قد اعتمر لأكثر من مرّة، وهو يهبّ للمساعدة في أيّ أمر كان طلباً للأجر والمثوبة، وينحاز للإسلام والمسلمين؛ ولعلّ ذلك يفسّر انقطاعه للعمل التّطوّعيّ في الجمعيّات التّعليميّة والخيريّة الإسلاميّة، كما هو واسطة بين الفقراء والأغنياء الذين يصمّم على أن يأخذهم إلى بيوت الفقراء ليتصدّقوا عليهم بأنفسهم دون وساطة أحد؛ إذن إنّ العائلة المسلمة الفقيرة تحتاج مبلغاً زهيداً لا يتجاوز الثّمانين ألف روبيّة سنوياً (1000 دولار) كي تعيش مستورة بعيدة عن العوز والفاقة، لكنّها لا تجد هذا المبلغ الصّغير على الرّغم من ذلك.

هو يلقي الدّروس الإسلاميّة والخطب في المساجد في «كلكتا» وقراها وضواحيها، ويخرج في سبيل الدّعوة الإسلاميّة في غرب «البنغال»، و«مدني فور»، و«هورة»، و«هوغلي»، و«مرشد آباد»، و«مالدة»، و«اتراديناجفور»، و«كشن غنج»، و«بيهار»، وغيرها من ديار الهند.

لقد ضحّى عُبيد الرّحمن البخاريّ بالكثير من وقته لأجل أن يرافقني وأمّي في رحلتنا في «كلكتا» حبّاً منه بالعلم والعلماء والأدباء والمسلمين والضّيوف الذين يطرقون مدينته وجامعته، وهو مَنْ يحمل أعباء رعاية أسرته وابنه سعد وابنته سعاد، وعليه فروضاً دراسيّة في أطروحته للدّكتوراة، ويعمل في تجارة الأسماك لإعالة نفسه وأسرته والإنفاق على دراسته وجولاته في الدّعوة إلى الإسلام.

لكنّه كان مشغول الذّهن والخاطر بتلك الفيضانات المأساويّة التي ضربت منطقة «مالدة»، ومعظم سكّانها من الفقراء المسلمين، فقتلتْ منهم من قتلتْ، وشرّدتْ منهم من شرّدتْ، وهدمتْ بيت مَنْ هدمتْ

بيته، وزادت الجميع فقراً فوق فقر، وعوزاً فوق عوز، ولا معين رسميّ أو فرديّ لهم، إلاّ القليل الذي لا يكفي، ولا يسدّ الحاجة.

الكثير من المسلمين الهنود ظلّوا يعملون في مهنة الزّراعة التي تغمس الكثير منهم في الفقر، ومردّ ذلك إلى أنّ الكثير من المسلمين المثقّفين والمتعلّمين قد هاجروا في عام 1947 إلى باكستان المسلمة بعد تقسيم شبه القارّة الهنديّة، هذا أدّى إلى خلخل واضح في تركيبة السّكّان المسلمين في الهند؛ إذ ظلّ معظم المسلمين في المناطق الرّيفيّة الأقلّ حظّاً في العلم والثّقافة والغنى والرّفاهيّة والحرّيّة والتّقدّم، هذا أدّى إلى تدهور الأوضاع السّياسيّة للطّائفة المسلمة التي تشهد ضعفاً في قوّتها السّياسيّة المؤثّرة في الهند، بعد أن غدتْ معظم الوظائف الإداريّة العليا في الهند من حصّة العلمانيين والهندوس والبوذيين.

لكن عُبيد الرّحمن البخاريّ كان لا يفقد أمله أبداً في استجلاب الدّعم والصّدقات من الصّالحين، ويظلّ يتحدّث بحماسة وإيمان بضرورة دعم المسلم لأخيه المسلم، ويزيده لباسه الهنديّ الأبيض هدوءاً وثقة وإيماناً، وهو يتحدّث بوقار، ويلبس قلنسوته القطنيّة البيضاء، وثوبه البنجابيّ الأبيض الذي يعلوه صدريّة سوداء طويلة.

استحمام التّعاسة في مدينة السّعادة:

زرنا ثلاثتنا أنا وأمّي وعُبيد الرّحمن البخاريّ مرافقنا الدّائم في «كلكتا» بعض الأحياء الفقيرة فيها، حيث يكثر المسلمون الهنود في مثل هذه الأحياء، مثل أحياء «شارع زكريا»، «وكولو تولة»، و«تالتلا»، و«تانتي باغ»، و«بارك سركس»، و«تبسيا»، و«خضر فور»، و«متيا بروج»، وغيرها.

كان الحي الذي زرناه حيّاً فقيراً جدّاً أكثر مما يمكن أن يتخيّل المرء أن يكون الفقر عليه، والبؤس يفيض من كلّ تفصيل من تفاصيله؛ فعاد إليّ شعور الامتعاض والاختناق الذي تضاءل من قبل حدّ الاختفاء لكثرة ما عاينتُ من شقاء وبؤس وفقر في الهند، لكن عطفي الدّينيّ الخاصّ على إخواني الهنود المسلمين جدّد أحاسيسي التي ظننتُ أنّها تبلّدت في الهند؛ وشكرتُ الله على ذلك؛ لأنّ التّبلّد والاعتياد هما ردّا الفعل الطّبيعيين في الهند في إزاء عجز شبه كامل عن المساعدة أو تغير الأحوال الكارثيّة هناك.

فكلّ مَنْ يعيش هذه التّفاصيل بشكل يوميّ، ويعانيها في كلّ لحظة يؤول مكرهاً إلى التّبلّد واللامبالاة، وفي هذه اللّحظة بالذّات يكون قد اكتمال موت إنسانيته.

لقد خلتني أكاد أنعى مشاعري وتعاطفي في الهند، لكن مشاهد أحوال المسلمين الفقراء فيها جدّدتْ شعوري بالأسى والحزن والألم والحنق على المال الإسلاميّ العالميّ الذي يسير في الدّروب جميعها إلاّ في درب مساعدة هؤلاء الهنود المستضعفين، ومساعدة غيرهم من المسلمين المستعبدين في شتّى أصقاع المعمورة.

لفت نظري مرأى أولئك الرّجال والأطفال الصّغار ذكوراً وإناثاً وهم يستحمّون في الشّارع على مرأى من الجميع، استغربتُ من فعلهم هذا، فالرّجال يجلسون على كراسي خشبيّة، ويستحمّون جالسين عليها، ويغرفون الماء من أواني بلاستيكيّة قديمة، ويغسلون أجسادهم به وهم عرايا إلاّ من مآزر بالكاد تستر عوراتهم، أمّا النّساء فتحمّم الأطفال ذكوراً وإناثاً في الشّارع وهم عرايا أمام الجميع.

عندما جزعتُ من هذا المنظر الذي رأيتُ فيه استباحة لإنسانيّة

المستحمّين وانتهاكاً لإنسانيتهم، نظرتْ إلى عُبيد الرّحمن البخاريّ بدهشة، وسألته: لماذا يستحمّون في الشّارع؟ لماذا لا يستحمّون في بيوتهم؟ أليس الاستحمام في الحمّام أفضل؟

حدّق عُبيد الرّحمن البخاريّ في وجهي، كأنّه يريد أن يتأكّد من أنّني جادّة في أسئلتي هذه، وعندما أدرك جدّيتي من تعلّق عيني بعينيه منتظرة إجابته، أيقن أنّني لم أفهم حقيقة ما يحدث حولي، فقال لي بأسىً: هؤلاء ليس عندهم بيوت ليستحمّوا داخل حجراتها أو حمّاماتها، هؤلاء يعيشون في الشّارع، يمضون حيواتهم كاملة في الشّوارع؛ فهم معدمون تماماً، وقلّما يعينهم أحد في الحياة.

سقطت إجابة عُبيد الرّحمن البخاريّ مثل صفعة على روحي، وغرقتُ في صمت متأمّل مؤلم، دون طرح أيّ سؤال آخر، فقط اندحتُ في تأمّل عميق مؤلم أشاطر الوجع فيه مع أمّي التي تكدّرت قسماتها النّورانيّة، وهي ترى أوضاع المسلمين الفقراء في الهند، وتتبادل معي تلك النّظرات التي تعني أيّ شيء إلاّ أنّها سعيدة؛ ففي مدينة السّعادة الاستحمام يكون في منتهى التّعاسة للمسلمين الفقراء، ولغيرهم من الفقراء من أيّ طائفة كانوا؛ فالهند محرقة كبرى للفقراء والمنكودين والمسحوقين.

ظللتُ أراقب أولئك الهنود المسلمين السّائحين في دروب البؤس، ولفتتْ نظري ملابس المسلمات التي هي مزيج من لباس هنديّ وعباءات خليجيّة وأغطية رؤوس ملوّنة من مصادر تراثيّة مختلفة، وهناك مسلمات كنّ يحرصن على تغطيّة شعورهنّ، وستر نحورهنّ وخصورهنّ وبطونهنّ، لكنّهن في الوقت ذاته يجهلن أنّ عليهنّ أن يسترن أذرعهنّ، فترى الأذرع ظاهرة سهواً منهنّ، وباقي الجسد محتشم ورع.

عندما كنّا نهمّ ثلاثتنا بالخروج من أحياء المسلمين في «كولكتا»، كانتْ تلك الخرق الملوّنة ترفرف على جذوع الأشجار العتيقة التي تظلّل الحواري القديمة؛ لقد كانت مربّطة بالخرق الملوّنة التي تمثّل نذوراً معلّقة على الأشجار في انتظار الاستجابة لها من الرّب، وما عرفتُ أيّ رب هو المقصود بها؟ أهو أحد آلهة الهندوس الكثيرة؟ أم إله المسلمين الواحد الأحد؟

لم أجهد نفسي في الحصول على إجابة؛ إذ تتساوى الإجابتان في تلك اللّحظة ما دام هناك جهل يصل بالعقل الإنسانيّ إلى تصديق أنّ خرقة قماش ملوّنة قد تكون صلة لمخلوق بخالقه.

خطر في بالي أن أشاكس الخرق الملوّنة، وأن أفكّها جميعاً بشقاوة الأطفال، وأن أولّي هاربة، لكنّني خشيتُ مغبّة ذلك؛ فكيف أمازح أناساً في قناعاتهم ومعتقداتهم على أرضهم؟ فآثرتُ الحكمة والجبن والصّمت؛ فهي صمّام الأمان في التّرحال، وهذه قاعدة ذهبيّة أخرى من قواعد التّرحال، وهي الحذر والصّمت والتّعامل بحكمة مع معتقدات الآخرين واحترامها أكثر ممّا هو معتاد بمنطق أنّ مَنْ يقف على أرضه أقوى ممّن يعبر زائراً في أرض غريبة عنه، وهو غريبٌ عنها.

لذلك زاد صمتي وعجبي ونحن نسير في حيّ من أحياء الهندوس في المدينة، عندما رأيتُ النّاس تتجمهر حول شجرة صغيرة جرباء صفراء الأوراق، وهناك أطباق شموع وهدايا وفواكه ونذور حولها، وبعض السّاجدين لها يتمسّون بالأرض المزبلة حولها، وعندما سألتُ عمّا يحدث مع هذه الشّجرة الضّئيلة التي لم ترق لي بصفرتها وقزميتها؟ كانت الإجابة أنّها شجرة إله عند طائفة من طوائف الهند، وأنّهم يعبدونها، ويطلبون عونها ورضاها.

لم أبالِ بالسّؤال عن اسم تلك الطّائفة العابدة للشّجرة الجرباء، ولم أسألك كذلك عن اسم الشّجرة المعبودة؛ فالهند أرض الطّوائف والعبادات والملل والنّحل والآلهة المتعدّدة، جميعها تبلغ الآلاف المؤلّفة؛ آلاف من الطّوائف، وآلاف من العبادات، وآلاف من الملل والنّحل، وآلاف من الآلهة المعبودة، وملايين من العابدين الجهلة، وما يزال الحال ذاته؛ فقر وضياع وتفرقة وعنصريّة وطبقات وظلم وحرمان، وزد على كلّ ذلك شجرة جرباء صفراء الأوراق قزمة القامة لا تأكل، ولا تنمو على الرّغم ممّا يقدّم لها من رعاية وطعام وتقديس ممّن يعبدونها الذين يحرمون أنفسهم من الطّعام، ويقدّمونه لها قرابين وهدايا، فلا هي تستفيد منها، وتخضرّ وتنمو، ولا هي تتركها لهم ليتقوّا به على حيواتهم البائسة!

حمدتُ الله على أنّ أشجار الزّيتون والمشمس واللّيمون والعنب والزّهور الجوري في حديقة أمّي الحبيبة في الأردن لا تعرف عن ترّهات عبادة الأشجار في الهند؛ إذن لتاهت علينا عندها، وحبستْ ظلّها وأوراقها وثمارها اللّذيذة عنّا حتى نعبدها، ونقدّسها، ونسجد لها، ونقدّم لها بعضاً من طعامنا؛ فالأشجار كذلك غيورة مكيودة كما تبيّن لي في الهند!

إله للبيع والذّبح:

استمرّتْ أمّي أمّ بطبوطة في ممارسة هوايتها الطّارئة في تصوير البقر السّائح في الدّروب، كأنّها لا ترى ما يدهشها في الهند سوى الأبقار، وظلّتْ تتكرّر دهشتها البريئة كلّما رأتْ رأتْ بعض الأبقار مطوّقة الأعناق بقلائد ذهبيّة ، وأخرى تتمايل مختالة بقطع ذهبيّة معلّقة في

أنفها أو في إحدى أذنيها، وبعضها قد عُلّقت عليه خرق ملوّنة نذوراً، والأنكى من ذلك أنّ بعض النّاس قد عُلّقوا أشرطة فسفوريّة على قرون البقر كي تحذّر السّائقين من دهسها، وهي تهيم في الدّروب، وتسبّب الحوادث دون أن تجد مَنْ يمنعها من غزوها الهمجيّ للشّوارع والمتاجر والبيوت والأحياء؛ ومَنْ يجرؤ على منعها من ذلك؟ وهي آلهة مقدّسة عند الهندوس الطّائفة الأكثر عدداً في الهند؟

فمن يجرؤ على إزعاجها أو المسّ بها سوف يُقتل شرّ قتل في الشّارع أمام الجميع دون أن يجد منقذاً شهماً ينقذه من هذا المصير.

حالات الاعتداء على المسلمين والمسيحيين وفقراء الهندوس بسبب البقر وقضاياه شهيرة وكثيرة، ووصلتْ أحياناً إلى مرحلة المواجهات الدّامية بين الهندوس والطّوائف الأخرى لا سيما المسلمة بحجّة أنّ المسلمين يأكلون لحوم الأبقار؛ إذ يكفي أن يزعم أيّ زاعم أنّ مسلماً ما يطهو لحم بقر في بيته، أو أنّه قد تناول وجبة فيها لحم بقر حتى تهاجمه قطعان من دهماء الهندوس الغاضبين لإلههم المأكول، وتحرق بيت المسلم، وتُعمل القتل في أهله، وتثير هلعاً بين صفوف المسلمين دون نصر أو إنقاذ جادّ من قبل العناصر الأمنيّة المنحازة إلى المواطنين الهندوس جملة وتفصيلاً.

أمّا إنْ حالف الحظ المسلم المتّهم بأكل لحم البقر، ووصل حيّاً إلى القضاء الهنديّ الذي يُجرّم أكل لحم البقر، فسوف يواجه هناك حكماً قرقوشيّاً جائراً يصل إلى حدّ سجنه مدى الحياة، إلى جانب تغريمه مبلغ مئة ألف روبية، أيّ ما يعادل نحو 1250 يورو، هذا ما يحدث في الكثير من ولايات الشّمال في الهند.

هذا الحال جعلني قلقة من تصميم أمّي على تصوير البقر في كلّ

مكان نذهب إليه، كما جعلني أهاب الاقتراب من أيّ بقرة في الدّرب خوفاً من أن تصدر عنّي أيّ حركة لا إراديّة وغير مقصودة قد يفسّرها الهندوس بالازدراء لآلهتهم البقرة، ويعدمونني وأمّي في الشّارع على مرأى من الجميع، وتكون هذه هي النّهاية المأساويّة غير المتوقّعة للرّحالة بطبوطة وأمّها أمّ بطبوطة، فأدفع حياتي وحيّاة أمّي الحبيبة ثمنها لهيبة بقرة جرباء تسيح دون هدف في شوارع الهند وهي تتخايل بالذّهب، في حين تنام فوق برازها.

بذلك نكون ضحايا جُدد من ضحايا البقر في الهند إلى جانب ضحاياه التي لا تُعدّ، ومنها الاقتصاد الهنديّ الذي تدمّر بسبب تراجع صادرات اللّحوم، وتقليل دخول المزارعين والدّباغين والمزارعين الذين حرّم القانون عليهم بيع الأبقار أو ذبحها، فساحتْ في الشّوارع، واعتدتْ على ممتلكات المزارعين والباعة، وهاجمت الحقول، وأكلتْ زروعها دون أن يستطيع المزارعون أن يحتجّوا على ذلك، فالبقرة الواحدة تستطيع أن تبتلع في ليلة واحدة محصولاً كاملاً لمزرعة ما. فكم تستطيع أن تبتلع 190 مليون بقرة سائمة في دروب الهند دون رقيب أو حسيب؟

من مستهجن ما يحدث في هذا الشّأن أنّ الكثير من المزارعين يحاولون أن يتخلّصوا من اعتداءات الأبقار على حقولهم ومزارعهم بتسليمها إلى ملاجئ رعاية خاصّة بها، وهنا يكون لزاماً عليهم أن يدفعوا أجور رعايتها التي قد تصل إلى خمسة آلاف روبية (63 يورو) في الشّهر الواحد لقاء رعاية بقرة واحدة فقط، وتوفير العلف لها بما يكفيها.

من مهازل هذه المشهد البقريّ، وما أكثرها من مهازل في الهند! أنّ

هذا المبلغ الذي يلزم لرعاية بقرة واحدة لشهر واحدة في ملجأ رعاية متخصّص، هو أكثر بكثير ممّا ينفق على أسرة فقيرة كاملة في الهند!

لكن تشدّد الهنود الهندوس في الدّفاع عن بقرتهم الإله يتضاءل ويختفي عندما يتعلّق الأمر بالمال والغنى والفقر والحاجة؛ ففقراؤهم يأكلون لحم البقر؛ لأنّه الأرخص ثمناً في الهند غير آبهين بالتهام آلهتهم البقرة ما دام ذلك سوف يشبع بطونهم الجائعة، أمّا أغنياء الهنود، فهم أكثر تهاوناً بآلهتهم البقرة، وأكثر تآمراً عليها؛ فأكبر صادراتْ في العالم للأبقار هي من البقر الهنديّ، إذ يزفّ الهنود الهندوس البقر إلى السّوق العالميّ لأجل ذبحها وأكلها غير آبهين بمصيرها بوصفها آلهتهم المعظّمة التي يريقون دماء المسلمين وغيرهم من أجلها، شأنهم في ذلك شأن التّجار الهنود المسلمين الذين يعملون في هذه التّجارة المربحة كذلك، بل إنّ هناك الكثير من تجّار الأبقار هم من الهندوس الذين يفعلون ذلك بكلّ رضا وراحة ضمير مؤثرين المال والرّبح الوفير على حياة آلهتهم البقرة، فيقدّمونها للذّبح دون مبالاة بمصيرها هذا.

إنّهم باختصار يبيعون آلهتهم البقرة عند حاجتهم لذلك، لكنّهم يشتاطون غضباً مزوّراً على مسلم أو هندوسيّ فقير إنْ أكل لحم البقر في الهند، ويؤجّجون الجماهير من أجل الفتك به وبأسرته، وتخريب حيّه، وترويع جماعته وأهل ملّته.

أخيراً نجحتُ بإقناع أمّي أمّ بطبوطة بالتّوقّف عن تصوير البقر، فاكتفتْ بتصوير قطعان الكلاب والقطط والحمير والماعز والحيوانات الدّاجنة والحيوانات البرّية المسالمة التي تجوب الأماكن، وتلتصق بالبشر بألفة منقطعة النّظير.

وعدتها بأن أدعوها إلى طبق بقر لذيذ في الأردن عند عودتنا إليها، لكنّها رفضتْ عرضي هذا غير آبهة به؛ لأنّها بطبيعة الحال لا تحبّ لحوم الأبقار، ولا تأكلها، أكانتْ في الهند، أم في الأردن، أم في أيّ مكان آخر في العالم.

أحرم قلبي وحجّت نبضاتي:

بعد يوم طويل من اللّقاءات العلميّة والحوارات مع علماء العربيّة الهنود قرّر عُبيد الرّحمن البخاريّ أن يوصل د. محمد أشرف علي إلى بيته في درب جولتنا المسائيّة في المدينة، لكن هذا التّوصيل تحوّل إلى جلسة نقاشيّة فكريّة روحانيّة مطوّلة، ونحن نجلس على دكّة إسمنتيّة قديمة على إحدى المنصّات العامّة التي تُشرف على نهر»هوغلي« الذي يصبّ فيه نهر»الغانج« ليصل إلى خليج «البنغال».

جلسنا بين أرتال الهنود الذي يجلسون في المكان، فغصنا بينهم، ولم يعد يستطيع الرّائي أن يميّزنا من بينهم، إلاّ أنّني ظللتُ أميّز نفسي بذلك الصّخب الرّوحيّ العجيب الذي يعصف بي مرّة واحدة.

كان د. محمد أشرف علي يحدّثنا بالكثير عن خصوصيّة الثّقافة الهنديّة التي لا أتوقّف أسأل عن تفاصيلها الدّقيقة التي لا يمكن أن تُفهم إلاّ من أهلها، وهو يصمّم على أن يغضّ بصره وهو يحدّثني، وأن لا ينظر في وجهي، وهو المتديّن الذي يرفض أن يصافحني في كلّ مرّة أمدّ يدي له كي أحيّه، فيذكّرني بأنّه لا يصافح النّساء بوضع كفّه على صدره، كأنّه يهرّبها من هذه المصافحة التي قد تورثه إثماً ما، وهو النّقي الطّاهر النّظر الذي تعلوه مهابة ورزانة واضحة.

أمّا أنا فكنتُ موزّعة بين مراقبة تفاصيل ما حولي من بشر وأفعال

وهيئات وطبيعة وحيوان، وبين ذلك الفقير المنبوذ الذي يرتمي أمامي على الأرض عارياً إلاّ من لباس داخليّ، ويجلس فوق قطعة خيش قديمة مكسوراً شاخصاً، لا يأبه بشرٌ بحزنه.

أخذتُ أراقبه بصمت لا يقلّ بروداً عن برود باقي الهنود؛ فقد هاجمتني من جديد صدمة اللامبالاة والاعتياد على معاناة البشر التي أصابتني عدواها في الهند.

أخذتُ أطرب لتلك الموسيقى والغناء التي تتنزّى إلينا من معبد هندوسيّ قريب، وشعرتُ بأنّ قطراتْ ماء النّهر هي من تنقل الموسيقى لنا لا ذرّات الهواء؛ إذ كانت الموسيقى تقرع الآذان مصحوبة بامتزاجها بصوت خرير الماء وبقبقاته.

أغمضتُ عيناي كي أستمتع للموسيقى، وأتجاهل نظرات المتشرّد المنكوب الذي يجلس أمامي على الأرض، ويراقبني بفضول؛ فهذه هي طريقة مضمونة للسّير في الهند دون رؤية البؤس، وهي طريقة إغماض العينين والقلب والرّوح والحواس.

فجأة طرأ على المكان ذي الفوضى المتداخلة صوتٌ جديد، وهو صوت غناء نسائيّ صوفيّ عذب بحروف فارسيّة، لقد كنتُ أعرف تلك الأغنية جيّداً، إنّها أغنية «روح العاشقة»، لقد سمعتها في الماضي مغنّاة من عدّة فرق فارسيّة، وأحفظ كلماتها جيّداً، وأعرف ترجمتها، إلاّ أنّني أطرب عندما أسمعها بإداء فرقة «شيراز» للموسيقى والغناء الصّوفيّ، بغناء الشّيرازيّات «كلبهار» و«كلزدان»، وعزف الموسيقار «أريا كلبالكاني».

لكنّها أوّل مرّة أسمع فيها هذه الأغنية بغناء هنديّ، حيث ترقّ الحروف، وتصبح أضعف جرساً، وأكثر حزناً، وأعظم تأثيراً في النّفس.

ما الذي جاء بهذه الكلمات إلى هنا؟ لا أعرف. لكنّني ظللتُ

أرهف السّمع لذلك الغناء الصّوفيّ الفارسيّ باللّكنة الهنديّة الرّهيفة، وتردّدتْ في روحي كلمات جلال الدّين الرّوميّ الذي قدّ كلمات الأغنيّة من روحه، فأخذت أترنّم مع كلماتها التي تقول:

«إنْ تكلّمتْ روحُ العاشق
أضرمت النّار في هذا العالم
فجعلتْ هذا العالم مجتثّ الأصل
هباء أو كالعدم
تنشقّ عند ذاك السّماء
فلا يبقى كون ولا مكان
يعمّ الاضرابُ العالمَ
وينقلب هذا الحفل إلى مأتم
والشّمس يعتريها النّقصان
فتغدو أقلّ نوراً من روح الإنسان
لا يبقى ألم ولا دواء
لا ناي يبقى ولا لحن
لا خصم يبقى، ولا مَنْ يشهد
لا يبقى ألم أو دواء
ولا من قيثارة تترنّم
يشعل الحقّ ناراً
تحرق كلّ ما ليس بحقّ
فتحرق النّار المخادع
وتأتي على بنيان ذاك العالم

فجأة علا صوت بوق مستنفر، يشبه ذلك الصّوت الاحتفاليّ

بالأبواق الذي يرافق الاحتفال بالفيل المؤلّه «غانيش»، وسرتْ عندها رعشة عجيبة في جسدي، وشعرتُ بأنّ ماء نهر «هوغلي» انسكب في روحي، فشعرتُ بشعور خليط من البرد والحرارة في آن، وعلا صوت للآذان في أذني، وهو يصدح «الله أكبر»، وما دريتُ أهو صوت حقيقيّ أم نابع من روحي التي تريد أن تنتصر لذاتها بين هذه الأمواج البشريّة المتداخلة، وطارتْ روحي إلى مكان آخر حيث الكعبة والطّائفين بها، وأحرم قلبي، وحجّت نبضاتي، وغاب النّهر من أمامي.

رائحة شواء لحم:

كنتُ أجدني، وأبحثُ عنّي بطريقة ما، وأنا في ملكوت اللّه حيث «الله أكبر» تجلجل في روحي بمهابة طاغية، لكن رائحة شواء لحم ما داهمتْ أنفي، وردّتْ روحي إلى يابسة الأرض من جديد، بل ارتطمت روحي بالأرض ارتطاماً بسببها، بعد أن أسقطتني من ملكوت هيامي.

فتحتُ عيني لأعرف ما هذه الرّائحة المقزّزة المداهمة، وسألتُ د. محمد أشرف علي وعُبيد الرّحمن البخاريّ عن هذه الرّائحة الغريبة، فأخبراني أنّها رائحة إحراق جسد ميّت هندوسيّ، وأشارا إلى مبنى على شكل مربّع بالقرب من مجلسنا الإسمنتيّ، وأخبراني أنّها محرقة لإحراق جثث الموتى الهندوس لاستكمال مراسيم تشيعهم إلى العالم الآخر وفق اعتقادات الهندوس، وبعد الإحراق يُلقى الرّماد في نهر»الغانج» المقدّس.

رائحة الشّواء كانتْ منفّرة جدّاً، وما زادها تنفيراً لي أنّها رائحة شواء جسد بشر؛ فقد كانتْ هذه أوّل مرّة أشمّ فيها رائحة جلد وعظام بشريّة تحترق.

بدأتُ أتابع المنظر من بعيد، وحرّاس المحرقة يقومون بكلّ ما هو مطلوب بهدوء ولا مبالاة، كأنّهم يشون دجاجة للغداء، لا يحرّقون جسد إنسان ميّت؛ فهم قد ألفوا هذا الطّقس الذي يعيشونه ليل نهار؛ إذ لا تنطفئ هذه المحارق إلاّ في النّادر، ويتمّ إحراق الجثث دون توقّف، وتتوارث العائلات المتواضعة هذه المهنة، وفي الغالب هم ينتمون إلى طبقة الفقراء المعدمين، أو إلى طبقة المنبوذين، ويعتاشون على عطايا أهل الميّت التي تتفاوت وفق أحوال أهل الموتى وكرم أنفسهم.

للهنود الهندوس قناعة غريبة مفادها أنّ إحراق جثث موتاهم في مدينة «فاراناسي» الملقّبة بـ «مدينة الموتى» يتيح للرّوح أن تبلغ أعلى الدّرجات، وهي درجة «الموشكا»، وذلك يكون عندما تخرج الرّوح من دورة التّناسخ؛ لذلك يرحل المحتضرون إلى هذه المدينة كي يموتوا فيها، وفي انتظار الموت ينزلون في فنادق مخصّصة للمحتضرين الذي ينتظرون الموت في غضون 15 يوماً لا أكثر؛ فهذه الفنادق الغريبة تقدّم لنزلائها أسرّة للموت، ولعلّ فندق «كاشي لاب موكتي بافان» هو من أشهر هذه الفنادق.

يتمّ جمع أجساد الموتى على أعتاب أدراج نهر «الغانج»، لتُحرق جميعاً في طقس غنائيّ احتفاليّ بحضور جموع من المشاهدين الذين يلتقطون صور «سيلفي» مع الجثث المتفحّمة، ولا يمانعون في النّبش فيها بعد إحراقها بحثاً عن قطعة ذهب أو معدن ثمين ليبيعوه، ومن ثم يجلسون إلى مقاهي المدينة الشّهيرة لشرب الشّاي، وكأنّ الموت الذي يخيّم على المكان ليس إلاّ عتبة للدّخول إلى فرح ما، لا يقلّ بهجة وأريحيّة عن استحمام الرّجال والنّساء والأطفال بفرح في نهر»الغانج» الذي يظلّ طاهراً ونقيّاً ونظيفاً وفق معتقداتهم على الرّغم من أنّه مكب

شهير لإلقاء رماد الجثث فيه، ومرتع للتّلوّث البيئيّ الخطير، وموئل للقمامة بأنواعها جميعاً.

في مساءات هذه المدينة تُقام مراسم دينيّة على ضفّة نهر «الغانج» تُعرف باسم «الغانجا آرتي»، وهو احتفال راقص في الهواء الطّلق لتقديس الإله «شيفا»، وعلى الرّغم من أنّ هذا الطّقس هو طقس جنائزيّ بالدّرجة الأولى، إلاّ أنّه يُعامل على أنّه طقس ابتهاجيّ وسط مدينة منذورة للموت والموتى وحرق الجثث، وهواؤها ملبّد برماد الجثث المحترقة وسخامها الأسود الذي يتطاير من بقايا الجثث المتفحّمة.

فجأة غدا عندي نفور من النّهر الذي ينساب أمامي مغبّراً بلون أسود مهلك، وخلتُ أنّ هذا السّواد ليس أكثر من رماد الجثث، وأخذتُ أتساءل كيف يغتسل الهندوس فيه ثلاث مرّات في حجهّم الهندوسيّ الكبير «كومب ميلا» وهو بهذه القذارة والاتّساخ؛ وهم مَنْ يعتقدون أنّ هذا الاغتسال في النّهر ثلاثاً مع ثني الرّكبتين وشرب شربة من ماء النّهر هو ما يطّهر مَنْ يقوم به، ويعود به إلى الطّهر الحقيقيّ، ويخلّصه من أيّ عائق يمنعه من لقاء الآلهة.

هذا الطّقس المطهّر/ الحجّ الهندوسيّ «كومب ميلا» لا يمكن أن يكتمل إلاّ في مياه نهر «الغانج» الأسطوريّ المقدّس عند الهندوس. وسمّي «الغانج» نسبه إلى الإله «الغانجا»، وهو ينبع من جبال «الهملايا» في الشّمال، ويصبّ في خليج «البنغال» في الجنوب، ويبلغ طوله 2510كم2، أيّ 1560 ميل، في حين تبلغ مساحته 90007كم2، كما يبلغ متوسطه 52 قدماً، ويبلغ أقصى عمق له مئة قدم.

طقوس الموت التي سيطرتْ على المكان جعلتني أنفر من رغبتي في شراء ملابس هنديّة بيضاء بنغاليّة؛ إذ علمتُ أنّ هذه الملابس هي

ملابس الموت والحداد في الهند؛ وأنا لا أريد أن أتورّط أكثر في الموت والموات في هذه الرّحلة المضنية، بل أريد أن أنتصر للحياة والأحياء، كما لا أريد أن أبدو مثل أرملة هندوسيّة ترتدي البياض، وتُحرم من الزّواج مرّة أخرى بعد ترمّلها، لتمضي حياتها وحيدة شؤم على كلّ مَنْ يقابلها وفق اعتقادات الهندوس.

فتعيش حرماناً موصولاً، فلا يرحمها راحم، ولا يشفق عليها مشفق، وقد يدفعها هذا الوضع بعيداً عن جادّة الطّريق حيث حضن أيّ رجل تهبه نفسها سفاحاً ليطفئ بعض عطشها الموصول لرجل ما في مجتمع مضطهد لها يمنعها من الزّواج بعد موت زوجها، ويفرض عليها عزوبيّة أبديّة، في حين لا يُحرم الرّجل الأرمل من الزّواج بعد موت زوجته أو إحدى زوجاته أو زوجاته كلّهنّ.

باختصار شديد؛ الدّيانة الهندوسيّة تكيل بمكيالين أو أكثر في كثير من القضايا إن تعلّقتْ بالرّجل والمرأة؛ فالحقّ دائماً مع الرّجل في كلّ شيء، والمرأة نصيبها دائماً الحرمان والعنت والظّلم والقسوة عليها.

الرّكض وراء السّعادة:

لم أجد السّعادة بأيّ مفهوم من مفاهيمي الخاصّة أو العامّة في مدينة «كلكتا» خلا مفهوم السّعادة بلقاء أهلم العلّم وطلاّبه ومريديه، والسّياحة بحريّة وصحّة وراحة ضمير في أرض الله، لكنّني ظللتُ أبحثُ عن المزيد من السّعادة العميقة بأكثر من معنى فلسفيّ لعلّي أجد مبتغاي المنشود، وعندما شعرتُ بخيبة الأمر أصبح الأمر مادّة للتندّر بيني وبين أمّي، بعد أن رضينا بالفرح والودّ والمحبّة ولذّة الاكتشاف والتّرحال نصيباً لنا في هذه الرّحلة، وتوقّفنا عن سؤالنا

المطارد لدكتور محمد ثناء الله النّدويّ: أين السّعادة التي وعدتنا بها؟ بعد أن شككتُ بأمر السّعادة الموعودة الغائبة بعد أن عرفتُ أنّ هناك إله للسّعادة عند الهنود اسمه «أندرا»، وأنا أرتاب عندما يتعلّق أمر أيّ شيء يعنيني بإله أو إلهة هنديّة مصنوعة من الأوهام والخيالات والأمنيات والأحلام.

مدينة «كلكتا» تهبّ البهجة والدّهشة لَمَنْ يزورها بشكل سطحيّ دون اشتراطات فلسفيّة وأخلاقيّة معقّدة مثلما أطلب؛ فهي تهبها بسهولة وسخاء لمن يقبل بالسّعادة كما يبغيها النّاس بسطحيّة وسذاجة، حيث متعة السّياحة واللّهو والأكل والسّهر وملذات الشّهوات الجسديّة الخالصة.

هي تقع شرق الهند، وتُعدّ عاصمة ولاية «البنغال الغربيّ» التي تقع في محاذاة «بنغلاديش»، بعد أنْ كانتْ عاصمة الهند حتى عام 1911، وهي رابع أكبر مدينة في الهند، والمدينة الرّابع عشرة في العالم في ترتيب المدن الكبرى، وتقع على شاطئ خليج «البنغال».

فيها مقرّ حاكم الولاية والمجلس التّشريعيّ ودواوين الحكومة والمحكمة العليا، وهي كذلك المقرّ لعدد من المؤسّسات القوميّة، مثل: المكتبة القوميّة ومؤسّسة المسوحات الجيولوجيّة ومصلحة الأرصاد الجوية.

كما فيها ثلاث جامعات عريقة، وهي: جامعة «كلكتا»، وجامعة «جادافبور»، وجامعة «رابندرا بهاراتي»، إلى جانب الكثير من معاهد البحث العلميّ والإحصاء والعلوم والصّحّة.

لقد بُنيت «كلكتا» الحديثة في عام 1690 على يد شركة الهند الشّرقيّة البريطانيّة، لتصبح في عام 1773 عاصمة للهند حتى عام

1912، عندما انتقلت العاصمة إلى مدينة «نيودلهي»، وقد شهدتْ في تاريخها الحديث في عام 1946 معارك طائفيّة طاحنة بين المسلمين والهندوس قُبيل انفصال باكستان عن الهند.

يدين نحو 80٪ من سكانها بالدّيانة الهندوسيّة، واللّغة الرّسميّة فيها هي لغة «البنغال»، كما تتحدّث الأقليّات في المدينة نحو 60 لغة مختلفة.

يُعدّ المسلمون هم أكبر الأقليّات الدّينيّة في المدينة؛ إذ يشكّلون 15٪ من عدد سكّانها، إلى جانب النّصارى والسّيخ واليانيين والبوذيين.

تُلقّب «كلكتا» بعاصمة السّعادة وجنّة الكتب والحلويّات المذهلة، إلاّ أنّ ذلك لا يغيّر من حقيقة أنّها تعاني من مشاكل خطيرة ومقلقة، مثل: مشكلة الانفجار السّكانيّ، وتلوّث البيئة، والأوبئة، والفقر.

تحتوي على عدد كبير من الوجهات السّياحيّة الجميلة، وهي تتميّز بالتّنوّع العرقيّ والثّقافيّ الكبير، وتنشط فيها الكثير من الحركات الفنيّة والثّقافيّة التي تتمّثل في اهتمام سكّانها بالموسيقى والأفلام والفنون والريّاضة والنّقاشات الفكريّة.

فيها الكثير من الأماكن التي تجذب نظر الزّائرين، مثل «جسر حوراء» الذي يربط بين مدينتي «حوراء» و«كلكتا»، و«بيلور ماث» مقرّ إقامة حركة «راماكريشنا» الدّينيّة، وقصر الرّخام، والمتحف الهنديّ، والمكتبة الوطنيّة، ومكتبة «بوهار»، ومكتبة المجمع الملكيّ البريطانيّ الآسيويّ، ومكتبة حاجي عبد، ومدينة العلوم، والقبّة الفلكيّة «بيرلا»، وحديقة حيوان «أليبور»، وغيرها من الوجهات السّياحيّة والتّاريخيّة والطّبيعيّة الجميلة.

نصير النّاموس:

كـان ذلك الكاهن الهندوسيّ البـرتقـاليّ اللّبـاس والحـديث والابتسامة يتحدّث عن تعاطفه مع النّاموس، وضرورة التّسامح في التّعامل معه، وعدم إيذائه على الرّغم من تسلّطه على أجساد البشر الذين ينقل الأمراض إليهم.

كـان يتحـدّث بحرقة شـديدة حتى ظننته يتحـدّث عن أبنائه الأعزّاء المدلّلين، لا عن ذلك النّاموس المزعج الذي يستعمر المساحات جميعها في الهند في القرب من أيّ مسطّح مائيّ، ويحوّل أيّ مكان يتواجد فيه إلى جحيم من القرص الموجع الموبوء.

تمنّيتُ من قلبي أن يغمره ناموس الدّنيا كلّها كي يشبع تعاطفاً مع هذه الحشرات التي يقلقه مصيرها المشؤوم، ويجوب العالم حاملاً قضيتها، ومدافعاً عنها، ويشغلنا في حديث طويل عن وجوب حماية حياتها لتعيش بسلام هو من صميم حقوقها، فليس من المعقول أن يقتلها البشر لمجرّد أنّها تمتصّ دماءهم بخرطومها النّاقل لأمراض خطيرة.

تسـاءلتُ بعـمق لماذا لا يبـالي هذا الكاهن بشـقـاء الإنسـان في الهند، وبالفتك به لأيّ سبب كان لاسيما إن كان السّبب عنصريّاً أو طائفيّاً ؟ في حين يبالي بالنّاموس الثّقيل الظّل والوجود، وهو لم يشتكِ له من أيّ اضطهاد مزعوم يقع عليه!

أردتُ أن أسأله عن موقفه من ثقافة الطّبقيّة التي تسود في الهند، وتعذّب البشر بناء على قدريّة ولادتهم، لكنّني تراجعتُ سريعاً عن هذه سؤالي هذا؛ لأنّ الجدالات الطّويلة لا تستهويني؛ لأنّني لم أكن أرغب في طرح أسئلة أخرى مشابهة على المسلمين الذي لم ينعتقوا من نير الطّبقيّة الهنديّة التي لا وجود لها في الإسلام، لكنّني تراجعتُ

عن هذه الأسئلة جميعها؛ لأنّني خشيتُ أن يسألوني عن تفسير الطّبقيّات الأخرى التي نعيشها في عوالمنا العربيّة.

قرّرتُ أنْ أضرب صفحاً كذلك عن السّؤال عن طبقة المنبوذين التي أطلق عليها الزّعيم «غاندي» اسم «داليت» أيّ المظلومين، أو اسم «هاريجان» أيّ أبناء الله، إلاّ أنّ اللّقب الشّائع لهم هو لقب المنبوذين، ويبلغ عددهم نحو 170 مليون إنسان منكود، يعيشون حياة النّبذ بكلّ ما فيها من بشاعة وقبح وإقصاء، وإنْ استطاع قلّة قليلة منهم أن يقهروا قيود طبقتهم المنكودة، وأن يتميّزوا، وأن يصلوا إلى طبقة عليا متنفّذة، فإنّ عار طبقتهم يظلّ عالقاً بهم أبد الدّهر.

لقد سألتُ هنديّاً هندوسيّاً يتحدّث طويلاً عن قيم التّسامح والإنسانيّة والكونيّة العادلة إن كان يقبل بأن يزوّج ابنته لرجل من طبقة المنبوذين، عندها برم شفتيه بانزعاج من مجرّد طرح السّؤال عليه، ورفض ذلك بانتفاضة انزعاج، عندها عدلتُ عن سؤاله عن كثير من الأمور التي تحيّرني مثل مهنة «الفاليميكي» منظّفي المراحيض بشكل يدويّ، ومهنة جامعي الجثث من الشّوارع، وعن غيرها من المهن غير الإنسانيّة في الهند.

لقد عدلتُ عن طرح أسئلتي هذه كلّها، وهربتُ إلى الصّمتْ الآمن الملغز، وبدأتُ أفهم أكثر فلسفة الصّمت التي يجيدها الكثير من العلماء الهنود المسلمين الذين دخلتُ معهم في حوارات فكريّة طويلة.

الإنسان الحصان:

قصدتُ وأمّي وعُبيد الرّحمن البخاريّ وآخرون من ضيوف المؤتمر والمضيفين الهنود سوق «نيو ماركت» الشّهير في وسط مدينة «كلكتا»

نبغي التّعرّف على البضائع البنغاليّة الفاخرة، وقد تمتّعنا في السّوق بشرب ماء نبات جوز الهند الذي يُباع في السّوق بأسعار زهيدة، وله مذاق حلو منعش وبارد يقلّل من حرقة أشعّة الشّمس.

سوق «نيو ماركت» هو سوق شهير جدّاً في «كلكتا» وفي أنحاء الهند، وتمّ افتتاحه في عام 1874، بعد أن قام بتصميم بنائه «روكسيل اين» الذي كان آنذاك مهندساً في شركة شرق الهند للسّكك الحديديّة، وقد صمّمه على الطّراز الفيكتوريّ القوطيّ.

لقد تمّ بناء هذا السّوق في منطقة معروفة آنذاك باسم «ساحة دالهوزي»، وكان هدف إقامته هدف عنصريّ بحت؛ إذ رغبت الحكومة البريطانيّة في تصميم أسواق راقيّة تكون حكراً على البريطانيين الذين يقيمون في «كلكتا» بعد أن أبدوا نفوراً وتعالياً على أهلها الأصليين من الهنود.

عند افتتاح السّوق في عام 1874 كان حكراً على أولئك البريطانيين المستعمرين الذي يقطنون في «كلكتا»، وظلّ هذا السّوق في نمو حتى الحرب العالميّة الثّانية، إذ ظهر الجزء الشّماليّ من السّوق في ذلك الوقت، في حين كانتْ متاجر الزّهور تقع في المدخل الأماميّ للسّوق، أمّا متاجر الأسماك واللّحوم، فتقع في الجزء الخلفيّ منه.

لقد احتوى السّوق على متاجر غريبة لبيع الحيوانات النّادرة والغريبة المجلوبة من شتّى أصقاع الهند، وقد استمرّت هذه الأسواق حتى منتصف سبعينيّات القرن العشرين.

كان يمكن أن يكون هذا السّوق سوقاً اعتياديّاً مثل أيّ سوق في الهند أو أيّ مكان في العالم على الرّغم من خصوصيته وعراقته، لولا ذلك المشهد غير الإنسانيّ الشّهير في هذا السّوق على غرار الأسواق

جميعها في مدينة «كلكتا»، إذ برزتْ أمامنا عربات خشبيّة سياحيّة وشعبيّة تُستعمل بوصفها وسائل نقل سريعة في الأسواق المزدحمة والدّروب الضّيّقة، وهي وسيلة رائجة وشهيرة ومحبّبة في «كلكتا».

المفجع أنّ هذه العربات التي تتسع لشخص أو شخصين في أقسى الظّروف مَنْ يجرّها ليس حصاناً عفيّاً أو بغلاً ضخماً أو أيّ دابة كانتْ، بل يجرّها إنسان معذّب شبه عاري الجسد، وحافي القدمين، الدّروب الحارة القذرة تذوّب أسفل قدميه، وثقل العربة ومَنْ فيها من الرّكاب يهدّ جسده وحيله، ويمزّق عضلاته، ويحني ظهره، ويهدّم احتماله وروحه ونفسه.

تُسمّى هذه العربة باسم «ركشا» يدويّ أو «تانا»، ومَنْ يقودها يطلق عليها سائق «ركشا»، أو صاحب «ركشا»، ويعرفون باسم «ركشاجالار بهائي»، و«تانار بهائي». هذا النّمط من العربات يُستخدم في منطقة «شملا» الهنديّة، و«زولو» الإفريقيّة، و«سنغافورة»، وغيرها من الأماكن في الدّنيا، كما يُستخدم في بعض مناطق «مدغشقر»، ويُعرف فيها باسم «pousse-pousse».

يمضي الإنسان الحصان المعذّب المقهور يجرّ العربة ومَنْ فيها بذلٍ وصغار وجهد موصول، كأنّه حيوان مسخّر لذلك، وذلك كلّه مقابل روبيّات قليلة يحتاج أن يجمعها طوال النّهار وطوال جزء من اللّيل حتى تصبح كافية لسدّ رمقه ورمق أسرته، ويرضى بامتهانه وذلّه وعذابه نظير الحصول عليها.

العجيب في الأمر أنّ لا أحد في المكان يرى في هذا الامتحان للإنسان الحصان أيّ سلوك مقزّز يستدعي الثّورة عليه، بل إنّ الرّجال الخيل المستعبدين يقبلون بما هم فيه، ولا يبحثون عن وظيفة أخرى،

ويقطعون أيام أعمارهم في هذه المهنة المتوحّشة التي تكرّس همجيّة الإنسان وابتكاراته المذلّة لأبناء جلدته؛ فلا كائن في الكون يركب على ظهر كائن من أبناء جنسه سوى الإنسان.

النّاس في «كلكتا» يرون قصّة غريبة عن أصول أولئك الرّجال الخيل؛ إذ يزعمون أنّهم من سلائل أباطرة المغول، وأنّ الحياة قد جارتْ عليهم بعد أن تبدّلت أحوالهم، وانهارتْ دولتهم، ورحل ملكهم، فُحكم عليهم بأن يعملوا في هذه المهنة انتقاماً منهم، ومن ثم توارث الأبناء هذا العمل الانتقام عن أسلافهم الذين انقلبت الحياة عليهم، وظلّوا أسرى هذا العمل الاستعباديّ، لا يغادرونه، ولا يغيّرونه، ولا يثورون عليه، فكتبوا الذّلة على أنفسهم بخنوعهم وقلّة حيلتهم، كما كتبها المنتصرون عليهم من قبل.

سألتُ عالماً هنديّاً كان في صحبتنا: إلى أيّ سلائل الملوك المغول هم ينتمون بالتّحديد، رمقني بسخط، ثم قال بمقت وغضب: «هم ينتمون إلى طبقة البشر الذين طردتهم آلهة السّماء من النّعيم، هم ينتمون إلى الفقراء، الفقر جريمتهم، والعقاب ترينه أمامكِ الآن». وسار قدماً، وتركني خلفه، بعد أن فارقته أريحيّته وبهجته التي كان يملكها في الصّباح، وهو يحدّثني وأمّي عن جمال النّساء البنغاليّات ذوات الأجساد السّمراء الرّشيقة العفيّة، والشّعر الأسود الطّويل الحريريّ، والعيون النّاعسة، والبشرة النّقيّة المترعة صحّة وشباباً بسبب اعتمادهنّ على الأكل البحريّ بشكل خاصّ، وأكثر مَنْ يتمثّل الجمال البنغاليّ من النّساء هنّ النّساء البنغاليّات الثّريّات؛ فالفقر على حدّ تعبيره يسرق جمال النّساء، أمّا الغنى فيقدّم الجمال شهيّاً حارّاً لكلّ مَنْ يشتهيه.

لا أعرف لماذا خطرتْ في بالي حينها جملة قالها لي د. محمد

إشارت علي ملاّ في معرض حديثه المعتزّ عن الهند: الهند هي بلد العلوم والفنون التي ساهم الهنود أجيال بعد أجيال في بنائها دون قيود أديانهم؛ لأنّهم يعيشون بين أديان مختلفة، ويعتمدون على الآية القرآنيّة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [العلق: 4]، وتساءلتُ في داخلي بسخط أين تمثيل هذه الآية فيما أرى هنا الآن وأنا أقف مصدومة من حياة الإنسان الحصان في مدينة «كلكتا» الهنديّة.

من جديد عاد وجع البشر يقرص روحي، وأنا مَنْ عاودتُ البلادة مرّة تلو الأخرى هروباً من وجعي، وأقنعتُ نفسي بأنّني قد تعوّدتُ على رؤية المآسي الهنديّة دون مبالاة بها، لكن سارتْ جرعة كبيرة من الوجع في دمي عندما اقترح عليّ ذلك العالم الهنديّ المتنوّر أن نكتري رجلاً حصاناً من أولئك المستعبدين كي يوصلنا إلى وجهتنا المقصودة بأسرع وقت، وأقلّ جهد تحت نير الشّمس الحارقة.

عندها نال العجب منّي كلّ منال، وما دريتُ كيف أستنكر كلام العالم الجليل الذي لا ينقطع يتحدّث عن حرّيّة الفكر والإنسان والخيارات، ولا يمانع في أن يركب عربة يجرّها إنسان من بني جلدته، لينقله إلى وجهته في أسرع وقت مهما آلمه ذلك، وعذّب جسده المحترق من الشّمس ومن حرارة أرض الشّوارع حتى أصبح أسود البشرة يعلوه سخام مقيم في تفاصيله جميعها.

اكتفيتُ بأن نظرت بجزع في عيني ذلك العالم الهنديّ، وقلتُ له بملء فمي: لا أريد ذلك. ومضيتُ في دربي أسير مع أمّي التي تتعكّز عليّ متألّمة من وجع ركبيتها، وترفض مثلي أن تركب ظهر إنسان ما مهما بلغ التّعب بها من مبالغ الإرهاق والإعياء.

«الماهاراجا» الذي نبذني:

من جديد قرّرتُ أن أتجاهل المآسي التي أراها في كلّ مكان في الهند كي لا أجنّ، أو أصاب بصدمة نفسيّة، وآليتُ على نفسي أن أتخيّل أنّني أعيش في قصر من قصور «الماهاراجا» الذي تصوّرت أنّه يستضيفني في قصره؛ لأنّني رحّالة عربيّة قادمة من المشّرق العربيّ، وصلتْ إلى الهند سباحة عبر المحيط، مثلها مثل أيّ آلهة أسطوريّة من آلهات البحر المفتونات بالأمواج والأسرار واللّؤلو والمرجان وحكايا شطّار البحار.

أمّلتْ نفسي بأن يخلع «الماهاراجا» عليّ لقباً ملكيّاً رفيعاً لا يقلّ عن لقب «مهاراني»؛ وذلك تقديراً لزيارتي التّاريخيّة له العابرة للأزمان والجغرافيا، ولعلّه يهب أمّي أمّ بطبوطة لقب رفيعاً يليق بها، ويجعلها تتيه به فخراً أمام صديقاتها وقريباتها وجاراتها في الأردن. لعلّ لقب أمّ كونيّة هو أفضل لقب يليق بأمّي المحبّة للبشر أجمعين.

منّيت نفسي بأيّام أسطوريّة أعيشها في قصر «الماهاراجا» حيث البذخ والثّراء الذي لا حدود له. أليس هو الملك العظيم؟ هذا ما يصرّح به لقبه؛ فكلمة «الماهاراجا» هي كلمة سنسكريتيّة تتكوّن من كلمتين، وهما «ماها» أيّ عظيم، و«راجا» الملك، فيصبح معنى الكلمة الملك العظيم، وهي كلمة وُصف بها ملوك الهندوس وحكّامهم في الهند.

في حين تحمل ملكات الهندوس اسم «مهاراني»، أيّ الملكة العظيمة، هذا هو اللّقب الذي حلمتُ بالحصول عليه في دنيا أحلامي الهنديّة حيث كلّ شيء ممكن في الحلم، مستحيل في الواقع.

«الماهاراجا» الذي حلمتُ بلقائه كان ملكاً منعّماً مثقّفاً رقيقاً شاعراً موهوباً وشديد الوسامة، ويغوص في نفيس الملابس ونادر الجوهر وباهر التّاج، لكنّني ما تخيّلتُ أبداً أن يقرّر «الماهاراجا» في أوّل لقاء

خيـاليّ به أن يحكم عليّ بأن يُلحـقني بطبـقـة المنبـوذين في الهند؛ وحجّته في ذلك أنّني لا أنتمي فعليّاً إلى أيّ طبقة هنديّة معروفة في الهند؛ لذلك حكم عليّ بأن أعـيش مـبنوذة في الخـيـال إلى حين مغادرتي للهند.

لم أبالِ كثيراً بقرار «الماهاراجا» الجائر بحقّي، ولم أبذل جهوداً في تعريفه بمكانتي وأصولي العربيّة العريقة، ولم أعرّفه بمواهبي وإمكاناتي، وراق لي أنّ أعيش في الهند إلى حين مغادرتي لها لأرى هذا العالم دون أن أبالي بحكم «الماهاراجا» عليّ، ودون أن أفكّر بأن أصرخ بوجهه قائلة: أنتَ «ماهاراجا» أحمق بحقّ.

اليوم الذي قرّرتُ أن أعيشه مبنوذة فيه جعلني أدرك مقدار وحشيّة نظام الطّبقات الهنديّ الذي يحرم البشر من إنسانيتهم، وينفيهم إلى العدم والنّسيان بحجّة أنّهم من الطّبقة الأقلّ في المجتمع.

المنبوذون يُطلق عليهم اسم «داليت»، أو «هاريجان»، وهم الطّبقة الأدنى في سلّم الطّبقـات الهنديّة وفق نظام السّلم الاجتماعيّ الهندوسيّ، وهو يعملون في مهن متدنيّة، وقد ظلّوا لعقود طويلة ممنوعين من دخول المعابد الهندوسيّة.

لقد عانتْ هذه الطّبقة من إقحاف تاريخيّ وإنسانيّ بحقّها؛ إذ زعمت الهندوسيّة أنّ مَنْ ينتمون إلى هذه الطّبقة قد ورثوا بؤسهم وفقرهم وتعاستهم من حيواتهم السّابقة حيث اقترفوا الآثام والخطايا، فحلّوا في أجساد المنبوذين لينالوا العقوبة التي يستحقونها بما فيها من احتقار وازدراء من الطّبقات الأخرى التي تنبذهم، وترفضهم، وتمتهنهم، وتتشاءم منهم إلى درجة أنّ الهندوسيّة تزعم أنّ مجرّد رؤية المنبوذ كافية لتلويث مَنْ يراه من الطّبقات الأخرى.

الأشدّ مأساويّة في هذا الوضع هو استلاب هذه الطّبقة نفسيّاً، وقبولهم بأوضاعهم، وعدم سعيهم للثّورة عليها؛ إذ مذهبهم الهندوسيّ يسوقهم إلى الإيمان بأنّهم يستحقّون المعاناة والعقوبة التي فرضتها الآلهة الهندوسيّة عليهم، ويقبلون بذلّهم وقهرهم تقرّباً لآلهتهم التي اختارتْ لهم هذا المصير والعقاب.

العجيب -من وجهة نظري- أنّ هذه الطّبقة المنبوذة تقبل بأن تعبد آلهة ظلمتها دون أدنى جريمة، وتلتزم بعقوبتها السّخيفة لها، ولا تفكّر أبداً بالثّورة على إله مصنوع ظالم بهذه الشّكل، وتظلّ خانعة لعبوديّتها ومظلوميّتها دون أدنى رفض أو تمرّد، وهذا بالضبط ما يشدّهم أكثر إلى مزيد من الانغماس في الإهانة والظّلم والاحتقار والمهانة.

هل يُعقل أنّ ملايين من أبناء طبقة المنبوذين في الهند عبر آلاف السّنين المنكودة لم يُولد فيها رجل واحد يحلم بالحرّيّة، ويرفع رأسه مطالباً بالحرّية والنّور؟ هذا والله من أعجب ما رأيتُ من الخنوع والذّل والمهانة التي تجعلني لا أدري هل أحزن على هذه الطّبقة المسحوقة؟ أم أحتقرها لخنوعها وذلّها إلى هذا الحدّ؛ فما دامت الشّمس تُشرق كلّ يوم بقوّة وجمال وتحدٍ؛ فعلى البشر أن يحلموا بنورها وحرّيتها.

كذلك يمعن أفراد الطّبقات الأخرى في نبذ أبناء طبقة المنبوذين، ويوغلون في معاملتهم بقسوة وخشونة ووحشيّة تقرّباً من الآلهة التي يزعمون أنّها ترضى بمعاقبتهم، وبذلك تستمرّ هذه المهزلة الإنسانيّة؛ فالمنبوذ يقبل بظلمه المستمرّ، ويرضى بالفتات الذي يُلقى إليه في المواسم والأعياد، وغير المنبوذين من الطّبقات الأخرى يجيدون احتقارهم وتعذيبهم، ويسيرون على معايير صارمة في احتقارهم ونبذهم، حتى فيما يخصّ المسافة التي يُسمح للمنبوذين بأن يقتربوا

بها من أفراد الطّبقات الأخرى، أو أن يأكلوا من طعامهم، أو أن يسمحوا لهم بلمسهم، حتى أنّه كان يُسمح في الماضي بأن يقتل ابن الطّبقة الأولى ابن طبقة المنبوذين إنْ مشى الثّاني على ظلّ الأوّل دون قصد.

لكن الدّستور الهنديّ قام بإلغاء طبقة المنبوذين بشكل رسميّ، منقذاً بذلك نحو 170 مليون هنديّ منبوذ من حتميّات عبوديّة طبقتهم، لكن هذا الإلغاء القانونيّ ظلّ في الغالب حبيس الأوراق الرّسميّة، في حين ظلّ هذا النّظام حيّاً يمارس بطشه على المستوى العمليّ والاجتماعيّ، وظلّ أفراده يعانون من عقبات تعترض دربهم في الحياة والعمل والسّكن والتّعليم، كما يعانون من هجمات عنيفة ضدّهم من الطّبقات الأعلى.

لكن في العصر الحديث خرج الكثيرون من هذه الطّبقة عن هذا التّعذيب الأسطوريّ لهم دون ذنب حقيقيّ، وصمّموا على أن ينالوا التّعليم المنشود، وانتزعوا وظائف رفيعة، ومناصب قياديّة في الجامعات والحكومة والبرلمان ورئاسة الجمهوريّة.

المؤسف أنّ هذا النّظام التّعسّفيّ قد طال الهنود المسلمين كذلك؛ فكثيراً من المنبوذين قد اعتنقوا الإسلام عبر أجيال طويلة من دعوتهم إلى الإسلام هرباً إلى سماحة الإسلام وعدالته من جور الهندوسيّة ونظامها الطّبقيّ، لكن على الرّغم من ذلك قلّما أنقذهم الإسلام من جورهم، وظلّ النّظام الاجتماعيّ الهنديّ الطّبقيّ أكثر قوّة من الإسلام ذاته في تحديد مصائر المسلمين من طبقة المنبوذين.

لقد عدتُ، وسألتُ صديقاً هنديّاً مسلماً من العلماء الإجلاّء الذين أؤمن بإنسانيتهم وتفتّح عقلوهم إن كان يقبل بأن يزوّج ابنه أو ابنته لفرد مسلم من طبقة المنبوذين، فراعني جوابه، وألجمني بالصّمت

مقهورة مصدومة عندما أخبرني أنّه يرفض ذلك رفضاً كاملاً؛ لأنّه لا يستطيع أن يصاهر أحداً من هذه الطّبقة، حتى ولو كان مسلماً مثله، مخالفاً بذلك عدالة الشّريعة الإسلاميّة ومساواتها بين البشر، وعدم المفاضلة بينهم إلاّ بالتّقوى.

عندئذ أدركتُ أنّني لا احتمل أن أظلّ سجينة في هذه الطّبقة المظلومة لمدّةٍ أطول، وهم مَنْ سُجنوا فيها طوال أعمارهم، وقرّرتُ أن أنبذ «الماهاراجا» من خيالي، كما نبذني من دنياه، ورجعتُ إلى حقيقتي الأولى، وهي أنّني بطبوطة ابنة أمّ بطبوطة الأمّ الأجمل والأعظم في هذا الكون من وجهة نظري.

طوق من زهور «غيندا»:

على الرّغم من أنّ معظم الأماكن العلميّة التي زرتها في «كلكتا» هي أماكن عمليّة ذات صبغة إسلاميّة، إلاّ أنّ زهور»غيندا» البرتقاليّة المحبّبة عند الهندوس كانت تزيّن كلّ مكان ذهبنا إليه حتى منصّات الجلسات العلميّة وطاولات الطّعام وجدران الرّدهات الدّاخليّة في المباني، ولم أعرف معنى أن يطوّقني العلماء المسلمون وأمّي بأطواق زهور»غيندا»، لكنّني أحببتُ ذلك، وراق لي، وتجوّلت وأمّي في «كلكتا»، وقلادة الزّهور البرتقاليّة الزّعفرانيّة تزيّن طلّتي.

لقد زرتُ وأمّي وعُبيد الرّحمن البخاريّ «قاعة فيكتوريا التّذكاريّة»، وعقد من زهور «غيندا» يطوّق رقبتي، وآخر مثله يطوّق رقبة أمّي، كأنّهما تعويذة حبّ هنديّة نحملها إلى هذا المكان.

قاعة «فيكتوريا التّذكاريّة» هي مبنى ضخم في «كلكتا» يقع في حديقة على ضفاف نهر «هوغلي»، وهي أنيقة العمارة، ومصممّه من

رخام «ماكرانا» الأبيض، وتقع في قلب حدائق نضرة مزهرة تبلغ مساحتها 62 فدّاناً، وقد صُمّم هذا البناء تخليداً لذكرى الملكة «فيكتوريا» (1819-1901)، إلاّ أنّه الآن متحف تابع لوزارة الثّقافة الهنديّة.

هذا البناء له طابع النّصب التّذكاريّ، وقد تمّ بناؤه باقتراح من اللّورد «جورد كرزون» (1899- 1905) الحاكم العامّ للهندّ البرطانيّة، تخليداً لذكرى الملكة «فكتوريا» بعد وفاتها، وقد تمّ افتتاح المبنى رسميّاً في عام 1921، بعد أن وُضع حجر الأساس له في عام 1906.

تمّ تمويل البناء من الولايات الهنديّة والحكومة البريطانيّة وبعض الأفراد المتبرّعين من أمراء الهند لذلك، وقام المهندس المعماريّ البريطانيّ «وليام ايمرسون» (1843-1924) بوضع تصميم هذا البناء الذي جعله مزيجاً من المعمار الهندو- قوطيّ والبريطانيّ والمغوليّ والإسلاميّ والمصريّ.

ترتفع قبّة مهيبة فوق وسط قاعة «فكتوريا»، ويحيط بالقاعة عدد كبير من التّماثيل التي ترمز إلى الفنّ والهندسة والعدل والإحسان والحكمة والأمومة والتّعلّم، وهي تماثيل تجسّد رجالات لعبوا أدواراً بارزة في تاريخ الهند، ولا سيما تاريخ مدينة «كلكتا»، ويحتوي المبنى على خمسة وعشرين معرضاً، منها: المعرض الملكيّ، ومعرض القادة الوطنيين، ومعرض الصّور، والقاعة المركزيّة، ومعرض النّحت، ومعرض الأسلحة، ومخزن الأسلحة، وغيرها.

كما يحتوي على عدد كبير من الكتب النّادرة والأعمال المصوّرة في الشّعر والرّقص والموسيقى لكبار المبدعين المبرّزين في هذه الفنون من بريطانيا والهند وأماكن مختلفة من العالم.

النّاس تروي قصصاً رومانسيّة عن قصّة حبّ جارف ربطتْ بين الملكة «فيكتوريا» وحبيبها الأخير الهنديّ الحافظ محمد عبد الكريم، على الرّغم من الجهود التي بذلتها العائلة البريطانيّة المالكة لدفن هذه القصّة، لكنّها اشتهرتْ بين النّاس.

لقد نشأتْ هذه القصّة بين الملكة «فكتوريا» وهي في أواخر السّتينيّات من عمرها وبين الشّاب الهنديّ الحافظ محمد عبد الكريم الذي كان في الرّابعة والعشرين من عمره عندما استقدمته من الهند للعمل في تقديم الطّعام لها على مائدتها، وكان عشيقها للسّنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياتها قبل وفاتها.

لقد أحبّت الملكة «فيكتوريا» هذا الشّاب من أعماق قلبها على الرّغم من الرّفض الكبير له في البلاط الملكيّ؛ لأنّه مسلم يحفظ أجزاء من القرآن الكريم، ولأنّه هنديّ وأسمر البشرة، وينتمي إلى طبقة متواضعة، إلاّ أنّ الملكة لم تبالِ بذلك كلّه، ومنحته لقب «مونشي»، أيّ المعلّم، ومنحته الألقاب والأوسمة والنّياشين، وأقطعته الكثير من الأراضي، حتى غدا أكثر ثراء من أيّ «ماهاراجا» هنديّ.

لكن بعد وفاة الملكة «فكتوريا» في عام 1901، تمّ طرد الحافظ محمد عبد الكريم من قِبَل الملك «إدوارد» السّابع ابن الملكة المتوفّاة، وأُعيد إلى الهند، دون أن يُسمح له بأن يلقي نظرة على جثّة الملكة، أو أن يسير في جنازتها، وتمّ إحراق رسائله إليها.

لقد تُوفّي الحافظ محمد عبد الكريم الهند في عام 1909، ودُفن في ضريح له إلى جانب والده، بعد أن ترك زوجتين، إلاّ أنّه لم يُرزق بأيّ ذريّة؛ فورثه أبناء أخته وأقاربه، وتقاسموا ثروته الكبيرة إلى أن تمّ تقسيم الهند في عام 1947، وهاجروا إلى باكستان، فقامت الحكومة الهنديّة

بمصادرة تلك الأملاك كلّها، ووزّعتها على اللاجئين الهندوس القادمين من باكستان.

الدّخول في مغامرة التّناسخ:

ظلّ د. عبد القادر بخوش الجزائريّ الأصل يلقّب د. محمد ثناء الله النّدويّ بلقب «البراهميّ» الأصيل، فيردّ على تلقيبه له بابتسامة عميقة ملغزة تحتاج دهوراً من التّفسير، ويندلح أكثر في سلوكه الذي يغلب عليه الفلسفة والرّؤى العميقة والدّماثة النّبيلة التي تجعل مَنْ يتحدّث معه يقبل بفرضيّة أنّه نبيل سليل عظام من عالم آخر، أو أنّه براهميّ يتخفّى في أرديّة العامّة، ويسيح في الأرض بحثاً عن حكمة ما يهديها للبشريّة.

البراهمة في فئة عليا ورفيعة في الدّيانة الهندوسيّة وفق تقسيم الطّبقات في كتاب «الفيدا» الذي كتبه كهنة الهندوسيّة ليرسّخوا فيه فكرة أنّهم طبقة مصطفاة على البشر، وأنّهم قد خُلقوا من رأس إله الآلهة «براهما»، والرّأس هو أشرف عضو فيه، وقد خلقوا من هذا العضو بالذّات ليكونوا سادة البشر، وسدنة الهندوسيّة، والقائمين على شؤون المعابد والآلهة وسنّ القوانين والإشراف على التّعليم والتّربية وأداء المراسم والشّعائر والطّقوس الدّينيّة في المعابد وخارجها.

في حين أنّ سواهم من البشر هم حرس وخدم وعبيد لهم، ويتدرّجون في مراتب أدنى منهم، فتأتي من بعدهم طبقة الفرسان وقوّاد الجيش والأشراف الذين خُلقوا من يدي الإله «براهما»، ثم تليهم طبقة التّجّار والمزارعين وأصحاب المهن الذين خلقوا من فخذي الإله «براهما»، وأخيراً تأتي الطّبقة الأدنى في المجتمع الهنديّ، وهي طبقة المنبوذين

أصحاب المهن الحقيرة، مثل الكنس والتّنظيف وغسل الملابس وتنظيف الجلود، وهؤلاء من الجنس الأسود، وقد خلقوا من رجلي الإله «براهما».

تأسّياً باختيار الألقاب والصّفات بحريّة في هذه البيئة العلميّة الجدليّة التي عشنها جميعاً في لقاءاتنا العلميّة في»كولكتا»؛ فقد قرّرتُ أن أعيش حرّيتي في اختيار تجربة خاصّة بي في الهند، وأكثر تجربة راقتْ لي فيها، هي تجربة التّناسخ على ما فيها من شطحات ومستحيلات وجموح، إذ أقنعتُ نفسي بأنّ حياة جديدة قد وُهبتْ لي في الهند، وقرّرتُ أن أعيش فيها دور الرّحالة العجائبيّة التي جاءتْ من عوالم أخرى مع أمّها أمّ بطبوطة كي تعيش تجربة نادرة في الهند من التّرحال والتّعرّف على البشر.

بدأتُ تجربتي بأن لبستُ ملابس خليط بين الهنديّة والعربيّة، وهي ملابس «البنجابي» البنغاليّة، واخترتُ منها اللّون التّوتيّ المقصّب بالحرير الذّهبيّ، وبدأتُ في تذوّق ما يدور حولي بعقليّة رحالّة عجائبيّة تعيش عوالم الحبّ والسّعادة في الهند بعد أن أخفقتْ في أن تحظى بالسّعادة اللانهائيّة في مدينة السّعادة كما وعدها د. محمد ثناء الله النّدويّ، وهو يقود ركبها المحلّق في السّماء باتّجاه مدينة «كولكتا».

بدأتُ أتجاهل بإصرار البؤس الذي حولي كي أعيش تجربة التّناسخ بعد أن انتقلتُ من مرحلة بطبوطة الأديبة الرّحالة والباحثة في الأدب الحديث إلى مرحلة بطبوطة الرّحالة العجائبيّة التي تعيش مع أمّها أمّ بطبوطة تجربة رحلة كونيّة طويلة توقّفت في محطّة الهند، وستغادرها في القريب كي تنطلق في رحلة أخرى، بعد أن ذاقتْ فيها السّعادة الكاملة، دون أن ترى بؤساً، أو شقاء، أو حزناً ما.

فقد أردتُ أن أقنع نفسي بأنّني قد انتقلتُ بالتّناسخ إلى مرحلة

عليا في وجودي، وهي مرحلة التّرحال واكتشاف البشر وعجائبهم، بعد مغادرتي لمرحلة أقلّ منها شيئاً، وهي مرحلة البحث قي حقول الأدب ونقده في وتيرة اعتياديّة لا استثناء فيها، خلا الالتفات إلى جديد رؤى التّشكيل وزوايا التّنظير.

حتى يحين زمن انتقالي من مرحلتي هذه إلى مرحلة أعلى مشتهاة لا أعرف ما تكون، سوف استحضر أرواح العاشقين الهنود والعرب وغيرهم من عشّاق الدّنيا، وأتخيّل أنّني أعيش في مدينة سعيدة لا يعرف أهلها الفقر أو البؤس أو العنصريّة أو الصّراعات الطّائفيّة أو الظّلم أو الطّبقات المقيتة.

أقنعتُ نفسي بأنّني أعيش الآن في مستوى بشريّ أفضل من الذي كنتهُ من قبل مكافأة لي على فضيلة ما لا أعرفها، لكنّني زعمتُ أنّها فضيلة حبّي الكبير لأمّي، وإخلاصي لها، وانقطاعي لرفقتها وصحبتها في الحياة.

هكذا حقّقتُ شروط التّناسخ جميعها، وانتقلتُ من درجة حياتيّة واجتماعيّة وروحيّة إلى درجة أعلى منها بفضل عمل صالح قمتُ به، وهو إسعادي لأمّي.

عقيدة التّناسخ عند الهنود الهندوس تقوم على فكرة انتقال الرّوح من جسد إلى آخر أقلّ مكانة منها، أو أعلى مكانة منها، وفق عمل الإنسان أو الكائن في حياته الحاليّة، من منطلق أنّ النّاس طبقات وفق أحوال خلقهم، وأنّ الانتقال بين هذه الطّبقات يكون عبر التّناسخ، والعمل الطّيب الخيّر هو ما يقضي بانتقال الإنسان إلى مرتبة أعلى، في حين أنّ عمل الشّرير هو ما يجعله يهبط إلى مرتبة أقلّ قد تكون روح حيوان أو حشرة أو أيّ مخلوق آخر.

في مرحلة متقدّمة من التّنقّل نحو أعلى الطّبقات قد يصل الأمر إلى مرحلة «النّيرفانا» حيث الالتحام بالإله بعد مراحل تنقّل متعدّدة مقترنة جميعها بالأعمال الخيّرة المتواترة والموصولة إلى حين الوصول إلى ذروة الإحسان والعمل الخيّر.

هذا كلّه ينطلق من فكر تفاؤليّ يحضّ الإنسان المنكود على تقبّل واقعه التّعس في حياته المعيشة على أمل أن يحظى بحياة أخرى أفضل بعد موته؛ فالتّناسخ هو طريقة تنفيسيّة تفاؤليّة للإنسان الهنديّ المحبوس بصرامة في طبقته ضمن نظام الطّبقات المتعسّف في تقسيم البشر.

راقت فكرة التّناسخ لأمّي؛ لطرافتها واستهانتها بوعودها غير المعقولة، وتواطأتْ معي في لعبتي هذه، وقبلتْ بفكرة أنّها أمّ لرحّالة عجائبيّة من عالم آخر، وكانتْ تستغرق في الضّحك، وهي تسمع أفكاري هذه، لكنّها سرعان ما باتتْ تستعجل خروجنا من الهند بعد هذه الإقامة الطّويلة فيها؛ خوفاً من أن تتطوّر حالتي التّناسخيّة، وأنقلب إلى كائن ما لا يروق لها، وتخسر ابنتها بطبوطة التي تحبّها كثيراً.

رحلات في مدينة السّعادة:

بعد أن تحوّلت بفضل تجربة التّناسخ إلى رحّالة عجائبيّة لا يطرق الحزن قلبها، ولا تعرف إلاّ الفرح والسّعادة، بدأتُ في تذوّق «كلكتا» بطريقة مختلفة، وكانتْ أجمل التّجارب عندها تجربتي في تلبيتي لدعوة للعشاء في مطعم «بر بي قيو نيشن» في الشّارع الشّهير «الشّارع بارك»؛ هي دعوة لطيفة وسخيّة من د. محمد إشارت علي ملاّ لي ولجميع المشاركين من أساتذة وباحثين في فعاليّات المؤتمر العلميّ الذي كنّا ضيوفه في قسم اللّغة العربيّة في جامعة «كلكتا».

عندها كنتُ في أوّل أطوار شخصيّتي التّناسخيّة الجديدة، كنتُ ألبس ثوباً هنديّاً بنغاليّاً، وألبس الاكسسوارات الهنديّة، وأضع الزّمام الهنديّ على أنفي الذي يسمّيه الهنود «بايل» أو «بازيب»، وألبس الخلخال الهنديّ الذي يزيّن أقدام النّساء الهنديّات، ولا يكون له معنى أو بهجة إلاّ إذا علّقه رجل عاشق في قدم امرأة يهواها قلبه، لكنّني لا أضع الحنّاء على يدي أو جسدي؛ إذ لم أجد وقتاً إلى ذلك.

ليلتها تخلّيت عن بطبوطة بشكل كامل، وأصبحتُ بطبوطة الرّحالة العجائبيّة التي لا ترى سوى السّعادة والفرح والعدالة في كلّ مكان تذهب إليه، ولا تستطيع عيناها أن تريا البؤس في التّفاصيل كلّها.

كانتْ سهرة علميّة إنسانيّة أدبيّة طريفة ابتدأتْ بحوارات علميّة شيّقة، ومرّت بولائم طعام هنديّة شهيّة، أبرزها طبق «الجمبري» المشوّي الذي راق لي كثيراً، وأكلتُ منه ود. محمد ثناء الله النّدويّ بحماس كبير وسط صخب الحاضرين العلماء أصحاب المعشر الحلو، ثم انتهى حفل العشاء بأكل المثلّجات على الطّريقة الهنديّة، وهي طريقة لذيذة في صناعتها، ومن ثم كان التسكّع الجماعيّ في «الشّارع بارك» في حوار راجل حول المنطقة وعلمائها وأهلها وتاريخها، وانتهتْ بحديث طويل عن نبات البان الهنديّ الذي دار حوله حوار طويل مغموز ومهموز عن فوائده وأسباب تناوله.

التّسكّع في «الشّارع بارك» الشّهير في «كلكتا» يستدعي حديثاً متشعّباً حول علمائها وأدبائها وقادتها ومفكّريها ورموزها ورجالاتها من عمالقة الفكر والأدب والسّياسة أمثال «بنكم تشاندرا تشارجي»، و«رانتندرانات طاغور»، وسوبهاش تشاندرا بوز»، و«رام كرشن بارامهانس»، و«سوامى فيفي كاناندا»، وغيرهم.

التّطواح في عوالم أولئك الأقطاب يحتاج بعضاً من الفواصل التّرفيهيّة، مثل الحديث عن نبات البان الذي رأيته يُباع في كلّ مكان على قارعة الشّوارع، ويغري مَنْ لا يعرفه مثليّ بأن يسأل عن سبب جاذبيته الخضراء التي تجعل الأيدي الهنديّة تتخطّفه، وترغب فيه.

لقد دار حديث طويل وضاحك حول هذا النّبات الأخضر الذي له تاريخ طويل أكثر من بعض الدّول الاستعماريّة الحديثة التي لا جذور أو خضرة أو عشّاق لها.

يُطلق على البان الهنديّ اسم «التّنبول»، ويُعرف كذلك باسم «اليسر»، والحبّة الغالية»، و«يسار الباب»، و«اللّبان»، و «الشّوع»، وهو نبتة يبلغ طولها نحو ستة أمتار، وهي ذات فائدة في تطيب الفمّ، ومنع الرّوائح الكريهة من أن تفوح منه، كما هو مدّر للبول، ومنشّط جنسيّ، وعلاج لأورام المفاصل، ويدخل في صناعة العطور ومواد التّجميل، ويُستخرج منه زيت يُؤكل في شمال الهند، وشرابه يبرّد البدن، وينقّي الأحشاء، ويدمل البثور، ويصلح البواسير، ويشفي من نزلات البرد.

تنبت هذه النّبتة بكثرة في باكستان وبنغلاديش والهند، كما تنمو بشكل طبيعيّ في شمال الحجاز في السّعوديّة، غير أنّ أشهر أسواقه في باكستان؛ إذ إنّ الباكستانيين مولعون به إلى حدّ الإدمان عليه، كما يتعاطه النّاس في الهند على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم، بل يعدّ تقديمه أحياناً للضّيف هو نوع من إكرامه.

يتمّ قطف هذه النّبتة الخضراء، ثم تُطلى بالكلس، وتُحشى فيما بعد ببعض المكسّرات والمطيّبات، مثل جوز الهند والزّعفران والكستناء والهيل والقرنقل والتّباكو في بعض الحالات.

يتمّ لفّها على شكل مثلّث، وتُمضغ مضغاً، ثم تُبصق بعد ذلك؛

هذا يجعلها ترتبط بعادة البصاق المقرفة التي تسود في الهند؛ إذ يبصق عشّاق البان بصاقاً أحمر في أيّ مكان يمرّون به؛ إذ يُضاف إليه اللّون الأحمر لإكسابه لوناً بعيداً عن خضرته.

الهنود يرون قصصاً طريفة عن تاريخ هذا البان؛ إذ يزعمون أنّ أوّل من روّج فكرة مضغه هو امبراطور مغوليّ طلب من أطبائه عصره أن يأتوه بمادة تقتل رائحة فم زوجته، وكانتْ رائحته منتنة كريحة، فأحضر له طبيب بنغاليّ نبتة البان لتضمغها زوجته، وتتخلّص من الرّائحة الكريهة لفمها، ومن هنا شاع استخدام هذه النّبتة حتى بين ملوك المغول.

الممّثل الهنديّ الشّهير «أميتاب باتشان» يغنّي في إحدى أفلامه محدّثاً عن تأثير البان عليه:

حينما يأكل المرء البان من «بنارس»
تُفتح أمامه مغاليق ذهنه
وبعده يأتي بتصرّف مذهل
ويجعل الكّل يتصرّفون بشكل مهذّب»

ليس طعم البان لذيذاً كما يزعم الهنود الذين يفضّلونه على غيره، وليس له آثار منشّطة أو مثبّطة كما زعموا كذلك، إلاّ أنّه يشيع بينهم كثيراً، ويصمّمون على أنّه منشّط جنسيّ فعّال، إلاّ أنّ الشيء الأكيد الذي رأيته بعيني أنّ الكثير من الهنود بعد أن يمضغوه يقومون ببصقه على أرض الشّارع دون تحرّج من ذلك، فتعجّ الطّرقات والزّوايا بالبان المبصوق الأحمر اللّون، ويمتدّ هذا البصاق من الصّين حتى الهند، وتمتدّ اللافتات من هناك إلى النّقطة التي أقف فيها في الهند مكتوباً عليها «لا تبصقْ هنا».

لم أبصق «البان» في الشّارع كما يفعل الهنود، إنّما بصقته في منديل ورقيّ دسسته في حقيبتي كي لا أرمي به في الشّارع، وتغاضيتُ عن الأسئلة الخبيثة التي طرحها الأصدقاء العلماء حول تأثيره عليّ؛ فأنا لم أرَ له أيّ أثر عليّ سوف امتعاضي من طعمه، وتقزّزي ومن مشهد النّاس الذين يبصقونه في الطّريق بعد مضغه.

سمحتُ لنفسي بأن أستمتع بأطياف الأرواح التي مرّت من هذا الدّرب، فتخيّلت حولي جمعاً غفيراً من علماء وأدباء ومبدعين ومفكّرين يشاركوننا التّسكّع الممتع في هذه اللّيلة عالية الرّطوبة المزدحمة بالنّاس في كلّ مكان.

أكثر من راق لي الحديث معه من أطيافي الأرواح هو طيف روح «مولانا أبو الكلام آزاد»؛ فقد كانتْ بلاغته وفصاحته ممتعة جدّاً، وقد أبدى بعض الملاحظات على كلمتي التي قلتها في المؤتمر بوصفي ضيفة شرف فيه، وشكرني بلطف وتأثّر بالغ على كلماتي المشيدة به، وكرّر عليّ بعض المقاطع التي حفظها منها بصوته الرّخيم ذي المخارج الفصيحة.

لقدّ انهمكتُ في حديث طويل مع أطيافي الأرواح، لكن طيف روح «روبندرونات طاغور» استحوذتْ عليّ بشكل كامل؛ فدماثة روحه، وحديثه العذب الفلسفيّ، ومشاعره الفيّاضة أسرتني بشكل كامل.

لقد حدّثني كثيراً عن فلسفته وأسرته وشعره، وعرض عليّ أن أرافقه إلى عالمه الآخر لأرى لوحاته التي رسمها، لكنّني أجّلت استجابتي لعرضه السّخي هذا حتى أنتقل إلى العالم الآخر بعد موتي؛ إذ عندها سأجد متّسعاً كبيراً من الوقت بما يسمح لي بأن استعراض لوحاته وسائر تفاصيل ذلك العالم، أمّا الآن فأنا مشغولة بتفاصيل العالم المعيش الذي أحياه بتفاصيله جميعها.

تفـهّم «روبندرونات طاغـور» مـوقـفي هذا، وغـدا أكـثـر أريحـيّـة بالحديث معي، حتى أنّه كلّمني طويلاً عن حبّه لزوجته «مرينا ليني» التي كانتْ مفتونة به، وجعلتْ حياتهما الزّوجيّة سعادة موصولة، وقرأ عليّ بعض أشعاره التي نظمها في عشقه لها الذي استمرّ حتى آخر لحظة من حياته على الرّغم من رحيلها عن العالم في زهرة شبابها:

«لقد هلّت الفرحة من أطراف الكون جميعها لتسوي جسمي
لقد قبّلتها أشعة السّماوات، ثم قبّلتها حتى استفاقتْ إلى الحياء
إنّ ورد الصّيف المولّي سريعاً قد تردّدتْ زفراته في أنفاسها
وداعبتْ موسيقى الأشياء كلّها أعضاءها لتمنحها إهاب الجمال،
إنّها زوجتي، لقد أشعلتْ مصباحها في بيتي، وأضاءتْ جنباته».

«اليوغا» حتى «النّيرفانا»:

اشتدّ تمسّكي بالحالة الجديدة التي وصلتُ إليها في دخولي الوهميّ في تجربة التّناسخ المزعومة التي لا أؤمن بوجودها حقيقة، على الرّغم من وجود ملايين من البشر في الهند وغيرها ممّن يؤمنون بها بكلّ سذاجة، إلاّ أنّني كنتُ ألعب هذه اللّعبة المسلّية مع نفسي بالخفاء عمّن هم معي باستثناء أمّي كي أتهرّب من مأساة التّأمّل في هذا العالم الغريب الذي يدور حولي لاسيما في غرائبيّات عذابه، وبدأتُ أجد تفسيراً لهذا الإيمان الغريب بالتّناسخ؛ إذ لا بدّ أنّ التّناسخ اختـراع جـمـعيّ هنديّ لأجل تعطيل الغضب والحزن والثّورة في النّفس على أمل الحصول على فرصة في حياة أخرى لن تكون أبداً، تماماً كما هي إسقاط للعقوبة الدّنيويّة في الحياة المعيشة على وعيد المعاقبة في حياة أخرى أقلّ منزلة.

ما يعنيني الآن أن أستمتع في الأيام المقبلة لي في الهند بعد أن

مارستُ فيها رياضة «اليوجا» التّأمّليّة في كلّ شيء حتى كدتُ انخلع منّي؛ لم آخذ من تفاصيل «اليوجا» الهنديّة سوى فكرها التّأمّليّ ورياضتها الجسديّة التي طوّرتها كما أشاء لتُختصر في جهدي الجسديّ في رحلاتي في الهند.

ابتعدتُ عن الفلسفة الدّينيّة الفكريّة المعمّقة للـ«يوجا»، وصنعتُ «يوجا» خاصّة بي تُختصر في التّأمّل المؤمن للوصول إلى حقائقي الخاصّة في هذه الغابة من البشر والمعتقدات والملل والنّحل التي اسمها الهند.

بقي أمامي أن أصل إلى «النّيرفانا» حيث حالة الخلو من المعاناة، لكن كيف الدّرب إلى ذلك؟ وكيف يمكن أن أشعر بذلك الانطفاء الكامل التي يصل الإنسان إليها في هذه المرحلة «النّيرفانيّة» المشتهاة؟ وأنا أمتلئ غضباً وتأجّجاً، كان عليّ أن أصل إلى هذه المرحلة بعد تأمّل طويل وعميق، ويتجلّى ذلك عندما يصبح الإنسان منفصلاً بذهنه وجسده عن عالمه الخارجيّ، وذلك لشحن الرّوح بالسّعادة والنّشوة والبهجة، بعيداً عن الاكتئاب والحزن والقلق وأيّ مشاعر سلبيّة أخرى.

كي أسارع إلى عوالم «النّيرفانا»؛ فقد كنتُ في كلّ يوم أقنع نفسي بأنّني في حالة انتقال جديدة في عوالم التّناسخ، وأنّني أستغرق أكثر فأكثر في التّأمّل البعيد عن مشاعر القلق والخوف والحزن.

ذلك اليوم الذي كانتْ لنا جولة فيه على ضفّة نهر «هوغلي»، قرّرتُ فيه أن أستحضر أرواح العاشقات الهنديّات والأديبات المفلّقات منهنّ، أعرفتُ أسماءهنّ أم لم أعرفها، كما استحضرتُ أرواح الممثّلات الهنديّات الشّهيرات اللّواتي جسّدن أدوار العاشقات بإبداع مؤثّر في روحي ووجداني وذاكرتي، وصدّقتُ أنّني استطعتُ أن أستحضر

أرواحهنّ في جسدي، بدل أن تهبط روحي في أجسادهنّ؛ فقد عدّلتُ كثيراً على مفهوم التّناسخ الذي أعيشه في الهند، وصدّقت أنّني الآن بوتقة روحيّة وجسديّة فيها زحام من النّساء العاشقات الهنديّات، كما صدّقتُ في يوم ما في متحف «مدام توسو» للشّمع في لندن أنّني أراقص نجوم السّينما البوليوديّة الذين أعشقهم، أمثال: «كاترينا كيف»، و«ريتيك روشان»، ثم حدّثتُ «مهاتما غاندي»، و«بينظير بوتو»، وجادلتهما في الكثير من أفكارهما وقناعاتهما، وهم جميعاً لم يكونوا -حينئذٍ- سوى تماثيل شمعيّة موغلة في الموات والعجز.

تنزّهتُ وأمّي الحبيبة وجماعة من الأصدقاء العلماء على رأسهم د. محمد إشارت علي ملاّ، ود. محمد ثناء الله النّدويّ على جادّة «كورنيش العشّاق» في الحدائقّ الجميلة الممتدّة على طوال ضفّة النّهر، حتى آل بنا الدّرب إلى حديقة «ايكو» التي تعجّ بالهنود الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع مع عائلاتهم، فيما يسير العشّاق في المكان بكلّ طمأنينة وغبطة، وهم يتذوّقون فنون الحبّ براحة وانسجام.

قطعنا الزّحام البشريّ الملوّن الثّياب والهيئات ببطء، ثم وصلنا إلى ذلك القارب الخشبيّ الصّغير القديم الذي قطع بنا مسافة صغيرة في بحيرة «ديسبندهونغر»؛ ليوصلنا كلّنا إلى تلك الجزيرة الصّغيرة في وسط النّهر المسمّاة جزيرة «سبز شاتهى»، حيث تستقبلنا غابتها الصّغيرة المسمّاة «ربى أرنيا».

تهادى القارب ببطء فوق سطح النّهر في ساعة مسائيّة حارّة، وتخيّلتُ أنه سوف ينقلب في أيّ لحظة، لنهبط جميعاً في قاع النّهر، بما في ذلك نسائي العاشقات الهنديّات اللّواتي استحضرتهنّ لهذه النّزهة المسائيّة الجميلة.

لكنّ القارب الخشبيّ الصّغير لم ينقلب كما خشيتُ، وأوصلنا إلى تلك الجزيرة الجميلة الصّغيرة جدّاً التي يقصدها العشّاق الشّباب طلباً للعزلة والخصوصيّة للقاءاتهم، حيث هناك مطعم أنيق جميل زجاجيّ اسمه «ايكانت».

داهمنا مطر خجول منعش، ففاجأ الجميع، وهو يأتي في غير أيّ من مواسمه المناخيّة المعتادة، وتخيّلتُ أنّ هذا المطر هو هديّة لي من الطّبيعة الأمّ الهنديّة لتشعرني ببعض السّعادة بتخيّل أنّني في فيلم هنديّ كلاسيكيّ حيثُ ينزل المطر في اللّيالي الدّافئة، ويبلل أجساد العشّاق والعاشقات، فيتبادلون القبل الولهى الحرّى تحت أمواه الطّبيعة التي تطفئ بعضاً من احتراق أشواقهم، وتقدّم شفاههم شهيّة رطبة لقبل عميقة تخطف الأنفاس، في حين تهبّ رياح مواتية بلطف، وتطيّر خصلات شعورهم المبتلّة؛ فتزيدها بهاء وحيويّة.

كانت الجزيرة تعجّ بالنّاموس القارص بإلحاح عجيب، وتمنّيتُ من قلبي لو أنّ ذلك الكاهن البرتقاليّ البغيض موجود الآن معنا في هذا المكان لينشغل بناموسه المحبّب إليّه الذي يشغله عن رؤية البشر ومعاناتهم، ولعلّه يمطره بقرصات موجعه تذكّره بآلام البشريّة المعذّبة، وسخافة التّعاطف مع حشرات مقيتة تملك خراطيم فضوليّة تمتصّ الدّم من أجساد البشر دون وجه حقّ، تماماً كما يفعل الكثير من جبابرة البشر النّاموس.

لكنّني سرعان ما ضربتُ صفحاً عن أمنياتي النّاموسيّة، وانشغلتُ بذلك السّمك المشوي اللّذيذ الطّازج المطبوخ بالبهارات الحارقة حدّ تفطّر الحلق والأمعاء، لكنّني كنتُ مصمّمة على أكله مهما كلّفني الأمر من شرب كؤوس الماء للانتصار على تلك الحرقة اللّذيذة التي

تأتي دفعة واحدة بقوّة، ثم تذهب ببطء على دفعات ودفعات.

حمدتُ الله لأنّ طبق هذا المساء هو السّمك الذي يتناسب مع حشد النّساء الهندوسيّات والبوذيّات والسّيخيّات العاشقات اللّواتي يسكنّ في أعماقي هذا المساء، كما أنّه يناسب النّساء الهنديّات المسلمات اللّواتي يشغرن أعماقي ذاتها.

تمنّيتُ في ذلك المساء الشّهي لو تتحقّق أحلام نسائي القابعات في داخلي في هذا التّناسخ المنعش؛ فيهطل المطر من جديد، ويبلّلني من رأسي إلى خمص قدمي، ويداهم الموجودين في المكان بفرحه، فينشر عدوى العشق والمرح في هذه الجزيرة الرّومانسيّة الصّغيرة، فيشرعون جميعاً يرقصون رقصة ما من رقصات العشق، وأنا معهم.

اقتربتُ حالمة من د. محمد ثناء اللّه النّدويّ، وسألته إن كان يجيد الرّقص، فتبرّم في وجهي، ولوى شفّة على أخرى، وقال لي بجفاف: لا. فخمّنتُ أنّ أمثاله من البراهمة لا يليق بهم الغناء والرّقص والبهجة بطريقة العوام والرّحالة الحالمين مثلي.

ملتُ باتّجاه د. محمد إشارت علي ملاّ، وسألته: هل تجيد الغناء؟ فضحك بطريقته الأريحيّة، وقال لي منفعلاً، وهو يضرب كفّاً على كفّ عجباً من سؤالي: لا. ولم أجرؤ على أن أسأل د. عبد القادر بخوش عن ملكاته المفترضة في الرّقص والغناء، واستسلمتُ لرطوبة الجوّ ولقرص بعض البعوض، وتمنّيتُ أن أجد أيّ أحد هذه اللّيلة يجيد الغناء والرّقص، ولو كان فتى القارب المثقل بالضّجر الذي نقلنا إلى هذه الجزيرة، وسوف ينقلنا من جديد إلى ضفة النّهر من حيث أحضرنا عندما ننتهي من عشائنا السّمكيّ اللّذيذ.

لم يكن هناك مطر في رحلة عودتنا إلى ضفّة النّهر عبر القارب

الخشبيّ الصّغير كما أمّلتُ نفسي، ولم أسأل فتاه عن إتقانه للرّقص أو الغناء، إنّما التصقتُ بأمّي أمّ بطبوطة، وشرعتُ أغنّي لها أغنية بكلمات لا أعرف لها معنى سوى أنّها تعبّر عن فرحي بهذه اللّيلة الرّومانسيّة الجميلة، وكانتْ -كعادتها- تسمعني بكلّ حبّ وحنان، ولا تضجر أبداً من صوت غنائي النّشاز، ولا من تصرّفاتي الغريبة، وتضمّني إليها بكلّ حبّ أمومة البشريّة كاملة.

عيد الأنوار «ديوالي» وظلمة الرّوح:

هناك ظلمة ما في روح النّساء الحاضرات في نفسي من النّساء الهنديّات المحتشدات في روحي منذ أتقنتُ أدوار التّناسخ، وهذه الظّلمة تطالبني بشدّة بأن تشارك في طقوس عيد الأنوار؛ لعلّ فرحاً منير يجلو سخامها المقيم، ويضيء الأرواح بهذه الأضواء المنيرة التي تنتشر في كلّ مكان في المدينة احتفالاً بعيد الأنواء المعروف عند الهنود باسم «ديوالي».

لقد قرّرتُ أن أحتفل ونسائي الهنديّات الحشود بهذا العيد، وأن نسير في الشّوارع بين أرتال البشر المتدافعين في طقوس نشطة لا تعرف الخمول، وأن نفرح بشكل كامل بالعيد شأننا شأن المحتفلين به.

نسائي الحشود في داخلي تفائلن بهذا العيد، وأخبرنني بأنّهنّ يشعرن بجذوة أمل تشتعل في أنفسهنّ، ووعدنني بأن يشعلن فرحاً ما في قلبي إنْ تجوّلت طويلاً بين المحتفلين، وتأمّلتْ أفرحهم وصخبهم، وطمعاً في الحصول على بعض من وعودهنّ فقد طاوعتهنّ فيما أردن، وأضحيتُ امرأة محتفلة معهنّ.

عيد «ديوالي» هو عيد مهّم عند الدّيانة السّيخيّة والهندوسيّة في

كلّ مكان في العالم، ويُستقبل ببهجة شعبيّة كبيرة، ويكون في فصل الخريف من كلّ عام، وهو يُقام إحياء لإله الثّروة «لاشكمي»، هذا العيد هو تجسيد لانتصار النّور على الظّلام، ورمز من رموز الأمل وانتصار الخير والجمال، ويستمرّ الاحتفال به لمدّة خمسة أيّام متتالية.

هذا العيد يستدعي التّفاصيل الجميلة المبهرة للاحتفال به، مثل تعليق الشّعل النّاريّة على الجدران، وزخرفة البيوت بزخارف جميلة مبهجة، وإضاءة القناديل الملوّنة في كلّ مكان، وتبادل الزّيارات والهدايا والحلويّات مع الأقارب والأصدقاء والجيران.

لكلّ يوم من أيّام هذا الاحتفال طقوس متعلّقة به؛ ففي اليوم الأوّل يستحمّ الهنود، ويشعلون الشّعلات بالقرب من شجرة الرّيحان المقدّسة، أو بالقرب من أيّ شجرة مزروعة داخل البيوت، وفي اليوم الثّاني يقوم الهنود بتدليك الجسم بالزّيت لأجل إراحة أجسادهم، وفي هذه اللّيلة يجب عدم إشعال النّار، وفي اليوم الثّالث يكون هناك تعبّد لـ «لاكشمي» بوجود الأسرة والأقارب طلباً للبركة والخير والنّصر والثّراء، بعد أن يطهّروا أنفسهم، وفي اليوم الرّابع هناك احتفال برأس السّنة في ليل مليء بالألعاب النّاريّة والمفرقعات، أمّا في اليوم الأخير من العيد، وهو اليوم الخامس، فتكون زيارة الأخوات من قبل الأخوة، وفي هذا اليوم تصلّي الأخوات لأجل الأخوة.

عيد «الأنوار» لم يشعل في روحي سوى الدّهشة، وفجأة وجدتُ نفسي منهكة من حشود النّساء التي تسكن روحي بقوة التّناسخ، وشعرتُ أنّني أبغي الخروج من تناسخاتي المتتالية، وكأنّ دورة التّناسخ قد انتهتْ بوصولي إلى الصّمت، لا بوصولي إلى التّسامي نحو العلياء كما يعتقد الهندوس.

«ماندالا» دون «النّيرفانا»:

تعبتُ من التّجوال في مدينة السّعادة حيث لم أجد السّعادة التي وعدني د. محمد ثناء الله النّدويّ بأن يهبها لي ولأمّي ولصديقنا الدّكتور الجزائريّ، ولم يجدها الملايين غيري من منكوديها، لكنّني على الرّغم من ذلك أتقنتُ تمثيل دور الامتلاء بالسّعادة حدّ الشّبع؛ كي لا أنفجر غاضبة في وجهه مطالبة بالسّعادة التي جئتُ إلى هذه المدينة لاهثة وراء بريقها السّرابيّ الخدّاع.

كنتُ أفكّر في هذا الامتلاء المكذوب، وأنا أرسم تلك الخطوط الفراغيّة التي اعتدتُ على أن أرسمها على الورق الأبيض الصّغير، أو حتى داخل كفّ يدي إنْ عزّ الورق في نقطة قريبة من متناول يدي الأخرى.

عرفتُ في الهند أنّ رسوماتي الهندسيّة المفرغة من أيّ معنى بالنّسبة لي تسمّى رسوم «ماندالا»، وأنّها تعني باللّغة السّنسكريتيّة الدّائرة أو القرص، وهي ذات ظلال رموز ومعاني عميقة تقدّم الكون من خلال الميتافيزيقيا أو الرّموز، كما تمثّل نوعاً من التّأمّل الذي يبغي السّلام والاتّزان.

هل كان الهنود القدامى يشعرون بقلقي وتيهي عندما اخترعوا هذا الرّسم الهندسيّ المتداخل؟ لعلّهم كانوا كذلك.

لستُ متأكّدة من شيء الآن سوى أنّ هذه «البيجاما» الهنديّة النّسائيّة التي ألبسها تعجبني، وتبعث راحة كبيرة في جسدي، وأنّني لن أعرف أبداً درب «النّيرفانا»، مادام التّأمّل يقودني إلى المزيد من القلق والحيرة، لا إلى الرّاحة والسّعادة والمشاعر الايجابيّة.

كانتْ أمّي تتأمّلني، وأنا غارقة في أفكاري وتأمّلاتي، كأنّها تقرأ ما

يدور في أعماقي، ثم ابتسمتْ لي، وقالتْ: بطبوطتي الجميلة التي ترتدي «البيجاما» الهنديّة غارقة في التّفكير.

ابتسمتُ لأمّي، وقلتُ لها: أنتِ «النّيرفانا» الخاصّة بي يا أمّ بطبوطة.

بدأت أسترجع تلك اللّحظة التي هبطتُ فيها في أرض «كلكتا» حيث كنتُ أعتقد أنّها صورة عن ذلك الفيلم البوليوديّ الشّهير الذي حضرته منذ زمن حيث كانتْ زينات السّماء في كلّ مكان، والمفرقعات تنير ظلام ليل المدينة، وهناك عاشق اسمه «شيخار» يهدم سوراً يفصل حديقة بيته عن حديقة بيت محبوبته التي حاول والده أن يحرمه منها؛ لأنّها يتيمة فقيرة، متجاهلاً الحبّ الكبير الذي يجمع بين قلب ابنه «شيخار» وجارته الشّابة الجميلة.

لكن الحبّ هو مَنْ انتصر في نهاية الفيلم، بعد أن هدم «شيخار» الجدار الذي يفصله عن حبيبته، كما هدم أيّ جدار اجتماعيّ لئيم يمكن أن يحرمه من المرأة التي يحبّها.

لكنّني أعرف الآن أنّ «كلكتا» مدينة أكبر من قصر جميل يحتفي بزواج عاشقين في ليلة صيفيّة مسعدة.

أقرأ في تلك المقالة حول ذلك المنبوذ المعدم الذي يعمل في عمل لم أسمع عنه من قبل؛ إذ هو يعمل في مهنة جمع الجثث الملقاة في الشّوارع مجهولة الهويّة، لتلقى بعد ذلك في مدفن عموميّ جماعيّ، يُدفن فيه كلّ مجهول لا يُعرف له ديناً أو اسماً أو هويّة.

يزداد عجبي من هذا العالم العجيب المتداخل الذي اسمه الهند، وأدرك أنّني أحتاج ألف عام فيه كي أعرفه، أو أفهمه، أو أصل فيه إلى «نيرفانا» ما.

أقرّر أن أبحث عن «نيرفانا» خاصّة بي في أعماق ذاتي، كما أقرّر فجأة أن أعود إلى «دلهي» في طائرة صباح اليوم المقبل؛ كي أقفل راجعة من مطارها الدّوليّ إلى الأردن، دون أن أحصل على أيّ «نيرفانا» محتملة سوى تلك «النّيرفانا» التي تجلس بالقرب منّي في الطّائرة، واسمها أمّ بطبوطة؛ فالشّيء اليقينيّ الأوحد في وجودي هو أنّ أمّي (نعيمة المشايخ) هي سعادتي وجنّتي الأرضيّة، وهي منّة الله عليّ.

الرّجل الخاشع للغّة العربيّة:

لقد عدتُ إلى مدينة «نيودلهي» على متن طائرة مكتظّة بالمسافرين، واتّخذتُ مكاني إلى جانب أمّي أمّ بطبوطة، وإلى جانب د. محمد ثناء اللّه النّدويّ الذي أردتُ أن أنتقم منه بأيّ شكل؛ لأنّه خدعني، ولم يهبني السّعادة في أرض السّعادة، ووجدتُ خير طريقة للانتقام منه هي أن أغرقه بالأسئلة المنهكة عن علاقته بالعربيّة وأهلها، وأتركه يتحدّث طوال الطّريق ممتحنة فصاحته وطلاقته في العربيّة، وهكذا يكون قد حملني طوال سفره؛ فالعرب جعلتْ مَنْ يحدّث أحداً طوال طريق السّفر، كأنّه يحمله.

لكن د. محمد ثناء اللّه النّدويّ حوّل انتقامي منه إلى حديث ممتع طويل لساعات محلّقة في السّماء، وانطلق يحدّثني عن علاقته باللّغة العربيّة، وطفقتُ أسمع كلماته الواحدة تلو الأخرى، كأنّني أحفظها باهتمام خشية أن أنسى حرفاً واحد منها، وهو يقول لي بصوته الخفيض الهادئ المترع بدهشة ما، كأنّه يقرأ من كتاب مخطوط أمامه، لا من حافظة ذاكرته، وحبيس صدره وعقله من أفكار ومشاعر وأحاسيس ومفاهيم: «فى حظيرة قدس العربيّة أجد نفسي خاشعاً أمام عظمة و

جبروت مقدسين. الخشوع جزء من الصّفاء، وهو جوهر الحلم والنّجوى مع النّفس، اختياري للّغة العربيّة راجع أصلاً إلى تقديري لشموخ هذه اللّغة ولجمالها ولحبيّ لها ولأهلها عبر الأزمنة والأمكنة، أحبّ كلّ عربيّ ومعترب ومستعرب لانتمائه إلى هذه اللّغة مولداً أو حبّاً.

لله درّ مَنْ قال: لأن أُهجى بالعربيّة أحبّ إلي من أن أمدح بالفارسيّة، الحبّ و الاختيار تلاقح روحي يتأبّى على الإثنينيّة، فلا فرق بين أن أختار العربيّة، أو أن العربيّة تختارني، على أنّ خيارنا محكوم بقضاء كونيّ لا تدركه الأبصار.

حبّي للّغة العربيّة سهّل عليّ تعلمها، كما سهّل عليّ إدراك الحقيقة والوجود، يقولون: حبّكَ الشّيء يعمي ويصمّ، لكنّني أقول: حبّي للّعربية منحني قسطاً من القوّة والبصيرة و الجرأة والإقدام.

ألجأ إلى العربيّة عندما أناجي نفسي، وأدخل معها فى حوار داخليّ تجاه قضايا الوجود والذّات، العربيّة تجاوبتْ مع همومي واهتماماتي، فرحبتْ بي فى دارها، وفسّحتْ لي العديد من منابرها العلميّة، واعترفتْ بجهدي المتواضع.

أهمّ عطاء تلقّيته من العربيّة هو الشّعور بالتوأمة الرّوحيّة؛ إذ إنّني لا أشعر بالغربة بين أبنائها الأقحاح. العربيّة وجبروت منتوجها من أهمّ ما ظفرتْ به الإنسانيّة فى مسيرتها التّاريخيّة، من عظمة التّراث أنّه مارس تأثيراً على الآخر المحاور: شعراء التّروبادور الأوربيين، دانتي، دانيال دوفو، المدرسة السّينائيّة اللاطينيّة، المدرسة الرّشديّة ... الخ

أمّا المشهد العربيّ الأدبيّ و الفكريّ الحديث، فعلى الرّغم من أنّني لا أرى الحديث فيه كلّه ذا شجون؛ إذ فيه من الشّموخ فى بعض قطاعاته، لكنّه أساساً انحناء أمام تعالى يكثر فيه القيل والقال مدحاً و

قدحاً. العربية خسرتْ مكانها الرّياديّ فى العالم. المسألة لا تطلب انحيازاً فوق ما تتطلّبه من عدم انحياز، وتفعيل الدّور فرديّاً وجماعيّاً لخدمة العربيّة».

صمتَ د. محمد ثناء الله النّدويّ، كأنّه يلتقط أنفاسه بصعوبة، ومن جديد عاد يجيب عن سؤالي الجديد حول مدى استفادة العربيّة فكراً ومنهجاً وفلسفة من الموروث الهنديّ بأدب جمّ يتمتّع به، وقال: «الفلسفة الهنديّة سجّلتْ حضورها وتأثيرها البارزين على هياكل التّاريخ المعرفيّ الإنسانيّ القديم والحديث، حتى الحضارة البابليّة والآشوريّة والفرعونيّة ببعض أبعادها المعرفيّة والأسطوريّة تفاعلتْ مع الفلسفة الهنديّة.

كما دخلتْ مدارس الحكمة العالميّة، مثل الهلينيستيّة والإشراقيّة الاسكندريّة فى سلسلة من الإلهام والاستلهام، أو الإحتكاك الرّؤيويّ مع مدارس الفلسفة الهنديّة. والعربيّة مارستْ تأثيراً على المنظومة المعرفيّة والثّقافيّة الهنديّة، و حتى على اللّغة السّنسكريتيّة كلمة «عروس» على سبيل المثال قد دخلتْ إلى اللّغة السّنسكريتيّة من اللّغة العربيّة، وهناك كلمة «أوبنيشاد» اسمه »الله أوبنيشاد»، وحدّث ولا حرج عن ثلاث أرباع مفردات اللّغة الأورديّة باعتبارها مستقاة، أو مشتقّة من العربيّة.

إنّ هذا الجسر بين الأوساط البراهميّة - لاسيما الفيدات والأوبنيشاد- عبر مراحل عدّة للرّحلات التّجاريّة والحوار الثّقافيّ والغزو السّياسيّ يدعمنا فى استكناه العديد من هياكل المعنى والمبنى للعربيّة، مثل عشرات من الكلمات التى هي سنسكريتيّة الأصل هي مادة تاريخيّة للتّفاعل الألسنيّ بين اللّغات السّاميّة والهند أوربيّة أو المشترك

السّامي السّنسكريتيّ، كما يدعمنا فى سبر أغوار الشّعر الفلسفيّ والصّوفيّ، وأدب الرّحلات، والتّاريخ الفلسفيّ، حتى تاريخ علم الكلام فى الإسلام، وفلسفة أبي العلاء المعريّ، وأبي المغيث منصور الحلاّج، والشّيخ الأكبر محيي الدّين بن عربيّ، والشّيخ الرّئيس أبي عليّ بن سينا، وحكمة الإشراق حتى في مدارسها فى الإسكندريّة، وأصفهان بأصحابها مثل فلوطين، وشهاب الدّين السّهرورديّ، وصدر الدّين الشّيرازيّ لم تتحرّر من أثر الغنوص الهنديّ، لاسيما أنّه لا يمكن أن نتجاهل شخصيّات هنديّة، مثل: دندامیس وقلانیموس، ومعروف أثرهما على الإسكندر المقدونيّ، وتاسوعات فلوطين.

التّفكير المنهجيّ يوجب تحاشي الخلط بين قضايا الفيزيقا والميتافيزيقا فى منظومة الثّقافة والمعرفة الإنسانيّة بما فيها اللّغة؛ فاللّغات والثّقافات الإنسانيّة لا تتطوّر بين عشيّة وضحاها، ولا تعيش فى انزواء؛ فهي تتأبّى على شعارات التّفخيم و التّقزيم والتّسييس الأدلجيّ.

العربيّة بمورثها اللّغويّ والعلميّ والأدبيّ والحضاريّ والتّاريخيّ – وبملهمها ومستلهمها على السّواء– قلّما تضاهيها لغة ما في العالم، هذا نفسه مثلّث القضية والمهمّة والتّحدي معاً».

كان التّعب قد أضنى د. محمد ثناء الله النّدويّ، وهو يجب بلطف وهدأة عن أسئلتي، فشعرتُ بالخجل من لؤمي وإصراري على الانتقام منه، وصمّتُ مجبرة لأنّ قبطان الطّائرة طلب من المسافرين أن يربطوا أحزمتهم استعداداً للهبوط في مطار «أنديرا غاندي» في مدينة «نيودلهي»، وشكرتُ الله لأنّ النّوم سرق أمّي أمّ بطبوطة طوال الرّحلة، ولم يزجّ بها في هذا الحوار المتسامي فوق الغيوم وفوق فهوم الكثيرين ممّن يفضّلون حلوى الأعياد على العلم والعلماء، إلاّ أنّ هذا الرّجل الذي

وعدني بالسّعادة، ولم يهبها لي كان عالماً بحقّ، وعاشقاً للعربيّة من أعماق روحه الشّفيفة، ومحبّ صادق للعلم والعلماء.

الطّيران بالأشكال جميعها:

كان د. مجيب الرّحمن يقود سيّارته الخاصّة التي تنقلني وأمّي إلى المطار بسرعة طارئة على طريقته الهادئة الرّزينة في القيادة ليحلق بصلاة الجمعة في المسجد الجامع «جاما» في «دلهي» القديمة.

قد تمنّيتُ من أعماق قلبي أن لا تفوته هذه الصّلاة التي وعدني بأن يدعو لي فيها بضراعة، وهو مَنْ لا يقبل أن تفوته صلاة الجمعة في المسجد مهما كانت الأسباب.

في صالة انتظار المغادرين في مطار «أنديرا غاندي» للرّحلات الدّوليّة قرّرتُ أن أنفق آخر روبيّات أحملها كعادتي في أيّ رحلة أقوم بها؛ إذ أدسّ في محفظتي قطعة من كلّ فئة من عملة البلد الذي أزوره لأضعها في دفتر العملات التي أجمعها من البلاد التي أترّحل فيها، في حين أنفق الباقي من تلك العملات في مطار البلد ذاته قبل مغادرته.

ما كان في محفظتي من روبيات كان يكفي لشراء فنجانين قهوة لي ولأمّي ولشراء ذلك التّمثال العاجي البديع الذي يتمدّد الإله الهنديّ «كريشنا» على قاعدته العاجيّة، إلى جانب حبيبته «رادها» التي يضمّها إليه.

حملتُ الصّندوق الخشبيّ الرّقيق الذي يحوي التّمثال العاجيّ في داخله، وبدأتُ أسير وأمّي إلى درب بوابة الذّهاب إلى الطّائرة، لكن تلك الموسيقى الصّوفيّة التي قرعتْ سمعي، جعلتني أغيّر دربي، وألحق بها، حتى وصلتُ إلى ذلك العرض الموسيقي الصّوفيّ في متجر تحفّ

هنديّة في ركن من أركـان الصّـالة من باب الدّعـاية للمتـجر، جلستُ وأمّي بالقرب من منصّة العزف والغناء مشدوهتين بهذا الوداع العجيب لنا بهذه الأنغام التي أحبّها، وبأغنيتي المفضّلة:

يأتون إلى بابكَ وقلوبهم متألّمة
أولئكَ الذين ترغب في رؤيتهم يا نبيّ
أتيتُ إلى بابكَ حانياً رأسي
أنتَ مَنْ تصلح الأقدار السّيّئة
أرجوكَ حقّقْ أمنيتي يا محمّد
أرجوكَ حقّقْ أمنيتي يا سيّد المدينة المنوّرة
لن أعود خالي الوفاض
أرجوكَ حقّقْ أمنياتي يا محمّد
نرجوكَ حقّق أمنياتنا جميعاً يا محمّد
لن أعود خالي الوفاض
عيناي المغلقتان ممتلئتان بالدّموع
خِيطت الدّموع في قلبي
انظرْ ما جرى لي
وأنا أبحثُ عنْكَ يا نبيّ
أرجوكَ واسِ قلبي
أتيتُ من البعيدة مليء بالأحزان
اغدقْ عليّ بالقليل من كرمكَ
هذا السّائل لن يغادر عتبة بابكَ إلى أن تحقّق أمنيته
لن أعود خالي الوفاض
إلى أن تستجيب لدعائي

في الطّائرة اخترعت كلماتي الخاصّة التي لا تنتمي إلى أيّ لغة كانتْ في تاريخ البشر، لكنّها توافق تلك الدّفقات الشّعوريّة التي اجتاحتني عندها، وأنا أعيش طيرانين؛ طيران الطّائرة التي تبتعد عن الهند قليلاً قليلاً، وطيران روحي المحلّقة في البعيد، وعشتُ تجربتي الخاصّة في غناء «القوّالي» بطريقتي التي اخترعتها في تلك اللّحظة.

الهبوط في أرض الذّكرى:

اخترتُ لتمثال «كريشنا» و«رادها» مكاناً قريباً مني على سطح مكتبي الخاصّ، ونصّبتُ خلفه بعض صور رحلات بطبوطة وأمّها في الهند، وظللتُ أجيب عن كلّ مَنْ يسألني عن رحلاتي في الهند عندما يجذبه التّمثال ليتأمّله باهتمام: الهند بلد الغرائب والعجائب، كما يقول أسعد وداوود، ثم أغرق بعدها في صمت عميق لا يمكن أن يعبّر عنه إلاّ بـ «القوّالي» الخاصّ الذي اخترعته ذات طيران وسماء، وأخفي عن الجميع أنّ إلهي الحبّ الهندوس «راتي» و«كامديف» قد أصابا قلبي بعشق الهند، وألتزم حكمة الصّمت التي تجيدها آلهة الحكمة الهندوسيّة «سرسوتي»، وأفكّر برحلة جديدة في هذا العالم الغيب؛ ليشفي الوجد ألم الوجد، وأسخر من أعماقي ممّن قد يعتقد أنّه قد رأى الهند حتى ولو زارها ألف مرّة؛ فالهند لا تعطي نفسها كاملة لزائر أو رحّالة مهما تفانى في سبيل ذلك.

....

لم يرَ شيئاً مَنْ يعتقد أنّه قد رأى الهند كاملة.

بطبوطة

سندباد الجديد

الطريق إلى كريشنا

رحلات في كشمير والهند

سناء كامل أحمد شعلان

SANAA SHAALAN

"السّفر في الجغرافيا هو في حقيقة الحال سفر في التّاريخ والثّقافة والإنسان والتّجربة والخبرات، كما هو اكتشاف للذات؛ ففي كلّ مرّة أسافر فيها أكتشف نفسي مرّة تلو أخرى"، لا تشذ صاحبة هذه اليوميات عن سواها من مدوني اليوميات عن تجاربهم في السفر. بل إن تجربة السفر بالنسبة إليها فيها "لذة لا تدانيها أيّ لذّة خلا تفتّق الرّوح والجسد عن ولادة إنسان آخر".

بهذا المعنى فإن السفر يرقى إلى أن يكون تكثيفا للحظات وجودية عبر أوقات عامرة بدهشة التعرف على الجديد.

مع هذه اليوميات التي حازت على جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة، وبالنسبة إلى رحالة أنثى فإننا نقف على اعتراف بأن الرحلة أكثر من مجرد خطوات في الجغرافيا، فثمة أيضا جرأة المغامرة في عوالم كانت حتى وقت قريب حكرا على الذكور فقد "كتب الرّجال الرّحالة في هذا الفنّ أكثر ممّا كتبت المرأة فيه بحكم ذكورته المسيطرة التي فتحت الآفاق له، ولكن المرأة قرّرتْ أخيراً أن تكتب في هذا الحقل بعيداً عن سجون الأنوثة، ووصايات الذّكورة. في كشمير والهند حيث العينان تتّسعان والرّوح ترحب والدّهشة تتعمّق".

أخيرا تتساءل صاحبة هذه اليوميات "هل للمرأة عينان مختلفتان عن الرّجل في الرّؤية والاكتشاف؟". الجواب سيكون في عهدة قراء هذا الكتاب ■

ارتياد الآفاق
Irtyad Al- Afaq
المركز العربي للأدب الجغرافي

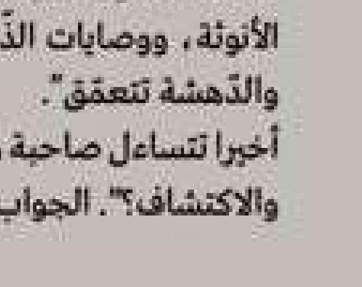

9 786144 864180